فرنسيس باركمان

طريق الأوريجون



ترجمة

احمد عزت طه

طريق الاوريجون

تأليف

فرنسيس باركمان

ترجمة : أحمد عزت طه

الفصل الاول

الحـــدود

كان الازدحام شديدا في مدينة سانت لويس في ربيع عام ١٨٤٦، فلم يكن المهاجرون القادمون من كافةانحاء البلاد يستعدون وحدهم للسفر الى الاوريجون وكاليفورنيا ، بل كان هنالك حشد هائل من التجار يجهزون عرباتهم ويجمعون معداتهم استعدادا للرحيل الى سانتافي Santa Fe • ولقد تمثل ازدحام المدينة باكتظـــاظ الفنادق بالنزلاء ، فهي كخلية النحل في حركة دائمة لاتهدأ • اما شوارع المدينة فكان المـار فيهـا يرى صـانعي الاسلحـة يعملون بدون توقف ليزودوا المسافرين بمـــا يحتاجون • وخـلال ذلك كانت السفن تترك الجسر الذي ترسو بجانبه لتأخذ طريقها عبر نهر ميسوري وهي مكتظة بالركاب المتجهين نحو الحدود •

وعلى ظهر احدى هذه السفن (رادنور) غادرت مدينـة سانت لويس في الثامن والعشرين من نيسان (ابريل) مع صديقي وقريبي كوينسي ادامزشو في رحلة للاستطلاع والترفيه قاصدين جبـال روكي • وكانت السفينة مثقلة باحمالها حتى كاد الماء يطغى عليها ويرتفع عن جانبيها • وقد تكدست على ظهرها عربات كبيرة ذات اشكال غريبة ، كما اكتظ جوفها بالبضائع المختلفة المتعددة الاشكال والانواع ، هذا عدا عن امتعة ومؤن مهاجري الاوريجون ، وكثير من الادوات التي تحتاجها هذه الجماعات في أعمالها في المروج • أضف الى ذلك عددا كبيرا من الخيول والبغال وسرجها • وفي

أواسط هذا الخليط من البضائع كانت تختفي عربة افرنسية صغيرة من النوع الذي يستعمل وراء الحدود ، وتقبع وراءها خيمة ثم أكداس متنوعة من الصناديق والبراميل ، ولو نظرت الى ما كانت السفينة تنوء بحمله لما وجدت ما يسر النظر ويبهج القلب ، لقد كانت الحمولة تجمع بين خشونة المنظر وطول الطريق ، فهي قد أعدت لرحلة طويلة شاقة •

كان هنالك شبه عظيم بين ركاب السفينة (رادنور) وبين حمولتها ، فصالتها تعج بتجار سانتافي كما تعج بالمقامرين والمضاربين والمغامرين الذين جاؤوا من كل حدب وصوب ومن مختلف الاصناف والاجناس • أما في مقدمة السفينة ، فكان يزدحم مهاجرو الاوريجون والجبليون والزنوج وبعض هنود الكانزاس الذين كانوا في زيارة لسانت لويس •

كافحت السفينة بحمولتها الغريبة سبعة أو ثمانية أيام وهي تسير صعودا ضد تيار نهر ميسوري السريع ، وكثيرا ما كانت تمر فوق بقايا الاشجار المتساقطة في النهر وفوق تلال الرمل الجاثمة في حوضه فتعرقل سيرها ساعتين أو ثلاثا حتى يتاح لها التخلص منها ، ثم تعاود سيرها لتقف مرة ثانية • وهكذا استمر الحال حتى وصلنا الى مصب الميسوري وسط رذاذ من الامطار الخفيفة • وحينما توقفت هذه الامطار وأخذت السماء تصفو انكشف أمامنا ذلك النهر بمياهه الكدرة الموحلة والتلال الرملية ، والجزر الوعرة والغابات التي تكسو ضفتيه • ونهر الميسوري يغير طريقه بصورة مستمرة ، فكثيرا ما يتحول عن مجراه فتتكون نتيجة لهذا التحول جزر لا تلبث ان تختفي وتنجرف تربة الغابات القديمة من احدى الضفتين لتترسب على الضفة الاخرى

وتغطيها بطميها حيث تنمو بعض النباتات والحشائش الصغيرة فوق هذا الطمي ، وبسبب هذه التغيرات ، فان الماء يظل مشحونا بالوحول والرمال وبخاصة في فصل الربيع ، حتى أن مايرسب في كل كأس من مياهه الكدرة يعادل في سمكه بوصة في بضع دقائق .

والعادة أن مياه النهر ترتفع في ذلك الوقت من السنة ، ولكن مستوى الماء قد هبط كثيرا عما كان عليه عندما حططنا رحالنا في الخريف ، فظهر منظر بقايا الاشجار المحطمة الملقاة في النهر مخيفا مفزعا ، فما أتعس السفينة وما أتعس قائدها . وكان سوء طالع السفينة يقتضي أن تمر فوق ذلك الحطام ، الامر الذي أتعس جميع من على ظهرها .

وبعد خمسة أيام أو ستة ، أخذت الحركة المحمومة التي كانت تجري في الجزء الغربي من البلاد تبدو لنا واضحة جلية ، اذ توالت أمامنا أرتال المهاجرين في عرباتهم وهم يعملون في اقامة خيامهم في نقاط مكشوفة بالقرب من ضفة النهر ليجعلوها نقطة انطلاق الى طريقهم نحو الملتقى العام في مدينة انديباندنس . وفي غروب نهار ممطر وصلنا الى مكان يبعد ميلا عن النهر ، ولقد كان المنظر بهيجا يبعث على السرور لأنه ذو طابع خاص ولأن ذلك المكان بالذات يمثل أبدع صور هذه المنطقة الموحشة . وكان الاسبانيون ذوو البشرة السمراء يقفون على الضفة الموحلة وينظرون الينا من تحت قبعاتهم العريضة نظرات بلهاء فيها كثير من الغباء . وكان هؤلاء الاسبانيون يعملون لحساب شركات سانتافي التي كانت عرباتها الواقفة على الضفة الاخرى مكتظة مزدحمة ، وقد جثم بينهم جماعة من الهنود ينتمون الى قبيلة مكسيكية شهيرة ، واثنان من الصيادين الافرنسيين يميزهما شعرهما الطويل وثيابهما الغريبة المختلفة ، ولقد شاهدناهم يجلسون فوق جذع شجرة ملقى على

الأرض وبنادقهم بين ارجلهم ، أما رئيسهمومقدمهم فهو رجل طويل القامة ذو ملامح قوية وعينين زرقاوين صافيتين ، ووجه ينم عـن الصراحة وتبدو عليه امارات الذكاء ، وهو بهيئته هذه خير من يمثل تلك الفئة من الرواد المغامرين الشجعان الذين فتحت لهم فؤوسهم واسلحتهم الطريق الى المروج الغربيـــة • لقد كان ذاهبـــا الى الاوريجون حيث المجال أكثر ملاءمة للمغامرة وحيث الاثراء أيسر منالا بالنسبة لمن كان مثله •

وفي صباح اليوم التالي وصلنا الى كنزاس ، وهي تبعد خمسمائة ميل عن مصب الميسوري ، وفيها حططنا الرحال ، وتركنا امتعتنا في عهدة الكولونيل شيك الذي كان بيته الخشبي بمثابة فنـــدق • واستقللنا احدى العربات الى (ويست بورت) حيث كنا نأمل بأن نوفق في الحصول على بغال وجياد نكمل عليها القسم الباقي مـن رحلتنا •

ولقد كان ذلك في صباح يوم من أيام مايو الجميلة ، عنـــدما أخذنا نسير في طريق ضيق صغيروسط ادغال من الغابات بينما كانت اشعة الشمس تنفذ من خلال الاشجار فتغمر الطريق بنورهـــا المشرق فتحييها أسراب الطيور والعصافير بزقزقتها وتغريدهـــا ، وفي هذه الاثناء أدركنا رفاقنا هنود الكنزاس الذين كانوا يسرعون الخطا في طريقهم الى الوطن • وكيفما كان يبدو مظهرهم عـــلى ظهر السفينة ، فمما لا شك فيه أنهم ظهروا بمظهر رائع بألبستهم وكامل زينتهم ، وهم يقطعون الغابة •

كانت مدينة ويست بورت مملوءة بالهنود ، وكانت خيولهـــم الصغيرة الشعثاء ترابط بالعشرات أمام البيوت والمحلات التجارية ، أما الهنود أنفسهم فكنا نرى بعضهم يخطرون في الشوارع بازيائهم،

بينما كان أكثرهم يستلقي خارج البيوت وتجاه أبواب المحـــلات التجارية •

وبينما كنت واقفا أمام باب الفندق ، رأيت شخصا جليلا قادمـا من طرف الشارع وقد بدت على وجهه سيماء الوقار ، وطفح هذا الوجه صحة ونشاطا وزينته لحية حمراء وشاربان طويلان • أمـا قبعته فقد ثبت في اعلاها عقدة تشبه تلك العقد التي يضعها العمال الاسكتلنديون على رؤوسهم في بعض الاحيان • وكان يرتدي معطفا يصعب وصفه ، فهو مصنوع من قماش اسكتلنـدي رمادي اللون تتدلى من أطرافه شراريب جميلة، وسراويل من قماش خشن،وحذاء رصع نعله بالمسامير ، وفي زاوية فمه غليون صغير أسود • ولـم ألبث ان تعرفت الى الكابتن ــ س ــ من الجيش البريطاني صاحب ذلك الزي العجيب ، كما تعرفت بأخيـه وبالسيد « ر » وثلاثتهم كانوا ضمن بعثة صيد تجوب البلاد • وكنت قد رأيت الـــكابتن ورفاقه في سانت لويس • ثم تخلفوا بعض الوقت في ويست بورت ليتزودوا بما يحتاجون اليه أثناء رحلتهم ولينتظروا أمدادهم بالرجال والاسلحة ، فان القيام برحلة كهذه وبمثل هذا العدد القليل تبدو مستحيلة • مع أن باستطاعتهم مرافقة أرتال المهاجرين المتجهين الى الاوريجون وكاليفورنيا • ولكن فكرة هذه المرافقة لم ترق لهـــم لنفورهم من الاتصال « برجال كنتوكي » •

ولهـذا السبب كان الكابتن يحثنا على أن نضم جهودنا ونتقـدم متآزرين نحو الجبال • ولما كان شعورنا بعدم مصاحبة المهاجرين يشبه شعور بعثة الصيد ، فقد رأينا أن نوافق على اقتراح الكابتن انوجيـه • وكان رفاق المستقبل قـد حطوا رحالهم في بيت خشبي صغير وحولهم السروج واعتدة الخيل والبنـــادق والمسدســـات

والمناظير والسكاكين وكل ما يلزمهم من المعدات للعمل في المروج وقد وجدنا « ر » الذي كان ذا ميل الى التاريخ الطبيعي ، يجلس الى منضدة وقد انهمك في تحنيط طائر النقار • أما شقيق الكابتن،وهو كأخيه أيرلندي صميم، فكان يحيك حبلا للتسلق ،وقد أوضح لنا الكابتن بما عرف عنه من أدب ولطف ، صنع مختلف الاجهزة التي أعدها للرحلة وأردف يقول : « بما اننا رحالة قدماء فانني على يقين بانه ما من جماعة من الجماعات الذاهبة الى المروج قد تزودت بأدوات أفضل مما لدينا • » وكان الصياد الذي تعاقد معه، وهو كندي جاف الطباع يدعى سوريل ، والبغال وهو أمريكي وغد من سانت لويس ، قد مكثا قرب البيت • أما الخيول والبغال فقد وضعت في اصطبل شيد من جذوع الاشجار ، قريبا من مكان اقامتهم •

بعدئذ تركناهم ليتموا استعدادهم وأخذنا نجهز ما يلزمنا بأقصى سرعة • أما المهاجرون الذين أبدى اصدقاؤنا عزوفا عن مصاحبتهم وكان عددهم ينوف عن الالف شخص ، وكانوا كالسيل لا ينقطع وهم يهبطون على اندياناندانس في طريقهم للالتحاق بمن تقدمهم • أما تصرفاتهم فقد انطبعت بطابع الشغب والفوضى ، فرغم أنهم يعقدون الاجتماعات ويرسمون الخطط ويسنون القوانين والانظمة ويصدرون القرارات فانهم لم يستقروا على رأي في انتخاب زعماء يقودونهم عبر المروج • وصدف ان وجدت نفسي في أحد الايام بغير عمل ، فركبت حصاني ويممت شطر اندياناندانس ، فوصلت المدينة المكتظة بالسكان وشهدتها وقد امتلأت حوانيتها بكل ما يلزم المهاجرين لرحلتهم • وكان صوت مطارق الحدادين لا ينقطع أثناء عملهم

في اصلاح العربات وبيطرة الخيل والثيران • أما الشوارع فكانت تعج بالرجال والخيل والبغال وغيرها من الحيوانات ، وقد مرت بي وأنا في المدينة قافلة من عربات المهاجرين قادمةمن ايللينوي لتلتحق بالمسكرين في المروج ، وتوقف بعضها في الشـــارع الرئيسي ، فبرزت من بين أغطيتها البيضاء وجوه الاطفال النضرة • ولوألقيت نظرة هنا أو هناك ، لرأيت فيما ترى ، فتاة مرحة تعلو ظهرحصانها وهي تمسك بمظلة قديمة اتقاء أشعة الشمس المحرقة • لقد كانت تلك المظلة يوما ما جديدة ، ولكن الدهر عفا عليها ، فاصبحت باهتة اللون ، اذ تلاشى رونق جدتها ، كما لو كنت تستطيع أن تـرى أيضا بعض الرجال وهم يقفون بجانب ثيرانهم • وقد شاهدت أثناء مروري ثلاثة منهم وأسواطهم في أيديهم ، وهم يتجادلون في نظرية التجديد بحماس ، ولم يكن المهاجرون جميعا على هذا الشكل ومن هذه الجبلة ، فقسم كبير منهم كان منأدنى الطبقات وأحقر الاوغاد•

وكثيرا ما أصابتني الحيرة وأنا أتساءل عن الاسباب التي دفعت الى هذه الهجرة ، ولكن ، مهما تكن الدوافع لها من أمل جنوني في حياة أفضل أو رغبة في التخلص من قيودالقانون والمجتمع ، أو مماشاة لطبيعـة الانسان في حب التجديد والتبرم من القديم ، فلا شك أن تلك الجماعات بعد الصعاب الكثيرة التي واجهتها ، قــد ندمت أشد الندم على القيام بهذه الرحلة ، وانها بعد وصولها الى الارض الموعودة أصبحت تعد نفسها سعيدة اذا استطاعت الهرب منها والرجوع من حيث أتت •

وفي خلال سبعة أو ثمانيــة أيام ، كنا على وشــك أن ننهي استعداداتنا،بينما كان أصدقاؤنا قد استعدوا فعلا وأخبرونا أنهم سيبدأون رحلتهم ذلك اليوم بدون تأخير لأن الملل قد سيطر عليهم ، ولكنهم

سينتظروننا في مفترق طريق كنتراس حتى نلحق بهم . وهكذا ذهب « ر » والبغالة ومعهم العربة والخيمة بينما تبعهم الكابتن وشقيقه ومعهم سوريل الصياد وناصب افخاخ يدعى بوافير ، كان قد انضم اليهم كسائق للجياد . كان بدء الرحلةينذر بالشؤم ، فلم يكد يبتعد الكابتن ما يقارب ميلا عن ويست بورت وهو يمتطي جواده على رأس جماعته ، ويقود جواده الآخر المفضل (البافالو) بحبل ربط الى عنقه ، حتى هبت عاصفة شديدة تصحبها صواعق وامطار غزيرة ، فبللتهم جميعا حتى العظام . وضاعفوا سرعتهم حتى وصلو الى مكان يبعد سبعة أميال ، حيث افترضوا أن «ر» قد ألقى ترحاله بانتظار مجيئهم . غير أن افتراضهم لم يصب ، اذ أن هذا الرجل الحذر اختار لنفسه ملجأ أمينا داخل الغابة حيث نصب خيمته وجلس يحتسي قهوته الساخنة ، بينما كانت سحب العاصفة تتجمع لتنفجر بقسوة وعنف . أما الكابتن فقد استمر في سيره وهو يمتطي جواده تحت وابل من الامطار أميالا عديدة يفتش عنه ، وأخيرا هدأت العاصفة ، فاستطاعت عيون الصياد الثاقبة أن تكتشف خيمته . وكان « ر » في تلك الاثناء قد انتهى من احتساء القهوة وانهمك في تدخين غليونه ، وقد استلقى فوق ثوب مصنوع من جلد الثور الامريكي . ويحق لنا أن ننوه هنا ، بأن الكابتن كان من أشد الناس صبرا وتحملا للمكاره ، لذلك فقد تقبل سوء حظه بسعة صدر وطيب خاطر ، وأخذ يحتسي حثالة القهوة التي وجدها مع شقيقه ، ثم ارتمى بثيابه المبللة ليريح جسده المنهك ويغفو قليلا .

أما نحن فكنا نقود زوجا من البغال الى كنتراس عندما هبت العاصفة ، فاصابنا نصيب وافر من الامطار الهاطلة ، ويا لها من عاصفة مخيفة ، لقد رافقها وميض من البروق وقصف من الرعود ،

خلنا أنه لن ينقطع ، هذا عدا عن الصواعق المتواصلة التي لم أعرف لها في حياتي مثيلا ، ولم أشهد لها نظيرا ، فقد اظلمت الغابة تماما وهطل المطر بغزارة كأنه ينسكب من أفـواه القرب ، فامتـــلأت الجداول سريعا واضطررنا أن نخوضها بصعوبة وجهد . وأخيرا تراءى لنا من خلال زخات المطر ، كوخ الكولونيل شيك الخشبي، فتوجهنا نحوه . وما ان انتبه لمجيئنا حتى خف لاستقبالنا والترحيب بنا بما فطر عليه من لطف وكرم وحسن ضيافة . ولم تكن زوجته - التي جعلتها حياة المعسكرات الطويلة قاسية جافة الطباع ـ مثله عطفا ومحبة ، ومع هذا فقد ساعدتنا وقدمت لنا كل ما نحتاج اليـه لاصلاح ثيابنا المبللة وتجفيفها . وحين انقشعت العاصفة عند وقت الغروب ، رأينا منظرا بهيجا يطل من فوق كوخ الكولونيل القائـم على رابية عالية . فقد كانت اشعة الشمس تتسلل من خلال الغيوم المتناثرة في السماء فوق نهر الميسوري بسرعته وجبروته وتوحشه ، وفوق الغابات الشاسعة الممتدة من ضفتيه حتى الأجراف العاليـــة البعيدة .

وعندما عدنا في اليوم التالي الى ويست بورت ، تلقينا رسالـــة من الكابتن الذي رجع ليبلغها الينا بنفسه ، ولكنه عهد بها الى رجل يعرفه حين علم أننا لم نعد الى كنزاس بعد ، وكان ذلك الرجـل - واسمه فوكل ـ يدير محلا للبقالة والمشروبات الروحية . ومما هو جدير بالذكر ان الويسكي كان أكثر تداولا في ويست بورت منه في أي محل آخر ، حيث يحمل كل شخص مسدسا جاهـزا في جيبه يطلقه لأول بادرة أو اشارة خطر تبدو له . وعندما مررنا بمحل فوكل رأينا وجه هذا الالماني العريض قد بدا من الباب وهو يشير الينا ، وأنبأنا بعد دخولنا بأن لديـــه خبرا يود أن يدلي به

الينا ، ثم دعانا الى تناول كأس من الشراب . فلم نستسغ لا الشراب ولا الخبر الذي أبلغنا اياه . اذ أن الكابتن عاد بعد ذلك ليعلمنا أن « ر » الذي أخذ على نفسه قيادة فرقته قد عقد العزم على السير في طريق آخر غير ذلك الذي كنا قد اتفقنا عليه فيما بيننا ، وبدلا من أن يسير في الطريق الذي يسلكه التجار عادة ، قرر أن يمر شمالا بحصن ليفنوورث ويتبع الطريق الذي شقته بعثة فرقة الدراغون في الصيف الماضي . ولقد كان اتخاذه لمثل هذا القرار دوناستشارتنا تصرفا دل في نظرنا على الترفع والكبرياء ، فكظمنا غيظا وكبتنا استياءنا قدر المستطاع ، وقررنا أن نلحق به وبفرقته في حصن ليفنوورث حيث كان ينتظرنا .

ولما انتهينا من تجهيز كل ما يلزمنا بدأنا رحلتنا . وكانت خطواتنا الاولى سيئة غير موفقة ، فلم نكد نضع السرج على خيولنا حتى وثب البغل الذي يسحب العربة ، فقطع الحبال والحزامات ، وكاد يقذف بالعربة في نهر الميسوري . وحين تأكدنا من صعوبة السيطرة عليه ، اضطررنا أن نقايضه بآخر قدمه لنا صديقنا مستر بون ، حفيد الرائددانييل بون من ويست بورت . ولقد تبعت هذه الحادثة حادثة أخرى ، فلم تكد تغيب ويست بورت عن انظارنا حتى واجهنا أخدودا عميقا مملوءا بالوحول من النوع الذي أصبح فيما بعد مألوفا لدينا فالتصقت العربة فيه وعلقت به مدة ساعة أو أكثر . واستطعنا بعد جهد جهيد أن نخرجها لنتابع سيرنا ثانية .

الفصل الثاني

انكسار الجليد

بعد أن تخلصنا من حفر ويسبورت الموحلة ، تابعنا سيرنا فترة من الزمن على طول الطريق الضيق المزدان بأضواء من أشعة الشمس التي تسربت من بين اغصان الاشجار في أواسط الغابات، الى أن خرجنا أخيرا الى الفضاء الواسع والنور المبين ، تاركين وراء ظهورنا آخر أطراف الغابات التي كانت فيما مضى تغطي السهول الغربية حتى الاطلنطي • وما القينابنظرنا الى ما وراء نطاق الشجيرات النضرة ، حتى رأينا مساحات من المروج الواسعة تشبه المحيط تمتد أمواجه المتلاحقة واحدة خلف الاخرى حتى تلتقي •

كان يوما من أيام الربيع المعتدلة الهادئة ، وفي مثله يجد المرء في نفسه ميلا يشده الى التفكير والتخيل اكثر مما يجذبه ويغريه بالعمل، وتتفتح طبيعة الانسان الجمالية فتسيطر على نفسيته ،وتصبح اليد العليا في تفكيره • في مثل ذلك اليوم تقدمت الفرقة مجتازة منطقة الشجيرات التي راعني جمالها وتملكني الذهول لمنظرها الأخاذ ، فترجلت عن جوادي واستلقيت برهة انعم بظلها الظليل • كانت جميع الاشجار والشجيرات مزهرة ، وقد تفتحت براعمها فتحولت الى وريقات غضة خضراء ، وتكاثرت عناقيد أزهار القيقب الحمراء وازهار التفاح الهندي ، ولقد عراني الأسف اذ أنا مضطر لترك منطقة البساتين بجمالها والتوغل في مسارح المروج ومناطق الجبال الكئيبة القاسية •

في هذه الاثناء كانت القافلة قد بدت للعيان خارج الشجيرات يتقدمها هنري ساتيون دليلنا وصيادنا ، وهو رجل تبدو على وجهه علامات القوة والنشاط قد امتطى جوادا رماديا من نوع (وياندوت) وارتدى معطفا أبيض مصنوعا من البطانيات ، وقبعة عريضة من اللباد والموكاسين ، وسراويل من جلد الغزال يزينها شرائط وشراريب طويلة ، وكان متمنطقا بحزام علق فيه خنجرا كما علق فيه أيضا جراب الرصاص وقرن البارود على جبينه والقى بندقيته أمامه . وكان شو يتبعه وهو يمتطي جوادا صغيرا ، ويقود خلفه جوادا آخر مربوطا بحبل من رقبته ، ومجهزا بمثل ما أنا مجهز به من سرج اسباني وكنانات للغدارات الثقيلة ، وبطانية مطوية ثبتت في الخلف ، وحبل ملفوف معلق الى عنق جواده ، وبندقية ذات فوهتين خفيفة الوزن ، بينما كانت بندقيتي تزن خمس عشرة ليبرة . وكانت الالبسة والبزات في ذلك الزمن ، رغم بعدها عن الاناقة تحمل بعض آثار المدنية ، وتبدو على النقيض من الرثاثة التي غمرت مظهرنا بشكل لا مثيل له لدى عودتنا من الرحلة . وكان ديلوريه في عربته في مؤخرة الركب يخوض في الوحل الى رسغيه ، وهو ينفث دخان غليونه من حين الى آخر ويصيح بلغة المروج العامية موجها عباراته الى أحد البغالة ممن تراجع ونكص على عقبيه أمام هوة عميقة جدا . وكانت العربة من النوع الذي يراه الناس بكثرة في سوق (كويبيك) ، ولها غطاء أبيض يحفظ البضائع التي تحملها . وكانت هذه هي كل امتعتنا مع خيمة وذخائر ، وأغطية وهدايا للهنود .

اما نحن فكنا اربعة رجال وثمانية حيوانات ، وقد حسبنا حسابا لحالات الطوارىء ، فاصطحبنا بغلا زائدا بالاضافة الى خيول الاحتياط التي كنت اقودها مع شو .

وبعد أن احصيت قوتنا وعدتنا ، لا أرى بأسا في ان نلقي نظرة نعرف منها طبائع الرجلين اللذين يرافقاننا .

كان ديلوريه كنديا صميما بكل ما في الكنديين من ميزات ، ولم يكن التعب ولا التعرض للاخطار او العمل الشاق ليقلل من ابتهاجه او يكبت مرحه او ينقص من ادبه واحترامه لرؤسائه ، وكان عندما يحل المساء ، يجلس بجانب النار وهو يدخن غليونه فيقص القصص ويروي الاساطير على خير وجه بروح مرحة واسلوب جذاب فيرضي سامعيه اكثر ما يكون الرضاء ، وكانت المروج عنصر حديثه غالبا ، اما هنري شايتون فكان من طراز آخر ، واصل انضمامه الينا يعود الى ايام سانت لويس ، حيث تقدم الينا عدد من رجال شركة الفراء وعرضوا علينا صيادا ودليلا يصلح لمرافقتنا في رحلتنا ، وحين رجوعنا في احدى الامسيات ، وجدنا في المكتب رجلا طويل القامة انيقا نظيف الملبس ، تلوح على وجهه امارات الصراحة ، فاجتذب وجوده انتباهنا ، وادهشنا ما قيل بانه راغب في ان يكون دليلنا الى الجبال وعرفنا انه من مواليد بلدة افرنسية صغيرة بالقرب من سانت لويس ، وانه عاش منذ سن الخامسة عشرة بجوار جبال روكي ، وعمل مع شركة في تموين حصونها بلحم الثيران الامريكية (البافالو) . اما شهرته كصياد فكانت حقيقية اذ لم يكن له منافس او نظير في المنطقة سوى رجل يدعى سيمونو ، وهو صديق حميم له .

كان هنري شايتون قد وصل الى سانت لويس قبل يوم واحد قادما من الجبال حيث عاش لمدة اربع سنوات ، اما طلبه الوحيد الآن فهو ان يذهب لقضاء يوم واحد مع امه قبل المباشرة في مرافقة بعثة اخرى . وكان في الثلاثين من عمره ، ويبلغ طوله ستة أقدام

ويتمتع بجسم قوي وقد ممشوق ينم عن الرجولة والشجاعة ، والى كل ذلك فهو امي لايعرف القراءة ولا الكتابة لان المروج وحدها كانت مدرسته ، غير ان ثقافته الطبيعية وذوقه المرهف وحضور بديهته وسرعة خاطره ، كل ذلك كان نادر الوجود . وكان وجهه الذي ينم عن الرجولة ، مرآة للاستقامة والبساطة ورقة القلب ، وتميز باللباقة والادراك الثاقب للامور ، مما جعله بمنجاة عن الوقوع في أي خطأ امام المجتمع ، ولم يكن لهنري تلك الحيوية القلقة التي يمتاز بها الأمريكيون الانكليز . لقد كان يقنع بان يأخذ الامور على علاتها ، اما عيبه الاساسي فقد نشأ عن افراط في الكرم ، وهذا لايبشر صاحبه بالنجاح في هذه الدنيا، ورغم ذلك فمهما يكن تصرفه خاطئا في الاسراف في الكرم ، فالملاحظ انه كان امينا على أموال غيره وخصوصياته . وقد اشتهر بشجاعة وشدة وبراعة في الصيد في الجبال . وميزة أخرى ، هي انه نادرا ما كان يشترك في المنازعات ، في بلاد تكاد تكون البندقية فيها هي الحكم بين الرجال . وقد أسيء فهم طبيعته الرقيقة مرة او مرتين ، فاعتدي عليه ، وكانت نتيجة جوابه على هذا الاعتداء ، أن احدا لم يعد يجرؤ على الاحتكاك به او تكرار هذه المحاولة . وليس هناك من دليل على شجاعته الخارقة اعظم من فتكه باكثر من ثلاثين دبا أبيض . وهذا العمل يمكن ان يدلل على ما يستطيع شخص عمله دون معين . اما انا فلم التق ابدا في المدينة او في خارجها برجل افضل من صديقي ذي القلب المخلص هنري شايتون .

بعد مدة تخلصنا من الغابات والشجيرات واصبحنا في المروج الواسعة ، وكان يمر بنا من حين لآخر ، هندي على جواده

الاشعث ، وهو يخطر به ، وبوشاحه المزخرف وقميصه الملون ومنديله المعقود حول شعره يرفرف في الريح • ولما حل الظهروقف الركب لنستريح بالقرب من خليج صغير مملوء بالضفادع والسلاحف الصغيرة •

كان المكان معسكرا للهنود ، ولايزال هيكل البناء قائما ، فاتخذناه ملجأ من حر الشمس ، ونشرنا غطاء او اثنين فوقه • فاحتمينا بظله واتخذنا السروج مقاعد ، واشعل شو غليونه الهندي المفضل لاول مرة ، بينما جلس ديلوريه فوق فراش من الفحم ، مظللا عينيه باحدى يديه وممسكا بالاخرى قضيبا صغيرا يقلب به ما تحتويه المقلاة من الطعام • وارسلت الخيل لترعى بين الشجيرات المبعثرة في مرج منخفض بالقرب من مستنقع • وكان الهواء حارا تشوبه الرطوبة التي تجلب النعاس • وبدأت اصوات عشرات الالوف من الضفادع والحشرات ، ترتفع من المروج والخليج وترسل بنقيقها واصواتها في مجموعة متناغمة •

ولم يكد يستقر بنا المقام حتى اقترب منا زائر ، عرفنا من ثيابه انه من كبار هنود الكنزاس ، وكان حليق الرأس ، وقد دهنه باللون الاحمر ، ومن خصلة الشعر الباقية ، في قمة رأسه كانت تتدلى بضعة من رياش نسر وذنبين او ثلاثة من اذناب الافعى ذات الاجراس • اما وجهه فقد لطخه بالسيلقون الاحمر ، وزين اذنيه باقراط زجاجية خضراء • ووضع حول عنقه عقدا من مخالب الدب الابيض ، وعلق على صدره عدة عقود من الصدف ومالبث هذا الهندي ان تقدم الينا وهز ايدينا محييا بغمغمة ، والقى وشاحه الاحمر عن كتفيه وجلس تجاهنا على الارض ، فقدمنا له قدحا من الماء المحلى بالسكر ، فذاقه واظهر استحسانه له ، ثم اخذ يقص

علينا قصة شجاعته ، وعدد رجال القبائل الاخرى الذين قتلهم ، وفجأة ظهر جمع من الناس متعدد الوان الثياب يخوض الخليج متجها نحونا ، وقد اصطفوا بسرعة ، رجالا ونساء واطفالا ، كل على حدة . وكان بعضهم يمتطي جيادا والبعض الاخر مترجلا ، ولكن كانت تبدو عليهم جميعا علامات التعاسة والقذارة والبؤس ، وكانت عجائزهم يمتطين خيلا ضعيفة ، واردفت كل واحدة منهن طفلا او اثنين يتعلقان بارديتهن . اما الشبان فكانوا هزيلي القامة وفارهي الطول وقداخذوا يسيرون وهم يحملون سهامهم وتروسهم. وكان يشترك بالموكب فتياتهم اللواتي لم تخف بشاعتهن الثياب الحمراء والعقود الزجاجية . ومع ذلك فقد كان يظهر هنا وهناك رجل يشبه صاحبنا ويحتل مركزا مرموقا بين افراد هذه الطائفة . لقد كانوا حثالة امة الكنزاس الذين تركوا القرية من بعثة للتسول في ويستبورت بينما ذهب خيرتهم لصيد ثيران البافالو .

وعندما مر هذا الحشد من الصعاليك ، سرجنا جيادنا بسرعة واستأنفنا الرحيل . وتراءى لنا ونحن نجتاز الخليج بعض البيوت الخشبية ذات المظهر الخشن في الغابات الواقعة الى اليسار ، ثم يممنا باتجاه طريق طويل بين فيض من الورود البرية وزهور الربيع المبكرة ، فشاهدنا أبنية مدرسة ارسالية الميثودست (النظاميين) ورأينا الكنيسة الخشبية حيث كان الهنود يتجمعون لحضور اجتماع ديني . وكان عشرات منهم بقاماتهم الطويلة وقد ارتدوا ثياب انصاف المتمدنين ، وجلسوا فوق مقاعد خشبية تحت الاشجار ، بينما كانت خيولهم مربوطة في السقائف والاسوار. اما رئيسهم باركس وهو رجل عريض المنكبين قوي البنية ، فقد وصل حديثا من ويستبورت حيث يملك محلاً تجاريا بالاضافة الى

مزرعة واسعة ، وعدد كبير من العبيد . وقبيلة الشوانوس الهندية التي احرزت نجاحا في الزراعة اكثر من اي قبيلة اخرى على حدود الميسوري ، تشكل تناقضا محسوسا في المظهر والطباع مع الكنزاس الذين تعرفنا بهم اخيرا .

وبعد مسير ساعات قليلة وصلنا نهر الكنزاس ، ثم اجتزنا الغابات التي تحده . وحين قطعنا الرمال العميقة ، حططنا الرحال بالقرب من الضفة في الملتقى المنخفض لديلاوير . وضربنا الخيام لاول مرة في مرج متاخم للغابات . وحين تمت اقامة المخيم ، بدأنا نفكر في العشاء . واول ما لفت نظرنا بهذا الشأن ان عجوزا من ديلاوير تزن ثلاثماية ليبرة كانت تجلس على عتبة بيت خشبي صغير بالقرب من النهر وتستعين بفتاة جميلة جدا ، يظهر انها من ذوات الدم المختلط ، في اطعام سرب من الديوك الهندية التي كانت رفرفة اجنحتها واصواتها العالية ملء السمع والبصر . ولم يستهو هذه العجوز ما عرضنا عليها من مال أو تبغ مقابل التنازل عن أحد هذه الطيور . فاضطررت ان احمل بندقيتي واتوجه صوب الغابة باتجاه النهر ، عسى ان اظفر بأي شيء يصلح للطعام ، ومع ان اصوات طيور السمن الوافرة العدد ، كانت تنقر آذاننا ، فاننا لم نعثر على ما يصلح اصطياده بهذه البندقية ، عدا ثلاثة صقور كانت تقف فوق اغصان شجرة جميز يابسة ، ورؤسها البشعة مختفية بين اكتافها ، وبدا كانها تنعم بنور الشمس اللطيف الذي كان يشع من الغرب . ولما كانت لم تبد أي اغراء ابيقوري ، فقد توقفت عن ازعاجها واكتفيت باعجاب بجمال نور الشمس الهادىء . لانالنهربدورانه السريع في الظلال الحمراء بين الغابات المحترمة كان يشكل منظرا موحشا ، ولكنه مهدىء ترتاح اليه النفس .

عندما عدت الى المخيم ، وجدت شو جالسا على الارض يتبادل الحديث مع شيخ هندي ، ويدخن كل منهما غليونه وقد صـــرح هذا الهندي العجوز بانه يحب البيض وانه يميل الى تدخين التبغ. اما ديلوريه فكان منهمكا في تنظيم المائدة وترتيبها وصف الاقداح والصحون عليها . ولما كان لايوجد من انواع اللحوم غير لحـــم الخنزير المقدد ، فقد وضع أمامنا على المائدة وجبة من البسكويت وابريقا كبيرا من القهوة وبدأنا نقطع اللحم بالسكاكين ، ونلتهـــم قطعه حتى اتينا على اكثر ما أمامنا ، ثم القينا مازاد عنا من اللحم الى الهنود . وفي هذه الاثناء كانت خيولنا قد عرفت العرج لاول مرة ، وهي تقف بين الاشجار وقد ربطت ايديها الى بعض ، وبدا عليها الضيق والحيرة الى جانب السآمة والملل ، وتراءى انهـــا لاتستسيغ مطلقا تذوق ما ينتظرها .

وكان أحـد هـذه الجيـاد المسمى هنـدريك ذا ميزة ظـاهرة في القدرة على تحمل الشدائد وعدم الرضوخ الا للسوط ، غـــير آبه لاي انتهار . وكانت نظراته الينا تبدي ملامح السخط المكنونة ، كما لو انه يفكر في الانتقام منا بما وهب من وسائل للانتقام لاتعدو الرفس برجليه .

أما الجواد الاخر واسمه بوتتياك ، فقد كان طيبا سهلا . ومـع انه من سلالة عادية ، فقد كان يقف ورأسه منحن الى الاسفل وعرفه يتدلى حول عينيه ، فيبدو متجهما حزينا كصبي كسول أرغم على الذهاب الى المدرسة ، اما تشاؤم هذا الجواد فقد كان في محله، لان آخر ماسمعته عنه هو أنه وقع تحت سوط أحـــد الشجعان الهنود ، واشترك في حرب ضد قبيلة كروز .

ولما ساد الظلام ، واخذنا نسمع تغريد طيور (هويبروودز)

بدلا من صفير السمن ، نقلنا السروج الى الخيمة لنستعملها كوسائد وفرشنا الاغطية فوق الارض ، وتهيأنا للاستراحة لاول مرة في ذلك الفصل • وانتخب كل رجل منا المكان الذي سيشغله في الخيمة طوال الرحلة من الان ، الا ان ديلوريبه اختار لنفسه مكانا في العربة يلجأ اليه في الطقس الرطب ، وكان نصيبـــه من اقامتـه أفضل بكثير من الامكنة التي لجأ اليها الاغنياء الذين احتلوا الخيمة•

وفي هذه النقطة يشكل نهر كنزاس خط الحدود بين موطـــن الشاوانوس وموطن الديلاوير ، وقد اجتزناه في اليوم التالي بصعوبة شديدة بعد ان حملنا خيلنا واجهزتنا على نقالة من اغصان الشجر ، ثم أفرغنا حمولة عربتنا لنأخذ طريقنا نحو المرتفعات الوعرة ، وفي صباح يوم من أيام الاحد الدافئة المشرقة حيث كنا نقطع الحظائر الخشبية والحقول المهملة في ديلاوير ، كان الهدوء يسود تماما فلا نسمع الا طنين الحشرات وصفيرها وتغريد الطيور وزقزقتها ، وكان يمر بنا من وقت لاخر بعض الهنود ممتطين صهوات جيادهم في طريقهم الى بيت الاجتماعات ، ولم تكن مشاهداتنا تتجاوز رؤية امرأة عجوز من خلال مدخل بيت خشبي مهدم ، مستلقية تتمتع بنعمة الكسل ، ومع انه ليس في قرية ديلاوير ناقوس ، الا أن روح يوم الاحد في الهدوء والسكينة كانت تسودها ، كأي قريـــة من قرى نيوانكلاند بين جبال نيوهامبشاير او غابات فيرمونت •

ويتفرع من هذه النقطة طريق عسكري يذهب الى حصـــن ليفنوورث ، حيث تتناثر مزارع ديلاوير واكواخها على جانبي الطريق لعدة اميال • مثلها في ذلك مثل الابنية الخشبية القائمة عادة عـلى جوانب الطريق المار في الغابات ، والتي تعطي صورة بهية رائعة للمنظر العام • ولكن لم يكن يحتاج الى محسنات خارجية • فقد

حملته الطبيعة لدرجة كافية ، فتعاقب المروج الغنية الخضراء والغابات التي تتناثر كالعناقيد ، او تكسو ضفاف الانهار الصغيرة العديدة . كان لها جمال مصقول ولين ساحر ورقة عذبة كانها كانت منذ الازل هدفا لعناية الانسان ومنالا سهلا . ومما يزيد من روعة المنظر انه في مثل هذا الفصل المبكر تصبح النضارة في اوجها والجمال في غضاضته . فالغابات تفيض ببراعم القيقب الحمراء ، وهي شجيرات مزهرة في اغلب الاحيان مجهولة في الولايات الشرقية ، اما الموجات الخضراء في المروج فقد كانت مرصعة بالازهار ومزدانة بألوانها المختلفة .

اقمنا مخيمنا على سفح تل بالقرب من احد الينابيع ، ثم تابعنا سيرنا في صباح اليوم التالي حتى اصبحنا بعد ساعات على بعد بضعة اميال من حصن ليفنوورث ، وهنا يتقاطع الطريق مع نهر تحف بضفتيه الاشجار الكثيفة ، ويسير في واد عميق مكتظ بالاشجار ، وحينما اوشكنا على اجتيازه ظهر موكب من المتوحشين، اجتاز النهر ثم اتجه نحونا . فافسحنا الطريق لمرورهم ، وعرفنا عند ذاك أنهم جماعة من الديلاور عائدون من رحلة صيد . وكانوا جميعا رجالا ونساء يمتطون جيادا ويقودون خلفهم عددا كبيرا من البغال المحملة بالفراء والثياب المصنوعة من جلد ثور البافالو ، وما يحتاجون اليه في رحلاتهم من ادوات ، كانت كلها مع منظر ثيابهم واسلحتهم تعرض مشهدا سيئا لاترتاح اليه النفس . ومن مؤخرة القافلة انبرى رجل عجوز يمتطي مهرا شديدا اشعث ، عقد عرفه وذنبه بالاشواك ، ووضع في فمه لجاما اسبانيا . أما مسرجه فيحتمل ان يكون مسروقا من أحد المكسيكيين ، وقد فرشت فوقه قطعة من جلد الدب ، وعلق به زوجان من الركاب

الخشبية وربط بالسرج لتثبيته حزام من الجلد حول بطن الجواد أما ملامح العجوز الداكنة وعيناه الحادتان الخبيثتان ، فتشـــير بوصوح الى انه من الهنود ، وكان يرتدي معطفا مصقولا من جلد الغزال ، وقد اسود من العمل الطويل وتراكم الشحم عليه • ويربط منديلا باليا حول رأسه ، ويضع بندقيته امامه • وهي سلاح برع الديلاوريون باستعماله ، مع ان كثيرا من هنـود المـروج يزهدون في مثل هذا السلاح لثقل وزنه •

وماواجهنا هذا الهنذي حتى بادر بسؤالنا :

من هو رئيسكم ؟

فاشار هنري شايتون الينا ، عندئذ نظر الديلاوري العجوز نظرة مركزة عميقة بعينين ثابتتين برهة ثم ابدى ملاحظته المختصـرة :

« لافائدة ، انه صغير جدا • » واكتفى بهذا القول ، ثم عاد والتحق بركب جماعته •

كانت قبيلة ديلاوير في الماضي الحليـف المسالم لوليـم بن ، حليف الايروكوا الفاتحين وقـد أصـبحت الآن تجمـع أعظـم المحاربين المغامرين واشدهم عودا واصلبهم مكسرا ، وصار هؤلاء يحاربون القبائل البعيدة التي كان اباؤهم المقيمون في بنسيلفانيـا يجهلون حتى اسماءها ، ويثيرون هذه الخصومات بحقـد وغـل ، ويرسلون فرقهم المحاربة بعيدا حتى تصل جبال روكي وتدخل البلاد المكسيكية •

اما جيرانهم وحلفاؤهم السابقون الشاوانوس وهم من المزارعين المعتدلين ، فقد تحسنت احوالهم بعكس الديلاير الذين اخـذوا يتناقصون سنة بعد أخرى بسبب ما يفقدونه من الرجال في غزواتهم• وبعد أن افترقنا عن تلك الجماعة ، أخذنا طريقنا نحو الغابات

التي تنتشر الى اليمين بمحاذاة مجرى الميسوري ، واستمر تقـدمنا الى ان شاهدنا أمامنا عن بعد منازل حصن ليفنوورث الخشبيــــــة البيضاء ، التي كانت تتراءى من خلال الاشجار فوق مرتفع يشرف على منحنى النهر • وكان يفصل بيننا وبين الميسوري مرج اخضر• ولاحظنا فيهذا المرج قريبا من خط الاشجار ، خيمة الكابتـــن ورفاقه وخيولهم التي ترعى حولهم • ولكنهم كانوا مختفين عن الانظار • الا اني رأيت البغال جالسا على لسان احـــدى العربات ومنهمكا في اصلاح سروج الخيل • اما بوافار فكان واقفا في باب الخيمة ينظف بندقيته ، بينما كان سوريل مستلقيا بجانبه • وعندما اخذنا نتفحص المكان عن قرب لمحنا اخا الكابتن ، جاك ، جالسا في الخيمة ، يقوم بعمله القديم في عقد حبال المطاردة • وسألناه عن اخيه ، فقال انه ذهب لاصطياد السمك من النهر ، في حين ذهب « ر » الى المعسكر • وقبل غروب الشمس عاد الاثنان بعد ان كنا قد اقمنا خيمتنا غير بعيد عنهم ، وبعد العشاء عقدنا مجلسا قررنا خلاله ان نبقى يوما في حصن ليفنوورث ، ثم نودع في اليوم التالي الحدود الوداع الاخير ، وباصطلاح المنطقة « نقفز الى الخارج »•

وقد كانت مداولاتنا تسترشد بالنور الاحمرمن مكان فيالمروج حيث كان العشب الطويل اليابس من الصيف الماضي يشتعل •

الفصل الثالث

حصـــن ليفنوورث

وفي الصباح التالي تقدمنا الى حصن ليفنوورث • وكان الكولونيل كيرني قد ارتقى واصبح جنرالا • وكان لي شرف مقابلته في سانت لويس من قبل ، وحين وصلنا الحصن ، استقبلنا بشاشته المعهودة •

قد يعتقد القارىء أن حصن ليفنوورث محصن منيع ، ولكنه في الحقيقة لا يحمل الا اسم الحصن وخال من التحصينات ، الا من تحصينين خشبيين • أما الحياة فيه فكانت تسير سيرا طبيعيا ، فكنت ترى الرجال رائحين غادين أو مستلقين بين الاشجار في المربع المعشوشب المحاط بالثكنات ومساكن الضباط • ولكن الحالةتغيرت بعد عدة اسابيع حينما أخذ خيالة الحدود يتجمعون للسير في حملة ضد سانتافي •

مررنـا بالحـاميـة وسرنـا راجعـين باتجـاه قريـة كيكابو التي تبعـد نحو خمسة أو ستة أميـال • وقـد أدى بنـا الممر ، وهو طريق مشكوك فيه ، الى حافة جرف عال يقع على ضفـة الميسوري • وكان يحف بنا ذات اليمين وذات الشمال مناظر مختلفة لو تأملناها لمتعنا أنفسنا برؤيتها • فالى اليسار تمتد المروج المتموجة التي تتخللها الغابات الكثيفة ، وتتسع على شكل احواض معشوشبة متخذة مشاهد حلوة وممتدة عدة أميال ، بينما تتماوج أقواسها أمام الافق ويتخلل كل ذلك ، صفوف من أشجار الغابات المشمسة • والحق انه مشهد بهي زادته نضارة الموسم وعذوبة الطقس رقـة

وجمالا • أما الى اليمين فكانت قطعة من الغابات القديمة المحطمة ، استطعنا أن نرى فيها بعض رؤوس الاشجار الحية المنتصبة ، وبعضها المائتة ، وبعضها الآخر المطروح والملقى في كل مكان وقد تكدس من فعل الزوابع القوية والعواصف الهوجاء • وكانت مياهالميسوري العكرة تبدو خلف الحافة البعيدة من خلال الغصون الكبيرة وهي تجري بشدة في سفوح المنحدرات المغطاة بالغابات والواقعة على ضفته البعيدة •

ولما تقدمنا في طريقنا واجتزنا أحد المروج ، رأينا مجموعة من الابنية منتصبة على مرتفع من الارض وقد أحاط بها جمع غفير من الناس • أما الابنية فكانت مستودعا وكوخا للاصطبلات يخصان تجار مؤسسة كيكابو ، وأما الجمع الغاص فهم نصف هنودالمؤسسة الذين صدف تجمعهم في تلك اللحظة ، وقد ربطوا خيولهم الصغيرة الشعثاء الهزيلة بالعشرات أمام الاسوار وخارج البيوت ، واستلقى معظمهم داخل المكان وتجمع القسم الآخر في مركز البيع • وهناك رأينا وجوها مصبوغة بألوان مختلفة متعددة ، فقد مزج الاحمر والاخضر الى الابيض والاسود بصورة عجيبة وطليت الوجوه بهذا المزيج العجيب بأشكال مختلفة • وترى أيضا قمصان الخام والبطانيات الحمراء والزرقاء ، والاقراط النحاسية ، والعقودالصدفية بوفرة في هذا المحل • أما البائع فكان رجلا ذا عينين زرقاوينووجه تتجلى به الصراحة ، كما لم يشب شكله أو مظهره ما يدل على القسوة أو الخشونة التي اتصف بها سكان الحدود • ومع ذلك فقد كان مضطرا لأن يسلط عينين حذرتين كعيني الفهد على زبائنه من الرجال والنساء الذين كانوا يتسلقون منبره ويجلسون بين صناديقه وبالاته •

لم تكن القرية نفسها بعيدة ، ولكنها كانت تصور حالة سكانها التعساء المهملين • تصور في مخيلتك نهرا صغيرا يجري بسرعة هابطا نحو الوادي المغطى بالغابات ، يختفى حينا تحت الاخشاب والاشجار المقطوعة وينتشر حينا آخر فيشكل حفرا واسعة مملوءة بالماء النقي ، وعلى ضفتيه تتناثر بين الاشجار في زوايا ضيقة بيوت خشبية صغيرة يبدو عليها الفقر والاهمال ، وتتصل هذه البيوت بعضها بواسطة محارة من الطرق الضيقة المغلقة • وكنا نلتقي أحيانا بعجل شارد أو خنزير أو حصان يخص أحد القرويين الذين يستلقون عادة في الشمس أمام مساكنهم وينظرون الينا بعيون باردة ملؤها الشك كلما اقتربنا منهم • وبعيدا عن هذا المكان وجدنا بدلا من أكواخ الكيكابو الخشبية مساكن جيرانهم اليوتا واتامى ، الذين لم تكن أحوالهم أفضل من جيرانهم •

تعبنا أخيرا وقد انهكنا الحر الشديد الذي صاحبه في ذلك اليوم رطوبة واحتباس في الهواء ، فرجعنا الى صديقنا التاجر ، وكان الناس في ذلك الوقت قد انفضوا من حوله مفسحين له المجال وتاركين له الفرصة ليأخذ قسطا من الراحة ، ودعانا الرجل الى كوخه ، وهو بناء صغير أبيض وأخضر ، على طراز المنازل الافرنسية ، وادخلنا الى غرفة نظيفة ، كانت الستائر مسدلة ولا أثر لحرارة الشمس أو نورها ، ولذا كانت الغرفة باردة كالمغارة • وكانت الغرفة حسنة الرياش فهي مفروشة بسجاد نظيف وباثاث لم نعهد له مثيلا في الحدود • فالمقاعد والطاولات وخزائن الكتب تليق بان تكون أثاثا في أي بلد في القسم الشرقي من البلاد ، وكل هذا لا يزيل علامات الشك والتساؤل عن وجود مدينة في هذه المنطقة • ولمحنا غدارة محشوة فوق رف المدفأة ، وقد برزت من وراء زجاج المكتبة قبضة سكين مخيفة •

خرج مضيفنا ثم عاد وهو يحمل ماء مثلجا وكؤوسا وزجاجة خمر افرنسي أحمر من النوع الفاخر ، وهو مرطب مقبول في مثل هذا اليوم الشديد الحرارة • وما هي الا فترة حتى برزت سيدة مرحة ضحوك ، من المحقق انها كانت قبل سنة أو سنتين ، انموذجا حيا للجمال الخلاسي • وقد أعلنت أن طعام الغداء جاهز في الغرفة الثانية • ومن الواضح أن مضيفتنا كانت تعيش حياة مشرقة ، فلم تزعج نفسها بشيء يتطلب الاهتمام في الحياة ، ولم تلبث أن جلست تجاذبنا أطراف الحديث أثناء تناول الطعام ، فأخذت تروي لنا قصص رحلات صيد السمك وأحاديث الضباط في الحصن • وكان يتخلل أحاديثها نكات مرحة مضحكة ، وأخيرا ودعنا مضيفنا التاجر وصديقته ، وقفلنا عائدين الى المعسكر •

ذهب شو الى المخيم بينما بقيت لكي أقوم بزيارة للكولونيل كيرني ، وحين ذهبت اليه وجدته لا يزال يجلس الى المائدة ومعه صديقنا الكابتن وهو يرتدي نفس الثياب العجيبة التي رأيناه بها في ويست بورت ، والغليون الاسود ملقى الى جانبه • وقد أمسك بقبعته الصغيرة وأخذ يتحدث عن سباق الحواجز ، مشيرا أحيانا الى مغامرته في صيد ثور البافالو • وكان « ر » حاضرا أيضا بثيابه الانيقة ، فتذوقنا نعيم المدينة للمرة الاخيرة قبل أن نتوغل في رحلتنا • ثم شربنا كؤوس الوداع من النبيذ الفاخر ، الامر الذي جعلنا نترك المكان والندم يعضنا بنابه • ثم امتطينا جيادنا وسرنا نحو المخيم • لقد كان كل شيء جاهزا للرحلة في الغد الباكر •

الفصل الرابع

الى الامام

كان رفاقنا القادمون من وراء الاطلنطي مجهزين أحسن تجهيز للقيام بالرحلة المقررة • فقد كان لديهم عربة تجرها ستة بغال مملوءة بالمؤن التي تكفي لستة اشهر ، بالاضافة الى الاسلحة والذخائر التي تكفي لاستعمال فرقة كاملة من بنادق احتياطيةوبنادق صيد وحبال وسروج للخيل ، عدا عن الامتعة الخاصة ، وأنواع أخرى مختلفة من البضائع التي كانت مصدرا لمتاعب لا نهاية لها • وكان مما يحملونه تلسكوبات وبوضلات صغيرة ، ثم بنادق انكليزية ذات فوهتين معلقة على سروجهم على طريقة الدراجون •

وعند شروق شمس اليوم الثالث والعشرين من شهر مايو جلسنا نتناول طعام الصباح ، بعد أن تقوضت الخيام وأسرجت الخيل وأصبح كل شيء جاهزا • وصاح ديلورييه في بغله « هيا الى الامام » وساق رايت بغال اصدقائنا ، بغاله الشرسة بعد أن قذفها بسيل من الشتائم وضربات السياط ، وسار • وما كاد الموكب يسير والركب يتحرك حتى القينا نظرة وداع على الطعام والنوم والراحة ، وعلى تفسيرات مبادىء بلاكستون • وكان يوما من أكثر الايام توفيقا • ومع ذلك فقد انتابتني أنا وشو بعض الهواجس التي ثبت في النهاية انها تستند على أساس متين ، فقد علمنا انه على الرغم من أن « ر » أخذ على عاتقه ، ان يتبنى سلوك هذه السبيل دون أن يستنيرنا ، اذ لم يكن أحد من الجماعة يعلم عن الطريق شيئا ،

وسرعان ماظهرت لتافاهة هذا التصرف اذكانت خطته ان يجوب الطرق التي أنشأتها فرق الدراجون المتعددة والتي قامت في الصيف الماضي بحملة استكشاف بقيادة الكولونيل كيرني الى حصن لارامي • ثم يصل بهذه الواسطة الى الطريق الكبير لمهاجري الاوريجون فوق نهر البلات •

عند ذلك أخذنا نغذ السير ، فما مضت ساعة أو اثنتان حتى تراءت لنا مجموعة من الابنية فوق تل صغير • وصاح بنا تاجر كيكابو من فوق السور المحيط بكوخه مؤهلا ، « هالو ، الى أين أنتم ذاهبون » عندئذ سمعت اصوات الدهشة تتعالى بين أفرادنا حين وجدوا اننا قطعنا أميالا عديدة لم نتقدم خلالها اينشا واحدا نحو جبال الروكي ، وكان ان سرنا بالاتجاه الذي أشار اليه التاجر وجعلنا الشمس دليلنا ، وبدأنا نرسم في سيرنا خطا مستقيما خلال المروج ، فكافحنا خلال الاجمات والادغال وصفوف الاشجار كفاحا مريرا ، وخضنا الانهار والجداول، واجتزنا مروجا خضراء كالزمرد تتسع أمامنا ميلا بعد آخر ، وهي الى جمالها أكثر وحشية في اتساعها من الصحراء التي قطعها مازيبا • كنا في مقدمة الركب حين مررنا باحدى هذه السهول الشاسعة ، وتطلعنا الى الخلف فرأينا قافلة الفرسان المنتشرة تمتد مسافة ميل أو أكثر ، بينما كانت العربات البيضاء في المؤخرة تحاذي الافق وتدب ببطء على طول الطريق • ولما صاح الكابتن مبتهجا ، « لقد وصلنا أخيرا» كنا فعلا قد عثرنا على آثار عدد كبير من الخيل ، فاشتدت عزائمنا واقتفينا اتجاه هذا الاثر الجديد بغبطة وسرور • وعند الغروب نصبنا مخيمنا على مرتفع عال يجري عند سفحه نهر بطيء خلال الاعشاب الكثيفة النامية • وكان الليل قد ارخى سدوله ، فحللنا سروج

الخيول وعددها وأطلقناها ترعى • وسمعنا هنري شاتيون يصرخ فجأة ، « دقوا أوتاد الخيام عميقا ، ان العاصفة توشك ان تهب » • فصعدنا بالامر وشددنا الخيام بقدر المستطاع • وبالفعل فقد تغير وجه السماء تماما ، وهبت رياح رطبة كانت نذيرا لنا بليلة عاصفة ، واكتست المروج شكلا جديدا واصبح لون التموجات الواسعة أسود داكنا بتأثير ظلال الغيوم • وبدأت الصواعق تقصف من بعيد ، فربطنا الخيول بالاوتاد وقيدناها بين العشب الغزير في أسفل المنحدر الذي ضربنا مخيمنا فيه ، ثم اسرعنا الى الملجأ حين أخذت الامطار تهطل بغزارة • ووقفنا على باب الخيمة نشاهد أعمال الكابتن وتصرفاته وهو يسير مستخفا بالمطر ، ويتنقل بين الجياد وهو متدثر بقميص مصنوع من القماش الاسكتلندي ، فقد انتابه قلق شديد ، خوفا على جياده المحبوبة ان تهرب ،أو تصاب بحادث ، وكان يلقى عينا ملؤها القلق والاضطراب على ثلاثة من الذئاب كانت تتسلل في ذلك السهل المتسع الكئيب ، وربما كان يخشى أن يبادر أحدها ببادرة عدائية •

ولم نكد نسير في صباح اليوم التالي ميلا أو ميلين حتى أتينا الى منطقة فسيحة من الغابات يجري في وسطها نهر عريض عميق مليء بالوحول التي عكرت مياهه • وكان ديلوريه مع عربته في المقدمة • وحينما وصل الى حافة الماء ، طرح غليونه من فمه وجلد بغاله ، وصب عليها سيلا من صيحاته الكندية • فنزلت العربة الى النهر ولكنها لم تلبث ان غرزت في الوحول قبل أن تجتاز نصف المسافة ، وحينما رأى ذلك قفز من الماء الذي بلغ الى ركبتيه ، وكان لصيحاته وضربات سوطه الفضل في اضطرار البغال الى الخروج من حمأة الماء الموحل • وكان الركب الطويل والعربات الثقيلة

حينذاك قد اقتربت من الماء ولكنها توقفت ولم تجرؤ على النزول فيه.

بدأ الكابتن الذي كان ينظر الى الخليج الموحل بقلق يقول : « الان من رأيي أن ... » ولكن « ر » قاطعه صارخا ، « تابعوا السير » .

وبدا أن رايت البغال لم يستقر على رأي ، فبقي جالسا في مقعده يصفر نغما خفيفا وهو غارق في تأمله .

وقال الكابتن : « من رأيي أن تفرغ حمولة العربات . واني أراهن أيا منكم بخمس ليرات على أن العربات ستغرز اذا استمررنا في مسيرنا دون أن نفرغها .

وردد جاك ما قاله أخوه الكابتن فقال : « وحق السماء انها ستغرز لمجرد ان تلمس المياه عجلاتها » . ثم هز رأسه الكبير مدللا على متانة اعتقاده بما فاه به .

وصرخ « ر » بشراسة وعصبية ، «تابعوا السير - تابعوا السير».

فقال الكابتن ، حسنا . واستدار الينا ونحن جلوس ننظر الى الامام ، وتابع كلامه قائلا : « ان لي أن أقدم النصح فقط ، فان كنتم لا تودون أن تحكموا عقولكم فهذا من شأنكم . هذا كل ما عندي » .

وفي هذه الاثناء ، كان رايت البغال قد حزم أمره وصمم على النزول الى الماء وعبوره ، لأنه بادر بغاله بالصياح ، وتذف سيلا من اللعنات والسباب ، اذا قورنت باللعنات الافرنسية التي يطلقها ديلوريه ، فانها تشبه قصف المدافع الثقيلة بعد فرقعة حزمة من الالعاب النارية الصينية . وفي الوقت نفسه ، امطر ظهور البغال بوابل من ضربات سوطه ، فجرت الى الماء الموحل ، وهي تجر وراءها العربة المثقلة بحملها ، وخامرنا الشك فترة في امكان الخروج من

هذا المأزق ، ولكن رايت كان يجلس فوق سرج جواده ، وهو يقسم الايمان المغلظة ، ويجلد الحيوانات كالمجنون . ولكن ... هل بالامكان الاعتماد على فرقة من البغال المنهكة التي أضناها التعب ؟ وفي تلك اللحظة الحرجة ، التي يتحتم ان تتضافر فيها جهود الجميع وتتحد ، اختل نظام هذه الحيوانات الجامحة ، فتزاحمت مع بعضها على الضفة الاخرى البعيدة ، واستقرت العربة فوق الوحل . ولم يعد أمامنا سوى أن نفرغ حمولتها . ونستعمل الرفش لنزيل الوحل من طريق عجلاتها ، ونمهد لها ممرا من اغصان الشجر . وبعد ان انجزنا هذا العمل اللطيف ... تمكنا أخيرا من الخروج بالعربة . ثم توالى اصطدامنا بمثل هذه العوائق أربع أو خمس مرات على الاقل في كل يوم مدة اسبوعين ونيف حتى اصبحنا نحسب ذلك أمرا مألوفا عاديا . كما لم يخل تقدمنا نحو نهر بلات من الصعوبات .

تابعنا المسير فقطعنا ستة أو سبعة أميال ثم توقفنا لتناول طعام الغداء بجانب أحد المجاري الصغيرة . وحين أوشكنا أن نستأنف الرحلة ، وكانت جميع الخيول قد نزلت الى الماء ، قفز جوادي بونتياك ، الذي يصاب عادة بلوثة حنين الى الوطن ، وعدا مسرعا قافلا الى موطنه .فدفعت حصاني الاحتياطي خلفه ، وأخذت اطارده . وسرت في دائرة واسعة فسبقته . وكنت آمل أن أعيده الى المخيم ، ولكنه اسرع في العدو فجأة وقام بدورة أكثر اتساعا في المرج ، فسبقني مرة أخرى ، وجربت سلوك هذه الخطة مرارا، فلم تأت بنتيجة . لقد كان بونتياك يكره المروج ، لذلك أهملت هذه الخطة وجربت أخرى ، فعدوت بجوادي خلفه بلطف لعله يقترب منه بهدوء ، فاتمكن من الامساك بحبل المطاردة المعلق في

عنقه ، وتقدمت حتى أصبحت على مقربة منه • وهنا دخلت المطاردة في دور ذي أهمية محسوسة ، فقد كنت أطارد هذا الجواد الجامح ميلا بعد ميل ، وأنا اسعى بكل ما أوتيت من قوة متجنبا ازعاجه ، وجعلت اقترب منه تدريجيا حتى أصبح أنف هندريك العجوز يكاد يلمس ذيل بونتياك الغافل • فترجلت بلطف قبل أن أشد العنان ، الا أن بندقيتي الطويلة الثقيلة ضايقتني ، وكان الصوت الخفيف الذي احدثته بارتطامها بقرن السرج قد اجفله ، فارهف اذنيه وقفز مسرعا ثم عدا هاربا ، فقلت أخاطبه ، وأنا اعتلي صهوة جوادي ، « ياصديقي اذا أعدت الكرة فانني ساطلق عليك الرصاص! » •

كان حصن ليفنوورث قد أصبح على بعد أربعين ميلا ، فقررت أن اتبعه الى هناك • واعتزمت ان اقضي ليلي وحيدا بدون عشاء• ثم أتابع سفري صباحا • وبقي أمامي أمل واحد ، فقد كان النهر الصغير الذي غرزت فيه العربة أمامنا ، وقد يكون بونتياك عطشا من طول الجرى ، فيقف هناك ليشرب • وسرعان ما صدق حدسي وتحقق ظني ؛ اذ وقفت عند الماء فجعلت اقترب منه بما استطيع من هدوء وأنا شديد الحذر ، كي لا أفزعه ثانية ، وكانت النتيجة كما أملت ، فأخذ يسير متريثا بين الاشجار ، ووقف قرب الماء • فترجلت وقدت هندريك خلال الوحول ، وأمسكت بحبل المطاردة ، وقد ملأني السرور ، ثم لففته حول يدي ثلاث لفات ، وقلت في نفسي وأنا اعتلي صهوة جوادي ، « ليفلت مني اذا استطاع مرة أخرى !» ولكن بونتياك كان كارها للعودة ، وظهر أن هندريك الذي كان يمني نفسه بالآمال الباطلة كان لا يختلف في الرأي بشيء عنه •

لقد ابدى منتهى الاشمئزاز ، وصهل بطريقة غريبة لم أعهدها منه حينما اضطر للعودة ، غير أن ضربة شديدة من السوط أعادت اليه صوابه فعاد الى رفقه الى كما ردته الى الطاعة ثانية . وعــدت الى المخيم وأنا أقود ورائي ذلك الشارد العنيد .

وبعد مضي ساعة أو اثنتين ، وقد أخذت الشمس تميل نحـو الغروب ، اشرفت لاشاهد الخيام قائمة فوق مرتفع من المروج وراء خط الغابات ، بينما الخيل منتشرة ترعى في المروج المنخفضةالقريبة منها . وكان بقية القوم مستلقين على العشب يدخنون ويتندرون . ومتعنا أنفسنا في تلك الليلة بالاستماع الى موسيقى صاخبة مــن الحان الذئاب العاوية ، والحق أنها كانت أكثر نشاطا وحيوية من أية الحان أتحفتنا بها قبل ذلك . ورأينا في الصباح احدها مستلقيا بين الجياد بالقرب من الخيام وهوينظر الينا بعينين رماديتين واسعتين، غير أنه قفز وأسرع بالهرب حين شاهد فوهة البندقية تصوب اليه.

انني اتجاوز عن يوم أو يومين من رحلتنا لأنه لم يحدث فيهما ما يستحق الذكر . ولكنني اؤكد لمن لايجد في نفسه من القراء ميلا الى زيارة المروج ، ويضطر لاختيار طريق البلات ، (وربما كان أفضل طريق يمكن اتخاذه) أن لا يظن أن بامكانه الدخول على الفور الى الجنة التي تخيلها ، فان امامــه « معبر العتبـــة » مدائي موحش طويل عليـه أن يجتـازه قبـل أن يجـد نفســه على حـافـة « الصـحراء الامريكيـــة الكبرى » حيث يترك وراءه آخر ظـلال المـدينـــة على بعـد مئـــة فرسخ . ان القطر الذي يتوسطه وهو الحزام الواسع الخصيب الذي يمتد لعدة مئـــات من الاميال وراء خط الحدود الاقصى ، سوف يقص على القارىء بدقة وأمانة ما سبق تصوره عن المروج . ومن هذه المناظر البهيـــة

المتفجرة حيوية وجمالا اقتبس السائحون والرسامون والشعراء والروائيون ، الذين قليلا ما نفذوا في داخل الصحراء الكبرى الى أبعد من ذلك آراءهم عن المنطقة كلها • ولو أن للقارىءعين الرسام لأمكنه أن يجد ان فترة اختباره لا تخلو من الفائدة • والمناظر لطيفة سارة رغم انها كئيبة ، فالسهول المنبسطة أوسع واعظم من أن تستطيع العين قياسها أو استجلاء جمالها ، والتموجات الخضراء تشبه أمواج المحيط الهادئة ، والجداول والينابيع الغزيرة ، تتبع انحناءاتها صفوف الغابات والغياض المبعثرة • ومهما اشتدت رغبة الانسان ، فانه سيجد ما يكفي لتثبيط حماسته وفتور همته • فستغرز عربته بالوحول ، وستشرد خيوله ، وسيثبت محور الدواليب عجزه وعدم فعاليته ، وسيكون فراشه رطبا يغطيه اغنى أنواع الطين أما طعامه فعليه أن يقنع بان يكون من مخزون البسكويت والملح ، لأن هذه البقعة من البلاد رغم غرابتها ، لا تحتوي الا على قليل جدا من طرائد الصيد • وكلما تقدم فسيرى طبعا قرون الوعل تختفي بين العشب أثناء مروره ، وعندمايسير أبعدمن ذلك ، فسوف يرى هياكل ثور البافالو ، وقد ابيضت بعد أن كانت تملأ هذه المنطقة ، التي أصبحت فيما بعد منطقة مهجورة • وقد يسافر مثلنا مدة أسبوعين أو أكثر فلا يرى طوال رحلته سوى آثار قوائم الغزلان ، أما في الربيع فلن يجد شيئا ، ولا حتى مجرد دجاجة واحدة من دجاج المروج •

وعلى سبيل التوازن والتعويض بين هذا النقص غير المنتظر في الطرائد ، فسيجد الانسان نفسه وقد أحدقت به الحيوانات المتوحشة ، والحشرات التي لا تحصى ، ولسوف تشنف الذئاب الكاسرة اذنيه بحفلات موسيقية صاخبة ، أما نهارا فستختفي بعيدا عن مرمى البندقية ، وسيخطو جواده فوق وكر الغرير ، وسيرتفع

:. كل مستنقع وجـــدول مقيـق الضفادع المتنـوعـــة الالوان ، المختلفـــة المنظر والاحجـــام • وسينساب فيض من الافاعي بـين قوائـم جـواده ، أو تزور احـــداهـا خيمتـــه أثنـــاء الليل بهدوء ، بينما يسلب طنين البرغش العنيد ، وهمهمة الحشـــرات النوم من عينيه • وعندما يضنيه العطش بعد سير طويل تحت أشعة الشمس المحرقة ، ويصل أخيرا الى بركة من الماء الاسن ، فيسرع كي يروي ظمـــأه فـســـيفاجأ بطائفـــة من الشـــفادع وأفراخ الضفادع تسبح في قعر الكأس • اضف الى ذلك الشمس التيتلفحه بحرارتها وتلذعه باشعتها النافذة ، والعاصفة المصحوبة بالصواعق التي تهب بانتظام يثير العجب ، في الساعة الرابعة من بعد الظهر ، فتبلله حتى الجلد •

وفي أحد الايام ، بعد رحلة صباحية طويلة ، توقفنا للاستراحة وقت الظهر في المرج المكشوف • ولم نر أثرا للاشجار غير أنـه كان بالقرب منا جدول صغير شحيح الماء يتلوى من جانب الى آخر، ثم يختفي خلال أحد التجاويف مرة ، ليظهر تارة أخرى فيشكل حفرات من الماء الراكد أو ينحدر فوق الوحل بتيار لا يكاد الناظر يلحظه ، بين الشجيرات الغضة الضئيلة ، وادغال الاعشاب الطويلة الكثة • وفي ذلك اليوم الحار الذي يبعث على الضيـــق ويحبس الانفاس ، كانت الخيول والبغال تتمرغ فوق أرض المرج لتأخـذ نصيبا من الرطوبة أو ترعى بين الاعشاب •

وكنا قد انتهينا من تناول الغداء ، فجثـــا ديلوريه فـــوق العشب وهو ينفخ دخان غليونه ، وأخذ ينظـف طاقم الصحـــون الصغيرة ، بينما كان شو مضطجعا في الظـل ، تحـت العربـة ، ليستريح برهة من الزمن ، قبل أن تصدر الاوامر بالرحيل • أما

هنري شاتيون فقد كان يبحث فيما حوله قبل أن يضطجع عن آثار الافاعي ، وهي الاحياء الوحيدة التي يخشاها . وصرخ عـــدة صرخات من الخوف والاشمئزاز عندما عثر على عدد منها ، في الحفر المريبة قريبا من العربة . أما أنا فقد جلست مستندا الى العجلة في مكان ضئيل الظل ، اصنع زوجا من القيود لاستعيض بها عن تلك التي كسرها جوادي المتمرد بونتياك في الليلة الماضية . وكان مخيم اصدقائنا الذي يبعد فرسخا أو اثنين يهيمن عليـه نفس الهــدوء ويسيطر عليه طابع الكسل .

صرخ هنري ، وقد رفع رأسه بعد أن انهى تحرياته في البحث عن أوكار الافاعي ، « هالو ، هاهو الكابتن آت » .

اقترب الكابتن ووقف هنيهة يتأملنا صامتا ، ثم قال :

انظر ياباركمان الى شو ، انه نائم هناك تحت العربة ، والزيت يقطر من طنبور العجلة فوق كتفه .

وقف شو عند سماعه ذلك ، وعيناه نصف مفتوحتين ، وتحسس جهة كتفه ، فشعر بيده تلتصق بقميصه الفانيلا الاحمر .

وأردف الكابتن قائلا ، وهو يضحك ضحكة باهتة فاترة

سوف يبدو حسن المنظر عندما يسير بين نساء الهنود ، أليس كذلك ؟

ثم زحف تحت العربة وأخذ يروي قصصا من جعبة لا ينضب معينها . وهو يلقي بين حين وآخر نظرة عصبية قلقة نحو الجياد . وفجأة قفز باضطراب شديد صارخا ، « انظروا الى ذلـك الجواد الذي يعدو فوق التل . يا الهي لقد هرب ، انه حصانك الـكبير ياشو ، كلا ليس هو ، بل هو حصان جاك ، هالو جاك !

سمع جاك الصوت فقفز واقفا وهو ينظر الينا غير آبه لشيء .

فضاح به الكابتن ، اسرع والحق بحصانك اذا أردت أن لاتفقده .
واسرع جاك راكضا بين الحشائش وسراويله العريضة تحتك بساقيه ، واستمر الكابتن في متابعة النظر بقلق حتى قبض على الحصان ، وعندها جلس وقد بدت على ملامحه دلائل التفكير والجد والاهتمام . ثم قال ، يجب أن لا يحدث هذا مرة ثانية أبدا والا فسوف يأتي اليوم الذي نفقد فيه جميع جيادنا ، وعندئذ سنقع في مأزق حرج شديد الخطورة . أما الان ، فأنا على يقين من أن الحل الوحيد لهذه المشكلة ، هو أن تتبادل حراسة الخيول في الاوقات التي نتوقف فيها للراحة . ثم تابع يقول ، تصوروا أن مئة من هنود قبيلة اليونيز خرجوا من ذلك الوادي الضيق يصرخون بينما تصطفق ثيابهم المصنوعة من جلد البافالو ، وعندها لن يبقى ذو حافر الا ويختفي في مدى دقيقتين . فاجبناه مذكرين أن الهنود في حالة وجود حارس للخيل سيقتلونه اذا حاول مقاومتهم .

وتابع الكابتن كلامه متهربا من الاستمرار في الحديث عن هذا الموضوع : « على أي حال فاني متأكد بأن نظامنا خاطىء بكامله . واني مقتنع بذلك ، فهو خال تماما من روح الجندية ، واننا بطريقة سيرنا ونحن نسلك طريق المروج حيث تمتد قافلتنا ميلا تتيح للعدو فرصة مهاجمة مقدمتنا وفصلها قبل أن نستطيع اللحاق بها » .

فقال شو : اننا لم نصل الى بلد معاد بعد ، وعندما ندخل حدوده سنسير معا في مجموعة واحدة .

وأردف الكابتن قائلا : عندئذ ، يحتمل أن يهاجمونا ونحن في الخيام ، وليس عندنا حرس ، والمخيم تسوده الفوضى ، وليس هناك من يتخذ الحيطة ضد الطوارىء . وفي اعتقادي اننا يجب أن نخيم في مربع فارغ ، وان نوقد النيران في منتصفه ، وان نعين حراسا ،

وأن تكون هناك كلمة سر للمرور • وبالاضافة الى ذلك يجب أن نهيم طلائع للركب تسير في المقدمة للانذار بوجود العدو ، ولايجاد المكان المناسب لاقامة المخيم ، انها الفكرة التي اقتنع بصوابها ، وأنا لا أرغب في اصدار الامر لأي منكم • ولكنني انصحكم بافضل مايمكن أن أحكم بصحته ، هذا كل ما في الامر • ولكل منكم بعد هذا ملء الحرية في أن يفعل ما يشاء •

ويظهر أن فكرة ارسال الطلائع كانت تهمه بصورة خاصة ، ومع أن أحدا لم يشاركه رأيه في هذه النقطة فقد عزم على أن يتقدم بنفسه في ذلك المساء•

وقال لي : تعال ياباركمان ، هل تريد أن ترافقني ؟

خرجنا معا وسرنا في المقدمة مسافة ميل أو ميلين • وكان الكابتن خلال عشرين عاما من الخدمة في الجيش البريطاني ، قد عرف الكثير من المصادفات التي قابلته • ولما كان في طبيعته مرحا ، فقد وجد في شخصي رفيقا مسليا ، يلقي النكات ويروي القصص ساعة أو أكثر بدون توقف • ثم القينا نظرة خلفنا فوجدنا المرج يمتد بعيدا حتى الافق دون أن يظهر أثر لانسان أو جواد •

وقال الكابتن : أظن الآن انه يجب على رجلي الطليعة أن يتوقفا الى أن تصل الهيئة بكاملها •

ووافقته على رأيه • وكان أمامنا غابات كثيفة يجري خلالها أحد الانهار • ولما اجتزناه وجدنا في الجانب الاخر سهلا منبسطا تحيط به الاشجار في معظم اطرافه ، فربطنا جوادينا الى احدى تلك الاشجار ، وجلسنا على العشب • واتخذت جذع شجرة هدفا وبدأت أبرهن عن تفوق البندقية على الاختراع الغريب الذي يحمله الكابتن • وأخيرا طرقت اسماعنا اصوات بعيدة منبعثة من خلف

الاشجار . فقال الكابتن ، « هاهم قادمون » فلنذهب لنرى كيف يستطيعون الخروج من الخليج . ركبنا وسرنا الى ضفة النهر حيث كان الموكب يجتازه ، وكان طريقهم في تجويف عميق مليء بالاشجار وبينما كنا ننظر الى الاسفل رأينا فصيلة من الفرسان تخوض الماء وهي في أشد حالات الفوضى والاضطراب . وكان بين رجال الفصيلة أربعة من الدراجون .

وصل شو الى الضفة وهو يضرب جواده بقسوة ، فبلغ الضفة قبل الاخرين ، وملامحه تنطق بالسخط والحنق . وكان أول ما نطق به أن استمطر اللعنات على « ر » الذي كان يسير في المؤخرة مطأطيء الرأس ، ثم قال : وشكرا لتدبير هذاالسيد البارع فقد ضللنا طريقنا واصبحنا هائمين على وجوهنا ، فوصلنا ليس الى نهر بلات ، بل الى قرية هنود ايوا . وصدف ان تقابلنا مع جنود الدراجون الذين هربوا أخيرا من حصن ليفنوورث ، فأخبرونا بأن أحسن خطة لنا هي أن نسير شمالا الى أن نصل الطريق التي افتتحها جماعات من مهاجري الاوريجون الذين خرجوا هذا الموسم من سانت جوزيف في ميسوري .

اقمنا مخيمنا في هذه البقعة التي لا يصل ضوء النجوم اليها الا نادرا ، وقد طغت على نفوسنا موجة من السخط والغضب ، بينما تابع الهاربون سيرهم السريع ، لأن وضعهم لا يحتمل التأخر والتلكؤ .

وفي اليوم التالي ، اتجهنا الى طريق سانت جوزيف ثم أدرنا رؤوس الجياد نحو حصن لارامي الذي كان يبعد عنا نحو سبع مئة ميل الى الغرب .

الفصل الخامس

الازرق الكبير

كان الخليط الهائل من مهاجري كاليفورنيا وأوريجون في مخيماتهم حول مدينة انديباندنس ، فقد وصلتهم تقارير عن أن عدة فرق أخرى على وشك الخروج من سانت جوزيف في طريقها نحو الشمال . وكان الشعور السائد هو أن هذه الفرق هي من طائفة المورمون الذين ينوف عدد أفرادها عن ألفين وثلاثمائة شخص ، لهذا قرع ناقوس الخطر منذرا ، لأن سكان الينوي وميسوري الذين يشكلون القسم الاكبر من المهاجرين ، لم يكونوا على صلات طيبة مع (قديسي يوم الآخرة) كما كان الناس يدعون المورمون هزءا وسخرية ، وكانت البلاد كلها تعلم كم أريق من الدماء في هذه المنازعات الطائفية . ولم يكن أحد يستطيع أن يتنبأ النتيجة ، عندما تلتقي جموع كبيرة من هؤلاء المتعصبين بأشد أعدائهم جرأة ومغامرة واعتدادا ، فوق أرض المروج الواسعة بعيدا عن متناول سلطة القانون واجراءات السلطة . وقد ارتفعت صيحات النساء والاطفال في انديباندنس ، ودب الرعب في قلوب الرجال ، فأرسلوا يطلبون من الكولونيل كيرني ، نفرا من الدراجون يقوم على حراستهم حتى يصلوا الى نهر بلات ، فرفض طلبهم ، لانه ثبت فيما بعد أنه لم يكن هناك مجال لذلك . فقد كان مهاجرو سانت جوزيف مسيحيين صميمين يكرهون المورمون كمعظم الطوائف الاخرى . أما العائلات القليلة من « القديسين »

الذين غادروا المنطقة في هذا الفصل عن طريق البلات ، فقدتخلفوا حتى مرت بهم موجات المهاجرين الكبيرة ، فادهشتهم وملأتهم رعبا وفرقا من الوثنيين الذين كانوا بدورهم يخافون منهم •

وكنا قد وصلنا طريق سانت جوزيف ، ولما اتضح لنا من الآثار، أن اعدادا كبيرة قد تقدمتنا منذ أيام توقفنا عن الاستمرار في السير ظنا أن من تقدمنا كانوا من المورمون وخوفا على أنفسنا من العواقب السيئة •

كانت الرحلة رتيبة مملة ، اذ سرنا يوما عدة ساعات دون أن نصادف شجرة أو نرى دغلا ، وانبسطت أمامنا وخلفنا والى جانبنا مساحات شاسعة تربطها سلسلة من الارتفاعات الخفيفة المفروشة بساط سندسي من العشب الاخضر • وكنا نرى هنا وهناك غرابا أو غدافا أو غيرهما من جوارح الطير التي خففت من وحدتنا ، ولطفت من أثرها السيء في نفوسنا •

بدأنا نتساءل فيما بيننا : « كيف يمكننا أن نحصل على الماء والوقود في هذه الليلة ؟ » وكان قد بقي ساعة واحدة حتى تغرب الشمس ، حين بدت لنا على مسافة بعيدة بقعة خضراء داكنة ، وظهر رأس شجرة فوق مرتفع من المرج ، فحولنا سيرنا باتجاهها مسرعين • وتبين لنا حين وصلناها ، انها طليعة مجموعة من الادغال والاشجار المنخفضة المحيطة ببعض منابع الماء الصغيرة في منخفض متسع من الارض • فضربنا خيامنا على ذلك المرتفع •

وكنت جالسا مع شو في الخيمة ، عندما ظهر ديلوريه في باب الخيمة بوجهه الاسمر وقبعته البالية المصنوعة من اللباد ، على رأسه فأخبرنا وقد اتسعت عيناه ، أن طعام العشاء جاهز • كانت الاقداح الصغيرة والملاعق الحديدية مرتبة فوق العشب وقد وضع أبريق

القهوة في الوسط فالتهمنا طعامنا بسرعة وشهية ، ولكن هنري شاتيون بقى يتلكأ وهو يشرب القهوة ، التي تعتبر الشراب السائد في المروج، والتي كان يفضلها خالصة دون أن يضيف اليها سكرا أو زبدا . وقد اعجبه طعمها المر الذي هو اشبه ما يكون بالعلقم ، أو كما وصفها هو ، (سوداء غامقه) .

لقد كان غروب ذلك المساء جميلا حين كان توهج السماء ينعكس على الجداول الواسعة الجارية بين الاجمات الظليلة في المرج المنخفض .

قال شو : يجب أن استحم هذه الليلة ، ماذا ترى ياديلوريه ، ألا يمكننا أن نسبح هناك ؟

فأجاب ديلوريه وهو يهز كتفيه مرتبكا لجهله اللغة الانكليزية، ولاهتمامه بموافقة رغبات سيده ، لا يمكنني أبداء رأيي ياسيدي.. كما تشاء ياسيدي .

قلت : انظر الى حذائه ، لقد غطس اخيرا في هوة من الوحل الاسود .

فقال شو ، تعال ، يمكنا على كل حال أن نرى ذلك بانفسنا .

خرجنا معا ، وعندما اقتربنا من الدغل الذي كان بعيدا عنا ،وجدنا أن الارض تميد وتغور تحت موطىء أقدامنا ، ولكننا استطعنا أن نتقدم بحذر فوق كتل من الاعشاب الغزيرة ، المتناثرة بين خلجان بعيدة الغور ، تشبه الى حد كبير الجزر الصغيرة المتأرجحة التي لاتحصى في محيط الوحل ، حيث يؤدي الزلل في أي خطوة ، الى اصابة احذيتنا بما أصيب به حذاء ديلوريه . والحق أن الامر كان حرجا يدعو الى اليأس ، مما اضطرنا الى الافتراق للبحث في اتجاهات مختلفة ، فاتجه شو يمينا ، بينما سرت الى الامام . وأخيرا

بلغت نهاية الادغال ، فرأيت شجيرات صغيرة من صفصاف المـــاء غطتها ازهار تشبه الفراش . وتوسطت بينها وبين مساحات الاعشاب حمأة عميقة سوداء ولم يكن من سبيل لاجتيازها الا بالقفز ، ففعلت بصعوبة ، ثم اتخذت طريقي بين شجيرات الصفصاف أطأ اغصانها المتكسرة الى أن وصلت الى نهر ضحل ، ضعيف الجريان ضئيـل العمق الذي لا يتجاوز ثلاثة انشات في أرض ملساء موحلـــة . واحدث وصولي هرجا وضجة اذ قفز ضفدع كبير اخضر مـــن الضفة ، وكأنه يستنكر بنقيقه وصولي ، فأحدث سقوطه في المـــاء رشاشا من حوله ، وكانت رجلاه ذات الوتيرة تتلألأ في الماء وهـــو يهزها بقوة الى الاعلى . وقد لاحظت الضفدع وهو يختفي في وحل قاع النهر ، بينما بعض فقاقيع الهواء ترتفع بهـــدوء للوصـــول الى السطح . واقتدى به عدد من الضفادع الصغيرة المرقشة ، ثم ما لبث ثلاث سلاحف لا يتجاوز حجم كل منها الدولار ، ان خرجت من خلف سوسن الماء ، حيث كانت تستريح ، وفي نفس الوقت برزت افعى مخططة باللون الاسود والاصفر ، فاجتازت النهر الى الضفة الاخرى ، وتحركت في الماء الراكد جموع الشفادع السوداء حـــين عثرت قدمي ، فسقط حجر صغير في الساقية .

وصاح شو متسائلا : هل هناك أمل في الاستحمام حيث تقف ؟

لم يكن الوضع حيث أقف مشجعا على الجواب ، فتراجعت خلال شجيرات الصفصاف والتحقت باصحابي ، وبدأنا نتحرى المـــكان سوية ، فاكتشفنا بالقرب منا الى اليمين أرضا مرتفعةمغطاة بالاشجار، يبدو انها تهبط فجأة الى الماء ، فجعلت أملنا في النجاح أكبـــر ، فاتجهنا نحوها ، ولكننا وجدنا أن التقدم بين التل والماء ليس مـــن السهولة بمكان ، خصوصا وان اشجار البتولا الفتية المتشابكة تعيق

تقدمنا . وكنا عند الغسق نمسك بأغصان شجيرات ورد النسرين القديمة . وفوجئت بشو الذي كان يتقدمني يقول مندهشا ، ياالهي ما أكبرها ، فنظرت اليه فوجدته يقبض على غصن شجيرة ، وقد استند اليها ، وغمر الماء احدى رجليه ، فنسى أن يخرجها ويسحبها لأن اهتمامه كله قد انصرف الى مراقبة حركات احدي أفاعي الماء ، التي كانت تسبح في البركة ، والتي يقدر طولها بأكثر من خمسة أقدام . أما جلدها فملون ببقع مربعة سوداء وخضراء . ولم يكن هناك من عصا أو حجر نرجمها به ، فأخذنا نتأملها وقتا طويلا بسكون يفيض اشمئزازا ويأسا . ثم تابعنا سيرنا . وكوفئنا أخيرا على جهودنا ومثابرتنا ، اذ طلعنا بعد بضعة فراسخ على ركن مملوء بالعشب بين الادغال . وساعدنا الحظ بشكل غير عادي .حين وجدنا فرجة بين الحشائش والاغصان التي كانت تغطي سطح النهر ، فانكشفت بضع ياردات من الماء النظيف أمام هذه البقعة الجميلة . وقد سبرنا غور هذا الماء بعصا ، فوجدنا عمقه أربعة أقدام ، فاغترفنا غرفة منه في أيدينا ، فوجدناه صافيا نظيفا ، فخلعنا ثيابنا وارتمينا في أحضانه ، غير أننا لم نلبث أن هوجمنا فجأة بعشرات الالوف من الوخزات التي تشبه الابر المسمومة .وساد طنين أسراب الناموس المهاجمة ، التي خرجت من الوحل الطبيعي وتجمعت حول الوليمة، وأخذت تنزل بها عضا ونهشا ، فتراجعنا بأسرع ما نستطيع . وعدنا نحو الخيام ، وقد انعشنا ذلك الحمام وخفف من وطأة الحر الذي كان يلذعنا بسوطه الناري .

وصاح شو : « ما بال الكابتن ؟ أنظر اليه ! » . وكان الكابتن واقفا وحده في المرج يعبث بقبعته فوق رأسه بعنف ويرفع احدى قدميه ثم ينزلها ليرفع الاخرى دون أن يتحرك من موقعه ، أو يغادر

مكانه . كان ينظر في أول الامر الى الارض بمقت شديد ، ثم رفع رأسه ونظر الى الاعلى وقد ظهر الاضطراب والاشمئزاز على وجهه ولما ناديناه لنرى ما الامر ، كان جوابه سيلا من الشتائم المقذعة الموجهة الى شيء مجهول لم نتبينه . وعندما اقتربنا منه طرق اذاننا صوت يشبه الطنين كما لو أن نحل عشرين خلية هاجمتنا في آن واحد . فقد كان الجو مشحونا بحشرات كبيرة سوداء في حالة انتشار تطير فوق الاعشاب وتنتقل من مكان لآخر . فطمأننا الكابتن وقال ، لا تخافا ، انها لن تؤذيكما .

وعندئذ رميت احداها بقبعتي ، فظهر أنها نوع من الخنافس ، وحانت منا التفاتة الى الارض ، فوجدناها ملئت باوكارها .

غادرنا هذه المستعمرة المكتظة بسرعة ، وتسلقنا الارض المرتفعة في طريقنا الى المخيم ، فوجدنا نار ديلوريبه لا تزال تستعر بشدة . فجلسنا حولها بينما كان شو يطنب في وصف التسهيلات المدهشة التي لابست ظروف استحمامنا . وأخذ يحث الكابتن أن لا يتأخر عن المبادرة الى الاستحمام في كل صباح قبل تناول طعام الافطار . ولكن الكابتن اظهر عدم ثقته في هذا القول وحمله على محمل اللامبالاة . وفجأة توقف عن اللام ، ولطم وجهه وصاح : « لقد عاد هؤلاء المحتالون الاوغاد مرة أخرى » . وابتدأنا نسمع أصواتا حادة تطن فوق رؤوسنا ، وهي أشبه ما تكون باصوات الرصاص . وبلحظة احسست بشيء يخبطني بشدة على جبيني ، ثم يستدير ليخبطني على رقبتي . ثم شعرت بمخالب صلبة حادة تتقدم لتغرز في لحمي كما لو كانت تريد اكتشاف ابعد غور في جسمي . فامسكت باحدى هذه الحشرات وقذفت بها الى النار ، وعلى أثر ذلك انفرط عقد اجتماعنا سريعا وانسحب كل منا الى خيمته حيث

أغلقنا فتحاتها ومنافذها باحكام وكلنا أمل أن لا تستطيع الجيوش الغازية الوصول الى مقرنا • غير أن جميع الاحتياطات لـم تأت بالفائدة المرجوة ،فلم يمض وقت قصير حتى أخذنا نسمع طنينها داخل الخيمة ، ثم بدأت هجومها الوحشي وأخذت تزحف على وجوهنا حتى اشرقت الشمس • وعندما رفعنا اللحف وجدنا عشرات منهـا لاتزال تتمسك بمناطق نفوذها بكل عناد • وحين خرجت في الصباح رأيت ديلوريه يخاطب مقلاته التي كان يحملها من مقبضهـا • ويبدو أنه كان قد تركها في الليل بجانب النار • فامتلأت بجثـات الخنافس التي احترقت وتجمدت وتلاشت مبعثرة بين الرماد •

كانت الخيول والبغال ترعى بحرية تامة • وكنا قد جلسنا لتناول طعام الافطار عندما سمعنا هنري شاتيون والكابتن يصرخان منذرين• رفعنا رؤوسنا فرأينا الخيول جميعها ، وعددتها ثلاثـة وعشرون تعدو وعلى رأسها بونتياك وهو يقفز والقيد في قوائمه قفزات تميل الى السرعة أكثر منها الى الرشاقة • فسارع أربعة منا وقطعـوا الاعشاب الطويلة التي كانت تلمع من قطرات الندى في محاولـة لقطع الطريق عليها • وبعد مطاردة ميل أو أكثر ونحن في سباق مضن معها ، أمسك شو بأحدها وربط حبل المطاردة حول فكه على شكل لجام • ثم اعتلى صهوته وعدابه حتى سبق الخيول الهاربة ، فتمكنا من جمعها وسقناها الى الخيام • ولم تمض الا دقائق معدودة حتى سمعنا الصراخ والشتائم واللعنات مختلطة بالنواح والبكاء لأن ما يقارب نصف الجياد قد عقرت بسبب القيد الموجود في قدميها وهي تحاول العدو باصفادها • وأخيرا تابعنا المسير في ساعة متأخرة من ذلك الصباح ، غير اننا اضطررنا لتشييد مخيمنا ثانية ، ولم يمض علينا الا ساعة أو اثنتـان • حتى داهمتنا عاصفة هوجاء مصحوبة

بصواعق وامطار غزيرة أخذت تلفح وجوهنا واجسادنا فاغرقتنا بامطار وكأنها سيل عرم جارف .

نصبنا خيامنا بمشقة وسط دوامة العاصفة ، وبقيت الصواعق تجأر وتزمجر فوق رؤوسنا طيلةالليل.وفي الصباح انقطعتالامطار الغزيرة واستمر هطول مطر خفيف اشبه بالندى يسيل بنعومة ورقة فوق خيامنا التي نفذ منها المطر فبللها من الخارج والداخل . وعند الظهر بزغت الشمس وتحسن الطقس ، فتابعنا سيرنا ، ولكنها كانت دلائل طقس جميل خادعة ، لانها كانت تخفي وراءها طقس رديء . خلت المروج المكشوفة من نسمات الهواء العليل ، وتلبدت الغيوم كأكوام القطن الجميل المندوف ، وارتدت السماء الزرقاء عند ظهورها ثيابا قاتمة داكنة . اما الشمس فكانت تلفحنا بموجات من الحرارة المشبعة بالرطوبة ، فحبست انفاسنا ولم يبق لناجلد ولا قدرة على تحملها . وكانت قافلتنا تزحف في هذه الاثناء ببطء بين السهول الفسيحة ، وقد انهكها الجو بقيظه ، وسارت الجياد برؤوس متدلية خائضة بحوافرها في الوحول العميقة ، وقد اسلم راكبوها انفسهم للتعب والحر . ولما حل المساء ، ارتفعت السحب السوداء المشبعة بالكهرباء فوق الارض ، وتقدمت في السماء حتى امتلأت بها بعد دقائق ، ثم بدأ قصف الرعود يدوي عميقا واستمر يتحفنابرفقته جل أمسيتنا ، ويعزف موسيقاه الهادئة في الاجواء الواسعة ، فترددها المروج . ونتيجة لتكاثر الغيوم المستمر فقد تغيرت طبيعة المروج والغابات واختلفت ألوانها ، فأصبحت ارجوانية داكنة تحت الظلال السوداء . وفجأة مرق شهاب من بين طيات السحب الكثيفة ، وسقط مهتزا على حافة المرج . وفي نفس الوقت سمع هزيم الرعد الطويل، وهبت رياح باردة تفوح منها رائحة المطر ، فكأنها تنذرنا بقرب

هطوله ، وراحت هذه الرياح ترقص العشب الطويل على جانب الطريق ، فتميل به ذات اليمين وذات الشمال . وهنا صاح شو ، هيا ، يجب ان نسرع قبل ان تشتد العاصفة . ثم جاوزني ومر بجانبي مرور السهم وهو يقود حصانه الاخر خلفه . واسرع الجميع في العدو متجهين نحو الاشجار المقابلة . وحين اجتزناها وجدنا خلفها مرجا كانت الاشجار تحيط بنصف مساحته . واختلط الحابل بالنابل اثناء العدو ، ثم قفزنا عن ظهور الخيل ، وحللنا السروج ، وبعد لحظة واحدة كان كل منا يجثو امام قوائم جواده ، فنحكم قياده ، وحين وصلت العربات الى المكان ، جعلناها ملجأ ، فامسكنا بها بكل قوانا ، وعندما هبت العاصفة ، في منتصف الليل ، كنا على اتم استعداد لاستقبالها ، فغمرت جميع الاشجار والسهول والبطاح بسيل عارم من الامطار .

كنا جالسين في الخيمة عندما اطل ديلوريه برأسه ، وقد علق فوق اذنيه قبعة من الفلين ، وبدت كتفاه تلمعان من المطر ، وقال لنا:

هل تريدون تناول العشاء ؟ انني استطيع ان اوقد النار تحت العربة ، واعتقد انني سانجح وساقوم بالتجربة .

ـ : ادخل ايها الرجل من المطر ، ولا تفكر بالعشاء .

ولم يدخل بل جثم في العتبة ولم يسمح لنفسه بان يتجاوزها تأدبا .

ولم تكن خيمتنا بالملاذ الحصين والملجأ الذي يحمينا من هذه الشلالات العارمة والتلال المائية المنهمرة . نعم ان المطر يهاجمنا بقوة في الداخل . ان رذاذا خفيفا كان يتسلل خلال الخيش ، فيصيبنا بالبلل جميعا ، وكنا نجلس فوق سروج الجياد ، ووجوهنا تنطق بالضيق والسآمة والغضب ، بينما كان المطر يسيل من حواف قبعاتنا الامامية ، فيصل الى وجوهنا ، ويغمر ثيابنا . وقد سهل العطاف

المصنوع من المطاط الهندي الذي ارتديه ايصال عدد وفير من الجداول الصغيرة السريعة الى الارض ، بعد ان جرت فوقه • اما عطاف الحرام الذي كان يرتديه شو ، فقد تمدد وانتفخ كالاسفنج لكثرة ما امتص من الماء • غير ان أشد ما ازعجنا كان تجمع جداول الماء العديدة ، وخاصة حول عمود الخيمة ، ومعنى ذلك تهديد بانتشار الماء في جميع الجهات ووعد مباشر بقضاء ليلة رغدة مريحة • وما حان الغروب حتى سكنت العاصفة فجأة مثلما ابتدأت ، فظهر خط احمر صاف من السماء امام الحافة الغربية من المرج ، وانسابت من خلاله اشعة افقية من الشمس تؤذن بالغياب ، بينما لمعت هذه الاشعة في الاف من الالوان والاشكال الموشورية فوق الاعشاب الممتدة والاشجار التي يقطر منهاالمطر • وكم كانت خيبة آمالنا عظيمة حين ظهر بعد حين ان جميع امانينا كانت باطلةوهمية ، فلم يكد يرخي الليل سدوله ، حتى انفجرت الضوضاء مرة أخرى• واخذ الرعد يقصف بصوت هائل فوق رؤوسنا مباشرة ، ويهدر فوق السهول والمروج الشاسعة ، وكأنه يدور حول دائرة الفلك دورات كاملة • وظل البرق يلمع ويخطف الابصار طيلة الليل ، متلألئا بنوره ، وكاشفا بين حين وآخرالمتسع المديدمن السهول• واضطررنا ازاء هذه العوارض ان نمكث داخل الخيام ، كما لو كنا مسجونين وراء جدار محسوس من الظلام • ولم يكن ذلك يزعجنا ، ولكن ما يزعجنا اننا كنا نستيقظ بين حين وآخر على صوت دوي الرعد وقصفه ، الذي كان استمراره بمثابة اشارة بأن ثورة الطبيعة في تقلبها لاتزال في أوج احتدامها ، فنشعر بغزارة الامطار المنهمرةفوق رؤوسنا على خيش الخيمة المتين ، وكنا نقي انفسنا من البلل فنضطجع على الثياب المصنوعة من مطاط الهند ، ولكن استمرار سقوط المطر

واشتداده سبب آخر الامر جريانه تحتنا وتجمعه في أرض الخيمة، حتى صرنا في اخر الليل تنام في برك صغيرة تشكلت من مياه المطر المتجمعة •

ولم يكن المنظر الذي أفقنا على رؤيته في الصباح الباكر بهيجا او سارا اذ لم يعد المطر يهطل مدرارا ، بل اصبح يسقط بهدوء فتقرع نقاطه الخيش المشبع بالماء • وتخلصنا من البطانيات التي كان نسيج كل خيط فيها يقطر ماء • ونظرنا الى الخارج علنا نجد ما ينبيء بطقس جميل ، فرأينا السحب الكثيفة بلون الرصاص تتلبد فـــوق حافة المرج الكئيبة او تتمدد ببلادة الكسول فوق رؤوسنا ، ولم تكن الحلة التي ارتدتها الارض ، اجمل وابهى منظرا من السماء ، فلا تبدو فيها الا برك الماء والعشب المنتشر والوحول التي وطأتها حوافر خيلنا وبغالنا • وكانت خيمة رفاقنا المهملة كئيبة المنظر ، وعرباتهم المبللة التي تقف غير بعيد منا قد اصابها سوء الطالع بأضرار جسيمة • وفي تلك اللحظة ، كان الكابتن قد انهى توا دورته التفتيشية الصباحية على الخيل ، وعاد متسللا خلال الضباب والمطر ، ومعطفـه المخطط فوق كتفيه ، وغليونه التافه الحقير الذي يشبه اثرا من الاثار القديمة يبدو من بين شاربيه، وقد رافقه أخوه جاك ، وعند الظهر انقطع المطر وصفا الجو ، فخرجنا نتنقل بين الوحول والحفر المملوءة بالمياه ، والتي يزيد عمقها عن ستة انشات ، ونجونا في تلك الليلة من محنة الاستحمام بماء المطر والغرق فيه •

وبعد ظهر اليوم التالي تحرك الركب ببطء نحو اليمين الى رقعة غير بعيدة من الغابات ، والتفت جاك الذي كان يتقدمنا قليلا ، وصاح باخيه مشيرا الى الغابات •

ــ انظر يا بيل هذه البقرة !

دفع الكابتن جواده الى الامام يستحثه بسرعة في العدو ، وبذل هو وجاك جهدا كبيرا للحصول على الغنيمة ، غير ان البقرة كانت في حل من الحذر منهما ، فاختبأت بين الاشجار . فانضم شو اليهما وسرعان ما اخرجوها . وكنا نشاهد مناوراتهم وهم يعدون حولها يحاولون عبثا أن يمسكوا بها بالقاء حبالهم عليها . ولم يكن من بد أخيرا من اتباع وسائل اللين واللطف ، فاستاقوها مع الركب . ومضت فترة ليست طويلة حين هبت العاصفة المعتادة ، وثارت الرياح بشدة ، وجرت سيول هادرة من المطر الغزير ، الذي كان يسقط بعد أن تسيره الرياح بمستوى افقي . ووقفت الخيول مستدبرة العاصفة ورؤوسها مدلاة تحتمل المحنة بصبر واستسلام ، أما نحن فقد جثمنا على سروج خيلنا ، ورؤوسنا بين اكتافنا وظهورنا درء يقي اجسامنا . وكان من سوء حظ الكابتن ان البقرة وجدت في هذه الاثناء فرصة للافلات فولت الادبار في جو الضجة والضوضاء المسيطر حينئذ . اما الكابتن فأسرع يجري وراءها وهو يتحدى العاصفة ولا يلقي اليها بالا وقد ثبت قبعته على رأسه واخرج غدارة كبيرة من جرابه واخذ يطاردها ، واختفت المطاردة خلف حاجز من الضباب الكثيف وموجات من المطر المنهمر ، فلم نستطع متابعة حوادث المشهد . ومضت فترة طويلة قبل ان نسمع صياح الكابتن الذي برز امامنا من خلال العاصفة ، وقد اشهر غدارته وصوبها الى السماء على سبيل الحيطة والحذر ، وكانت ملامحه تدل على الضيق والتأثر ، ومظهره اشبه ما يكون باولئك الفرسان الايرلنديين ، والبقرة تعدو امامه وهي لاتزال مصممة على الهرب ، اما صياح الكابتن فكان ايعازا لنا بالوقوف في طريقها واعتراضه . وكان المطر قد نفذ من ياقات معاطفنا وسال الى اعناقنا واجسادنا التي انهكها البرد ، فلم نجرؤ حتى

على تحريك رؤوسنا كي لايدخل المزيد من المطر فتزداد اجسامنا بللا على بلل • لذلك لم نحرك ساكنا وكأننا خشب مسندة ننظر الى الكابتن وهو يرمقنا شذرا ويرسل ضحكات هسترية تدل على مدى غيظه وضيقه • ولم تلن البقرة رغم الطراد العنيف بل استمرت في الفرار ، فامسك الكابتن بغدارته وساق جوادهوراءها وهو ينوي بها السوء ، ولم يجد الا أن يطلق عليها طلقة طرق صوتها آذاننا بعد لحظة ، وظهر المنتصر على الاثر وهو يقود ضحيته التي اصابها •

هدأت العاصفة بعد قليل فتابعنا سيرنا ، وكان جاك يقود البقرة التي تسير بصعوبة من أثر الاصابة ، بينما كان الكابتن يسير في الطليعة • وحين اقتربنا من صف طويل من الاشجار يمتد بمحاذاة نهر يخترق طريقنا ، رأينا فارس الطليعة يعدو راجعا نحونا وقد بدا الاضطراب على محياه رغم الضحكة الفاترة التي كان يفتر بها ثغره والتي ارتسمت على وجهه •

صاح : دعوا هذه البقرة تسير من الخلف ، ان اصحابها قادمون للبحث عنها •

وخلف صفوف الاشجار رأينا شيئا ابيض يشبه خيمة كبيرة وعند وصولنا لم نجد سوى المرج المنفرد وصخرة كبيرة بيضاء واقعة بجانب الطريق بدلا من مخيم المورمون الذي كنا نتوقع ان نجده في ذلك المكان ، لذلك اعيدت البقرة الى مكانها من الركب •

وتابعنا السير حتى المساء حيث اقمنا خيامنا واخذنا نتهيأ للعشاء • واقترب « ر » ببندقيته الانكليزية ذات الفوهتين من البقرة وصوبها الى قلبها وأطلق رصاصة أتبعها بأخرى • ثم ذبحها وسلخ جلدها استنادا الى ما عرف من مبادىء الغاب الازلية وازدادت أخيرا قائمة طعامنا المحدودة لونا طالما تمنينا تذوقه •

وبعد يوم او اثنين بلغنا النهر المسمى « الازرق الكبير » واسماء جميع انهار هذه المنطقة تقريبا جميلة رشيقة ، ومضى الصباح في الكفاح لاجتياز الخنادق والانهار الصغيرة . اما اشد الصعوبات التي كانت تنتظرنا ، فقد واجهتنا حين حاولنا اجتياز الغابات الكثيفة التي تقع على ضفاف « الازرق » ، اذ وجدنا مجرى النهر قد امتلأ بالامطار حتى اصبحت ترتفع عن مستوى الضفتين فبدا واسعا عميقا وسريعا .

لم نكد نصل الى المكان حتى نزع « ر » ثيابه وأخذ يسبح محاولا الوصول الى الضفة الاخرى ، وقد قبض باسنانه على طرف حبل كان يسحبه معه . فنظرنا جميعنا اليه باعجاب ، ونحن نتساءل عن الهدف الذي يرمي اليه بعمله الغامض الذي يقوم به . ولكن سرعان ما عرفنا الجواب على تساؤلنا حين سمعناه يصيح ، « اربطوا طرف الحبل بجذع تلك الشجرة . أنت ياسوريل هل تسمعني ؟ لاتحملق بي يابوافير . ليأت بعضكم الى هذا الطرف لمساعدتي . » ولم يعر الرجال الذين وجهت اليهم هذه الاوامر اي اهتمام في تنفيذها ، ولكن هنري شاتيون قاد العمل الذي سار بسرعة وهدوء . وكنا نسمع دمدمة « ر » بدون انقطاع وهو يعمل ويقفز بنشاط عظيم . غير ان اوامره كانت متناقضة بشكل يثير الضحك ويدعو للتسلية اذ انه حين وجد ان الرجال لم يأتمروا بامره، قرر ان يتكيف مع ظروفهم فطلب منهم بشدة وحزم ان يثابروا على عملهم الذي يقومون به . ولكنه حين لاحظ ابتسامة شو الساخرة ، اخذ حماسه يتبخر حتى صمت بعد وقت قصير .

واخيرا انتهى العمل في الطوف ، فحملنا امتعتنا اليه عدا بنادقنا التي فضل كل منا ان يبقيها معه . ووقف كل من سوريل وبوافير ورايت وديلوريه في زاوية من زوايا الطوف (الرمث) الاربعة

ليوازوها ، وهم يسبحون بها ، وقد رأينا كل ما نملك يطوف فوق مياه نهر الازرق الكبير الموحل • ونحن على الضفة ننظر بقلوب واجفة حتى رسا الطوف في خليج صغير على الضفة المقابلة • واخيرا نقلنا العربات الفارغة بسهولة ، وركب كل منا جواده ، وخضنا النهر تتبعنا الحيوانات الاخرى بملء ارادتها •

الفصـــل السادس

نهر بلات والصحراء

بلغنا أخيرا نهاية رحلتنا الموحشة في طريقنا الى سانت جوزيف • وفي مساء الثالث والعشرين من مايو ضربنا خيامنا بالقرب من النقطة التي تتصل بطريق مهاجري الاوريجون الرئيسي القديم ، وقطعنا بعد ظهر ذلك اليوم مسافات طويلة على أمل العثور على الماءوالحطب ولكن بدون جدوى • وفي المساء رأينا أشعة شمس الغروب تنعكس من بركة محاطة بالصخور والاشجار الكثيفة والماء يقع في قعر أجوف ، بينما المرج الناعم يرتفع برشاقة بموجات تشبه موجات المحيط • فضربنا خيامنا بجانبه ، وقد لمحت عينا هنري شاتيون الثاقبة من فوق المرتفع البعيد شيئا غير عادي في المكان الذي وصفته• غير انه كان يستحيل في مثل هذا الجو المعتم الرطب القاتم • وفي مثل ذلك الوقت من المساء تمييز أي شيء بوضوح • وعندما كنا متحلقين حول النار بعد تناول طعام العشاء ، بلغ مسامعنا أصوات ضعيفة تنبعث منمسافة بعيدة ، كانت أصوات رجالونساء يضحكون• ولا يمكن أن نتصور كم ظهرت هذه الاصوات غريبة نابية وسط السكون التام الذي يسود المرج • وكان قد مضى علينا ثمانية أيام دون أن نصادف حيا يرزق • فكان لثقتنا من قربهم منا وتأكدنا لوجودهم حولنا اثر شديد في نفوسنا •

وعند الغسق هبط من التل رجل شاحب الوجه على ظهرجواده، متجها نحو المخيم • وكان يرتدي معطفا كبيرا ، وقبعة واسعة من الفلين تغطي أذنيه ، ثم تبعه شخص آخر قوي البنية ضخم الجثة

تبدو عليه علائم الذكاء ، فاخبرنا أنه قائد ركب المهاجرين الـذين يخيمون على بعد ميل واحد عنا . ثم قال ان معه عشرين عربة ، وان نفرا من رجال القافلة تخلفوا عند ضفة (الازرق الـكبير) بانتظار امرأة حامل كانت على وشك أن تضع .

كانت هذه أول قافلة من المهاجرين أدركناها في طريقنا ، وقد لمسنا من آثار تقدمهم المصاعب والمشاق والمتاعب الكثيرة التي صادفتها في طريقهم ، فمررنا في أماكن مختلفة برجال من هذه القافلة ماتوا وهم في طريقهم للحاق بها . ولاحظنا أثناء سيرنا شقوقا كثيرة في الارض متجهزة بفخاخ لصيد الذئاب التي كان بعضها يفلت منها ، وبعضها الآخر يقع في براثنها . وفي صباح أحد الايام جلبت انظارنا قطعة من الخشب منصوبة فوق قمة تل مكسو بالعشب فوصلنا اليها وقرأنا الكلمات التالية منقوشة بخط خشن بواسطة قطعة محماة من الحديد .

ماري ايليس
توفاها الله في مايو ١٨٤٥
وعمرها شهران

وطالما صادفنا مثل هذه الاشارات في طريقنا فيما بعد .

وفي الصباح التالي تأخرنا عن الرحيل . ولم نكد نشد الرحال ونسير ميلا أو اثنين حتى رأينا أمامنا عن بعد صفا غامضا ممتدا حتى الافق على طول حافة المرج المنبسط . وما لبث أن اختفى عن أنظارنا فجأة وراء مرتفع فاصل ، وحين أدركناه بعد حوالي ربع ساعة أو أكثر عرفنا أنه لم يكن الا قافلة المهاجرين التي رأيناها أمامنا عن كثب بعرباتها البيضاء الثقيلة وهي تزحف في موكب بطيء ، ويتبعها قطيع كبير من الماشية . وكان ستة من رجال ميسودي

ذوي الوجوه الصفراء بأجسادهم النحيلة وملابس الرماية التي يرتدونها يعتلون ظهور خيولهم ، ويقذفون اللعنات والصيحات فيملؤون الجو بصراخهم • وعندما اقتربنا منهم صاحوا مرحبين متسائلين ، « كيف حالكم أيها الرجال » • هل أنتم ذاهبون الى أوريجون أم الى كاليفورنيا ؟»

وعندما اقتربنا من العربات برزت رؤوس الاطفال من تحت الاغطية البيضاء ، كما ظهرت وجوه نساء نحيفات اضناهن التعب وطول السفر ، وفتيات ناضرات كن يجلسن أمامهن ويعملن منازلهن ، وأخذ الجميع ينظرون الينا بدهشة واستغراب ملىء بالفضول ، وكان كل من الرجال يحث ثيرانه المريضة المنهكة ، وقد أخذ يسير بجانبها • وتحمل الجميع مشقة وعنتا في كل خطوة من تلك الرحلة التي بدا أن لانهاية لها • وكان من السهل أن نلحظ الخوف والشقاق الذي كان يسيطر عليهم ويسود بينهم • وكان الرجال ـ عدا بعض منهم ، عزبا ـ قد أخذوا ينظرون الينا بلهفة بينما كنا نمر بهم بخفة مسرعين ثم ينظرون بضجر وتأفف الى عرباتهم الثقيلة الحركة ، وثيرانهم البطيئة التي تدب على الارض كالسلحفاة • وكان يثيرهم أكثر من هذا أو ذاك أن بعضهم كان يرفض التقدم الا بعد أن يلحق بهم رفاقهم المتأخرون • كما ان أكثرهم كانوا يتهامسون بغيظ ضد القائد الذي انتخبوه ،ويحاولون أن يجدوا طريقة لعزله • وقد غذى استياءهم وتذمرهم ، وبث بينهم روح الحقد بعض ذوي الاطماع ممن كانوا يساورهن شعور يخنقوا ذلك القائد في منصبه • أما النساء فكان يساورهن شعور الندم على تركهن بيوتهن ، ويسيطر عليهن الخوف من الصحراء والمتوحشين والمصير الذي ينتظرهن •

تركناهم خلفنا وسرنا مسرعين وأملنا أن يكون لقاؤنا آخر لقاء ووداع ، ولكن احدى عربات رفاقنا سقطت في أخدود عميق مملوء بالوحول ، وقبل أن نتمكن من اخراجها ، رأينا طلائع قافلة المهاجرين تعود الى الظهور مرة ثانية ، وهي تهبط حافة قريبة منا ، ثم مالبثت عرباتهم أن سقطت في الوحول واحدة تلو الاخرى . ولما كان الوقت ظهرا، والمكان ظليلا يكثر فيه الماء وتطيب الاقامة ، فقد عزموا على اقامة مخيمهم في أرجائه . وفي الحال تحركت العربات على شكل دائرة . وكان القطيع يرعى في المرج . واسرع الرجال ذوو الوجوه الصفراء يبحثون عن الحطب والماء . ولكن يظهر أن جهودهم لم تكلل بالنجاح ، ولم تجد المطلوب .

وفيما نحن نهم بالسير اذ رأيت رجلا طويلا مترهلا يتكلم بلهجة الولايات الشرقية فيخرج كلماته من أنفه ، ينظر في محتويات قدحه المصنوع من القصدير ، والمملوء بالماء ويقول :

انظر ياهذا ، ان الماء هنا مملوء بالحيوانات !

وكان القدح الذي قدمه الينا يعج حقا بانواع مختلفة من الاحياء الحيوانية والنباتية .

أخذنا طريقنا صعودا الى التل الصغير ، وحانت منا التفاتة الى الوراء ، فرأينا الفوضى قد ضربت أطنابها ، والامور تسير سيرا طبيعيا في مخيم المهاجرين ، فقد كان الرجال يحتشدون ، وقد اشتد النقاش بينهم . ولم يكن « ر » في مكانه من صفوفنا ، فقد تخلف ، كما أخبرنا ، لكي يبدل نعل جواده عند بيطار يسير مع قافلة المهاجرين . وكان قلبي يحدثني انه قادم على أمر يسوؤه ، ومع ذلك فقد تابعنا سيرنا ، فبلغنا نهرا آخر ذا ماء صاف ، فتوقفنا لنستريح ونتناول طعامنا ، ومضى وقت قبل أن يظهر الغائب وهو

ممتلي صهوة جواده على بعد ميل فوق قمة التل ، وكان يتحرك خلفه شيء كبير أبيض يرتفع ببطء امام أعيننا .
ـ ما الذي يحمله هذا الاحمق الآن ؟

وبعد برهة انكشف السر ، فقد رأينا أربعة أرتال طويلـــة من الثيران يسير الواحد تلو الآخر ، وأربـــع عربات من عربات المهاجرين تتقدم فوق التل ، وأمامها « ر » يســـير في الطليعة ، أما تعليل هذه الظاهرة ، فهو أن الخلاف اشتد بين المهاجرين أثنـاء الوقت الذي كان « ر » يغير به نعل جواده ، فأدى الى انقسامهـم فبعضهم كان يلح في متابعة السير الى الامام ، والبعض الآخر يصر على البقاء في ذلك المكان والبعض الثالث كان يطلب العودة من حيث أتوا جميعا ونهض كيرسلي قائد الركب ، وأعلن باشمئزاز تنحيه عن القيادة ، ثم قال ، والآن أيها الاخوان ، من أراد منكم متابعـة السير فعليه ان يتبعني .

وتألفت الفرقة التي قررت الاستمرار في السير من أربع عربات مع عشر رجال وامرأة وطفل صغير ، وأمـا « ر » فقـد دعاهم كي يلتحقوا بركبنا رغم استعـداده الفطري للاضـــرار بالاخرين . فالخوف من الهنود ـ ولا أرى سببا غير ذلك ـ دعاه الى التودد لهذا الحليف المتعب . وعلى كل ، فقد كان تصرفه نابيا وغير مناسب . والحق أن الرجال الذين ألتحقوا بنا ، كانوا ممن يرغب الانسان في مرافقتهم ، وعلى الرغم من قسوتهم فقد كانوا يحبون الصراحة عدا عن اتسامهم بالذكاء واتصافهم بالشهامة ، لذا فلم يدر في خلدنا أن نرفض رفقتهم أو نعترض عليها . غير انني ذكرت كرسلي بأنه اذا لم تستطع ثيرانهم اللحاق ببغالنا ، فسوف نتركهم فلا يلبثوا أن يتخلفوا عن القافلة ، لأننا لا نستطيع أن نتأخر أكثر ممـــا

تأخرنا ، ولكنه اجابني في الحال ، فأكد قائلا ، ان على ثيرانه أن نسير معنا . والا لم تستطيع ذلك ، فهو يعرف كيف يمكنها ويجبرها عليه .

واتفق في اليوم التالي ان كسر محور عجلات عربة رفاقنا الانكليز ، فسقطت وما تحمله الى قاع النهر ، فاضطررنا الى العمل بجد طوال ذلك اليوم الذي اسقطناه من حسابنا .

أما شركاؤنا المهاجرون فقد تابعوا سيرهم وهم يحثون ثيرانهم القوية بشدة وحزم حتى تعذر علينا ادراكهم خاصة وانا نسوق عربة مكسورة المحور هذا الى النكبات الكثيرة التي توالت علينا . وهكذا فقد مضى أسبوع قبل أن نلحق بهم ثانية في مساء أحد الايام وهم يسيرون بهدوء على ضفة نهر البلات .

كان من المحتمل في هذه المرحلة من رحلتنا أن يحاول هنود البوني أن ينهبوا أمتعتنا ، لهذا فرضنا نظام الحراسة بالمناوبة وقسمنا الليل الى ثلاثة أقسام ، يتولى الحراسة في كل قسم رجلان وقمت شخصيا بالحراسة مع ديلوريه . ولم نتقيد بالطريقة العسكرية في السير جيئة وذهابا أمام الخيام . ولم نفرض على أنفسنا نظاما قاسيا ، بل تلفعنا بالبطانيات ، وجلسنا جانب النار، وقام ديلوريه بتحضير الطعام بالاضافة الى واجبه في الحراسة ، فطها رأس وعل لطعام الافطار . ومع ذلك فقد كنا في نوبتنا انموذجا للنشاط وحسن القيام بالواجب بالنسبة لسائر رجال الفرقة الاخرين . وكان عمل الحارس الاعتيادي لايتجاوز أن يضع بندقية على الارض ويغطي أنفه ببطانية ، ويفكر في فتاته أو في أي موضوع يسره . وهذا النمط من الحراسة كاف حين يكون بين الهنود من لا يذهب في العداء الى أكثر من نهب جياد المسافرين وبغالهم

وثيرانهم • ولا يمكن بالطبع الاعتماد على صبر هنود البوني ، بل انه في بعض المناطق الغربية البعيدة يجب على الحارس أن يكون شديد الحذر ، فلا يتعرض لضوء النار ، لئلا ترسل اليه عيون الرماة النافذة رصاصة أو سهما في الظلام فيفقد حياته •

ومن بين القصص التي دارت حول نار مخيمنا ، قصة رواها لنا بوافير ، تناسب كثيرا واقع حالتنا • لقد قال انه كان يصطاد مع بعض اصدقائه في منطقة بلاك فوت ، وكان الحارس يعلم أن عليه أن لايغفل ، وأن يكون على أهبة الحذر والاستعداد واليقظة ، وأن يبقى بمعزل عن ضوء النار ، فيراقب كافة الانحاء حوله بدقة ويقظة • ولاحظ أخيرا وجها أسود ينسل دون ضجيج أو ضوضاء الى دائرة الضوء • فسحب زناد بندقيته بسرعة ، ولكن الصوت الحاد بلغ اذني هندي البلاك فوت ، الذي كان متيقظا ، فصوب قوسه نحو الهدف وأرسل سهما الى عنق الحارس التعيس الذي سقط الى الارض بعد أن اطلق صيحة شديدة • ولما نظرت الى رفيقي في الحراسة وهو يشهق ويزفر فوق النار ، تبين لي أنه ليس المساعد الكفء في زمن الشدة •

ـ هل تهرب اذا هاجمنا هنود البوني ، واطلقوا علينا الرصاص؟

ـ آه نعم ••• نعم ياسيدي • قال ذلك مؤكدا قوله

وفي هذه اللحظة سمعنا اصواتا غريبة مختلفة ـ من نباح وعواء وعويل ـ آتية من المرج • وكانت تختلط وتتداخل وكأنها أصوات مجموعة من الذئاب من كل سن وجنس • وما أن سمع ديلوريه تلك الاصوات حتى أخذ يقلدها بصورة بارعة تدعو الى السخرية والضحك • فتضاعفت الاصوات قوة ، وخيل الينا كأن صاحب الصوت الاصلي استاء وغضب للجهود المثمرة التي أبداها منافسه

في تقليده • أما مصدر هذه الاصوات جميعا فكان يخرج من حنجرة ذئب صغيرمن ذئاب المروج، لايزيد حجمه على حجم كلب السبانييل• وقد أقعى بالقرب منا بوجهه القاسي الجهم • الا أنه ليس من الحيوانات المؤذية ، بل كان أشد ميله وهوايته في أن يتسلل بين الجياد ويقضم الحبال المصنوعة من الجلد التي تربطها حول المخيم• وكانت هنالك حيوانات أخرى تحوم في المروج ، أشد شراسة وخطرا في شكلها وطباعها من ذئب المروج كالذئاب البيضاء والرمادية التي كنا نسمع صراخها وعواءها من بعيد •

غفوت قليلا ثم استيقظت لأجد ديلوريبه مستغرقا هو أيضا في النوم • فاستأت من مخالفته للنظام • وكدت الكزه بحاضن بندقيتي، ولكن الشفقة تغلبت علي ، فقررت أن أدعه نائما بعض الوقت ثم أوقظه لالقنه درسا لن ينساه في التزام القيام بالواجب الذي فرط به وأهمله • وكنت من حين لآخر أقوم بجولة تفتيشية بين الجياد لا تأكد أن الامور طبيعية ، وان كل شيء على مايرام •

كان الليل باردا رطبا مظلما والعشب المبلل ينحني بتأثير قطرات الندى المتجمدة الحبيبة ، وكانت الخيام تختفي في الظلمة على بعد فرسخ أو فرسخين ، فتتعذر الرؤية ويصعب التعرف حتى على وجوه الخيول الغريبة • ولقد شهقت شهقة عميقة وأنا أنظر اليها بقلق وأسائل نفسي ، أهي نائمة أم ترعى العشب • وفي الافق على حدود المروج المترامية الاطراف كان يبرز تدريجيا ضوء أحمر كنار ملتهبة في كبد السماء حتى ظهر اخيرا قرص القمر الواسع ولونه أشبه مايكون بلون الدم ، ثم أخذ يرتفع ببطء في الظلام ويتسلل بين السحب الصغيرة التي تعترض طريقه وقد انبعثت أشعته فوق السهول الكئيبة ، بينما كان يسود المكان جو رهيب

مؤثر ، اذ كانت الوحوش تشاركني اليقظة ، في المنطقة الواسعة المحيطة بنا •

مضت عدة أيام وصلنا بعدها الى نهر بلات • وفي ذات صباح اقترب من قافلتنا فارسان ، ونحن ننظر اليهما ونراقبهما بفضول واهتمام ، فمقابلة أي انسان في مثل هذه السهول المنعزلة ، كانت تثير اهتمامنا دائما ، وظهر لنا من طريقة ركوبهما الخيل ، انهما من البيض • ولكن ما أدهشنا أنهما لم يكونا يحملان أي بندقية ، خلافا لمقتضيات وعادات تلك المنطقة •

يالهما من أحمقين ! قال هنري شاتيون مظهرا استغرابه وعجبه انهما يسيران في المروج بدون اسلحة فهما كالباحث عن حتفه بظلفه ، وسوف ينتهز الهنود الفرصة فيقبضون عليهما •

وكان ما توقعنا وشيك الوقوع ، فقد عثر هنود البوني عليهما ، فاقتربوا ليقبضوا عليهما ، وبالطبع لم ينجهما من الوقوع في قبضتهم ومن المصير الرهيب الذي ينتظرهما ، سوى ظهور موكبنا ، حيث تعرفت بأحدهما ـ وهو رجل يدعى تورتر ، كنا قد رأيناه في ويست بورت ـ وكان مع رفيقه وهما من أفراد رتل من المهاجرين ، قد ضربا خيامهما على بعد بضعة أميال أمامنا ، وعادا ليبحثا عن بعض الثيران الضالة ، وتركا بندقيتهما جهلا وطيشا وراءهما • فكاد هذا الاهمال يكلفهما غاليا ، اذ اقترب منهما قبل أن نظهر نحن ، ستة من الهنود ، فوجدوهما بدون سلاح ، فأمسك أحدهم بزمام جواد تورتر ، وامره بالترجل • وكان تورتر لايحمل سلاحا كما اشرنا ، غير أن رفيقه أخرج مسدسا من جيبه ، وصوبه نحو الهندي ، تتراجع هذا سريعا ، في حين ظهر بعض رجالنا عن بعد ، فالهب الهنود ظهور جيادهم بالسياط • ولم يأبه تورتر ذلك الاحمق لما جرى ، فتابع سيره كأنه لم يقع شيء •

وبعد ن غادرنا تورتر ورفيقه بوقت طويل ، التقينـــا فجأة في المرج الكئيب القاحل ، بعد ظهر ذلك اليوم ، بقافلة كبيرة من الهنود البوني القادمين من قراهم الواقعة على ضفة نهر بلات في طريقهم الى مواقع صيدهم وغزوهم في الجنـوب • وكان هذا الحشــــد المتعدد الالوان ، والذي يعد ألوف المتوحشين من الرجال والنساء والاطفال ، وكثيرا من الخيل والبغال ، يسير في كل صيف بأسلحته ومهامه الاخرى ويتبع الركب عدد لا يحصى من ذئاب الكلاب التي لم تأخذ بعادات المدينة في النباح فظلت تعوي كما تعوي فصائلهـا من الوحوش في المروج • أما القرى الشتوية الدائمة لقبائل البوني، فتقع على ضفة نهر البلات الاسفل • ولكن القسم الاكبر من هؤلاء كان يجوب في فصل الصيف خلال السهول فيعيثون فسادا ، انهم اشقياء غادرون ، جبناء يقترفون آلافا من جرائم القتل وأعمـــال النهب والسلب فهم اذن يستحقون الجزاء والعقاب لما اقترفته أيديهم، ولهذا فقد أوقعت عليهم الحكومة القصاص اللازم وأنزلت بهـــم العقاب الرادع • ولقد قام في السنة الماضية محارب من داكوتا بعمل بطولي رائع في احدى هذه القرى • فقد تسلل اليها وحيدا في منتصف ليلة ظلماء ، وتسلق أحد الاكواخ المشيدة على شكل نصف دائرة، ونظر الى الداخل من الفتحة العلوية التي يخرج منها دخان النار في أعلى الكوخ ، على ضوء النار الخامدة اشخاصا نائمين ، فانزلق بخفة وصمت في هذه الفتحة ، واستل سكينا ، وانتخب ضحاياه فذبحهم واحدا تلو الاخر وسلخ جلودهم • وحدث أن استيقـظ أحد الاطفال فجأة ، ورأى ذلك فصرخ من خوفه ، فاندفع المحارب الداكوتي الى الخارج ، وهو يطلق صيحة الحرب الخاصة بهنود السيو ، ثم أعلن اسمه في نصر وتحد ، واختفى بين طيات الظلام

في المرج الشاسع ، تاركا القرية كلها ، وقد حف بها الضجيج والصراخ والفوضى بينما زاد الطين بلة والناس ارتباكا ، نباح الكلاب ، وعويل النساء وزئير المحاربين الحانقين .

كان صديقنا كرسلي ، حسبما علمنا منه ، بعد أن التحقنا به ثانية ، قد اشتهر بعمل أقل وحشية وسفكا للدماء من ذلك العمل الانف الذكر . وكان هو ورجاله من أشد حراس الغابات براعة ومهارة في استعمال البندقية ، غير انهم وجدوا المروج تختلف عن محيطهم الذي ألفوه . فلم يكن أحد منهم قد رأى من قبل ثورا من البافالو . وكان ما لديهم من المعلومات عن طبيعته ومظهره ضئيلا ويكتنفه الغموض . وحدث في اليوم التالي لوصولهم الى نهر البلات ، أن رأوا في مرتفع بعيد مجموعة كبيرة من البقع السوداء الصغيرة تتحرك على سطحه . فقال كرسلي :

هيئوا بنادقكم أيها الرفاق ، فسنحصل على كثير من اللحم الطازج للعشاء . وكان أملهم في الصيد حافزا مثيرا وباعثا قويا لهم على العمل ، فتركوا عرباتهم ، وخرجوا مسرعين جريا على الاقدام وعدوا على الخيل لمطاردة ما خيل اليهم انها ثيران البافالو . وفي تلك الاثناء اختفت الطرائد وراء حافة عالية يسترها العشب . ولكنهم بعد أن تسلقوا عدوا واقتضى ذلك نصف ساعة ونيف من الجهد المضني ، وجدوا أنفسهم يجابهون حوالي ثلاثين فارسا من البوني . فساد الذعر والاستغراب الطرفين . ولم يكن الهنود يحملون سوى الاقواس والسهام ، فحسبوا أن أجلهم قد دنا ، وأن المصير الذي يستحقونه أوشك ـ بعد أن فوجئوا ـ على الوقوع ، لهـذا أخذوا يهللون ويؤهلون بالترحيب الحار ويهرولون لمصافحة رجال ميسوري ، الذين وجدوا المخرج بالخلاص من الاصطدام المنتظر بهذه الوسيلة .

كان صف من التلال الرملية المتموجة يتاخم الافق أمامنا ،فسرنا في ذلك اليوم عشر ساعات متوالية ، الى أن حل الظــلام قبل أن ندخل فجوات وأودية تلك التلال الصغير المعتمة . وأخيرا بلغنـا القمة،وكان وادي نهر بلات الطويل يمتد أمامنا . فشددنا الاعنة ، ووقفنا ننظر بسرور الى تلك المناظر التي تحيط بنا والى النهر الذي لم يكن فيه من صور العظمة سوى سعتـه وامتـــداده ، وانفراده والوحشة التي يشعرها الانسان وهو يسير قربه ، وكان الـسهـــل يمتد فرسخا بعد فرسخ منبسطا كالبحيرة . وكان البلات يجتازه هنا وهناك ، ثم ينقسم الى اثني عشر فرعا صغيرا كأنها الخيــوط توشي بساط السهل المتسع . وكانت بعض الاشجار تنتصب فـي وسطه كالجزر الظليلة فتخفف من وحشة الوحدة في الصحراء . ولم يكن من كائن حي تقع عليه العين خلال المناظر الواسعـــة ، سوى العظايات (السحلية والضب) التي كانت تسير فوق الرمال وبين الاعشاب والاجاص الشوكي تحت اقدامنا .

لقد مررنا حتى الآن باشق جزء من رحلتنا . ولـــكن لايزال يفصل بيننا وبين حصن لارامي أربعماية ميل . وذلك يعني أن علينا كي نصل اليه ان نسير ثلاثة أسابيع متتالية . وتقدمنا في تلك الاثناء بسهل رملي طويل ضيق على شكل حزام منبسط يتصل بجبال روكي، وكان يقسم ذلك الحزام خطان من التلال الرملية التي تتاخم الوادي مسافة ميل أو اثنين يمينا وشمالا فتعطيه شكلا خياليا غريبا ، بينما امتدت وراءها بيداء قفراء تؤدي من أحد جوانبها الى أركنساس على بعد مئات من الأميال ، ومن الجانب الآخر الى الميسوري . وقــد اختفت الطرق أو المسالك تماما في هذه الصحراء . وامتد أمامنـا وخلفنا سهل بلقع لا يتبدل له وصف ولا يتغير له شكل على مـدى

ماتصل اليه العين ، حيث تلمع الشمس فوق رماله العارية الحارة •
كما تغطيه الاعشاب الكثيفة في أماكن مختلفة ، بينما تنتشر جماجم
وعظام البافالو في كافة أرجاء المنطقة فتمتلىء الارض ببقايا هـــذه
العظام التي تدل على الاماكن التي كانت تتمرغ فيها تلك الثـــيران
في الطقس الحار • كما بدت لنا الطرق التي كانت تسلكها ثيران
البافالو حين ترد ماء نهر البلات • أما الحيوانات الكاسرة والرجال
المتوحشون الذين يؤمون وادي البلات ، فكانوا يعيثون فيه فسادا ،
حتى أصبح مسرحا مثيرا للتخريب والفوضى • ويندر من مر من
بين المسافرين بتلك الارجاء ولم يقف ينظر الى الخلف باسف عميق
ندما وحسرة على بندقية اضاعها أو جواد افتقده •

وفي الصباح الباكر من وصولنا الى البلات ، اقترب من مضاربنا
موكب طويل من المتوحشين القذرين الذين كانوا يسيرون ويقودون
خلفهم خيولهم التي ربطوها بحبال مصنوعة من جلد الثور الامريكي •
أما الازياء التي يرتدونها فتتألف من حزام قذر وثوب قديـــم
من جلد البافالو قد اتسخ وبلى لطول الاستعمال • وقد حلق كـل
منهم شعر رأسه فيما عدا خصلة تتدلى فوق التاج في مقدم الرأس ،
وتشبه شعر الضبع الطويل الذي ينمو فوق ظهره ، وحمل قوسه
وسهامه بيده بينما كان جواده الكسول النحيل محملا بلحم البافالو
المقدد الذي حصل عليه من الصيد • وهذه أول نماذج الهنـــود
الذين التقينا بهم ــ وكان لقاء تشوبه اللامبالاة ــ من المتوحشـــين
سكان المروج الاصليين •

كان هنود البوني هم الذين التقى بهم كيرسلي في اليوم المنصرم ،
وهم ينتمون الى جماعة كبيرة من الصيادين اشتهروا بمهارتهـــم
وكثرة تجوالهم وطوله ، وسرعتهم في التنقل • فقد مروا عـــلى

بعد ۲۲۰ ياردة من خيامنا بسرعة بالغة دون أن يتوقفوا أو يلتفتوا نحونا أو يقيموا لنا وزنا ، على عادة الهنود عندما يضمرون السوء أو يودون الفرار • ولكني تقدمت لاقابلهم فجرى بيني وبين زعيمهم حديث ودي ، فقدمت اليه على أثره نصف ليبره من التبغ ، فقابلها بكثير من الشكر والامتنان وكان هؤلاء الهنود أو بعض رفاقهم ، هم الذين اعتدوا بنذالة وحقارة على قوافل المهاجرين التي سبقتنا • وكان رجلان من المهاجرين قد تخلفا عن رفاقهما ، فحاول الهنود القبض عليهما ، غير انهما سارعا بالهرب على ظهور جيادهما • فاطلق الهنود صيحة الحرب ، وانطلقوا في اثرهما ، وأخذوا يرشقونهما بالسهام التي أصابت أحدهما ، بينما نجا الآخر وتابع فراره ، حتى وصل الى المضارب • وأخبر رجال القافلة بما حدث فاعتراهم الجزع وأصابهم الهلع ، ولم يجرؤ أحد منهم على الخروج كما لم يسارع أحد منهم لنجدة زميلهم المصاب أو العثور على جثته، ان كان قد قضى نحبه •

ان الطقس عندنا في نيو انكلاند معتدل وهادىء بالنسبة لطقس منطقة بلات • ففي هذا الصباح مثلا ، كان الطقس حارا تشوبه الرطوبة ، وتنقبض به النفوس • وحين اشرقت الشمس كانت اشعتها ضعيفة خافتة • وفجأة سارت العتمة جهة الغرب ، فهطلت أمطار مصحوبة بالبرد • وكان اشتداد المطر وانهماره بشكل غير طبيعي ، أشبه بنوازل من الابر ، أما منظر الخيول حين ذاك فكان وكأن السخط الشديد قد اجتاحها ، فهي ترتجف كلما هبت الريح العاصفة ، وتصهل بصوت أقوى من أصوات الذئاب ،فيشبهصهيلها العواء • ووصلت قافلة البغال التي يقودها رايت ، وهي تجر ذيولها أمام العاصفة ، فكان منظرها شبيها بعصافير ساقتها العواصف الى حيث

لاتدري • وهكذا لبثنا جميعا بدون حراك بضع دقائق ، جاثمين بالقرب من جيادنا ، وقد ألجم ألسنتنا الرعب القاتل ، فصرنا غير قادرين على النطق • وحين رفع الكابتن رأسه من ياقة معطفه ، كان وجهه محتقنا بالدم وقد تقلصت عضلات وجهه من شدة البرد في تكشيرة من الألم تبعث على السخرية واليأس • وغمغم بصوت يشبه اللعنة ، موجهة على مانعتقد الى الساعة التعيسة التي فكر فيها بان يقوم بهذه الرحلة ، ويغادر وطنه • وعندما هدأت الريح ، ثبتنا الخيام واستكنا داخلها طيلة ذلك اليوم الكئيب الغائم • وضرب المهاجرون ايضا خيامهم بجوارنا • وقد جمعنا كل ما كان في متناول يدنا من الحطب اذ سبقناهم في احتلال الارض ، فكانت نارنا هي الوحيدة التي تتأجج في المنطقة ، فتبعث الدفء والحياة • وسرعان ما اجتمعت حولها زمر من الوجوه الخشنة المرتجفة من البرد في المطر الهاطل • وكان بين المتجمعين رجلان أو ثلاثة من انصاف المتوحشين الذين قضوا حياتهم في المغامرة والصيد واقامة الشراك في جبال الروكي لحساب شركة الفراء في القرى الهندية • أما وجوههم التي لفحها الطقس وتقلب الاجواء ،وشواربهم الغزيرة التي تبدو من تحت ياقات معاطفهم كالأشواك ، فكانت تظهرملامحهم المتحجرة القاسية ، كما لو كان أصحابها وكلاء للشر والجريمة في هذا العالم •

وفي اليوم التالي أدركنا كيرسلي ، وعند ذلك استمر سيرنا سوية مدة أسبوع أو اسبوعين فاثمر هذا التكاتف نتائج طيبة ، اذ خفف عنا كثيرا من متاعب الحراسة ، كما خفف عنهم • واصبحت القافلة الآن أكثر عددا ، وطالت فترات الراحة بين أدوار الحراسة •

الفصل السابع

ثور البافالو

أربعة أيام مضت ونحن نقيم على ضفاف نهرالبلات ، ولا أثر هناك لثور البافالو ، وكانت الآثار المختلفة عن السنة الاولى ، تدل على كثرتها الهائلة . اما الخشب فكان نادرا جدا في تلك المنطقة ، ولكننا وجدنا بديلا رائعا عنه في روث البقر الذي يشتعل بدون أن يكون له رائحة كريهة . وفي صبيحة أحد الايام غادرت العربات المخيم متوجهة الى الامام . وبينما اعتلينا أنا وشو ظهري جوادينا ، كان شاتيون لا يزال مستلقيا بجانب النار يداعب بندقيته ، وهو غارق في التفكير في حين كان جواده القوي يقف بجانبه هادئا . وأخيرا نهض وأخذ يداعب عنق جواده (الذي أطلق عليه اسم خمسماية دولار زيادة في تقدير مزاياه) ثم اعتلى ظهره ، ووجهه ينطق بالحزن والكآبة .

ـ ما الامر ياهنري ؟

ـ آه ، انني اشعر بالوحدة والضجر ، ولا أعلم ماتخبىء لنا ، تلك الارض البعيدة الملونة . وهذه البراري التي غطيت ببقايا عظام البافالو وحوافرها ، فأنا لم ابلغها من قبل .

خرجنا معا بعد الظهر بحثا عن الآرام (بقر الوحش) ، الى أن شاهدنا قافلة العربات البيضاء على بعد ميل أو ميلين. وبدا الخيالة كالبقع السوداء الصغيرة ، وهي تتقدم ببطء شديد كما لو كانت ساكنة عديمة الحركة ، والى اليسار بعيدا يرتفع خط متقطع من

التلال الرملية الموحشة • أما السهل الفسيح فكان يتماوج بالعشب الطويل الوفير الذي يجاري بطون الخيل في ارتفاعه ويتمايـــل تأثير النسيم العليل ، وكانت الذئاب تبدو عن بعد وهي تثبت وتنتقل بوحشية وعنف ، بينما كانت الارام تقترب منا تدفعها غريزتها الهائلة وطبيعتها الوديعة وفضولها الذي امتازت به ، وهي تنظر الينا بعيونها الكبيرة الواسعة •

نزلت عن ظهر جوادي ، وأخذت ألهو باطلاق النار على الذئاب، بينما كان هنري يتحرى المناظر المحيطة بنا بدقة • وأخيرا طلب مني أن امتطي الجواد ثانية وهو يشير الى جهة التلال الرملية حيـــث كانت تتحرك على بعد ميل ونصف بقعتان سوداوان أو أن تجتازا احدى هذه التلال العارية • ثم ما لبثتا ان اختفتا وراء القمة ، فصاح هنري ، فلنذهب هناك ، والهب ظهر « الخمسماية دولار » فعدوت خلفه ونحن نخترق الاخشاب الكثيفة نحو سفح التلال •

ومن احدى الفتحات ينحدر واد عميق يتسع كلما اقترب مـــن المروج • فدخلناه ثم توغلنا فيه ، وبعد برهة أحاطت بنا التـــلال الرملية الباردة • وكان أحد جوانبها عاريا بينما كانت الجوانـــب الاخرى ترتدي ثوبا من الادغال العشبية• ومن بينها نباتات الكمثرى الشوكية التي تشبه الافاعي ، والتي تتفرع في عدة وديان • وفجأة اسودت السماء ، وهبت رياح باردة عاصفة ، فبدت الشجيـــرات الغريبة والتلال الموحشة أكثر كآبة وأشد وحشة • غير أن وجه هنري كان يعبر عن اهتمامه المتزايد • فمزق خصلة شعر مـــن جلد البافالو المفروش فوق سرجه ، وقذف بها ليعرف اتجاه الريح• فتبين لنا أنه يسير الى الامام مباشرة • اذن فالطرائد كانت في اتجـاه الريح ، ومن الضروري أن نسرع لنحيط بها • فصعـدنا الوادي

واسرعنا بالسير بين التجاويف حتى وصلنا الى واد آخر شديد العمق ، يتلوى كالثعبان بين التلال ، فاجتزناه ونحن ننظر بين الادغال المنتشرة على حافته . وسرعان ماجذب هنري عنان جواده، ثم ترجل حيث رأينا على بعد ربع ميل رتلا طويلا من ثيران البافالو، يسير كالهنود باتزان وهدوء خطيرين عند تل صغير أمامنا،ثم تبعه قطيع آخر أكثر عددا وأخذ يصعد منخفضا غير بعيد ، ثم جعل يتسلق منحدرا معشوشبا متجها نحو تل آخر . وكانت الثيران تتقدم في طريقها بخطوات بطيئة ولكنها ثابتة ، غافلة عن العيون التي تراقبها . وبعد لحظة كان هنري يزحف على الارض بين الاعشاب والاشواك متجها نحو ضحاياه الغافلة ، وهو يحمل بندقيته وبندقيتي معا . ولم يلبث أن غاب عن ناظري بينما كانت ثيران البافالو مستمرة في سيرها نحو الوادي . وظل السكون يشمل المكان وقتا طويلا وأنا انتظر قابضا على عنان الجواد واتساءل عما حدث له ، وفجأة سمعت طلقات متابعة من البندقيتين ، فاسرعت صفوف البافالو وهي تعدو ثم أخذت تختفي تدريجيا فوق حافة التل . وعندها نهض هنري ووقف على قدميه وهو ينظر اليها .

قلت له : لقد اخطأتها .

فأجاب : نعم ، دعنا نذهب ، ثم هبط الى الوادي بعد أن زود البندقيتين بطلقات جديدة ، وامتطى ظهر جواده .

صعدنا التل نتبع ثيران البافالو ، ونسير في أثرها وكان القطيع قد اختفى عندما وصلنا الى القمة ، ولكن أحد الثيران كان طريحا على الارض وقد فارق الحياة . وبجانبه آخر يكافح الموت وهو في النزاع الاخير .

والتفت هنري الي وقال : « أرأيت كيف أنني اخطأته »

لقد اطلق النار عن بعد مئة وخمسين ياردة واخترقت رصاصتان رئتيه ، وهو المكان المحدد في صيد البافالو .

ازداد الظلام وبدت نذر عاصفة هوجاء في طريقها الينا ، فربطنا الجوادين الى قرون الضحيتين ، وبدأ هنري عملية التشريح بمهارة فائقة . وعبثا حاولت تقليده . ولم يرق حصاني هندريك العجوز ذلك المنظر ، وعندما حاولت تعليق لحوم الثيران بالحبال التي كنا نحملها خلف السرج لهذا الغرض ، أخذ يتقهقر برعب واشمئزاز، وبعد صعوبات جمة تمكنا من التغلب على وساوسه وجموحه . وحملنا اللحم الصالح للأكل واتجهنا عائدين الى مقرنا . ولم تمهلنا العاصفة حتى نصل . فلم نكد نجتاز الوديان ونخرج الى المروج العارية ، حتى فوجئنا بهطول البرد كالابر والشوك ينخس في رقابنا، وتعقبه الموجة منه موجة أخرى . وساد الظلام واكفهر الجو وتعتم، مع أنه لم يحن بعد وقت غروب الشمس . ولم يمض على ذلك الا قليلا حتى بدأت العاصفة الثلجية تنفذ الى أجسادنا، غير أن عدو الجياد السريع القوي جلب بعض الدفء الى اجسامنا . بعد أن الهبنا ظهورها بسياطنا الهندية .

وبعد ساعة من السير الشاق ظهرت لنا الخيام المعتمة وهي تلوح بغموض من خلال العاصفة الهوجاء ، وقد انتفخ أحد جوانبها من شدة الرياح التي تعصف بها وانهار الجانب الآخر ، بينما كانت الخيول المسكينة حزينة مقرورة ترتجف وهي تقف حولها ، في حين كاد يعلو صفير الرياح بين اغصان الاشجار الثلاث القديمة اليابسة ، ليزيد من شقاء هذه الحيوانات البائسة . وكان شو يعلو صهوة جواده كشيخ وقور ، وغليونه في فمه وقد طوى ذراعه ، وأخذ يتأمل بسرور أكوام اللحم التي طرحناها أمامه . واعقبت

ذلك النهار ليلة ظلماء مرعبة • وحينما أشرقت شمس اليوم التالي نشرت حرارة شديدة ممزوجة بالرطوبة ومكتنفة بالهدوء ، حتى ان الكابتن اعتذر عن ترصد ثور عجوز من البافالو كان يسير بوقار احمق متجها نحو النهر • هكذا كان طقس نهر البلات •

ولم يكن الطقس وحده سببا في الانهيار المفاجيء لحماس واندفاع رجل رياضي كالكابتن • فقد خرج بعد ظهر اليوم السابق مع عدد من رفاق الرحلة للصيد ، ولكن لم ينجم عن ذلك سوى خسارة جواد من أفضل جيادهم ، حيث اصابه سوريل وهو يطارد ثورا جريحا من البافالو • وكان الكابتن الذي استقى آراءه عن ركوب الخيل الشاق من المصادر الاوروبية ، قد أبدى دهشة واعجابا شديدين لبراعة سوريل في المطاردة حيث راح يقفز الوديان ويندفع باقصى سرعة صاعدا حينا وهابطا آخر في جوانب التلال العالية • وهو يسوط جواده بتهور خيالة جبال روكي • وكان ذلك الحصان يخص « ر » الذي يكن له سوريل كرها شديدا ومقتا مميتا • فنفث مقته وكراهيته لصاحب الجواد في الحيوان المسكين فقضى عليه • ويظهر ان الكابتن نفسه حاول مرة أن يطارد ثيران البافالو غير أنه عدل عن القيام بهذه المحاولة على الرغم من أنه خيال ماهر ، اذ أن مسرح المطاردة وطبيعة الارض أثارت في نفسه الكراهية والنفور من القيام بهذه المطاردة •

كنا عائدين من جولة استطلاعية عندما صاح هنري ، هاهو باين العجوز وفردريك قادمان من حصن لارامي ، ولم يكن لقاء مفاجئا اذ كنا نتوقعه منذ عدة أيام • أما باين هذا فهو رئيس حصن لارامي • وقد نزل الى النهر ومعه أحمال من جلد البافالو والسمور ، التي هي محصول تجارة الشتاء الماضي • وكان بين امتعتي رسالة كنت أود

أن اسلمها لباين وفردريك ، فرجوت هنري بأن يوقف القوارب اذا استطاع حتى أعود ، وأسرعت في أثر عرباتنا التي كانت تتقدمنا بحوالي أربعة أميال ، فلحقت بها بعد نصف ساعة. وأخذت الرسالة وعدت الى الطريق • ولفت نظري بقعة من الارض حطمت العاصفة كل ما بها من اشجار ، وقد أخذت تتحرك بجانبها بقع سوداء صغيرة تشبه الرجال والخيول • وعندما بلغت المكان ، وجدت مجموعة غريبة من أحد عشر زورقا محملة بالجلود ، تسير بقرب الضفة خشية ان يجرفها التيار السريع • وعندما بلغنا الضفة استدار الرجال من خلف المجاذيف فاذا وجوه وحشية لرجال من المكسيكيين السمر الذين اشتهروا بالحقارة والدناءة • وكان باين جالسا في وسط أحد القوارب فوق غطاء من الخيش أعده ليغطي به بضائعه • وكان رجلا قويا ذا عينين صغيرتين لهما بريق غريب مفعم بالمكر والدهاء ،وكان فريدريك يقف بجانب الرئيس ، بينما يكمل الموكب ، « الرجال الجبليون » الذين كان بعضهم مستلقيا في القارب وآخرون يتبخترون على الشاطىء وهم يرتدون ثيابا زاهية متعددة الالوان من جلد البافالو ، مثل فتيان الهنود • وكان بعضهم قد صبغ شعره والصقه بصدغيه بالغراء ، وآخر لطخ مقدم رأسه وخديه بالسليقون • لقد كانوا عرقا هجينا • ومع ذلك تسلط عليهم الدم الافرنسي ، فلم يكن بينهم من له عيون سوداء مما يتميز به الهجائن الهنود ، وكانوا جميعا يهدفون الى التشبه بشركائهم الحمر •

صافحت الرئيس وقدمت له الرسالة ، وسارت القوارب بسرعة يدفعها التيار • وكان لاسراعهم من الاسباب الوجيهة ما يحملهم على ذلك • فالرحلة من حصن لارامي استغرقت معهم شهرا ونيفا حتى الان ، وقد توقفت القوارب أكثر من خمسين مرة فوق اليابسة ،

ذلك لأن الماء كان يأخذ بالتناقص في كثير من الاماكن فيصبح ضحلا • لذا فان أولئك الذين يسافرون عبر نهر البلات يقضون نصف أوقاتهم على جزر رملية في وسط النهر • وافترق فيما بعد قاربان لتجار آخرين عن بقية القوارب ، ثم لم يلبثا أن توقفا في المياه الضحلة ، قريبا من قرى هنود البوني • فأحاط بهما سكان تلك القرى ، الذين نهبوا كل ماظنوه ثمينا بما في ذلك الثياب • وشاقهم أن يرفهوا عن أنفسهم ، فشدوا وثاق الحرس ثم أخذوا يجلدونهم بالسياط •

أقمنا مخيمنا تلك الليلة على شاطيء النهر • وكان بين المهاجرين فتى كامل النمو هائل الجسم يبلغ ثمانية عشر عاما تقريبا ، له رأس ضخم يشبه اليقطينة ، ووجه طبعته الحميات والملاريا بطابعها الخاص • وكان يضع فوق رأسه قبعة بيضاء عتيقة ثبتها تحت ذقنه بمنديل • أما هو فقصير القامة ذو جسم قوي ، وساقان طويلتان لاتتناسبان مع قصر قامته • نظرت اليه وقت الغروب وهو يصعد التل بخطوات جبارة ، ثم يقف فوق القمة كملقط كبير تحت قبة السماء • وسمعناه بعد برهة يصرخ بجنون وهلع خلف حافة التل ، فلم يشك أحد منا في أنه وقع بين براثن الهنود أو الدببة الرمادية ، فتناولنا البنادق ، وهرعنا لنجدته • وحين أدركناه وجدناه يغلي بابتهاج وسرور ، وهو يطارد اثنين من صغار الذئاب وقد جثا على ركبتيه أمام وكرهما كالكلب ينتظر خروجهما ليمسك بهما •

وقبل صباح اليوم التالي سبب لنا اضطرابا شديدا في المخيم • وكان دوره في حراسة أواسط المعسكر • فما يكاد يدعى للحراسة حتى ثار ببرود ، وأخذ كيسين من أكياس السروج ووضعهما تحت احدى العربات ، ثم وضع رأسه عليهما وأغمض عينيه ونام •

واعتقد الحارس الواقف بجانبنا ان واجبه لا يحتم عليه مراقبة قطيع مواشي المهاجرين ، فاكتفى بمراقبة خيولنا وبغالنا ، وكان ضجيج الذئاب غير عادي ، حسب قوله ، لكنه لم يتوقع منها أي أذى حتى اشرقت الشمس ، فلم نجد من القطيع لاحافرا ولا قرنا لقد اختفى القطيع بكامله . أما توم الابيض فكان مستغرقا في نومه بينما استاق الذئاب القطيع بعيدا .

لقد حصدنا ثمار خطة « ر » الثمينة من سفرنا برفقة المهاجرين غير انه لم يخطر ببالنا أن نتركهم في كربهم وضيقهم . فاضطررنا أن ننتظر الى أن يعثروا على ما تبقى حيا من القطيع . وقد يكون القارىء تواقا لمعرفة ما أصاب توم الخائن من العقاب . وكان قانون المروج يقضي انجزاء من ينام أثناء الحراسةهو السيرعلىقدميهطيلة اليوم الثاني وهو يقود جواده . واخطأ رفاقنا في عدم تطبيق هذه العقوبة على المذنب . ومع ذلك فلو كان من رفاقنا فانني لا أشك في أنه في مثل هذه الحال سينجو آمنا مطمئنا . غير أن المهاجرين تجاوزوا الحدود في صبرهم وسفاهتهم ، فقد قرروا أن يعفوه من الحراسة بعد ذلك وتركوا له أن ينام ملء عينيه بعد الآن . ان اقرار هذا التشجيع على الكسل قد يكون له أسوأ الاثر على نشاط الحرس ، لانه من غير المستحب أن يسير المرء من الصباح حتى المساء ، ثم يستيقظ من نومه على وخز في جبينه بعقب بندقية أو برأس حذاء ، ليسمع صوتا ناعسا يطلب منه أن ينهض ، فيقضي ثلاث ساعات في منتصف الليل يرتجف خلالها من البرد القارس .

وسمعنا صوتا يصرخ ، بافالو .. بافالو ! والواقع انه لم يكن هناك سوى ثور عجوز يجوب المروج هربا من الناس . ولكني اقنعت نفسي بوجود أكثر من ثور وراء هذه التلال . وخشية أن

يستولي علينا الملل ، أسرجنا أنا وشو جوادينا وعلقنا الكنانتين في محليهما ، وخرجنا بعد أن اصطحبنا هنري شاتيون معنا طلبا للصيد • ولم يكن يرغب ان يشترك معنا في المطاردة ، بل كان يريد أرشادنا فقط وقد حمل بندقيته بينما تركنا بنادقنا حتى لا تكون عبئا ثقيلا علينا • وسرنا مسافة خمسة أو ستة أميال ، لم تقابل خلالها

سوى الذئاب والافاعي وكلاب المروج •

قال شو : ان هذا لا يكفي •

فسألته بلهفة وما هو الذي لا يكفي •

أجاب ، لا يوجد خشب يكفي لنعمل منه محفة لو جرح أحدنا ، ان قلبي يحدثني اننا سنحتاجها قبل أن ينصرم هذا اليوم •

والحق أن هناك أساسا سليما لهذه الفكرة • فالارض لا تصلح للمطاردة ، وقد أخذت تزداد وعورة كلما توغلنا فيها ، كما أن التلال بصخورها المدببة وانحدارها المخيف ، والتجاويف العميقة ، والوديان العديدة التي يستحيل المرور فيها الا بأشد الصعوبات ، كل هذا يؤكد صحة رأي صديقنا شو •

تقدمنا نحو ميل ، فشاهدنا قطيعا من الثيران بعضه يرعى في منحدر اخضر ، في حين يهيم الباقي في التجويف الواسع المنخفض• فسرنا في دائرة كبيرة لنبتعد عن انظاره ، ثم اتجهنا نحوه•وصعدنا احدى التلال التي تبعد عنه مئتين وعشرين ياردة تقريبا ، ولكن تلك التلة كانت جرداء تماما وليس هناك ما يحجبنا عن أعين القطيع • فاضطررنا أن نترجل ونختفي خلف حافتها ، ثم سحبنا أحزمة السروج ، وفحصنا غداراتنا واتجهنا نحوه • وحينما اقتربنا منه ركبنا مرة أخرى، ثم هبطنا التل نحوه ، وقد اطلقنا العنان لجيادنا •

وبغريزة الحيوان أحست الثيران بالخطر ، فتجمعت وركضت بمجموعة متراصة الاكتاف . فتبعناها وقد همزنا خيولنا فعدت بأقصى سرعتها وقد اندفع القطيع الى سفوح التلال ، وأخذ أفراده يتجمعون ويتزاحمون فيطأ بعض الثيران البعض الآخر ، ثم جعلت هذه الثيران تتدافع وقد استولى عليها الرعب ، بينما كنا نعدو في أعقابها ونحن نكاد نختنق من الغبار التي تثيره بركضها وعدوها . وعندما اقتربنا من القطيع ازداد فزعه وازدادت سرعته . ولما كانت خيولنا حديثة العهد بهذا النوع من العمل ، وبمثل هذه المطاردة ، فقد أصابها رعب شديد . وأخذت تقفز بشدة ، وتستدير لتولي الادبار كلما زدنا في الاقتراب، وترفض أن تدخل بين القطيع ورغم ذلك فقد انقسمت ثيران البافالو الى زمر صغيرة متعددة تعدو هاربة فوق التلال في مختلف الاتجاهات ، وافترقنا فلم أعد أرى شو ، ولم يعد أحدنا يعرف أين ذهب الآخر . وأخذ حصاني العجوز بونتياك يصعد تلا ويهبط آخر وهو أشبه ما يكون بالفيل المجنون بحوافره الثقيلة التي تضرب في البراري مثل المطارق الكبيرة ، وقد أظهر مزيجا غريبا من الحماس والخوف . فتارة يسعى لادراك القطيع الفزع الخائف وتارة يتراجع مذعورا عندما يقترب منه وأخيرا أقنعت جوادي أن يتبع أحد الثيران ، بعد ان حاولت عبثا بالجلد والوخز ان أجعله يتقدم خطوة واحدة . وكانت وسيلة الاقناع انني أطلقت من هذا المكان غير المناسب . فقفز بونتياك وراء الطريدة قفزة شديدة . وكانت الرصاصة قد اخترقت مؤخرة الثور ولكنها فشلت في شل حركته ، فصياد ثيران البافالو يجب أن يصيبها في اجزاء خاصة من جسمها والا هربت رغم جروحها في مواضع أخرى . وصعد القطيع بعدئذ احدى التلال فتبعته . وبينما كان

بونتياك يعدو هابطا ، رأيت شو وهنري يهبطان الى المنخفض الواقع الى اليمين ، في حين كانت ثيران البافالو تختفي في تلك اللحظة وراء قمة التل التالي وقد ارتفعت ذيولها ، ولمت حوافرها وسط سحب هائلة من الغبار •

في تلك اللحظة سمعت شو وهنري يناديانني ، غير أني عجزت عن كبح جماح بونتياك الهائج ، اذ أن منظر البافالو كان جديدا عليه فملأه بالرعب واستحال علي ايقافه ، ولم تعد ذراعي تقوى على شد لجامه • وعندما كنت قد وصلت الى أعلى الحافة ، كانت جميع ثيران البافالو قد اختفت في منعرجات التلال والفجوات • فحشوت غدارتي مرة أخرى ، وتابعت سيري حتى رأيتها تعدو مسرعة عند سفح التل ، وقد ألفت حالتها الجديدة ، فخف رعبها ، فنزل بونتياك العجوز اليها ، فافترقت وتبعثرت في جميع الاتجاهات • وعندها بدأت مطاردة طويلة أخرى • كان أمامنا ما يقرب من اثنى عشر ثورا تطوف التلال وتجوبها وتهبط المنحدرات بقوة وجهد ، ثم تعود بمشقة الى الصعود • الا أن بونتياك امتنع عن الاقتراب منها ولم ينفع فيه الوخز والضرب ، وحدث أن تعثر أحد الثيران فسقط خلف رفاقه ، فحثثت جوادي على التقدم ، فاقترب منه بعد جهد عظيم مسافة ست أو ثماني يردات • وكان العرق يسيل من جسده بغزارة وهو يلهث بصعوبة بينما تدلى لسانه بأكثر من قدم في الطول خارج فكيه • فاقتربت منه تدريجيا ، وأنا أحث بونتياك بشتى الوسائل ، وفجأة استدار نحونا وهيئته تدل على مزيج من الغضب والخوف من سرعته وارخى رأسه الكبير الاشعث استعدادا للهجوم• وهذا ما يفعله كل ثور في مثل هذه الظروف • ولم يرق بونتياك ما فعله الثور فنفخ بشدة وقفز جانبا من شدة الرعب ، فكاد يلقيني

الى الارض • ولم أكن على استعداد لهذا التحول ، فرفعت غدارتي لأهوي بها على رأسه ، فلاح لي أن من الافضل أن أطلق الرصاص على الثور الذي عاد الى الهرب • فشددت عندها العنان وقررت الانضمام الى رفاقي • فقد حان وقت العودة ، وبونتياك لا يزال يشخر بشدة والعرق يتصبب غزيرا من جانبيه • حتى شعرت كما لو أنني قد استحممت بماء حار • فقطعت عهدا على نفسي أن انتقم في فرصة أخرى ، فنظرت حولي عساني أرى ما يهديني الى الطريق الذي يجب أن اتبعه • ولكني كنت كمن يفتش على علامات الحدود في وسط المحيط • ولم أكن أعلم كم قطعت من الاميال أو في أي اتجاه أسير • وقد امتدت من حولي المروج وارتفعت القمم الشاهقة وعلت المرتفعات دون أن يكون فيها جميعا نقط مميزة يمكن أن ترشدني الى الطريق • وكنت أحمل معي بوصلة صغيرة معلقة الى عنقي ، غير انني كنت أجهل ان البلات في هذه المنطقة ينحرف انحرافا كبيرا عن مجراه الشرقي • وقررت أن أسير شمالا حتى أصل اليه. • وهكذا فقد غيرت وجهتي وسرت ساعتين في ذلك الاتجاه • فرأيت أن طبيعة المروج تتغير كلما تقدمت في السير • غير أنني لم أر أثرا لنهر البلات ، ولا ما يشير الى وجود انسان ، فلا يزال نفس المتسع الموحش الذي لانهاية له يمتد حولي ، ويحف بي مما يدل على انني لا أزال بعيدا كل البعد عن هدفي • وقد اصبحت اخشى خطر الضياع وصرت أحسب لهذه المشكلة حسابها ، فشددت العنان واستنجدت بما لدي من المعلومات القليلة عن الصيد والقنص (اذا كان هذا التعبير يصح ان ينطبق على المروج) في محاولة لانقاذ نفسي • وقد خطر لي أن البافالو يمكن أن يكون أفضل دليل بالنسبة لي وهكذا عثرت على أحد الممرات

التي يمر بها في طريقه الى النهر • وهو يتجه تقريبا في زوايا قائمة نحو الطريق الذي أسلكه • ولكنني عندما أدرت رأس جوادي الى ذلك الاتجاه ، تأكدت من طريقة سيره المرح واذنيه المتصبتين انني كنت مصيبا •

لم تكن رحلتي ومغامرتي مريعة أو موحشة على أي حال • فقد كان وجه الارض يعج على سعته بمئات لا تحصى من ثيران البافالو التي تتجمع في صفوف على سفوح المنحدرات الخضراء القابلة في طريقها الى التلال • وكنت أفاجيء أثناء عودتي بعض الثيران الطاعنة وهي ترعى وحيدة أو نائمة وراء التلال ، فكانت تهب واقفة عند اقترابي منها فتنظر الي ببلادة ، ثم تركض هاربة بتثاقل • وقابلت أعدادا كبيرة من الابل في طريق عودتي ، فكانت تظهر جرأة عظيمة وهي في حمى ثور من البافالو • فكانت تقترب مني وتنظر الي بعيونها المستديرة الواسعة ثم تقفز فجأة وتعدو هاربة فوق المروج بسرعة خيول السباق • أما الذئاب المتوحشة فكانت تتسلل من خلال الفجوات والوديان الرملية • ومررت في طريقي عدة مرات بقرى تعج بكلاب المروج ، وقد أقعت أمام أوكارها باسطة أذرعها تتوسل ثم لا تلبث أن ترسل عواء شديدا وتهز ذيولها كلما اطلقت صيحة من صيحاتها الشديدة المنكرة • وكلاب المروج لاتدقق كثيرا في اختيار اصدقائها وجيرانها • فهناك عدد متنوع من الافاعي الطويلة المخططة تأخذ حمامها الشمسي في وسط القرية ، واسراب من البوم الرمادي الصغير الذي يزينه خط أبيض حول عينيها ، وهي تقف بجانب سكان القرية الشرعيين • لقد كان المرج يضج بالحياة الصاخبة • وكنت انظر المرة تلو المرة نحو جوانب التل المزدحم ، فيخيل الي أنني أرى بعض الخيالة قادمين

نحوي • وبمزيج من الشعور بالامل والخوف من أن أكون على مقربة من الهنود ، سرعان ما كنت أتخيلهم يتحولون الى قطيع من ثيران البافالو ، فلم يعد هناك أثر للبشر بين هذه الجماعات الكثيرة من المستوطنين المتوحشين •

وحينما انحدرت الى طريق البافالو تراءى لي أن المرج قد تغير ، فكان يمر بقربي ذئب أو اثنان في فترات متقطعة ، كمجرمين يقظين لايلتفتان يمينا ولا يسارا • وتغلبت على القلق الذي ساورني وأخذت أراقب ما حولي بدقة وانتباه • وهنا لاحظت للمرة الاولى بعض الحشرات التي تختلف تماما عن مثيلاتها التي تعيش في الجهة الشرقية • وأخذت أنعم النظر في الفراشات المزخرفة المتعددة الالوان وهي ترفرف حول رأس الجواد ، والخنافس الغريبة التكوين وهي تلمع ببريق معدني فوق نباتات لم أرها من قبل ، والسحالي تمر كالبرق فوق الرمال •

وكنت قد ابتعدت كثيرا عن النهر ، فكلفني ذلك سيرا طويلا شاقا حين عدت الى طريق البافالو قبل أن أظفر برؤية سطح البلات من قمة احدى التلال الرملية ، وهو يلمع وسط الوادي ، وقد بدت خلفه التلال كخيط ضئيل يحاذي السماء ، حيث لا يبدو أي أثر لاي كائن حي خلال ذلك المتسع من البقاع التي تلفحها الشمس• وبعد نصف ساعة وصلت الى طريق لا تبعد عن النهر الا قليلا، فتأكدت أن القافلة لم تمر بعد ، فاتجهت نحو الشرق لالتقي بها • وكانت خطوات بونتياك السريعة المرحة وسيره خببا يؤكد لي اني كنت على صواب في تصرفي • ولما كنت أشعر بالمرض منذ الصباح قبل أن أترك المعسكر ، وبما أن مغامرتي هذه التي استغرقت ست أو سبع ساعات قد انهكت قواي ، لهذا توقفت والقيت نفسي الى الارض

واستلقيت وأنا أمسك عنان جوادي ، وانتظر بفارغ الصبر مرور القافلة ، وأفكر في ما قاساه ذلك المسكين بونتياك في هذا اليوم . وأخيرا بدت أغطية العربات البيضاء تظهر رويدا من أطراف السهل. لمحت في تلك اللحظة اثنين من الخيالة يهبطان التلال . فاذا همـا شو وهنري اللذان كانا يفتشان عني منذ افترقنا في الصباح ،ولكنهما بعد أن تبين لهما عدم جدوى هـذه المحاولات في هذه المنطقـة الوعرة وقفا في قمة أعلى تل أمامهما وربطا جواديهما بجانبهما حتى أتمكن من رؤيتهما ، ثم اضطجعا على الارض وغرقا في سبات عميق. وقد أخبرنا المهاجرون ان القطيع الشارد قد عثر عليه بعد الظهر . واستمر سيرنا مع القافلة حتى غروب الشمس فقطعنا مسافة ثمانية أميـال .

في ٧ يونيو (حزيران) عام ١٨٤٦ ـ فقدنا أربعة رجال وهـم سوريل و « ر » واثنين من المهاجرين ، فقد خرجوا هذا الصباح لصيد البافالو ولم يعودوا بعد . ولا ندري اذا كانوا قتلوا أم فقدوا أم ضلوا طريقهم .

وجدت هذه الفقرة في دفتر مذكراتي ، فاستعدت ذكرى الاجتماع الذي عقدناه بهذه المناسبة حول النار المشبوبة. وكانت خبرة هنري شاتيون وذكاؤه قد جعلاه مرجعا في الشدائد بالنسبة لجميع رجال المخيم ، كان يعيد تعبئة بعض الرصاص الملقى على الارض وهـــو يجلس بجانب النار ، عندما اقترب منه الكابتن يرافقه جاك ، وقـد انعكست علائم القلق والاهتمام بوضوح على ملامح الاخير الذي كان يتبعه عن كثب ، ثم توافد المهاجرون من عرباتهم نحو المركز العام . وعرضت اقتراحات مختلفة تتعلق بغياب الرجال الاربعة ، فـذكر بعض المهاجرين ، انهم بينما كانوا يفتشون عن القطيع شاهدوا بعض الهنود ، وهم يتعقبونهم ويترصدونهم ويزحفون كالذئاب على اطراف التلال . فهز الكابتن رأسه ببطء وقد بدت على وجهه ملامح الجـــد وقال بلهجة خطيرة :

ـ : ان السير في هذه الاراضي الوعرة اللعينة هو من الامـور الخطرة ، وقد وافق جاك على هذا الرأي ، كما وافق الجميع •• اما هنري فلم يحكم على نفسه باعلانه موافقته ، اذ قال ، انا لا استطيع ان اقول شيئا ، فربما تبع احدهم ثورا من البافالو الى مسافـة بعيدة • او ان احد الهنود قد اغتاله او انه ضل طريقه بين التلال •

واقتنع المسافرون بما سمعوا ، اما المهاجرون فلم يستول عليهم الخوف ، مع انهم كانو يتوقون لمعرفة ما حل برفاقهم • وحين عادوا الى عرباتهم،رجع الكابتن الى خيمته وقد بدت عليه علائـم التفكير العميق ، واتجهنا انا وشو الى خيمتنا •

الفصل الثامن

الافلات

في الساعة الحادية عشرة من اليوم الثامن من يونيو (حزيران) بلغنا المفترق الجنوبي لنهر البلات ، حيث توجد المخاضةالاعتيادية. ولم تنقطع مناظر الصحراء التي استمرت باطراد فرسخا بعد فرسخ . فالتلال تغطيها خصل الاعشاب المتجعدة وتتألق ذرات الرمل الابيض بينها تحت الشمس ، وتشكل قناة النهر التي هي في مستوى السهل ، وهنا بساط رملي كبير يقارب عرضه نصف ميل ، ويغمر الماء جزءا من سطحه فيكاد يختفي قعره بصعوبة ، ورغم اتساع البلات العظيم فلا يكاد عمقه يتجاوز في هذه المنطقة قدما ونصف . ووقفنا عند ضفته وجمعنا روث البقر وأعددنا طعاما من لحم البافالو . وكانت تتراءى لنا في المرج الاخضر البعيد مضارب المهاجرين البيضاء وعرباتهم . واستطعنا أن نميز في الجهة المقابلة زمرة من الرجال والحيوانات قرب الماء ولم نلبث طويلا حتى رأينا أربعة أو خمسة من الخيالة يخوضون النهر ويجتازونه خلال عشر دقائق ، ويصلون الضفة الرملية المتراخية . لقد كانوا ضعيفي الابنية ، نحيفي الأجسام سمر الوجوه ، تبدو عليهم علائم الهم والقلق . وقد تقلصت شفاههم بشدة ، وبدا لنا أن لديهم ما يبرر شعورهم بالضيق ، فانه لم يكد يمضي عليهم ثلاثة أيام منذ أن ضربوا خيامهم في هذا المكان حتى فقدوا مائة وثلاثة وعشرين رأسا من أفضل مواشيهم التي افترستها الذئاب بسبب اهمال الحرس .

ولم تكن هذه المصيبة المزعجة التي تثبط العزيمة أولى المصائب التي نزلت بهم ، فقد لازمهم سوء الطالع وعاكسهم الحظمنذ غادروا منازلهم ، فمات بعض رفاقهم أثناء الرحلة ، اذ قتل هنود البوني أحدهم ، وسلبهم الداكوتاه ، قطاع الطرق قبل ذلك باسبوع أحسن خيولهم • فلم يبق لديهم سوى الخيول الهزيلة الضعيفة التي يركبها زائروهم • وتفصيل ما حدث أنهم أقاموا مضاربهم حسب قولهم ، عند غروب الشمس بجانب نهر بلات • وكانت ثيرانهم تهيم في المراعي القريبة ، بينما كانت الخيول تطلب المراعي البعيدة • وفجأة امتلأت اطراف التلال بارتال من خيالة الهنود لا يقل عدد أفرادها عن ستماية رجل ، اقتربوا من المسكر وهم يصيحون صيحات الحرب • ثم ارتدوا سريعا والتفوا حول الخيول التي كانت ترعى فاستاقوها معهم وهربوا بها من خلال منافذ التلال •

وبينما كان المهاجرون يروون قصتهم رأينا أربعة رجال آخرين يقتربون منا ، ولم يطل بنا الامر حتى تحققنا أنه « ر » ورفاقه الذين نجوا من النحس وسوء الحظ رغم أنهم توغلوا بعيدا في اللحاق بالطريدة • وقد أكدوا لنا أنهم لم يروا هنديا واحدا ، ولكنهم رأوا « ملايين البافالو » • وكان « ر » وسوريل يعلقان شرائح اللحم وراءهما كدليل على صدق قولهما وصحة كلامهما •

وشد المهاجرون الرحال ، وأخذوا يعبرون النهر ، وتأهبنا لنلحق بهم • وسارت العربات الثقيلة التي تجرها الثيران ، فاجتازت الضفة وسارت ببطء فوق البساط الرملي • وبعد برهة كان النهر يطغى على الجوانب ويعرقل سير العجلات ، وأخذت العربات تتقدم وسط المياه وهي التي تبتعد عن الشاطىء ببطء شديد ، حتى صارت أخيرا وكأنها تطوف بعيدا في وسط النهر • وكانت تنتظرنا تجربة

أكثر خطورة من تلك • فالعربة التي تجرها البغال لا تصلح للمرور في تيار سريع كتلك التي تجرها الثيران فاخذنا ننظر اليها بقلق ، حتى اصبحت تشبه بقعة بيضاء تسكن في وسط المياه • ولم يسعفنا الحظ اذ غرزت سريعا في الوحل • وفقدت البغال السيطرة فلم تستطيع ن تسحب نفسها بلأخذت تغوص شيئا فشيئا ، وبدأالماء يرتفع فوصل الى الامتعة المحملة عليها وكاد يتلفها فأسرع جميع من كانوا على الضفة الاخرى لنجدتها ، وقفز الرجال الى الماء وجمعوا قواهم الى قوى البغال ، فخرجت العربة بعد جهد عظيم ، ووصلت الى الشاطيء بامان •

وعندما بلغنا الضفة التف حولنا بعض الرجال القساة الذين لم يكونوا يتميزون بقوة أبدانهم أو ضخامة أجسامهم ، ولم يجد أولئك الرجال في وطنهم المجال الكافي لطاقاتهم ونشاطهم ، فقدموا الى المروج • ويظهر أن المتاعب والصعاب التي قابلتهم ، بعثت فيهم تلك القسوة المريرة التي دفعت أجدادهم المتمردين من غابات المانيا ليغرقوا أوربا ويحدقوا بالامبراطورية الرومانية • وقد مرت هذه القافلة التعيسة بحصن لارامي بعد أربعة عشر يوما من وجودنا هناك وبالرغم من جهودهم المضنية في البحث ، فلم يعثروا على ثور واحد من قطيعهم المفقود • مع أنهم بقوا مخيمين أسبوعا وهم يحرثون الارض بحثا عنها ، وأخيرا اضطروا الى التخلي عن جزء كبير من امتعتهم ومؤنهم ، وشدواالابقار والعجول الى عرباتهم، ليستطيعوا الاستمرار برحلتهم التي كان لا يزال عليهم أن يقطعوا الجزء الخطير والمرحلة الشاقة منها •

ومما يستحق الذكر ويسترعي الانتباه أن يرى الانسان على ضفاف نهر البلات أحيانا حطام مناضد قديمة مبعثرة ذات قوائم

كالمخالب مدهونة بالشمع ، أو يشاهد مكاتب ضخمة من خشب السنديان المحفور . ولا شك بأن قسما من هذه الآثار قد ساهم في ازدهار عصر الاستعمار القديم . وقد صادفها كثير من التبديل والتغير ، وربما تكون قد جلبت في الاصل من انكلترا ، ونقلت حين نفض القدر يده عن أصحابها من الكيجاني الى صحراء أوهايو أو كنتاكي ، ومنها الى ايلنوي أو ميسوري ، وأخيرا حملت في عربة العائلة خلال رحلتها الطويلة الى الاوريجون . ولم يكن أصحابها يتوقعون أو يتخيلون أن تضطرهم الحاجة الشديدة الى التخلي عنها في الطريق . وسرعان ما أخرجوا تلك التحف العزيزة ليقذفوها فوق أرض المرج الملتهبة .

تابعنا سيرنا ، ولكننا لم نكد نقطع ميلا واحدا حتى صاح بنا « ر » من المؤخرة .

ــ سوف نخيم هنا

ــ لماذا تريد أن نخيم ؟ أنظر الى الشمس ، فان الساعة لم تبلغ الثالثة بعد .

ــ سوف نخيم هنا

كانت هذه الكلمات هي الجواب الذي تكرم به . وكان ديلوريه قد تقدمنا بعربته ، فلما رأى عربة البغال تخرج من الطريق بدأ يحول عربته في نفس الاتجاه .

وصرخت به استمر ياديلوريه ! وأخذت العربة الصغيرة تتقدم ، وفي أثناء ذلك سمعنا صريرا شديدا من عربة حلفائنا التي أخذت تتأرجح خلفنا في حين كان سائقها (رايت) يمطر البغال بوابل من اللعنات والشتائم التي لا يجرأ أن يوجهها الى مخاطب اسمى أو أكثر أهمية .

وغالبا ما كانت تحدث أمور كثيرة من هذا القبيل • ولم يكن رفيقنا الانكليزي ممالئا لنا على أي حال • وقد اكتشفنا من سلوكه انه ينوي أن يضايقنا فيؤخر عمدا سير القافلة في الوقت الذي يعلم فيه لهفتنا ورغبتنا بالاسراع • لذلك كان يصر علينا أن نخيم في أوقات غير مناسبة ، متعللا بأننا قد اجتزنا خمسة عشر ميلا • وهي مسافة كافية لسير يوم واحد •

•

وحين رأينا أن مصالحنا لا تتفق ورغباته ، استلمنا ادارة شؤوننا بأنفسنا • ولما كنا نسير في مقدمة الركب دائما ، صرنا نخيم في الوقت والمكان الذي نراه مناسبا على الرغم من سخط « ر » الذي لا يوصف غير عابئين بما يقرره أفراد الركب في اللحاق بنا أم البقاء في مكان يختارونه هم • وكانت بقيةالقافلة تلحق بنا فتضرب خيامها بقربنا ، وملامح الرجال تنم عن السخط والكآبة والغيظ •

ولما كانالسفر في مثل هذه الشروط لا يناسبنا ولا يوافقأذواقنا ؛ فقد فكرنا في الافتراق والانفصال عن الركب ، وقررنا أن نترك المخيم في الصباح الباكر ، ونتقدم باسرع مايمكن الى حصنلارامي، الذي كنا نأمل أن ندركه بالسير الجدي بعد أربعة أو خمسة أيام • وحين أدركنا الكابتن أبلغناه بعزمنا فقال :

حقا انه لتصرف غريب جدا •

واشد ما تأثر منه هو قرارنا في الافتراق عن رفاقه في اخطر مرحلة من مراحل سفرهم • وكان رأينا اننا اربعة رجال فقط ، بينما رجاله يعدون ستة عشر رجلا• ولما كنا مضطرينللتقدم، وكان عليهم ان يلحقوا بنا فانه يخشىان تحل بنا كارثة هذاعدا ماستتعرض اليه من الاخطار • ولكن الكابتن ظل على عبوسه ، « انه تصرف غريب جدا ايها السادة » ، ثم تركنا وذهب ليتشاور مع رجاله •

وفي صباح اليوم التـالي ، وقبل أن تشرق الشمس حزمنـا خيامنا وربطنا الى العربة أحسن خيولنا ، وغادرنا المخيم . وبعد أن صافحنا اصدقاءنا المهاجرين الذين تمنوا لنا مخلصين سفرا امينـا موفقا ، رغم ان بعضهم كان يرجو ان نلتقي ببعض المحاربين من الهنود في الطريق . وكان الكابتن واخوه يقفان فوق احـــدى التلال ، وهما متدثران برداءيهما فظهرا كشبحين في الضباب ، وكانا ينظران الى مجموعة الخيول المنتشرة في السهل نظرات قلقة ،فلوحنا لهما بأيدينا مودعين ونحن نبارح المكان . فرد الكابتن بتحية تنم عما جبل عليه من عزة النفس ، وحاول اخوه جاك تقليدها ، ولكنه لم يوفق الى ذلك الا قليلا .

وبعد خمس دقائق بلغنا سفح التلال ، ولكننا توقفنا عن السير ، لان هندريك الذي كان يجر العربة والذي تجسمت به صفـــات التمرد والوحشية رفض ان يتقدم خطوة واحدة فوق كل ما بذلناه من محاولات في استرضائه ، عندئذ ضربه ديلورييه ، وامطـــره بلعناته ، ولكن هندريك كان واقفا كالصخرة الراسية ينظر شذرا الى خصمه متذمرا ، الى أن وجد فرصة مناسبة للانتقام فلبطه من تحت العريش بخفة ، ولم ينجح ديلورييه الا بعد أن قفز في الهواء قفزة لا يستطيعها الا رجل افرنسي . وتعاون شو معه في جلد الجواد من الجانبين . فبقي الحيوان المسكين جامــدا برهة حتى عيل صبره وعجز عن تحمل الضرب والتعذيب ، فاخذ يرفس ويلبط حتى كاد يكسر العربة والعريش . وقد القينا نظرة نحو المخيم الذي كـان يبدو جليا للعيان ، فشاهدنا رفاقنا الذين استفزتهم المنافسة يقوضون الخيام ويجمعون القطيع والخيول .

فقلت ، فكوا قيود هذا الجواد .

ثم رفعت السرج عن بونتياك ووضعته على ظهر هندريك، وشددت الاول بسرعة ، وصرخ ديلوريه ، « الى الامام » فصعد بونتياك التل وهو يسحب العربة بخفة كأن لا وزن لها ولا ثقل • وعندما بلغنا القمة ، رأينا عربات اصدقائنا الذين فارقناهم تتقدم في طريقها الى التل ، فخشيت ان يدركونا •

لذا تركنا الطريق وسرنا في الصحراء مباشرة ، وتبعنا اقصر خط يصلنا بمجرى نهر البلات الرئيسي • وفجأة اعترض طريقنا واد عميق ، فحولنا سيرنا حتى سلكنا طريقا في ارض اقل وعورة • ومررنا خلف الوديان الرملية المسماة « آش هولو » حيث نلنا قسطا ضئيلا من الراحة بجانب حفرة تجمعت مياهها من الامطار • ولم يطل بنا الوقت ، اذ سرعان ما تابعنا سيرنا ، فقطعنا الوديان والمضايق المؤدية الى البلات من غرب آش هولو قبل غروب الشمس ببضع ساعات وكانت خيولنا تخوض جاهدة في الرمال الملتهبة تحت أشعة الشمس المحرقة حيث الهواء مملوء بالذباب والبعوض تطن في ازيز متواصل.

وأخيرا بلغنا البلات ، فتبعنا مجراه نحو خمسة أميال ، حتى وجدنا انفسنا عند الغروب امام مرج كبير ترعى فيه مئات من قطعان المواشي واقيم فيه مخيم للمهاجرين • وتقدمت جماعة منهم لمقابلتنا ، فنظروا الينا في اول الامر بعيون ملؤها الشك والبرود حين رأوا اربعة رجال يختلفون عنهم بمظاهرهم وادواتهم واجهزتهم وقد برزوا فجأة من خلف التلال فظنوا أننا من المورمون الذين يخشونهم ولا يرغبون في ملاقاتهم ، ولكنا كشفنا لهم عن شخصيتنا الحقيقية فاستقبلونا بترحاب وتحيات حارة وعجبوا لا بل دهشوا حينما رأوا جماعة قليلة العدد مثلنا يغامر أفرادها في التوغل في مثل هذه المنطقة • لان مثل هذه المغامرات هي وقف على الصيادين وتجار

الهنود • وسرنا نتبعهم الى مخيمهم حيث كانت العربات تصطف كالعادة على شكل دائرة اقيم في وسطها بعض الخيام • وربطت احسن الخيول بقربها بينما يشع من المكان نور ضئيل ينبعث من النيران المشتعلة فتبدو من خلال خيوطه وجوه النساء والاطفال الذين تجمعوا حول النار • ولم يتح لنا ان نتمتع طويلا بهذا المشهد الحالم فقد غادرنا المكان بما امكننا من السرعة لننجو من اصحاب الاسئلة المتطفلين الذين انهالوا علينا باسئلتهم المزعجة كالسيل الجارف • ولم يكن فضول الامريكيين شيئا بالنسبة لفضول هؤلاء الجماعات ، فقد سألوا عن اسمائنا وعن المكان الذي اتينا منه والوجهة التي نقصدها وعن صناعتنا واعمالنا وعن الكثير غير ذلك من بحر لاينضب معينه من الاسئلة ، وكان آخر سؤال وجه الينا مربكا حقا • فالسفر في هذه المنطقة او في اي مكان مشابه لسبب آخر غير الكسب كان فكرة لا يعرفونها ، ولم تخطر في أذهانهم • ورغم كل مضايقاتهم فقد كانوا يتصفون بالصراحة والكرم ويتميزون بالادب الجم لانهم آتون من مقاطعات الحدود حيث السكان اقل قسوة وتوحشا •

سرنا مسافة ميل خلفهم ، ثم اقمنا خيمتنا • ولما كنا فئة ضئيلة قليلة العدد فلم يكن ممكنا أن نقيم حرسا ليليا دون أن نصاب بتعب وانهاك شديدين ، فقد أطفأنا النار حتى لا تنبه المارين بالقرب منا من الهنود ، وربطنا خيولنا حولنا ونمنا حتى الصباح دون حدوث مايزعجنا • وسرنا مدة ثلاثة ايام دون انقطاع • وفي مساء اليوم الثالث ضربنا خيامنا بجانب نبع مشهور ينحدر من جرف ويدعى (سكوتس بلاف) •

خرجت في الصباح مع هنري شاتيون فهبطنا الجرف ثم اجتزنا السهل الكائن خلفه ، فبدا انا ما يشبه صفا من البافلو يهبط التلال

على بعد اميال من مكان وقوفنا • وشد هنري عنان جواده ونظـر متفرسا بعيني خبير محنك ، فعرف ذلك الصف ، وعلق على ذلك قائلا ، انهم هنود من قبيلة (اولد سموك) على ما اعتقد • دعنا نذهب لنرى ، ثم حث جواده بعد ان اعتلى صهوته وخاطبه قائلا ، هيا ، أنهض (ياخمسماية دولار) ثم ارخى له العنان ، فعدا ينهب الارض وسرت في أثره •

ولم تمض برهة طويلة حتى ظهرت في المرج بقعة سوداء على بعد ميلين ، ثم اخذت تتسع شيئا فشيئا حتى انكشف عن رجـل يمتطي جوادا ، وسرعان ما تبين لنا انه هندي عار يعدو متجها نحونا • وعندما صار بعيدا عنا مسافة مئتين وعشرين ياردة ، دار بجواده في دائرة واسعة ، وجعل يخط اشكالا غامضة فوق المرج • وجرى هنري بجواده فخط اشكالا مماثلة ، ثم التفت الي مفسرا الاشارات واردف قائلا ، ألم اقل لك انها قرية اولد سموك •

وعندما اقترب الهندي منا ، وقفنا ننتظر ، فاذا بـه يختفي عن انظارنا سريعا ويغيب في احد الوديان العميقة التي تشطر هـذه المروج • وبعد لحظة ظهر رأس جواده ثانية خلف حافة التل ، ثم خرج الجواد براكبه متجها نحونا ، وبعد ان وصل اوقف جواده تصافحنا مع (•••••) لقد نسيت اسم ضيفنا الذي كان شابا لا تدل سيماه على جنسية قومه ، ومع ذلك فأن شخصيته وادواته تشـير الى أنـه من محاربي الـداكوتاه ، وطوله ستـة أقدام كمعظم أبنـاء قبيلتـه • وكان يبـدو ظريفـا متناسبا ذا قامـة مديـدة ، وبشرة رقيقـة صافيـة لم يلطخهـا بالاصبغـة كعـادة شعبه ، ورأس مكشوف جمـع شـعره في خصلـة خلفيـة ، علق في اعلاها زينته وتمائمه وصفارة رمزية مصنوعة من عظام نسر الحرب ،

تنسب لها مزايا سحرية متعددة ، وكان يتدلى من مؤخرة رأسه صف من الصفائح النحاسية البراقة الرقيقة بعضها في حجم قطع نقود (الدبلون) وبعضها بحجم نصف (الدايم) • وهي زينة ثقيلة منتشرة بين الداكوتاه ، يبتاعونها بأفدح الاثمان • وكان عاري الصدر والذراعين ، ويرتدي ثوبا من جلد البافالو ، وفي قدميه حذاء من الموكاسين يكمل به زينته ، اما سلاحه فيتألف من كنانة من جلد الكلاب معلقة على ظهره وقوس متين في يده • ولم يكن قد الجم جواده ، بل كان يربطه بحبل من الشعر حول فكيه عوضا من اللجام • اما السرج فمصنوع من الخشب المغطى بالجلد الخام وحنوه وقربوسه الخلفي يرتفعان بشكل قائم الى ثمانية عشر اينشا حتى لايقع الفارس بل يبقى ثابتا في مقعده ، فلا يلقيه الا انقطاع حزام السرج •

تقدمنا مع رفيقنا الجديد فوجدنا عددا كبيرا من ابناء قبيلته يجلسون في دائرة على قمة احدى التلال ، بينما كان موكب لا ترتاح النفس لرؤيته ، يهبط الى التجاويف المجاورة • وقد ضم النساء والاطفال والخيول التي تسحب اعمدة الاكواخ وراءها • وفي الصباح أخذ أولئك المتوحشون يتسللون قريبا منا ونحن نغذ السير• وأخيرا بلغنا هورس كريك عند الظهيرة •

كان يقف على الضفة القصوى رجل طويل القامة قوي الجسم عاري البدن تقريبا ، يمسك بعنان جواد ابيض مربوط بحبل طويل، فأخذ يطيل النظر الينا • وعرفنا بعد ذلك انه الزعيم الذي كان هنري يسميه ، اولد سموك ، وكانت تقف وراءه اصغر واحب زوجاته اليه وهي تعتلي ظهر بغل فاخر مغطى بجلود بيضاء مزينة بالخرز الازرق والابيض ، ومطعمة بقطع معدنية تعطي رنينا تبعا

لحركات الدابة . وقد لطخت المرأة بشرتها الصافية بالسيلقون .
وحين ابتسمت بدا لنا صفان من الاسنان العاجية البيضاء . وكانت
تحمل رمح سيدها المزين بالريش ، وتعلق ترسه الى جانب بغلها ،
وغليونه مدلى على ظهرها. أما ثيابها فكانت عبارة عن تونيله من جلد
الابل ، عولج بواسطة نوع من الكلس الموجود في المروج ، فاكتسب
اللون الابيض . وقد وشي بالخرز بشكل لا يدع مجالا للشك بخلو
تلك الزينة من الذوق ، وكان يقف بجانب الزعيم جماعة من كبار
القوم بمعاطفهم البيضاء المصنوعة من جلد البافالو والملقاة عـــلى
اكتافهم . وقد اخذوا ينظرون الينا ببرود . وفي المؤخرة على بعد
عدة اكرات اقيم مخيم موقت ، لاتهدأ فيه حركة ويرتفع منه الضجيج
الى عنان السماء . فالمحاربون والنساء والاطفال يموجون كما يموج
النحل . ومئات من الكلاب من كل حجم ولون تركض هنا وهناك .
وبالقرب منا كان النهر يعج بالصبية والفتيات الصغيرات وهم يضربون
الماء ويصرخون ويصخبون لاعبين لاهين . ومر رتـــل طويل من
المهاجرين مع عرباتهم الثقيلة ، وهم يسيرون بمـــوكب بطيء في
طريقهم ، بالقرب من مخيم الهنود الذين كان على أولئك المهاجرين
وذراريهم ان يمحوا آثارهم عن وجه البسيطة .

وقفنا قرب مخيم الهنود ، ودعونا بعض زعمائهم ومحاربيهـــم
لتناول الغداء ، وقدمنا لهم طعاما مؤلفا من البسكوت والقهـــوة .
فجلسوا القرفصاء بشكل نصف دائرة ، والتهموا ما وجدوه امامهـم
سريعا ، وعند ما تابعنا السير بعد الظهر ، رافقنا تكريما لنا عدد من
ضيوفنا السابقين . وكان بين المتخلفين عن وداعنا رجل متـوحش
مفرط في السمنة يبلغ وزنـه ثلاثمائة ليرة ، يدعى (الخنزير)
بالنسبة لمقاييسه التي لايقبلها العقل بسهولة ، ولبعض صفاته الاخرى

التي تقربه من شكل الخنزير . وكان الخنزير يركب ظهر جواد صغير اشهب ، نآء بحمله الثقيل ، ولكن الراكب كان لايألوا جهدا في حث الجواد على السير فيضربه بركابه ويهز ساقيه باستمرار ، وبداعب شعره اعتقادا منه أن مثل هـذه المداعبة تزيـد من رغبته في السير . ولم يكن الرجل زعيما او يطمح ان يكون كذلك في مستقبل أيامه ، ولم يكن محاربا كما لم يكن صيادا ، فقد كان مفرطا في الكسل الى جانب افراطه في السمنة ، غير انه كان اغنى رجل في القرية . وكانت الثروة بين قبائل الداكوتا تقدر بعدد الخيول والجياد التي يمتلكها الرجل . وكان (الخنزير) قد جمع اكثر من ثلاثين منها . وهو عشرة اضعاف مايريد ، ومع ذلك فقد كان يطمع بالمزيد . أسرع الخنزير نحوي وأخذ يهز يدي مصافحا وهو يحاول أن يفهمني أنه صديقي المخلص . ثم بدأ سلسلة من الاشارات وعلى وجهـه ابتسامة بشعـة ، وعينـاه الصغيرتـان تبرقـان بمكر ودهاء بين الكتل اللحمية التي تحجبهما . ولما كنت اجهل كل شيء حينذاك عن لغة الاشارات عند الهنود ، فقد استطعت ان اخمـن معناها . ولكن لم استطع التأكد كليا من ذلك . لهذا استعنت بهنري كي يفسر لي ما غمض علي منها .

كان الخنزير يرغب في عقد صفقة زواج ، فيبادل احدى بناته بحصاني ، وحين رفضت اقتراحه ، ألقى وشاحه فوق كتفيه وانفتل راجعا وهو يضحك ملء شدقيه .

وفي المكان الذي عسكرنا فيه تلك الليلة ، كان فرع من نهر البلات يجري مسرعا بين اجرف شاهقة وقد تعكرت مياهه ونمت الاشجار على ضفتيه ، كما كانت الاعشاب الكثيفة تفصل بين الماء والتلال المجاورة . وقبل ان نصل هذا المكان ، رأينا خيام المهاجرين

قد أقيمت على بعد ميلين أو ثلاثة ، بينما كان رعاع الهنود يهبطون التل المجاور ، وهم يأملون ان تقام لهم بعض الولائـم ، وان يصيبوا من هؤلاء ما اصابوا عندنا ، ولم يكن من شيء في تلك البقعة الموحشة الممتدة أمام خيامنا سوى تيار البلات الذي يعكر صفو الهدوء • ومن خلال اغصان الاشجار القديمة التي جفت اطرافها وتحطمت ، رأينا الشمس بلونها القرمزي وهي تغيب وراء قمم التلال السـوداء • وانعكست الاشعة على قاع النهر الصاخب ، فظهر لخيمتنا وقدتخضب باللون الاحمر ، كما اصطبغت بهذا اللون ايضا الاجرف القاحلـة والصخور التي تتوجها • ولكن هذه الاشعة لم تلبث ان تلاشت واختفت عن الانظار ، في حين كانت النيران المتأججة تطرد الظلام وتلقي باشعتها فوق الاشجار الكثيفة المظلمة ، ونحن مضطجعون حولها وقد تدثرنا بالبطانيات ، ندخن ونتجاذب اطراف الحديث حتى انتصف الليل •

اجتزنا في الصباح التالي سهلا لفحته الشمس بأشعتها المحرقة ، وصفا من شجيرات القطن القديمة، يمتد على طول ضفة البـلات فيشكل حافته الاخيرة • وبعد ان تجاوزنا هذه الشجـيرات لاح لنا من بعيد ما يشبه البيت • وعندما اقتربنا منه ، اذا به بناء خشن من الخشب يشكل حصنا تجاريا صغيرا لاثنين من التجار • وكان في الاصل ، معدا كبقية حصون البلاد بحيث يشكل فجوة مربعـة مع غرف للسكن وأخرى للمؤن تطل على فسحة البيت الداخلية • وقد أعيد بناء جانبي الحصن فقط ، فلم يعد يصلح لاغراض الدفاع كتلك البيوت الخشبية الصغيرة القائمة حوالينا والمبعثرة في حدود الاماكن التي تنزلها ، والتي كانت تقاوم بقوة وتعصمنا في نزاعنـا مع الهنود • وبجانب الحصن أقيم بيتان خشبيان معرضان لحرارة

الشمس القاسية . وكانت تسكنهما امرأة هندية عجوز مع ثلاثة أو أربعة أطفال ممتلئين صحة وعافية ، ظهروا جميعا من باب المنزل وهم يلقون بنظرات استطلاع ودهشة . وبعد لحظة فتح باب وخرج منه فتى افرنسي اسمر اللون قصير القامة اسود العينين ، يرتدي لباسا غريبا وقد سرح شعره المجعد حيث جعل مفرقه في منتصف رأسه وتركه يتدلى فوق كتفيه . وكان يرتدي بزة ضيقة من جلد الابل ، زخرفت بصور رسمت بريش القنفذ المصبوغ .وكذلك كان حذاؤه وطماقه مزينتين بنفس الطريقة . وعلقت على جانبيه شراريب طويلة . وكانت تقاطيع وجه ريشارد ، وهو الاسم الذي اطلقه عليه هنري عندما قدمه الينا ، تنم عن قوة بدنيةهائلة . ولا أبالغ أو افرط في القول حينما اسجل حقيقة لابد من ذكرها . وهي انه يندر من أم من الرجال البيض هذه البلاد في مثل قوته فقد كان كل عضو من اعضائه ممتلئا صحة وقوة . وكل عضلة لها قوتها الهائلة ومرونتها العظيمة ، والحق أن ذلك الرجل مزيجا من الشجاعة والنشاط .

سلم ريتشارد خيولنا الى عبد من النافا هو ذى منظر قبيح ، كان قد وقع أسيرا على الحدود المكسيكية ، فأخذ بنادقنا بأدب جم ، ثم قادنا الى الشقة الرئيسية في المؤسسة . وكانت الغرفة تبلغ مساحتها عشرة أقدام مربعة . وقد شيدت جدرانها وأراضيها من الطين الاسود ، وأقيم سقفها من الخشب الخشن ، كما وضع فيها موقد من أربع صخور مسطحة كبيرة ، نقلت اليها من المروج . أما الجدران فكان يزينها قوس هندي وكنانة من جلد كلب البحر ، وأشياء كثيرة مزخرفة من جبال روكي ، وحقيبة طب هندية وغليون وكيس للتبغ . وقد اسندت عدة بنادق

الى الزاوية • ولم يكن في الغرفة من الاثاث سوى متكأ خشن غطى بجلد من جلود البافالو • وقد استلقى عليه رجل « نصف متحضر » طويل القامة يلتصق شعره المتألق الطويل بخديه المصبوغين بالسيلقون الاحمر • والى جانبيه جلس القرفصاء على الارض رجلان أو ثلاثة من الجبليين (رجال الجبال أو سكانها) • ولم تكن بزاتهم تختلف عن بزة ريتشارد بشيء ولكن مالفت انظارنا أكثر من أي شيء وقع بصرنا عليه هو ، وجه فتى هندي كان يجلس في الزاوية بالقرب من الباب ، فقد كان وجها جميلا متناسقا ، يطفح صحة ونشاطا • ولم تتحرك عضلة واحدة فيه ، بل كانت عيناه ثابتتين ، دون النظر الى أي فرد من الحاضرين ، فهو محدق بوميض النار المشتعلة في الموقدة في الجهة المقابلة له •

وكانت عادة التدخين مع الاصدقاء شائعة في المروج بين البيض، كما هي بين الهنود • لذلك فقد انزل الغليون عن الحائط وملىء بالتبغ و « الشونجساشا » الممزوجين مع بعضهما بمقاديرمتساوية • ثم أديرءالى الحاضرين فيسحب كل واحد نفسا أو اكثر ثم يعطيه الى جاره ، وهكذا • وبعد انقضاء نصف ساعة غادرنا المكان بعد أن دعونا اصدقائنا الجدد لتناول قدح من القهوة معنا في المخيم على بعد ميل واحد من النهر •

وكنا في هذه الاوقات قد أصبحنا بحالة رثة ومؤسفة ، فثيابنا بالية، وليس لدينا واسطة لتجديدها • وحصن لارامي لا يزال يبعد عنا مسافة سبعة أميال ونيف • ولما كنا نكره الظهور بأسمالنا البالية هذه في مجتمع يفخر بانه ينتسب ولو الى حد بعيد الى المدينة •فقد توقفنا بجانب النهر لنصلح هندامنا على قدر المستطاع • وعلقنا مرآة صغيرة في غصن شجرة ثم حلقنا ذقوننا التي اهملناها منذ ستة

أسابيع • واستحمينا في نهر البلات ، ولم تكن فائدة هذه العملية مؤكدة ، اذ ان الماء كان يبدو كدرا بلون ادكن ، كما يتراءى أن النهر يتكون من طبقة من الوحل الاصفر اللزج ، حتى اضطررنا ان نبني ممرا من الاغصان لنصل الى الماء • وأخيرا أرتدينا ثيابنا ووضعنا في أقدامنا اخفافا لامعة كانت امرأة هندية من مؤسسة ريتشارد قد قدمتها لنا • ثم أصلحنا من بزاتنا بقدر ما تسمح به ظروفنا الصعبة الضيقة • وجلسنا على العشب ، وقد تملكنا شعورانا أصبحنا ذوي شخصيات مرموقة ، ونحن ننتظر وصول ضيوفنا • وحين حضروا اقمنا لهم مأدبة ودخنا معهم ، وأخيرا ودعناهم وأدرنا رؤوس خيولنا وسرنا نحو الحصن •

مضت ساعة • فحجبت التلال القاحلة غيرها مما يقع عليه البصر ، فلم نعد نستطيع رؤية ما خلفها ، الى أن تسلقناها ، فظهر لنا جدول سريع يصب في البلات • ووراءه مرج اخضر تناثرت في أرجاءه الواسعة شجيرات ، وفي منتصف ذلك المرج يقوم الحصن بجدرانه البيضاء الكلسية عند ملتقى النهرين • ولم يكن هذا حصن لارامي ، ولكنه كان مركزا آخر أقدم منه • وقد أفل نجمه أمام منافسه الجميل الضخم الشامخ ، فهجره ساكنوه فتهدم وذوى شبابه وتلاشى جماله • وبعد قليل بدت لنا التلال كأنها تتفتح عن بعضها البعض كلما تقدمنا ، ليظهر من بينها حصن لارامي بشرفاته الواسعة وجدرانه الشاهقة وهي تتوج ربوة وراء الجدول ، بينما يمتد خط من قمم التلال القاحلة الكئيبة • وخلفها ترتفع التلال السوداء على علو سبعة آلاف قدم •

حاولنا أن نخوض لارامي في نقطة تقابل الحصن ، ولكن النهر الذي ملأته الامطار ، كان يندفع في مجراه بسرعة عظيمة فلم نستطع

ذلك فاضطررنا الى السير في محاذاة الضفة ، ونحن نبحث عن مكان يصلح ان نعبر منه النهر • فتجمع الرجال فوق الاسوار يراقبون تحركاتنا هناك • وصاح هنري « هاهو بارودا » واشرق وجهه لرؤية صديقه ، وأردف يقول : انه هو بنظارته المقربة ، آه ها هو العجوز فاسكيس ، وتاكر ، ومن ، ياالهي هاهو شيمونو أيضا • ، وكان سيمونو أعز اصدقاء هنري وهو وحده الذي يستطيع منافسته في الصيد وفي دقة الرمي والتسديد •

ثم وجدنا بعد برهة مخاضة • فسار هنري في المقدمة ، واقترب بجواده من الضفة ببرود وعدم أكتراث ، فسار الجواد باقدام قوية ثابتة • ثم انحدر الى النهر برباطة جأش واقدام وجرأة • فتبعناه نخوض والماء يكاد يبلغ سروج الجياد ، غير ان خيولنا حملتنا بسهولة الى الضفة الاخرى • ولكن البغال التعيسة قاومت وكافحت بيأس ، وحينما أوشك التياران يسحبها كما يسحب العربات وحمولتها وكل شيء فيها • وكنا نشاهدها والقلق والخوف يهز نفوسنا وهي تزحف فوق الحجارة المستديرة الملساء التي تفترش قاع النهر • وهي تندفع بعزم وقوة ضد التيار • وأخيرا تمكنا من اجتياز النهر والوصول الى الضفة الثانية بسلام • ثم اجتزنا سهلا وهبطنا منحدرا وصعدنا السفح الشامخ الذي أمامنا ، واذا نحن أمام أبواب حصن لارامي •

الفصل التاسع

مشاهد في حصن لا رامي

عندما نتطلع الى الماضي ، بعد انقضاء عام ، على حصن لارامي وسكانه ، نراهم يشبهون صورة خيالية للزمن القديم أكثر من تمثيلهم للحقيقة الواقعية ، فقد كانت المشاهد تختلف تمام الاختلاف في هذه الناحية الكئيبة من العالم عنها في أي جهة أخرى • فالهنود ذوو القامات الطويلة يتبخترون في الباحة بثيابهم البيضاء المصنوعة بها • وفي الوقت نفسه كانت النساء يجلسن أمام غرفهن بزينتهن من جلد ثيران البافالو • أو يضطجعون على أسطح الابنية التي تحيط الابتدائية ، وقد انتشر اطفالهن في جميع ارجاء الحصن يلعبون ويصخبون ، بينما كان الصيادون والتجار والعمال الذين استأجرتهم المؤسسة ينهمكون في اشغالهم أو يحاولون تسلية أنفسهم •

استقبلنا القوم بفتور ، فقد كنا موضع شك وعدم ثقة ، الى أن بين لهم هنري شاتيون اننا لسنا تجارا ، ودلل على صحة قوله بان طلب الينا ان نقدم الى رئيسهم كتاب التوصية الذي نحمله من رؤسائه ، ودفعنا اليه الرسالة ، فأخذها وقلبها بين يديه ، محاولا قراءتها بصعوبة ، ولكن درجة ثقافته لم تسعفه في محاولاته • لذلك استدعى كاتبه مونتالون ، وهو شاب افرنسي ناعم مشرق الوجه • وبعد ان قرأ له الرسالة أخذ بوردو (الرئيس) يعود تدريجيا الى الشعور بما ينتظر منه نحونا • ومع ان مزية الكرم لم تكن تنقصه فانه لم يعتد أن يقوم بدور رئيس للتشريفات • وتجاوز

جميع قواعد الاستقبال • فلم نسمع منه كلمة مجاملة واحدة بـل قام مسرعا واجتاز المكان ، فتبعناه ونحن نعجب لهذا التصـــرف ، فأشار الينا بانه يحسن ان نربط جيادنا بالدرابزين امام المدخل ، ففعلنا ، ثم اتجه نحو السلم فصعده وسار الى الشرفة أمامنا ، ففتح بابا يؤدي الى غرفة واسعة اكثر اتقانا في الفرش والتأثيث من مخزن المحصولات الزراعية • أما اثاثها فكان يتألف من سرير خشن بدون فراش ، وكرسيين ، ودولاب ، وسطل ماء ، ولوح خشبي يستعمل لفرم التبغ • وقد علق على الحائط المقابل صليب من النحاس مثبث عليه صورة للسيد المسيح • وعلى مسمار بالقرب من الصليب فروة جديدة يقارب طول شعرها ياردة • وسأعود ثانية الى الحديث عن هذه الذكرى المحزنة حين تسنح لي الفرصة مرة أخرى ، لأن تاريخها يرتبط باعمالنا القادمة الى حد كبير •

كانت هذه الشقة هي أحسن ما في حصن لارامي ، ويحتلها عادة الرئيس الشرعي السيد بابن ، ويخلفه بالقيادة حين غيابه رجـــل يدعى بوردو وهو رجل قوي متين البنية ، منتفخ رغم ضآلة جسمه ذو غرور متزايد بسبب السلطة الجديدة التي أسندت اليـــه • ووجدناه يصرخ طالبا اثوابا من جلد البافالو • حيث جلبـــت له ، فطرحها على الارض ورتبها لتكون فرشا لنا ، والحقيقة انها كانت افضل بكثير من تلك التي كنا قد اعتدناعليها • ولما انتهت الاستعدادات خرجنا الى الشرفة لنرقب بهدوء تلك الجنة التي كنا نسعى اليهـا منذ أمد طويل • ولاقينا في سبيل الوصول اليها شديد المصاعـــب والمشاق حتى اسعفناالحظ أخيرا فبلغناها• وكانوراءنا الباحة المربعة المحوطة بغرف صغيرة ، هي بالاحرى أشبه بالزنزانات • وقـــد خصصت تلك الغرف لمختلف الاغراض • غير انها كانت تستخدم

بصورة خاصة للاحتفاظ بحاجات الرجال المستخدمين في الحصن ، أو للنساء الهنديات الكثيرات اللواتي سمح لهن بالاقامة في القلعة. وكان يرتفع في الجهة المقابلة لنا حصن خشبي أقيم عند البوابة الخارجية . وقد زين بصورة لجواد يعدو باقصى سرعته ، مرسومة باللون الاحمر فوق الالواح الخشبية بمهارة واتقان ، وبدرجة تنافس يتباهى بها الهنود من الرسوم المماثلة التي يزينون بها ثيابهم ومساكنهم . أما الباحة فكانت تغص بازدحام شديد متسبب عن أن عربات قاسكين ، وهو تاجر قديم ، توشك على الرحيل الى مركز ناء في الجبال وقد انهمك العمال الكنديون باستعدادهم ، وهم يضجون ويصخبون ، بينما وقف هنا وهناك هندي أخذ ينظر اليهم بهدوء ووقار .

ان حصن لارامي هو أحد المراكز التي أنشأتها « شركة الفراء الامريكية » التي لا أبالغ اذا قلت انها تكاد تحتكر التجارة الهندية في هذه المنطقة ، ويحكم موظفوها بسلطة مطلقة ، خصوصا وان سلطة الولايات المتحدة في تلك المنطقة ضئيلة لا تمثلها الا قوة صغيرة . فقد كانت مراكز جيشها الامامية اثناء وجودنا هناك ، تبعد نحو سبعمائة ميل نحو الشرق . وكان الحصن الصغير مبنيا من الآجر المجفف في الشمس . وتقوم على اثنتين من زواياه أبراج من الصلصال بشكل حصون خشبية عادية تعلوها الجدران بارتفاع خمسة عشر قدما ، وتستعمل سقوف البناء الداخلي القريبة من الجدران لاقامة الولائم والحفلات . وفي الداخل قسم الحصن بحاجز ، تقع في أحد طرفيه الباحة المربعة التي تحيط بها غرف العنابر والمكاتب وشقق السكان . وتقع في الطرف الآخر زريبة للخيول والبغال ، حيث تجمع في الليل خشية خطر الهنود

المداهم . أما المدخل العام ، فله بوابتان يصل بينهما ممر ذو أقواس ، وهناك نافذة مربعة عالية تطل على هذا الممر من غير غرفة مجاورة . فيتمكن من في الخارج من الاتصال بمن في الداخل بواسطةالنافذة، كي لا يكثر فتح البوابة الداخلية . وهو احتياط أوجبته الضرورة والحذر من أن يتسرب أحد الهنود المشبوهين الى داخل الحصن بحجة التجارة . وعند توقع الخطر تغلق البوابة الداخليةبسرعة، ويستمر الاتصال بواسطة النافذة ، ولكن نادرا ما يلجأ الى اتخاذ هذه الاحتياطات في حصن لارامي . مع انها ضرورية . لأن رجال الحصن لا يشعرون بان الهنود يضمرون لهم أي عداء على الرغم من كثرة من يقتلون خارج الحصن وبالقرب منه .

لم نتمتع طويلا بالراحة في مسكننا الجديد . اذ لم نلبث قليلا حتى فتح الباب بسكون ، واذ بوجه اسود كالليل ذو عينين؛ اسعتين لم يلبث صاحبه أن دلف الى الداخل وتبعه على الاثر هندي آخر طويل القامة ، فألقى تحيته ثم صافحنا وافترش الارض . ثم دخل آخرون وقد اسقطوا ارديتهم من فوق اكتافهم وجلسوا على شكل نصف دائرة أمامنا . فاشعلنا لهم غليونا أخذ ينتقل من شخص الى آخر حتى انتهى ما به من تبغ . وكان هذا كل ما يأمل هؤلاء أن نقدمه لهم من تكريم وضيافة في الوقت الحاضر . وهؤلاء الضيوف هم آباء وأخوة وأقارب النساء الهنديات اللواتي يقمن في الحصن ، وقد سمح لهم بالبقاء حيث يصرفون أوقاتهم بالتسكع والكسل المطبق ، مع أنهم كلهم من ذوي المكانة والشهرة . وبعد قليل دخل اثنان أو ثلاثة من الفتيان الذين لم تؤهلهم اعمارهم ولا أعمالهم ولا مواهبهم أن يحتلوا مركز الرجال الشيوخ والمحاربين الشجعان . لذلك جلسوا صامتين هادئين وقد ثبتوا اعينهم علينا ،

وأخذوا يحدقون بنا خجلا من وجودهم مع رؤسائهم في حفلة واحدة. وكانوا يزينون وجوههم بالسيلقون الاحمر ، وآذانهم باقراط من الصدف واعناقهم بالخرز الملون . ولم يكونوا قد اشتهروا كصيادين بعد . كما انهم لم يقوموا بعمل شريف كقتل أحد الرجال أو نهب خيوله ومتاعه . وكان هؤلاء الضيوف يتسمون شيء من عدم اللياقة وفقدان الذوق . فقد أخذوا يتحرون كل شيء في الغرفة من الامتعة والثياب ، مثلهم في ذلك مثل جميع الهنود الذين يتميزون عن بقية الناس بفضولهم وحبهم للاستطلاع بالنسبة لكل موضوع يمكن أن يدخل في حيز تفكيرهم ودائرة فهمهم . اذ أنهم لم يكونوا يهتمون بالمواضيع الاخرى . ولا يزعجون أنفسهم بالتحري عما لا يستطيعون فهمه . بل يكتفون بوضع أيديهم على أفواههم اظهارا لدهشتهم . ثم لا يلبثون ان يقولوا ان ذلك (سحر مبين) .

وبينما كنا ننظر عند الغروب من أعلى الجدار الى السهول الكثيبة التي تحيط بالحصن ، لاحظنا بعض الاشكال الغريبة التي تشبه القبور ، وقد انتصبت بعيدا فبدت عجيبة المنظر. ولم نلبث أن ادركنا أن ذلك هو قبر أحد زعماء الداكوتا ، الذي كان محبوبا من قومه . دفنوا رفاته قرب الحصن بقصد أن يحميها قربها من الحصن من أن تعبث بها أيدي الاعداء. ورغم ذلك الاحتياط فقد جاس (الكرو) خلال المنطقة ، فنبشوا القبور وأخرجوا الموتى وقطعوا الجثث أربا امام أعين هنود الداكوتا الذين لبثوا مختبئين في الحصن لضآلة عددهم فلم يحاولوا ان يقابلوا الاهانة التي لحقت بآثارهم المقدسة.

وعند ظهور الشفق رأينا كوكبة مؤلفة من خمسين الى ستين جوادا تقترب من الحصن . وهذه هي خيول المؤسسة . وقد

عادت من المرعى برعاية رجال مسلحين لقضاء الليل في الاصطبل • فتحت بوابة الحظيرة ، ووقف بجانبها حارس كندي عجوز لـه حواجب كثيفة رمادية • وتتدلى غدارة درايجون من حزامه ، بينما كان حارس آخر يعتلي ظهر جواده وبندقيته امامه على السرج ، وشعره الطويل يتطاير على وجهه الاشعث وهو يسير في المؤخـرة يستحث الخيول في صعود المرتفع بقوة • وبعد لحظة كانت الحظيرة مكتظة بالخيول نصف المتوحشة وهي تصهل وتتخبط ، ثم تتجمـع الى بعضها على مضض•

سمعنا رنين الجرس ذو النغمات المتعددة يقرعه أحد الكنديـين في الباحة الامامية ، ويدعونا به الى تناول العشاء • وقدم لنا الطعـام على مائدة خشنة في احـدى الغرف السفليـة من الحصن • وكان يتألف من الكانو والخبز ولحم البافالو المقدد ـ وهو طعام يفيـد في تقوية الاسنان ـ وجلس الى المائدة كل من الرئيس والشخصيات البارزة في المؤسسة بما فيهم هنري شاتيون • ولم يكد ينتهي طعامنا حتى مدت المائدة مرة أخرى ، وقد حذف منها الخبز ، ليجلس اليها بعض الصيادين ، وناصبو الافخاخ من ذوي المراكز الثانوية • أما المستخدمون الكنديون فكانوا يتناولون طعامهم المؤلف من بعض قطع اللحم المقدد في أكواخهم • ولاجل تصوير الاقتصاد الداخلي السائد في حصن لارامي ، يجب أن لاننسى سرد قصة كان الناس يتداولونها اثناء وجودنا هناك •

كان في الحصن رجل عجوز يدعى بيير ، ومهمته الاساسية هي جلب اللحم من المخزن واطعام الرجال الموجودين في الحصن • ونظرا لرقة قلبه ، فقد ارتضى أن يخص رفاقه باحسن واسـمن قطع اللحم • ولم يغب ذلك طويلا عن حذق رئيسه النبيه ، فتضايق

كثيرا من هذا الاسراف • وبحث عن افضل السبل لايقافه • واخيرا عثر على الخطة المناسبة • لقد كان بجانب مخزن اللحوم غرفة اخرى أعدت لحفظ الجلود والفراء ، يفصلها عن المخزن جـــدار من الصلصال ، ولم تكن تتصل بالحصن الا من خلال فوهة مظلمـــة في وسط الجدار • وفي احدى الليالي ، انتهز الرئيس لحظـة ، لم يراه فيها أحد ، ودخل مخزن اللحوم وتسلق الفوهة واختبـأبين الفراء وجلود ثيران البافالو • وعندما دخل العجوز بيير يدمدم لنفسه وهو يحمل فانوسه ، بدأ يسحب قطع اللحم وينتخب احسنها كعادته • وبينما هو منمك في عمله واذ بصوت عميق كأنه صادر من قبر يقول له ، « بيير ، بيير ، دع ذلك اللحم السمين ، ولا تأخذ سوى اللحم الهزيل • فطار لب بيير وفقد صوابه فزعا ، فقـذف فانوسه الى الارض ، وهو يكاد يموت جزعا وخوفا ويصيح بـأن الشيطان يسكن مخزن اللحوم • ولم تحتمله اعصابه ، فوقع على الارض مغشياعليه • وهرع الكنديون لمساعدته وحمله بعضهم ، بينما صنع الآخرون صليبا من قضيبين ، وذهبوا ليهاجموا الشيطان في معقله • فاذا بالرئيس يخرج مطأطىء الرأس • وقد بدت عليه علائم الندم والألم • وزاد في فشله واستخـــذائه انه اضطر ان يعترف بالحقيقة كاملة امام بيير ليزيل خوفه فيصحو من اغمائه •

وفي صباح اليوم الثاني ، كنا نتحدث ، في الممر الواقع بـــين البوابتين ، مع اثنين من التجار ، هما فاسكيس ومي • وكانا الوحيدين اللذين يتقنان القراءة والكتابة ، بالاضافة الى صديقنـــا النحيـف مونتالون • وكان مي يروي لنا قصة غريبة عن رحالة يدعى كاتلين • عندما دخل هندي حقير ، يركب حصانا ضعيفا ذريا الى الحصن • ولما سئل عما وراءه من الاخبار • قال ان قبيلة سموك قد اقتربت

من الحصن . والواقع انه لم يمض الا بضع دقائق على وصولــه حتى امتلأت التلال الواقعة وراء النهر بجموع من الهنود ، من خيالة ومشاة . وتوقف مي عن اتمام قصته في حين أخذت الجموع تنحدر الى نهر لارامي وتعبره الى الضفة الاخرى . وكان النهر عريضــا تجري فيه التيارات السريعة ، ويتراوح عمقه بين ثلاثة واربعــة أقدام . وكان يموج بكلاب الهنود وخيولهم التي تسحب خلفهــا أعمدة الاكواخ ، كما كانت اعداد كبيرة من العربات الغريبــة ـ الزحاف ـ أو كما يسميها الكنديون (الاشغال) ، تخوض النهر، بينما يسبح بينها عدد كبير من الكلاب التي كانت تجر زحافــات صغيرة . وفي هذا الخضم كان المحاربون يتقدمون على ظهــور خيولهم وقد أردفوا وراءهم اطفالهم بعيونهم المشابهة لعيون الفهود . وكانت الفوضى ضاربة أطنابها . فالكلاب تعوي وتنبح معا كالجوقة ، كما تعوي الجراء كلما وصل الماء الى زحافاتها الصغيرة . أمــا الاطفال الصغار الذين لاتتجاوز أعمارهم السنة ، تكانوا يتعلقون بشدة باطراف سلالهم التي تضمهم وهم ينظرون بقلق الى الماء الذي يندفع قربهم . فيغمغمون ويدمدمون ويلوون افواههم وأشداقهم كلمــا رشهم الماء على وجوههم . وقد سحب التيار بعض الكلاب التي ناءت بحملها ، فاندفعت معه وهي تنبح نباحا يثير الشفقة . فاسرعــت النساء لانقاذ كلابهن العزيزة فأخذن في سحبها من أعناقهـــا حتــى خرجت من الماء . وكان كذلك وصل جواد الى الضفة تسلق زاحفا بكل جهده وقوته . ثم تبعت الخيول الشارة صغارها الجياد، وسارت خلفها ، كما لحق العرافون الشيوخ بالركب وهم يصيحون كعادتهم في المناسبات التي يصاحبها الهياج . أما الفتيات الهنديات الممتلئات صحة ونضارة ، بوجوههن التي زادها السيلقون الاحمر اشراقا ،

فقد جلسن على الضفة وهن يزفن رماح أسيادهن عاليا يشرن بذلك الى انهن قد جمعن الاجزاء المبعثرة من امتعتهن البيتية • وبعــد هنيهة سارت الجموع ، كل عائلة مع جوادها وحاجاتها وأدواتها ، نحو السهل الواقع في مؤخرة الحصن • ولم تمض نصف ساعــة حتى اقيمت ستون أو سبعون خيمة مخروطية • وانطلقت الخيول الى المراعي في البراري المجاورة ، بينما كانت الكلاب لا تستقر في مكان • وأثناء ذلك كان الحصن يعج بالمحاربين والأولاد وهم يهتفون ويصيحون بدون انقطاع تحت الاسوار •

ما كاد القادمون الجدد يصلون الى اسوار الحصن حتى سـارع بوردو فاجتاز الحصن وهو يهيب بزوجته الهندية ان تسرع فتأتيه بالمنظار • فاسرعت ماري المطيعة لتنفيذ رغبة سيدها ، وحين احضرته ، اسرع بوردو الى السور ، ونظر نحو الشرق ثم أخذ يشتم ويلعن منذرا بان هذه الجموع تتجه نحو الحصن • ومضى وقت طويـل قبل ان تظهر قافلة المهاجرين للعيان وهي تتقدم في طريقها بثبات • ومرت بالتلال ، ثم بلغت النهر ، واجتازته الى الضفة الاخرى وهي تسير ببطء بدون توقف ولا تردد • واستمرت في طريقها فمـرت بالحصن وبالقرية الهندية الى ان بلغت نقطة تبعد ربع ميل ، فاصطفت على شكل دائرة • ولم يقلق بالنا أو يزعجنا تصرف هؤلاء ، فقد بدا لنا أنهم يضربون خيامهم وينظمون أمورهم • ولكن لم يكـد هذا العمل ينتهي حتى اصبح حصن لارامي وكأنه وسط دوامـة هائلة لا تهدأ ولا تستقر • فقد ظهرت أمام البوابة جموع المهاجرين من ذوي القبعات العريضة ، والوجوه النحيلة ، والعيون المتطلعـة والمتلصلصة وهم رجال طوال القامة غلاظ ، ونساء ذوات وجـوه صفراء نحيلة • وأخذ هؤلاء يتزاحمون ، كأن شيطان الفضول قد

استولى على عقولهم . فأخذوا ينقبون وينهبون في كل زاوية من الحصن فاستولى علينا الرعب من هذه الغزوة المفاجئة .وتراجعنا بكل سرعة الى غرفتنا، آملين عبثا ان لايقتربوا من ملجئنا ، ولكنهم تابعوا تقدمهم وتخريبهم بكل عزم وتصميم وبقوة لا تعرف الكلل .فدخلوا الغرف الصغيرة التي تسكنها النساء الهنديات اللواتي علت الدهشة وجوههن ، وأخذوا من هول المفاجأة ، وأخـــيرا قرروا التفتيش والتحري عن كل سر حتى يصلوا الى نتيجة له . فدخلوا غرف الرجال حتى غرفة ماري والرئيس ، وأخيرا ظهر بعضهم أمــــام غرفتنا . ولكنهم لم يلقوا تشجيعا في البقاء فانصرفوا مسرعين .

وبعد أن اشبعوا فضولهم بدأوا العمل الجدي ، فانهمك الرجال في الحصول على التموين اللازم للرحلة المقبلة ، أما بشرائها أو بمقايضتها ببضائع يحملونها .

وكان المهاجرون يتحاملون على الهنود الافرنسيين ، وهو الاسم الذي يطلقونه على صيادي الشباك والافخاخ والتجار . وهم يظنون، ولهم الحق في ظنهم ، بان هؤلاء الرجال لايضمرون لهم خيرا . ويعتقد أكثرهم ان الافرنسيين كانوا يحرضون الهنود على مهاجمتهم والقضاء عليهم . وعندما زرنا مخيمهم أدهشتنا الحيرة والتردد اللذان كانا يسودان تصرفاتهم . فقد بدوا وكأنهم رجال في غير محيطهم ، مرتبكين حائرين ، كفرقة من تلامذة المدارس الذين ضلوا طريقهم في الغابة . وكان من غير المعقول ان يطيل الاقامة بينهم ، دون ان نشعر بروح الشجاعة التي تسود تصرفاتهم . وعلينا أن نذكر ان الغابة هي وطن الرجل الذي ولد في محيطها، وان الحيرة والارتباك والفزع يسود جميع حركاته حين تضطره ظروفه لأن يوجـــد في الارض القفر . فهو يختلف عن الرجل الذي ولد وعاش بـــين الجبال . وكنت لازال أنا ورفيقي في حيرة من تعليل حالتهــــم

الفكرية والنفسية المضطربه • فهي لم تكن جبنا ، فقد كان هؤلاء الرجال من نفس فصيلة رواد مونتيري وبونيافيستا • ومع ذلك ، فلا يزالون على الاغلب ، أخشن واجهل سكان مناطق الحدود جميعا ، لا يعلمون شيئا عن البلاد وسكانها•وقد لاقوا كثيرا من سوء الحظ ، وهم يخشون مصادفة المزيد منه •

كان الناس ينظرون الينا بعيون ملؤها الشك والتردد ، اتفقنا على الشروط • فقدمنا الثمن ، وذهب المهاجر ليحضر البضاعة المتفق عليها ، وجلسنا ننتظر الى أن عيل صبرنا • فذهبنا نبحث عنه فوجدناه جالسا أمام عربته •

قال لنا ، أيها الغرباء لقد قررت أن لااتعامل معكم •

وكان سبب قراره المفاجىء أن صديقا له همس في اذنه اننا ننوي خداعه وانه من الافضل ان لايتم الصفقة •

وفي احدى الليالي عند الغروب ، التقينا بالهنود شيوخا ومحاربين ونساء واطفالا بنزاتهم الزاهية ، وهم يحتشدون في طريقهم الى المخيم ، وعند وصولهم جلسوا في نصف دائرة • فتوسطها سموك ، واحاط به محاربوه عن يمينه ويساره ، وتلاهم الفتيان والأولاد • أما النساء والاطفال فجلسوا عند قرني الهلال • ولم يطل الوقت حتى وزعت عليهم القهوة والبسكويت • بينما وقف المهاجرون فاغري الافواه ينظرون الى ضيوفهم المتوحشين بعجب ودهشة واشمئزاز • ومثل هذه الحفلات تتجدد كلما أتت فرقة من المهاجرين الى حصن لارامي •

ان الاوجيلالا والبرولي ، وغيرهما من عصابات الداكوتا أو السيوكس هي من صميم المتوحشين ، الذين لم يغير اتصالهم بالمدينة شيئا من طباعهم • فلا يتكلم أحد منهم أية لغة أوربية ، كما أنهم

لايعتبرون البيض أكثر من مستخدمين لشركة الفراء • الى ان بدأ المهاجرون منذ سنة أو اثنتين ببلادهم في طريقهم الى الاوريجون• ولما رأوهم ظنوا أنهم سحرة ادنى منهم منزلة ، يعيشون في مساكن من الجلد كمساكنهم ، ويتغذون بلحم البافالو مثلهم • ولـــكن عنـــدما بدأت حشود المينياسكا تغزوهم بعرباتهـــم وثيرانهم فاقت دهشتهم حدود الوصف • فقد كانوا لايصدقون ان الارض تحتوي على هذا ا لعدد الكبير من الرجال البيض • وقد انقلبت دهشتهـــم الآن الى حقد وغيظ وغضب • والنتيجة هي انه مالم تصـــل فرق الحرس بدون تأخير ، فستكون العاقبة وخيمة جدا •

كنت أنا وشو نقضي أغلب امسياتنا في القرية الهندية • وكان انتحال شو شخصية الطبيب يعطينا الفرصة القوية للتجول بينهم • وكنموذج لهذه الزيارات اصف لكم احداها •

كانت الشمس على وشك الغروب في طريقها الى الحظـــيرة • وعندما وصل ديك البادية ، وهو شاب جميل مشهور ، الى البوابة ومعه عدد من الفتيات أخذ يرقص معهن ، بينمـــا كان يخرج من صدره اصواتا رتيبة مملة ، فتردد الفتيات معه اغنية محزنة •وكان الأولاد والفتيان يلهون خارج البوابة ، ويقف بجانبهم محارب ،طلى وجهه باللون الاسود دلالة على فوزه أخيرا في الاستيلاء على فروة رأس أحد الهنود البوني • مررنا بهؤلاء في طريقنا الى مسكن سموك العجوز • وهو أحسن المساكن قطعا • ولكنه بالطبع كان قذرا ، فقد تراكمت القاذورات في داخله وخارجه ، ودلت هذه الظاهرة على أن الزعيم في هذا المجتمع الديمقراطي لا يتخذ لنفسه مركزا متفوقا• وكان سموك يتربع فوق رداء من جلد البافالو • وحيانا عند دخولنا بود وترحاب على غير عادته • وكان يجلس حول المسكن عدد من

النساء يحيط بهن كثير من الاطفال ، وكان اغلبهن يتألمن من التهاب شديد في عيونهن متسبب عن التعرض المستمر للشمس ، وكانت هذه الحالات أنواعا من الأضطرابات التي يعالجها صديقي بنجاح فائق . وفرشوا لنا رداء كبيرا ، ودعونا للجلوس . ولم نكد نستقر حتى ظهر أول مريض وكان ابنة الزعيم التي هي بحق أجمل فتاة في القرية . ولما كانت على صلة حسنة بالطبيب فقد وضعت نفسها بين يديه .واذعنت لأوامره ، ورضخت راضية لكل تصرفاته وهي تبتسم له أثناء قيامه بعمله . مع أن المرأة الهندية لاتكاد تعرف الابتسام ، ولا تفهمله معنى . ولما انتهت هذه العملية تبعتها أخرى تختلف عنها تماما . فقد جلست امرأة قبيحة الوجه هزيلة في اظلم زاوية من المكان . وهي تنتفض الى الامام والخلف من شدة الألم ، وتخفي عينيها من النور بضغطهما براحتي يديها . فأمرها سموك بان تتقدم ، فاطاعت رغم ارادتها . ورأينا عينين كادتا تختفيان لشدة الالتهاب . ولم يكد الطبيب يمسها حتىوقفت تئن وتتلوى بين يديه . فكاد يفقد صبره ولكنه عزم على اتمام مهمته ، فتمكن أخيرا من أن يضع دواءه على مكان الألم .

وخلال هذه العمليات دخلت أكبرزوجات سموك وبيدها مطرقة، رأسها الحجري يشبه تلك التي كانت تستعمل في حقول نيوانكلند. وقد نسيت أن اذكر بانني لاحظت حين دخولنا عددا من الجراء السوداء في محفة من القش تلعب بين أردية من جلد البافالو فياحدى الزوايا . غير أن هذه الدخيلة عكرت صفوها ، فقد أمسكتباحدها من مخلبه الخلفي وجرته ، ثم حملته الى باب المسكن وضربته بالمطرقة على رأسه حتى مات . وأردت أن أعلم القصد من هذا التصرف ، والغاية منه . فنظرت من فتحة المسكن لأرى الخطوات

التالية للعملية ، فرأيت المرأة تحمل الجرو من رجليه وتمرره فوق النار جيئة وذهابا حتى احترق شعره • ثم استلت سكينا فقطعتـه قطعا صغيرة ، وضعتها في مقلاة وطهتها فوق النار • وبعد برهـة قدمت الينا طبقا من الخشب مليئا بالطعام•وكانت وليمة لحم الكلاب أعظم اكرام يستطيع الداكوتا تقديمه الى ضيفه • ولما علمنا انرفض تناول الطعام يعد اهانة ، اضطررنا مكرهين ان نلتهم الكلب الصغير أمام أعين أمه الغافلة ، وفي تلك الاثناء كان سموك يحضر غليونـه الكبير • وحين اشعله أخذنا نتناقله الواحد تلو الآخر • وبعـــد الانتهاء من التدخين ، غادرنا المكان الى الحصن ، حيث سمح لنـا بالدخول بعد التعرف على شخصياتنا •

الفصل العاشر

فرق الحرب

كان صيف عام ١٨٤٦ يتميز بهياج حربي عظيم بين جميع فرق الداكوتا الغربية . ففي العام المنصرم نزلت بهم كوارث جسيمة لاتقدر ، حين أرسلوا فرقا عديدة للقتال ، فأبيد القسم الأكبر منها، وعاد الباقون يجرون اذيال الخيبة والهزيمة والذل والفشل . فاعلنوا الحداد العام بين كافة طبقات الشعب . وكان من بقي من فلول المهزومين ، عشرة من المحاربين اتجهوا صوب (بلاد الأفعى) يقودهم ابن زعيم كبير من زعماء أوجيلالا ، يدعى الزوبعة . وعند مرورهم في سهول لارامي التقوا بجماعة من اعدائهم تفوقهم عددا ، فطوقوهم وافنوهم عن اخرهم ، فلم ينج منهم أحد .وبعد ان قام رجال السنيك بهذا العمل خشوا مغبة عملهم ، فدب فيهم الخوف ، وسيطر عليهم الرعب ، وخافوا قيام الداكوتا برد فعل ناجم عن استيائهم ، فسارعوا يسعون الى عقدالصلح معهم ،ويرغبون فيه . فأرسلوا فروة جلد رأس القتيل ، وارفقوها برزمة صغيرة من التبغ هدية الى أهله وقبيلته . ولكن الزوبعة رفض عرضهم ، ولم يلن أو يتساهل ، بل ظل على تصلبه بالنسبة لهذا الموضوع، لأنه كان هنديا صحيحا ، يكره السنيك من أعماق قلبه وأخذيستعد للانتقام ، قبل وصول الفروة بوقت طويل . فبعث رسلا يحملون هدايا من التبغ الى جميع قبائل الداكوتا القاطنة حتى مسافة ثلاثماية ميل . ويقترح عليهم اتحادا عاما لمعاقبة السنيك والثأر منهم .وحدد

مكانا وزمانا للاجتماع المنوى عقده ، واتخذ هؤلاء خطة سريعة ، فأخذت عدة قرى تضم خمسة أو ستة آلاف نسمة ، تزحف ببطء في البادية متجهة نحو مكان الاجتماع في مخيم (لابونتيه) على ضفة نهر البلات • حيث كان يجب أن يحتفل باقامة طقوس الحرب بجلال وخشوع رهيبين ، ثم يبدأ الف محارب بالسير الى بلاد العدو • وستظهر النتيجة المميزة لهذا الاستعداد فيما بعد •

أما أنا فقد سررت لسماع هذه الاخبار • لانني قدمت الى هذه المنطقة لهدف اساسي وهو دراسة طبائع الهنود • ولكي أظفر بغايتي التي جئت من أجلها كان من الضروري أن اختلط بهم وأعيش بينهم ، واصبح واحدا منهم • فعزمت ان التحق باحدى هذه القرى وأقيم في أحد مساكنها •

وصممنا ان لا يفوتنا الموعد في مخيم (لابونتيه) مهما كان الامر • وكانت خطتنا ان نترك ديلورييه في الحصن ، ونوكل اليه حراسة امتعتنا وافضل جيادنا • ولم نأخذ معنا سوى اسلحتنا وأسوأ خيولنا • وكنا نتوقع ان تكثر الخصومات ويتفشى الحسد بين مختلف الجموع المحتشدة من المتوحشين القساة ، مادامت هذه الجموع لاتخضع لقيادة زعيم واحد ، سيما وان كثيرا من الهنود غرباء من جبال بعيدة وأماكن نائية • فكنا نتحاشى أن نثير شعورهم بالطمع • تلك كانت خطتنا ، ولكن لسوء الحظ ، لم يشأ القدر أن نزور مخيم (لابونتيه) بهذه الطريقة ، فقد أتى فتى هندي ، في صباح أحد الايام الى الحصن يحمل أخبارا سيئة • وكان فتى أنيقا شريرا ، لون وجهه بالسيلقون الاحمر ، ووضع على رأسه ذيل ديك القفار (نوع من الديك البري) وعلق في اذنيه قرطا من الصدف ، ولف حول جسمه بطانية حمراء ، وحمل في يده سيفا

من سيوف الداريجون على سبيل الزينة فقط ، لأن سلاح الحرب في جميع انحاء المنطقة كان يقتصر على السكين والقوس والبندقية • ولما كان من غير المعقول في هذه المناطق انيخرج أحد بدون سلاح، فقد حمل قوسا وسهاما في كنانة مصنوعة من جلد كلب البحر معلقة خلفه ، ودخل (الحصان) ، وهو اسم الفتى ، بهذه البزة الى البوابة • ولم يلتفت يمينا أو يسارا ، بل أخذ ينظر شذرا الى النسوة الهنديات اللواتي كن يجلسن مع اطفالهن في أشعة الشمس أمام أبواب غرفهن • وكانت أخبار الشؤم التي أتى بها (الحصان) هي مايلي : ان زوجة هنري شاتيون ، وهي امرأة كان لهنري أقوى صلة بما يمكن أن تقوم بين عرقين منذ سنين ، أصيبت بمرض خطير • وكانت تقيم مع اطفالها في قرية (الزوبعة) على مسير بضعة أيام • وأبدى هنري رغبته في رؤية زوجته الذي يحنو عليها ويحبها حبا جما • وكان رفضنا لرغبته يعد عملا غير انساني ، لهذا قمنا بتعديل خطتنا ، وقررنا اللحاق برجال سموك والسير معهم الى موعد الاجتماع في مخيمهم لابونتيه وقررنا الاجتماع بالزعيم الهندي (الزوبعة) والسير في صحبته •

وكنت قد قضيت عدة أسابيع وأنا طريح الفراش ، وقداستيقظت في الليلة الثالثة من وصولنا الى حصن لارامي ، من شدة الألم ، وأحسست أن وطأة المرض الثقيلة تزداد قوة ووجدت نفسي مصابا بمرض خطير كان قد سبب خسائر فادحة ، حينما نزل الجيش في ريو جراندي • وفي مدى يوم ونصف كنت اتقلب يائسا على فراش المرض في حالة لم استطعمعها السير الا بأشد الجهد والألم ولما لم أجد من يقدم لي ارشادات طبية ، كما لم يكن لي الخيار في اختيار غذائي ، فقد قررت أن أدع أمر شفائي الى القدرة

الإلهية ، وان استعين بما تبقى لي من القوة لاتمام رحلتي • وهكذا خرجنا من حصن لارامي في العشـــرين من حزيران (يونيو) للاجتماع في قرية (الزوبعة) • ومع انني كنت استعين بالســـرج الجبلي ذي القربوس العالي ، فلم أكن استطيع الثبات فوق ظهـر الجواد الا بصعوبة فائقة• وكنا قبل أن نغادر الحصن قد استأجرنا رجلا آخر يدعى رايموند ، وهو كندي له شعر طويل ، يشبه البوم، ويختلف عن وجه ديلوريه النشيط • ولم يكن ذلك الكندي هو التعزيز الوحيد لفرقتنا ، فقد انضم الينا أيضا تاجر هندي شرير يدعى رينال مع زوجته مارجو وابني أخيها، وهما صديقنا (الحصان) وأخوه الاصغر (عاصفة البرد) • وسرنا متجهين نحو القفارتاركين الطريق المعبد ، فمررنا فوق التلال الكثيبة التي تتاخم وادي نهـر لارامي • ولم يكن عددنا كبيرا ، اذ لم نزد عن ثمانية رجال وامرأة بين بيض وهنود •

كان التاجر رينال يسير حاملا سيف الدرايجون بيده ،ووجهه يطفح بشرا وفرحا ، وقد قضى هذا التاجر حياتـه بين الهنـــود ، فاكتسب الكثير من عاداتهم وافكارهم وسلوكهم • أما زوجته فكانت اشبه ما تكون بانثى الحيوان وهي تجلس في عربة زحافة ، بوزنها الذي يتجاوز المئتي ليره ، وقد كدست كثيرا من اغطية رينال ، وعلقت مختلف ادواتها المنزلية الى العربة التي يشدها جواد مسكين ظلمه القدر القاسي فانزله عند تلك المرأة • اما ديلوريه فكان يسير بخفة ونشاط بجانب العربة ، يتبعه رايموند وهو يصيح بالجياد الاحتياطية التي كان مسؤولا عنها ، يتبعهم الفتيان الهنود وهـــم يجدون في السير ، وكناناتهم خلف ظهورهم وسهامهم في آيديهم ، ويحثون جيادهم وهي تقفز صاعدة التلال ، فتفزع الذئاب والايلة ،

فتحرج من بين شجيرات القصعين البري مذعورة تطلب النجـــاة • وبينما كنت انا وشو نسير ، وقد ارتدينا بزتين من جلد الوعول تشبهان ما يلبسه الصيادون ، كان هنري شاتيون يسير في الطليعة • ونحن نتبعه وهو يقودنا من تل الى آخر ومن تجويف الى مثله ، في منطقة قاحلة غير مستوية لفحتها الشمس حتى كاد لاينبت فيها شيء ولكن كثيرا من الاعشاب الطبية ، خصوصا الا بسنت ، كانت تتناثر هنا وهناك واصبحت من الكثرة بحيث غطت المنحدرات ،بينما كان الصبير ينمو متشعبا كالافاعي على جوانب الوديان وســـفوح التلال •واخيرا بلغنا تلا عاليا ، فاخذت خيولنا ترتقيه وهي تطأ فوق حصى الصوان ، والعقيق ، واليشم الخام ، حتى انتهينا اخيرا الى القمة ، فالقينا نظرة خلفنا على الاعماق الســـحيقة القفراء الممتدة على جانبي نهر لارامي ، والملتويـة كالافعى من جانب لآخـر في الفسحات الضيقة بين الحور القطيني ، الدردار • وضربنا خيامنـا لقضاء الليل في هذا القسم في الغابات والمراعي • التي تحيط بهـــا سلاسل من الاجرف ، بيضاء كالحور • وفي الصباح مررنا بسهل معشوشب واسع الى جانب النهر • وكان امامنا غابة تستتر وراءها آثار حصن تجاري قديم مشيد من جذوع الاشجار • ولكنه الان طلل بال • وكانت ازهار الغابة ، والورود البرية يتضوع عبيرها ، تذكرنا بالوطن • وفيما نحن في طريقنا وبعد خروجنا من بـــين الاشجار ،رأينا افعى من ذوات الاجراس ، ثخينة كذراع الانسان يزيد طولها عن اربعة اقدام ملتفة على صخرة تكش وتصفر وترمقنا بوحشية وغدر • كما اطل علينا من بين نباتات السرخس الطويلة ارنب بري يبلغ حجمه ضعفي حجم ارانب نيو انكلند ، واثناء ذلك ازداد عواء الكلاب البرية ونباحها ، واستمر ينبعث من أوكارها في

السهول النائية ، حيث كانت ترابط • وظهر فجأة من بين شجيرات المريمية ، وعل ، نظر الينا بدهشة ثم رفع ذيله وولى هاربا كالكلب السلوقي • ورأى الهنديان الصغيران ذئبا أبيض ، بجسمه الذي يفوق جسم العجل ضخامة ، من احدى الفجوات ، فصاحا صيحة شديدة ، واسرعا يطاردانه •. ولكن الذئب قفز الى النهر فاجتازه سابحا • وتبع صوت اطلاق بندقية ، ولكن رصاصتها مرت من فوق رأسه ، فلم تصبه بأذى • وعندما تقدمنا قليلا ، رأينا على ضفة النهر البعيدة منظرا جميلا يخلب الالباب ، قل أن تقع على مثله العين • فقد ظهر من بين اشجار القيقب ، قطيع من الايل يبلغ المائتين عدا ، قادما الى المراوج ، وقرونها تحتك ببعضها أثناء سيرها في تزاحم شديدة ، واسرعا يطاردانه • ولكن الذئب قفز الى النهر فاجتازه المتناثرة • وكان الى يسارنا قفر قاحل يمتد حتى الافق البعيد • والى يميننا خليج عميق يقع في نهايته نهر لارامي • واخيرا وجدنا انفسنا على حافة منحدر وعر ، وقد امتد امامنا الى مسافة ميل او اثنين واد ضيق ، وبساط من العشب الكثيف الطويل والاشجار المبعثرة على طول مجرى النهر • وهناك ضربنا خيامنا بجانب شجرة كبيرة باسقة ، وقررنا أن ننتظر وصول « الزوبعة » في طريقه الى مخيم (لابونتيه) ، ولم نجد من المناسب ان نبحث عنه لسببين ، اولا ، لطبيعة المنطقة الوعرة ، وثانيا لجهلنا بتحركاته ومكان وجوده ، هذا بالاضافة الى ان جيادنا التي انهكها التعب وبعد الشقة ، لم تعد تقوى على السير • كما اني لم اكن في حالة صحية مناسبة تساعدني على تحمل مشاق السفر • ولقد توفر لنا هنا العشب والماء النقي ، وسمك النهر ، هذا الى كثير من الطرائد الصغيرة كالرئم والغزال وغيرها ، ولكننا لم نعثر هنا على اي اثر لثيران البافالو •

وكان خلفنا بقعة فسيحة مملوءة بالادغال والاعشاب الجافة • وكان السير فيها محفوفا بالاخطار • فهناك تتجمع اعداد كبيرة من فراخ الافاعي ذوات الاجراس • وحين قررنا البقاء أرسل هنري شاتيون (الحصان) وحمله رسالة الى زوجته يطلب منها ان تسرع فتغادرها هي واقاربها بدون اي تأخير وتسير الى مخيمنا بأسرع وقت •

أصبح عملنا اليومي منتظما كما لو كنا في بيوتنا، وصارت الشجرة الكبيرة الواقعة في وسط الساحة متكأ لبنادقنا فوق جذعها • كما القينا بسروجنا حولها ، واتخذنا من جذورها المعوجه المفتولة مقاعد كنا نجلس عليها في الظل فنقرأ وندخن • واصبحت اوقات الطعام اهم ساعات نهارنا ، وقد جمعنا مؤنا كثيرة لوجباتنا • فكنت ترى حيوان الرئم أو الغزال معلقاالى أحد الاغصان • والحقيقة أن صورة ذلك المخيم لاتزال عالقة في مخيلتي بجميع ما فيها من متناقضات فالشجرة القديمة الهرمة ، والخيمة البيضاء وشو نائم تحت ظلالها وكوخ رينال الحقير على ضفة النهر ، المصنوع من جلد ثيران البافالو القذرة التي فرشت فوق اطار من الاعمدة، فترك بهذا الشكل احد جوانب الكوخ مفتوحا • وعلق في داخله قرن للبارود وجيب للخرطوش مع غليون صاحب المسكن ، وكنانة ثمينة من جلد كلب البحر ، وقوس وسهام • لقد كان رينال متخلقا بأخلاق الهنود وعاداتهم وصفاتهم ، ولم يشذ عنهم بشيء غير اللون • وقد اختار أن يصطاد البافالو بهذه الاسلحة البدائية كما يفعلون • وكانت مدام مارجو بجثتها الضخمة تجلس وسط أدواتها المنزلية وفرائها وثيابها ، والبطانيات والحقائب المصنوعة من الجلود الخام الملونة التي تحفظ فيها اللحوم المقددة • ولم تكن تغادر مجلسها من شروق، الشمس الى غروبها ، وقد تجسم فيها الشره والكسل ، بينما كنت

نرى سيدها المحبوب رينال جالسا يدخن ، ويتوسل الينا ملحفا في الرجاء بأن تتصدق عليه ببعض الاشياء التي يحتاجها ، أو يأخذ في سرد الاكاذيب عن حوادث بطولاته وشجاعته ، او يشترك في طهو بعض المآكل . وبما أنه معتاد على القيام بمثل هذه الاعمال ، فقد ضم جهوده الى جهود ديلوريه ، وأخذا يعملان بجد في تحضير الطعام بينما كان رايموند يمد الغطاء المصنوع من جلد البافالو المبيض بعناية بواسطة الطين الخزفي ، فوق العشب امام الخيمه ، ويرتب فوقه أقداح الشاي والصحون . وحين انتهى من عمله هذا، خذ يزحف على يديه ورجليه كالكلب . ثم اطل برأسه من باب الخيمة مفكرا ، ولكنه لم يلبث أن استجمع قوته وأعلن ، ان الطعام جاهز ، ثم انسحب بسرعة .

وعند الغروب كان المشهد الكئيب ، الموحش ، يأخذ شكلا جديدا حين جمعنا الخيول التي رعت طيلة اليوم ، وأخذنا نعقلها عندما يخيم الظلام على البادية ، كنا نجلس نتبادل الاحاديث حول النار، الىأن يغالبالنوم جفوننا ، فنتدثر ببطانياتنا، ولا نلبثأن نغرق في بحر من السبات العميق ، وكان الكسل الذي هيمن علينا ، جعلنا نهمل الحراسة الليلية . غير أن هنري شاتيون كان يطوي بندقيته المحشوة ببطانيته ، ويعلل ذلك بانه اعتاد ان يضعها في الفراش عندما كان يخيم في هذا المكان . لقد كان هنري اشجع من أن يستعمل هذه الاحتياطات بدون سبب وجيه . فكان يشعر من حين الى آخر ،.ان وضعيتنا ليست مأمونة العواقب ، خصوصا وأن بضع فرق محاربة من قبيلة (الغراب) كانت تقيم على مقربة من المكان. وان احداها مرت من هنا منذ وقت قصير ، فحفرت قاربا من شجرة مجاورة، ونقشتعلىالخشبالابيض بعضالرموز الهيروغليفية، لتعلن

أنها غزت أراضي أعدائها الداكوتا ، وانها تتحداهم . وفي أحد الايام انتشر الضباب في جميع انحاء المنطقة . وكان شو وهنري قد خرجا في نزهة على ظهور الخيل . ثم عادا وهما يحملان في جعبتيهما أخبارا مدهشة . لقد وجدا على بعد طلقة من مخيمنا آثارا حديثة لما يقرب من ثلاثين خيالا . وكان من المؤكد انهم ليسوا من البيض كما أنهم ليسوا من الداكوتا ، فقد كنا نعلم أن فرق الداكوتا لا تقيم قريبا . واذن فمما لاشك فيه ، أن أولئك الخيالة من قبيلةالغراب. ولو أتيح لهم لهاجمونا ، ولكننا نجونا من معركة قاسية لانعرف مصيرها ، بفضل مرافقة الضباب لنا في يومنا ذاك . وقد زال ماكان يساورنا من الشكوك بعد يوم أو اثنين ، حينما جاء ثلاثة من الداكوتا ، فاخبرونا بانهم بينما كانوا مختبئين في واد قريب ، شاهدوا عددا من رجال الغراب الذين تعقبوهم ، فتواروا عن انظارهم . واكتشف رجال (الغراب) جثث خمسة أفراد من الداكوتا ملقاة حسب العادة بين الاشجار . فقذفوا بها الى الارض ، ثم صوبوا فوهات بنادقهم اليها ، وأطلقوا عليها النار فطارت أشلاؤها في الفضاء.

ومع ان مخيمنا لم يكن مأمونا فقدكان على الاقل مريحا وخصوصا بالنسبة لشو . أما أنا فكنت لا أزال أتألم من المرض ، وساءني أن أتأخر في تنفيذ خططي . ولكن لم يمض الا وقت قصير حتى أخذت صحتي في التحسن . فكنت اخرج على صهوة جوادي الى البادية متنكبا سلاحي تارة ، واذهب اخرى الى الاستحمام مع شو في النهر ، واحيانا اشعل حربا صغيرة في قرية كلاب البادية . أما الليل فكنا نجلس حول النار لنبدأ حديثنا عن الهنود ، فنعيب عليهم تقلبهم وعدم ثباتهم ، ثم لا نلبث أن ننفجر ضيقا وضجرا فنلعن الزوبعة ورجاله وأخيرا اصبحت الحالة سيئة لاتطاق .

قلت : غداً سأعود الى الحصن ، علي أستطيع أن أستقي شيئا من الاخبار . وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة ، عندما بدأت النـــار تخبو ، واستسلم جميع من في المخيم الى احلامهم الهادئة ، سمعنا صيحة تنطلق في الظلام . فقفز هنري واقفا ، وأجاب على الصوت بمثله بعد أن عرف أنـه صوت صديقنا الشاب (الحصان) الذي عاد من مهمته في القرية . وربط جواده ببرود دون أن ينبس ببنت شفة ، ثم جلس بجانب النار وبدأ يأكل . غير ان سياسته في الهدوء كانت أكثر من أن نستطيع الصبر عليها وتحملها . فسألناه ، أين القافلة ؟ فأجاب : على بعد خمسين ميلا نحو الجنوب ، وهي تسير ببطء شديد ، ولن تصل في أقل من مدة اسبوع .

ـ : وأين زوجة هنري ؟

ـ : آتية باسرع ما تستطيع مع ماهتور تاتونكا وبقية اخوتها ، غير أن من المستحيل أن تصل الينا ، لانها مشرفة على الموت ، وهـي تنادي هنري في كل لحظة ، وتطلب حضوره . وحين سمع هنري كلام الحصان اظلم وجهه وانقبض صدره ، والتفت الينا يسألنـا اذا كنا سنسمح لـه أن يغادرنا لرؤية زوجته في الصباح ، فأذنـا له ، وقرر شو مرافقته .

اسرجنا جيادنا في الصباح ، وعزمنا على السير ، فاحتج رينال لتركه وحيدا ليس معه سوى الكنديين والشابين الهنديين في الوقت الذي يخيم فيه الاعداء في مكان قريب مجاور ، ولكننا لم نصـــغ لاحتجاجه ، كما لم نهتم لامره . وحين وصلنا مصب النهر وافترقت عن أصدقائي استدار شـو وهنري الى اليمين ، واتخـذا طريقهما بمحاذاة ضفة النهر ، بينما سرت في طريقي الى الحصن .

انني اترك الان صديقي في طريقه الى زوجته التعسة ، لكـي

أتحدث عما رأيته في حصن لارامي ، الذي لم يكن يبعد أكثر من ثمانية عشر ميلا قطعتها في ثلاث ساعات . وأمام باب الحصن كان يقف رجل اسدل ثوبا على جسمه حجب ملامحه وأوصافه من الرأس حتى أخمص القدم . وقد أمسك بزمام جواد اعتقله حديثا بحبل من جلد ثور البافالو . وكان بملامحه الحادة البارزة وعينيه الماكرتين الشبيهتين بعيني الافعى ، ينظر من تحت قبعة المعطف التي تغطي رأسه وكأنها قلنسوة الرهبان الكبوشيين . وكان وجهه يشبه قطعة من جلد الثور المجفف ، أما فمه فيكاد يبلغ اذنيه اتساعا ، وقد مد هذا الرجل يده القاسية الصلبة ، فصافحني بحرارة غير مألوفة في تحية الهنود حين تبين في صديقه الحميم . وتبادلنا الخيول كل لفائدته الشخصية . وكان بول يظن انه يعامل بالحسنى، لهذا كان يصرخ في كل مكان يحل فيه ، وحيثما يذهب ان الرجل الابيض له قلب طيب لايعرف السوء ، وبول هذا هو أحد أفراد الداكوتا من مقاطعة ميسوري ، وابن مترجم خلاسي هوبيردوريون. وهو الشخص الذي جاء اسمه في الكتاب الذي ألفه ايرفنج ، ودعاه « استوريا » .

قال بول ، انه كان في طريقه الى متجر ريتشارد ليبيع جواده الى أحد المهاجرين المخيمين هناك ، ورجاني ان اذهب معه .

سرنا سوية ، وكان بول يجر جواده المتوحش خلفه حينما قطعنا النهر ، وظل صامتا حتى اجتزنا السهول الرملية . وعندها اطلق للسانه العنان ، ولم يكف عن الثرثرة طوال الرحلة . وكان يعتبر العالم كله وطنا له . فقد عاش مع البيض في مستعمراتهم ، وزار في أيام السلم والحرب ، معظم القبائل في نطاق الف ميل . وكان يتكلم الافرنسية والانكليزية العامية . ومع ذلك فقد كان

هنديا صميماء وعندما كان يتحدث عن معارك قومه الدموية ضد أعدائهم كانت عيناه تبرقان بقوة وقسوة وحشية • وقد روى لي كيف أباد قومه الداكوتا ، قرية (هوهيز) الواقعة بالقرب من الميسوري ، فقتلوا الرجال والنساء والاطفال ، وأفنوا بقوة طاغية ستة عشر من شجعان ديلاوير ، الذين كافحوا كالذئاب حتى نهاية المعركة وسط حشود أعدائهم الهائلة • وروى لي القصة التالية التي لم أصدقها، حتى أكد على صحتها عدد كبير من المصادر المحايدة •

منذ ست سنوات كان رجل مولود من الدم الافرنسي والزنجي ، يدعى بيكوورث يتاجر لحساب شركة الفراء في احدى قرى الغربان الكبيرة • وكان جيم بيكوورث هذا ، يقيم في سانت لويس في العام الماضي • وكان وغدا من اخس الانذال ، دمويا غشاشا ، لاشرف له ولا ذمة • وفي أحد الايام بينما كان في القرية المذكورة ، تسللت الى المنطقة فرقة من محاربي (بلاك فوت) يقارب عدد أفرادها الاربعين رجلا ، واخذت تقتل من تجده في طريقها وتستولى على جواده • وطاردهم المحاربون من قبيلة الغراب ، وتعقبوا اثارهم وضيقوا عليهم الخناق ، فلم يستطيعوا الفرار • واقام محاربو بلاك فوت متراسا على شكل نصف دائرة من جذوع الاشجار في أسفل هوة ، وكمنوا ينتظرون اقتراب أعدائهم ، وأعدوا لانفسهم متاريس من جذوع الاشجار بلغ علوها أربعة أو خمسة أقدام • ومع أن الغربان يبلغون عشرة اضعافهم ، فلم يفكروا باقتحام الحصن الصغير • ولكنهم اخذوا يصرخون ، فيشبه صراخهم العواء ، ويقفزون من جانب الى آخر كالشياطين المجسمة ، ويطلقون الرصاص والسهام فوق المساكن ، فلم يصب أحد من البلاك فوت ، بل ان كثيرا من الغربان أصيبوا وسقطوا رغم مراوغتهم وقفزهم

ومحاولاتهم الشيطانية • وامتد زمن المعركة أكثر من ساعتين على هذه الطريقة الصبيانية ، وكنت تسمع من وقت الى آخر محاربا من الغربان يصرخ بأغنية الحرب ، وقد استخفته نشوة الشجاعة والخيلاء ، ويفخر بانه اشجع واعظم رجل في العالم • ثم يلوح بلطته ، ويهجم على المتاريس فيضربها ويعود الى رفاقه فيسقط بينهم ميتا بعد أن يصاب بسهام أعدائه • ومع ذلك فلم يسع أحد منهم أن يرتب هجوما مشتركا ، أو يضع خطة ناجحة • لهذا بقي البلاك فوت آمنين في معاقلهم • الى أن فرغ صبر جيم بيكوورث • فصرخ بالغربان قائلا :

انكم جميعا حمق ، رجالا ونساء ، فاتبعوني اذا كنتم شجعانا ، سأريكم كيف يكون القتال •

وخلع عنه رداء الصيد المصنوع من جلد الوعل وخرج عاريا كعادة الهنود ، وترك بندقيته على الارض ، وحمل بيده بلطة خفيفة صغيرة ، وركض الى اليمين ، واختبأ في حفرة عن أعين البلاك فوت • ثم تسلق الصخور حتى بلغ قمة الهوة وراءهم • ومعه بين الاربعين والخمسين من فتيان الغربان • وحين أصبح البلاك فوت تحتهم ركض الى الامام ، وقذف بحجر بينهم ، ثم قفز وامسك بأول من قابله منهم من شعره الطويل ، وحنا رأسه الى الاسفل وضربه بالمطرقة ، ثم امسك بالثاني من حزامه وضربه ضربة قاضية • ثم توقف على قدميه ، واطلق صيحة (الغربان) الحربية • وأدار هراوته حوله بوحشية ، فتراجع البلاك فوت مذعورين ، وقد فتحوا له الطريق • وكان بامكانه لو أراد الهرب ان ينجو من فوق المتاريس • ولكن ذلك لم يكن ضروريا • لأن محاربي (الغربان) تبعوه من فوق الصخور الواحد تلو الآخر ،

وهم يصيحون • وهجمت من الامام فرقة الغربان الرئيسية ، وهي تصيح صيحات الحرب • وكان هجومهـا مفاجئـا ، والمعركة على أشدها وسط المتاريس • فحارب البلاك فوت برهة وهم يصيحون كالاسود • ولكن المذبحة انتهت بسرعة • وتكدست جثثهـم في الهوة • ولم ينج أحد منهم اطلاقا •

وما كاد بول ينتهي من سرد قصته ، حتى لاح حصن ريتشارد للعيان ، وحوله عدد من الرجال • وأمامه مخيم للمهاجرين •

فقلت : « والآن يا بول ، أين مساكن المينيكونجيو ؟ »

فأجاب : لم تأت بعد ، ويحتمل أن تأتي غدا •

وكانت قريتان كبيرتان تحملان شارة الداكوتا ، قد قدمتـا من ميسوري من مسافة ثلاثمائة ميل • لكي تشترك بالحرب • وكان من المتوقع أن تصلا الى حصن ريتشارد هذا الصباح • ولكن لم تبد أية اشارة ، ولم يلمح أي دليل يشير الى اقترابهم •

وشققت طريقي بين جموع السكارى الصاخبين ، ودخلت غرفة مبنية من جذوع الاشجار والطين ، وهي أكبر غرفة في الحصن ، وكانت مليئة برجال من مختلـف العروق والالوان • أما عن السكارى ، فيظهر أن أحد شركات المهاجرين في كاليفورنيا قـد اكتشفت في الايام الاخيرة ، انها قد اسرفت كثيرا ، واثقلت كاهلها بكثرة المؤن ، ومعدات الرحيل والنفقات فباعت قسما من مخزونها بخسارة كبيرة الى التجـار ، كما عزمت على التخلص من الكميات الهائلة من ويسكي ميسوري ، فاتاحت شربه في مكان وجوده • وكانت النساء في هذه الغرفة يستلقين فوق أكداس من ثياب البافالو ، ورأيت رجالا مكسيكيين قذرين متسلحين بالاقواس والسـهام ، وهنودا يقضون أوقاتهم في تعاطي الخمر ، وكنـديين يسيرون

بشعورهم الطويلة ، وصيادين وأمريكيين من رجال الغابات يرتدون ثيابا رمادية حاكتها أيد ماهرة • وقد تدلت الى جوانبهم مسدساتهم وسكاكينهم • وفي وسط الغرفة كان يقف رجل طويل القامـــة هزيل الجسم يرتدي بزة واسعة قذرة • ويخطب في أفراد الشركة على طريقة الخطب الانتخابية • وكان يلوح بيده الواحدة في الهواء، وهو يمسك بالاخرى زجاجة ويسكي ، يرفعها من حين الى آخـر الى فمه ، وقد سها عن باله أنه قد شرب ما بها منذ وقت طويل • وقدمني ريتشارد رسميا الى هذا الرجل الذي لم يـــكن ســـوى الكولونيل « ر » الذي كان فيما مضى دليلنا • وامسكني الكولونيل من شراريب معطفي وهو يشرح لي وصفه باندفاع وهياج ثم قال : ان رجاله ثاروا عليه وعزلوه ، غير انه لايزال له عليهم ميزة العقل الراجح ، وانه لايزال زعيمهم بالفعل لا بالاسم• وبينما كان يتحدث الي أجلت ناظري في هذه الجماعة المتوحشة ، فلم أستطع أن أمتنع عن التفكير بالخطأ العظيم الذي يرتكبه من يحاول قيـــادة هؤلاء الرجال خلال الصحراء الى كاليفورنيا • وظهر فجأة بين الجمهور ثلاثة شبان طوال القامة ، هم احفاد دانيال بون ، اميـــر الرواد العظيم • وكان يبدو عليهم انهم ورثوا صفاته • ولكنني لم الاحظ فيهم روحه الهادئة ونفسه الرضية التي كان يتميز بها •

لقد كان المصير الذي فاجأبعض اعضاء الفرقة بعد اشهر مخيفا جدا ، وقد روى لنا الجنرال كيرني قصتهم عند عودته • فقدهطلت الثلوج بكميات كبيرة فحصرتهم في أماكنهم ولم يستطيعوا تقدمـا ولا تأخرا ، وكان من نتيجة ذلك أن كثيرين منهم اصيبوا بمس من الجنون من اثر البرد والجوع • وأخذ كل منهم يسعى للتغلـب على رفيقه ليقتله ويأكل لحمه •

وشعرت بوخز الضمير والخجل حين سماعي هذه القصـــة ، فصرخت في بول وطلبت اليه أن نغادر هذا المكان • وكان بول يجلس في اشعة الشمس بجانب جدار الحصن • وحين سمع ندائي قفز فوق جواده ، واتجهنا نحو حصن لارامي • وحين بلغناه ، شاهدنا رجلا يخرج من الباب وهو يحمل رزمة على ظهره ، وقد علـق بندقية في كتفه ،واجتمع الناس من حوله يصافحونه بحـــرارة مودعين • فعجبت أن يسافر رجل وحده ماشيا على قدميه في مثـل هذه البادية اللعينة ، ولكنني سريعا ما عرفت السبب • فالمســـافر واسمه بيرولت ، وهو كندي كان قد تشاجر مع رئيس العمل بوردو، حتى اصبح الحصن في حالةمن الهياج لايمكن وصفها • وكان بوردو قد شتم بيرولت بصلف وكبرياء ، فكان ان أجابه خصمه بلطمـــة قاسية على وجهه ، والتحما على اثر ذلك ، وقامت بينهما معركـــة حامية وسط الحصن • وغلب بوردو على امره ، فلم تمض لحظة حتى اصبح تحت رحمة الكندي الثائر • ولم لو يساعده احـــد الهنود ، وهو شقيق زوجته لاصبح امره عسيرا • وافلت بيرولت من الهندي العجوز ، وهرع الرجلان الابيضان كل الى غرفتـــه يفتش عن بندقيته ، ولكن عندما نظر بوردو من باب غرفته ، رأى الكندي ، وهو يقف في الباحة وبندقيته في يـده يصرخ متحديا ، ويطلب منه أن يخرج اقتتاله ، فانخلع قلبه ، وخشى العاقبة وبقى محتميا في غرفته ، وذهبت جهود الهندي العجوز عبثا ، وقد اخجله جبن صهره ، فاخذ يناديه ، ويبث في نفسه الشجاعة ويطلـــب اليه أن يخرج الى البادية ليحارب غريمه حسب عادة الرجـــل الابيض ، وانضمت زوجته الهندية الى صديقها ، واخذت تصيح به أن يخرج ، وتنعتـه بأحقر النعوت وأحط الاوصاف ، وتصفه

بأنه كلب ، وأحقر من امرأة عجوز • ولكن كل هذا لم يجد فتيلا ، ولم يأت بنفع • فقد تغلب حب بوردو للحياة على كرامته • فلم يتحرك من مكانه • وأخيرا وقف بيرولت يمطر الرئيس الجبان بأقسى النعوت وأحط المزايا المشينة ، الى أن تعب فربط حزمة من اللحم المقدد الى ظهره وخرج لوحده قاصدا حصن بيير على الميسوري، على بعد ثلاثماية ميل ، في منطقة قاحلة ، مليئة بالهنود الاعداء •

قضينا تلك الليلة في الحصن • وبينما كنت خارجا في الصباح بعد تناول طعام الافطار ، اتحدث الى تاجر يدعى ماك كلوسكي ، رأيت هنديا غريبا يستند الى جانب البوابة • وكان طويل القامة بدو علائم القوة عليه جلية واضحة • ووجهه ينم عن حزن وكآبة• فسألت : « من هو هذا الرجل ؟ »

فاجابني ماك كلوسكي ، انه الزوبعة ، انه الرجل الذي اثار كل هذا الهياج حول الحرب • انها عادة قبائل السيوكس الذين لاينفكون يقطعون رقاب بعضهم البعض • وهم لايصلحون لشيء غير ذلك ، وبدلا من البقاء في مساكنهم ، وتحضير الثياب للتجارة معنا في الشتاء • فانهم يشنون الحرب على بعضهم البعض ولا يفكرون بأي عمل وأني اعتقد ، انه اذا استمر الحال على ما هو عليه ، فسيكون هذا الموسم كاسدا ومن أسوأ ما وصلنا اليه •

كان هذا رأي جميع التجار الذين قابلتهم فقد كانوا يعارضون بشدة استمرار هذه الحرب نظرا للضرر الذي سوف يلحق بمصالحهم • وكان (الزوبعة) قد ترك قريته في اليوم السابق لكي يزور الحصن • وقد بردت حمية الحرب عنده منذ تصميمه على الانتقام لمقتل ابنه • لان الاستعدادات الطويلة والمعقدة كانت اكبر مما يتحمله مزاجه المتقلب • وفي ذلك الصباح زاره بوردو ،

وقدم له بعض الهدايا • وذكره بأن ذهابه الى الحرب سيكون السبب في هلاك جياده وعندها لن يستطيع صيد البافالو ،وستتوقف تجارته مع الرجال البيض ، والخلاصة ، ان من الجنون ان يفكر بالحرب ، وأن من الافضل له ان يجلس هادئا في مسكنه ويدخن غليونه كرجل عاقل • وفترت همة الزوبمة ، وتزعزع اعتقاده • وقد مل خططه الشبيهة بالاعيب الطفل وتنبأ بوردو باعتزاز وسرور بان الزوبمة لن يذهب الى الحرب ثانية • ولم يكن حبي للانسانية قد طغى على فضولي ، لهذا استأت اشد الاستياء حين بدا أن تلك الفرصة النادرة لمشاهدة حفلات الحرب ، قد باتت ضئيلة • غير أن الزوبمة كان قد غرس جذورة نار الحرب بين كافة قبائل الداكوتا الغربية • فاشتعلت واضحت تميل الى القتال • وقد سمعت من ماك كلوسكي ان ست قرى كبيرة كانت تتجمع بجانب نهر صغير يبعد أربعين ميلا ، وهي تبتهل الى الروح الاعظم ان يساعدها في مهمتها • وقد تركهم ماك كلوسكي منذ وقت قصير وهم في طريقهم الى مخيم لابونتيه حيث سيلتقونه في مدى اسبوع ، الا اذا ثبت لهم أنه لا يوجد بافالو في ذلك المكان • لم يعجبني هذا الشرط ، لأن البافالو في هذا الموسم كان نادراً في الاماكن المجاورة، فضلا عن وجود قريتي مينيكونجيو المنوه عنهما سابقا• ولكن لم يحن وقت الظهيرة حتى قدم هندي من حصن ريتشارد يحمل انباء تقول بأن القوم تخاصموا فيما بينهم وتفرقوا• وقد فرح المهاجرون الذين وجدوا انهم لن يستطيعوا شرب جميع الويسكي ، فباعوا ما تبقى لديهم منه الى هؤلاء الهنود •

لايحتاج المرء ان يتنبأ بالنتيجة ، لو أن شرارة سقطت في مخزن بارود ، فلم تكن لتحدث مفعولا اسرع مما فعلت الويسكي • فقد

استعرت المنافسات والحسد والعداوة القديمة في نفوس سكان القرى الهندية • واشتد الخصام فيما بينهم • فنسوا مشروعهم الحربي الذي جاؤوا من أجله وقطعوا في سبيل تنفيذه مسافة ثلاثماية ميل • وكانوا يبدون كاطفال لا مرشد لهم اشتعلت فيهم اعنف انفعالات النفس البشرية • ونتيجة لذلك ، فقد طعن عدد من الرجال وسط ضجيج السكارى • ولم تنقض تلك الليلة بدون عشرات من الحوادث المؤلمة • وعند الصباح تفرقوا وعادوا في فرق صغيرة الى الميسوري • فخشيت الايتم الاجتماع والحفلات التي كانت سوف تجري فأفقد الفرصة الرائعة في رؤية الهنود بأشكالهم المخيفة • وعزيت نفسي أنني أكون ـ بانتهاء هذه الحروب ـ قد تجنبت خطر القتل اثناء المعركة • واخيرا أخذت بالاستعداد للرجوع الى المخيم لكي احمل هذه الاخبار الى من هناك •

امسكت جوادي ، فرأيت زيادة في الاغاظة وسوء الحظ ، انه فقد أحد نعاله وكسر حافره على الصخور • وكنا نبيطر الخيول في حصن لارامي ، بسعر ثلاثة دولارات للنعل الواحد ، وحين وصلت الحصن ربطت هندريك الى احدى دعامات الحظيرة ، وطلبت روبيدو الحداد • وكان يعمل بمطرقته ومبرده فوقفت أرقبه عندما سمعت صوتا غريبا يكلمني •

« لقد ذهب اثنان منا ، ولا يزال الكثيرون باقين ، وها أنا وجينجراس ذاهبان الى الجبال غدا ، فقد أتى دورنا • انها حياة صعبة على كل حال » •

رفعت رأسي فرأيت رجلا عريض المنكبين لا يزيد طوله عن خمسة أقدام ، تبدو عليه علائم القوة والبأس • ولكن مظهره شديد القذارة ، فقد اسودت بزته المصنوعة من جلد الوعل ، واضحت

تلمع بعد أن خط الزمن والدهن عليها اسميهما • أما حزامه وسكينه وجرابه وقرن البارود التي يحملها فتبدو وكأنها قاست معه اشــد الاهوال ، وتحملت اقصى الصعاب ، يشير الى ذلك أيضا حذاؤه البالي • وكان مظهره وامتعته جميعا تدل على أنه « الصياد الحر »• كما كانت تزين وجهه الاحمر المستدير روح اللامبالاة والمرح التي لاتتفق مع ما تحدث به ، فاجبته •

« لقد ذهب اثنان ايضا ، ماذا تعني بذلك ؟ »

« اوه ، لقد قتل الاراباهوس اثنين منا في الجبال ، ان بول تيل العجوز حدثنا عنهما حين رجع • فقد طعنوا احدهما في ظهره ، واطلقوا الرصاص على الآخر من بندقيته • هذه هي الحياة التي نحياها هنا ! اقصد انني سوف اترك مهنة الصيد في العام القادم • فقد طلبت مني زوجتي جوادا سريعا واشرطة حمراء • وساصطاد كلاب البحر كي أستطيع أن أبتاع لها ما تريد • وعندها أعود الى السهول لاعيش في احدى المزارع • وعلق صياد آخر كان يقف قربه • وكانت مظاهره تنم عن القوة الوحشية ، ويشبه وجهــــه وجهه كلب (البول دوج) فقال :

« ان عظامك ستيبس في البراري يارولو • »

ولكن رولو اكتفى بالضحك ، ثم أخذ يغني لحنا وهو يرقص على رؤوس اصابعه •

والتفت الى الصياد الآخر وقال : سوف ترانا ، قبل أن يمضي وقت طويل ونحن نسير في طريقك •

فقلت أخاطبهما : قفا لتتناولا قدحا من القهوة معنا • ولما كان المساء قد قرب ، تهيأت لمغادرة الحصن بدون ابطاء أو تأخير ••

وبينما كنت أسير في طريقي شاهدت قافلة من عربات المهاجرين

تجتاز النهر ، فحياني بعضهم وهم يسألون قائلين ، « الى أين أنت ذاهب أيها الغريب ؟ »

واجبتهم ، لابد لي أن أقطع مسافة ثمانية عشر ميلا .

ـ : ان الوقت متأخر ، عليك ان تسرع ، كما يجب عليك ان تكون شديد الانتباه والحذر من الهنود .

وقدرت هـــذه النصيحة حق قدرها ، وان علي أن لا أنساها ، فخضت الجداول حتى اجتزتها ، وقد عدا بي الجواد بسرعـــة في السهول البعيدة . وكانت معالم الطريق ضئيلة لا تظهربوضوح. ولما كنت أقصد السير والوصول بسرعة دون حذر أو انتباه ، فقد ضللت الطريق ولكنني تابعت سيري الى الامام في خط مستقيـــم ، متبعا مجرى نهر لارامي الذي كان يتراءى لي في فترات متقطعة وهو يلمع في شمس المساء الغاربة في أعماق الهوة الواقعـــة الى اليمين . وبعد نصف ساعة قبل الغروب وصلت الى ضفة النهر . وكان كل ماحولي مثيرا حقا في سكون هذا المكان القفر . فهـــذا وعل من الرئم ، قفز من بـين شجيرات القصعين متجها نحوي . ولما بلغ ثلاثين ياردة عن جوادي اطلقت عليه الرصاص ، فدارحول نفسه وسقط . ثم اقتربت منه وأنا على ثقة من موته . وأخـــذت احشو بندقيتي ، ولكنه باغتني فقفز على ثلاث قوائم ، واندفع مسرعا، وغاب في مخابيء التلال المظلمة . ولم يترك لي وقتا كافيا أو مجالا أتمكن فيه من مطاردته . وبعد عشر دقائق ، وبينما كنت أسير في واد عميق ، التفت غير متعمد خلفي فرأيت من خـلال ضـوء الغروب الضئيل شيئـا يتبعني ، فظننتـه ذئبـا فترجلت عن ظهر الجواد ، واستعنت به في احكام التصويب واطلاق الرصاص . ولكني علمت من حركاته عندما تقدم أنه رئم آخر . واقترب حتى أصبح على مسافة

باردة مني ثم رفع رقبته ، وألقى نظرات عميقـــة هنا وهناك فسددت بندقيتي الى صدره الابيض ، وكدت اطلق الرصاص عندما قفز جانبا واستدار الى جانب آخر كريشة في مهب الريح ، ثـم اطلق ساقيه بسرعة شديدة • ولم يبتعد كثيرا حين وقف بعد قليل ليلقي نظرة خلفه • ولم يلبث ان اطلق ساقيه للريح ثانية • وعاد فوقف لينظر الي • فأطلقت عليه الرصاص ، فقفز ثم سقط مكانه مائتا • وعندما اقتربت منه ، نظر الي بعينيه السوداوين المنطفئتين اللتين تشبهان عيني امرأة جميلة • فحمدت الله انني كنت مسرعا والا فقد وقعت فريسة لتقريع الضمير •

لم أكن بارعا في تقطيع اللحم ، غير انني قمت بعملي على خـير وجه ، وبعد أن انتهيت من ذلك ، علقت اللحم بمؤخرة السرج ، وتابعت تقدمي ، وأنا احدث نفسي وأقول ، لقد تأخر الوقــت كثيرا لمتابعة السير • وسأبيت هنا هذه الليلة • وسأجد لي مخرجا عند الصباح ، ولكن حديثي هذا لم يمنعني من القيـــام بمجهود أخير • فصعدت تلا عاليا ، علي أجد ما أهتدي به في طريقي ، ولقد غمرني السرور حين رأيت نهر لارامي يمتد أمامي وهو يتلوى بين جانب وآخر وسط الاشجـار والاعشـاب • وأطلت علي من بين ظلال الاشجار المظلمة ، خرائب الحصن التجاري القديم • فجددت في السير حتى وصلت اليه عنـــد الغسق • ولم يكن بين الاشجار والشجيرات المكتظة في الغابات البعيدة في الليالي الحالكة ما يســر النفس أو يبهج القلب أو يرسل الطمأنينة في النفس • واصغيت بقلق علي أسمع صوت خطى انسان أو حيوان • ولكن كل شيء كان ساكنا ولم يطرق سمعي سوى صوت طائر اسمر مسالم يطـير متنقلا بين الاغصان • وخرجت من بين الادغال عندما وصلـــت

الى البادية المكشوفة مرة اخرى ، حيث استطيع أن أرى ما أمامي مسافة طويلة . وعندما بلغت مصب نهر تشاج ووتر ، كان الظلام قد ارخى سدوله ، فأرخيت العنان لجوادي وتركته يحملني حيث يشاء ويسير على هواه ، فمشى مهتديا بغريزته التي لا تخطيء . وعند الساعة التاسعة كان يهبط المنحدر الوعر نحو المراعي التي كنا نخيم فيها . وبينما كنت انظر عبثا لأرى ضوء النار ، صهل هندريك بشدة ، فأجابه عن بعد صهيل آخر . وبعد لحظة سمعت في الظلام صوت رينال يحيني وقد خرج يحمل بندقيته ليرى من القادم .

كان رينال وزوجته والكنديان والشابان الهنديان هم سكان المخيم ، فشو وهنري شاتيون لم يعودا بعد من رحلتهما . وقد رجعا في اليوم التالي عند الظهر وقد بدا التعب على جواديهما ، وظهر الحزن والاسى على وجه هنري . فقد وجد زوجته حين وصلا في النزع الاخير ، وبات اطفاله عرضة الى شرور الحياة الهندية ، دون أن يجدوا من يحميهم أو يرد عنهم غائلة الدهر . ورغم وطأة الحزن على نفسه ، فلم ينس رؤساءه واحضر معه رداءين مزينين من جلد البافالو ، وفرشهما على الارض كهدية لنا كما هي العادة حينما يقدم الهندي لاسياده .

اشعل شو غليونه ، وروى لي في بضع كلمات قصة رحلته ، وكما ذكرت آنفا فانني توجهت ـ حين افترقنا ـ الى الحصن . فسرت بمحاذاة مصب نهر شاج ووتر . أما شو وهنري فقد سارا على ضفة النهر الصغير طيلة اليوم ، فاجتازا منطقة قاحلة كئيبة قفراء . وصادفا في طريقهما آثار جماعات كبيرة من المحاربين الاشداء . وتبين لهم فيما بعد أنها نفس الجماعة التي نجوا منها من قبل بشق الانفس . وقبل الغروب وصلا الى حيث مساكن الزوجة

وأخوتها ، الذين كانوا قد تلقوا رسالة هنري ، فلبوا طلبه وغادروا القرية الهندية لينضموا الينا . وكانت مساكنهم الخمسة قد اقيمت على ضفة النهر . وهناك وجدا المرأة ، وهي تقاسي عذاب المرض وألمه ، وقد اصبحت هيكلا من العظام ، وبقيت مدة من الزمن لاتستطيع الكلام أو الحركة . وبالطبع فقدت كل ما يشجعها على الحياة . ولم يبق لها الا أمل ضئيل في رؤية هنري ، الذي كانت تحبه وتخلص له اخلاصا منقطع النظير . لهذا فلم تكد تراه يدخل المسكن حتى عادت لها الحياة . فاخذت تحدثه حتى انقضى جزء كبير من الليل . وفي الصباح الباكر حملوها فوضعوها على الزحافة ، ويمموا شطر مخيمنا . وكانوا خمسة رجال ، وكان الباقون من النساء والاطفال ، وقد نزل بهم جميعا أشد الرعب ، عندما شعروا باقتراب محاربي الغربان . ولم يعد لديهم مجال للشك في أنهم سيفتكون بهم ويقتلونهم دون شفقة لو يصادفونهم أو يلتقون بهم. وبعد أن تقدموا نحو ميلين ، لمحوا خيالا عند خط الافق فوقفوا وقد سيطر عليهم قلق شديد ، ورعب جارف ، ولم يستفيقوا منه . وبعد ان اختفى ذلك الخيال عن نواظرهم ، انطلقوا يجدون السير الى هدفهم . وفي المقدمة هنري وشو اللذان سبقا الهنود ببضع يردات . وفجأة صرخ اخو الزوجة الصغيرة (ماتوتا تونكا) بدعوهما . فاستدارا الى الخلف ، ليريا جميع الهنود متجمعين حول الزحافة ، التي تستلقي فيها المرأة . فاسرعا اليها فبلغاها في اللحظة التي كانت المرأة فيها تفارق الحياة . وساد بعد ذلك سكون شامل ثم أعقبه بكاء الهنود ونحيبهم حول الجثة .

كانت عادة الهنود تقضي بأن يقدم الزوج وبقية الاقارب ، هدايا قيمة ترافق الجسد الى مثواه الاخير . لهذا عاد هنري وشو الى

المخيم • فوصلا كما رأيناه ثم قفلا راجعين ، بعد ان أخذا ما يلزمهما • وكان الظلام قد أرخى سدوله عندما وصلا الى مساكن الهنود التي أقيمت في منخفض عميق بين التلال المظلمة • وكان اكبرها بضيء بوميض النار المشتعلة في الداخل ، وهي تلمع من خلال الاغطية المصنوعة من الجلود الخام • وعندما اقتربا ، كان السكون يخيم عليها ، وكأنها خلو من السكان • وحثا جواديهما بالتقدم نحو تلك الاكواخ • وحين ترجلا أخذت امرأة هندية العنانين دون أن تنبس ببنت شفة ، أو تفوه بكلمة • ودخلا ليجدا المسكن قد اكتظ بالهنود ، وأقيمت نار في وسط المكان ، والتف النادابون حولها • وقد أفسح الجالسون مكانا للقادمين الجدد في صدر المكان وفرشوا لهما رداء من جلد ثور البافالو ليجلسا عليه • ثم اشعلوا الغليون لهما • وظلا هكذا حتى انقضى الليل • وعند الصباح استعد شو وهنري للعودة الى المخيم ، بعد ان وضعا هداياهما التي جلباها بجانب جسد الزوجة •

وترك هنري امرأته المتوفاة لعناية اقاربها ، وعاد شو الى المخيم ، ومضى بعض الوقت قبل ان شفى هنري من حزنه وتحرر منه •

الفصل الحادي عشر

حوادث في المخيم

سمع رينال في أحد الايام صوت اطلاق الرصاص على بعد ميل أو اثنين من المخيم • فاشتد انفعاله وأخذ يتخيل اشباح فرق محاربي الغربان ، وقد برزت في مخيلته ، وجسمها خياله • وعندما عدنا الى المخيم أخذ يردد شكواه ، ويحتج علينا لتركه وحيدا مع الكنديين والمرأة • ولم يمض سوى يوم واحد حتى ظهر ما يبرر مخاوفه •• فقد أتى أربعة صيادين ، وهم موران ، وسارافان ، ورولو ، وجينجرا • وانضموا الى مخيمنا وضربوا خيامهم الى جوارنا ثم تبين لنا أنهم هم الذين اطلقوا بنادقهم وعكروا صفو احلام صاحبنا رينال • وقد وضعوا بنادقهم القديمة القذرة قرب اسلحتنا عند الشجرة العاتية • وكانت سروجهم القاسية واردية البافالو التي يلبسونها ، وفخاخهم وبعض ادواتهم الخشنة التي يستعملونها في الرحلة ، تتكدس قرب خيمتنا ، ثم اطلقوا خيولهم ترعى مع خيولنا • وكان أولئك الرجال الذين لا يقلون في مظهرهم قساوة وخشونة عن متاعهم ، يقضون نصف يومهم في ظل الاشجار مستلقين فوق العشب ، يدخنون بكسل وهم يروون القصص عن مغامراتهم • وانا اتحدى تاريخ الفروسية من ان يقدم تاريخا عن حياة اشد وحشية وخطرا من حياة صيادي جبل روكي •

لقد هدأت ثورة رينال العصبية بفضل هذه النجدة العملية • اما نحن فقد أخذنا نشعر بالحنين الى أرض مخيمنا القديم • ومع

ذلك ، فقد كان لايزال امامنا متسع من الوقت لتبديل مراكزنا ، طالما ان البقاء طويلاً في مكان واحد يؤدي الى نتائج سيئة ، يصعب على الانسان احتمالها الا عند الضرورة القصوى ، وحين لم يعد العشب يصلح للجلوس ، انتقلنا الى شجرة كبيرة واسعة ، تبعد عن ضفة النهر مسافة مائتين وعشرين ياردة .

وقد نقش بعض المحاربين من الهنود فوق جذعها نقوشا اشبه ما تكون بالكتابة الهيروغليفية احياء لذكرى بعض المعارك . وقد علق بين الاغصان بقايا تابوت كان الهنود فيما مضى يضعون امواتهم فيه حسب عاداتهم .

وكنا جالسين فوق العشب نتهيأ لتناول طعام الغداء ، عندما صاح هنري شاتيون : « هاهو بول بير قادم الينا . » فرفعنا رؤوسنا ، فرأينا بعض المحاربين يهبطون التل المجاور . ولم يمض الا وقت قصير حتى وصل اربعة منهم ، فترجلوا عن خيولهم .وكان احدهم بول بيراو ماهتوتانونكا ، وهو اسم معقد ورثه عن أبيه ، الذي كان رئيسا لفرقة اوجيللالا . وقد رافقه اخوه واثنان آخران من اصدقائهما . وصافحناهم ثم دعوناهم الى مشاركتنا الطعام ، فلبوا الدعوة ،وحين انتهوا قدمنالهم قدحا من القهوة وقطعة من البسكويت ثم اشعلنا لهم الغليون وسألناهم :

ــ : اين اهل القرية ؟

فاجاب ماهتوتانونكا : هناك ... واشار بيده نحو الجنوب ، ثم أردف ، سوف يأتون بعد يومين .

ــ : وسألته ، هل سيحاربون ؟

ــ : اجاب ، نعم

ولم يكن على أرض البادية من البشر من يحب . لقد رحبنابهذا

النبأ ، وهنأنا انفسنا لان جهود بوردو في تحويل الزوبعة عن غايته في اراقة الدماء قد فشلت ، ولن يقف أي عائـق بيننـــا وبـــين التوجه الى الموعد في مخيم لابونتيه .

بقي ما هتوتانونكا ورفاقه ضيوفا علينا في ذلك اليوم والايام التي تلته . فالتهموا مؤونتنا من الطعام . وشاركونا في تدخين الغليون ، وكانوا يمضون اوقاتهم بالاستلقاء في ظلال الاشجار وتبادل النكات .

انقضى يومان ، ونحن نرجو من صميم قلوبنا ان يحضر رجال القرية الهنود ، ولما لم يصلوا حتى صباح اليوم الثالث ، خرجنـــا لاستطلاع اخبارهم ، وبدلا من أن نرى الهنود الثمانماية الذين كنا ننتظرهم ، التقينا بهندي واحد قادم من البادية باتجاهنا . فاخبرنا ان الهنود غيروا خطتهم ، وقرروا ان لايأتوا قبل ثلاثةايام . واخذنا رسول الشؤم معنا ، وعدنا ادراجنا الى المخيم ، ونحن نلعن الهنود ، ونعيب عليهم تقلبهم وعدم ثباتهم . وعندما اقتربنا من المخيـــم رأينا ان خيمتنا البيضاء لم تعد وحدها تحت الشجرة الكبيرة . بل اقيم الى جانبها مسكن كبير قديم ذهب المطر والعواصف بالوانه التي افسدها الزمن . وعلق على مدخله غليونالساحر ، ومختلف ادواته السحرية ، ولاحظنا عن بعد جمهورا غفيرا من الناس يحتشـــد بالقرب من مخيمنا . والظاهر ان موران الصياد الذي غاب يومين ، عاد على ما يبدو ومعه جميع افراد عائلته . وقد تزوج امرأة دفـع مهرها حصانا . وهذا يعتبر لاول وهلة ثمنا رخيصا . ولكـــن الحقيقة هي ان شراء الزوجة ، هو صفقة يجب ان لايقدم عليهـــا اي رجل دون مداولات وتفكير دقيق ، اذ ان الزواج لايقتصر على دفع ثمن الزوجة ، بل على تحمل الزوج نفقات اعاشة تلك الجماعة النهمة من اقارب العروس ، الذين يعتبرون من حقهم ان يعيشوا

على نفقة الرجل الابيض ، فيتجمعون حوله كالعلق ليمتصوا كل مالديه •

لم يتزوج موران زواجا ارستقراطيا • فقد كانت عائلة الزوجة تحتل مركزا حقيرا في مجتمع اوجيلالا ولم تكن الزوجة جميلة ، الامر الذي يدل على ذوق موران التافه وتفكيره السخيف خصوصا حينما جعلها ترتدي ثوبا عتيقا من الخام كان قد ابتاعه من امرأة احد المهاجرين بدلا من رداء العرس الابيض النظيف المصنوع من جلد الغزال والذي اعتادت نساء الهنود ان ترتديه • وكان لولب الحركة والروح الباعثة لها في المخيم عجوز شمطاء في الثمانين من العمر • ومهما افتن الخيال البشري فلا يمكن ان يتصور مخلوقا اشد قبحا وابشع منظرا منها ، فوجهها الذابل يشبه جمجمة بالية اكثر مما يشبه وجه امرأة من الاحياء • ولم يبق من لحم ذراعيها الا ما يشبه حبل السوط • اما شعرها الذي ابيض نصفه فيسترسل باهمال حتى يصل الارض • وكان لباسها الوحيد يتألف من رداء عتيق من جلد البافالو ، ربطته حول خصرها بحبل من الجلد • ورغم كل صفاتها الجسمية ، فقد كانت قوية البنية ، فهي التي اقامت مسكنها وعلفت خيولها ومواشيها كما قامت بأشق الاعمال واقساها في المخيم • وكان صراخها الذي يشبه نعيق البوم يتعالى فيستمر من الصباح حتى المساء في حالة حدوث أمر لا يعجبها • وكان أخوها الساحر نحيلا قوي البنية مثلها • يمتد فمه حتى يكاد يصل الى اذنيه ، جشعا وذا شهية فائقة ، كلفتنا كثيرا وكابدنا من نتائجها كثيرا • اما بقية سكان المخيم فهما شاب وعروسه، ويتميز الشاب بأنه كسول ، عديم النفع طالما ابتليت بأمثاله القرى الهندية ، كما تصاب بهم المجتمعات المتمدنة • وكانت تتمثل على وجهه علائم الغباوة والجبن ، فلم يكن يصلح للصيد ولا للحرب •

وكان العروسان يقومان هنا بقضاء شهر العسل ، وقد علقا رداء من جلد البافالو فوق بعض الاعمدة اتقاء حر الشمس ، كما فرشا رداء آخر من الفراء يضم العروسين معا فيجلسان حتى منتصف النهار . ولم يتحدثا كثيرا طيلة المدة التي اقاما بها بيننا ، لان ذخيرة الهندي من الحديث قليلة جدا ، لابل نادرة . ولو نظرت حولك لرأيت في جملة من في هذا المخيم العجيب ستة اطفال يلعبون ويصخبـــون ويملؤون الجو صراخا وهم يرمون صغار الطيور باقواسهم وسهامهم الصغيرة او يبنون مساكن صغيرة من القضبان كما يبني اطفـــال المتمدنين من اللبنات والاخشاب .

وفي صباح اليوم التالي بدأ الهنود يتوافدون بسرعة .ولم يحل ظهر اليوم الرابع ، حتى بدا للعيان جماعة منهم يمتطون جيـــــادهم القوية فوق القمة المجاورة . ثم تبعهم على الاثر موكب فوضــوي ينحدر نحو اسفل التل متجها نحو السهول الجرداء . وهكذا اخذ المحاربون والنساء يشقون طريقهم بين الزحام ، وبصحبتهم عـــدد كبير من الاطفال . واستمر هذا السيل البشري يتدفق مدة نصف ساعة ، وهو يتجه نحو النهر على بعد مائتين ياردة عنا . ثم تجمـــع الجميع عند الضفة . ولم تمض الا بضع ساعات حتـــى انتصب ما يقارب مائة وخمسين مسكنا ، وكأن يدا ساحرة قد اقامتها بمثـل هذه السرعة حيث تحول السهل الى مخيم واسع مكتظ يموج بالناس. وامتلأ بخيولهم التي زحفت الى المراعي ، ترعى فيها وتقضي عـــلى البقية الباقية من النبات والعشب ، وكان الناس يسيرون رائحـــين وغادين على ظهور خيولهم او مشيا على الاقدام ، واخيرا وصـــل الزوبعة ، وبقي هنالك سؤال يراود اذهان الجميع لايستطيع الاجابة عليه غيره ، وهو : « هل سيحارب ؟ فتتمـــكن من مرافقة هـــذا

الركب المحترم ! ، حيث الموعد المقرر في مخيم لابوتتيه •

ولقد بقي تقرير الجواب على هذا السؤال غامضا ، لان التردد هي احدى الصفات التي تلازم الهنود ، لذلك كان الاضطراب يسود مجالسهم • ولا تستطيع مجموعة كبيرة ان تتعاون معا او تسود روح التفاهم بين افرادها على الرغم من ان الغاية التي يهدفون اليها ،كانت بالنسبة لهم ذات اهمية بالغة • اذ يتوقف على تحقيقها حياة او موت الكثيرين منهم • ولم يكن بالامكان الاتحاد للوصول الى غايتهم مع ما يبذلون من الجهود المتصلة المتسلسلة • وقد كان للاوجيللالا ذات مرة زعيم حربي يشرف عليهم ويوجههم • ولكنهم ـ بعد ان مات ـ اضحوا تحت تأثير مختلف الدوافع والافكار المتقلبة ••

ولما كانت تلك القرية الهندية مع ساكنيها ستحتل مكانا بارزا في بقية اجزاء هذه القصة • فربما كان من الانسب ان نلقي نظرة سريعة تتيح لنا مجال التعرف على هـذا الشعب المتوحش والذي سيشكل جزءا كبيرا منها • ان قبائل الداكوتا أو السيوكس تنتشر فوق مساحات واسعة من اراضي نهر سانت بيتر حتى تصل الى جبال روكي ، وهي تنقسم الى عدة قبائل مستقلة ، لاتجمعها حكومة مركزية ، ولا تعترف بزعيم واحد ، ولا يربط بينها رابط قط ، الا الاشتراك في نفس اللغة والعادات والخرافات ، والعيش في تفرق وتنابذ وشقاق لايزول حتى في ايام الحروب ، فترى قبائل المنطقة الشرقية التي تحارب الاوبجيبواز في مناطق البحيرات العليا وقبائل المنطقة الغربية تشن غارات لاتنتهي على هنود السنيك في جبال روكي • وهكذا لا استقرار ولاهدوء بين القبائل • وكما ينقسم الشعب الواحد الى قبائل ، فان القبيلة تنقسم بدورها الى قرى•ويقوم على رأس كل قرية زعيم يدين له الجميع بالولاء ويزداد او يتناقص

خضوعهم له بقدر ما توحي لهم شخصيته من صفـــات الاحترام او الخوف ، وتفرض عليهم من آيات التقدير والطاعة ، وربما يكون احيانا مجرد رئيس بالاسم • واحيانا اخرى يكون ذا سلطة مطلقة • فتمتد شهرته ونفوذه عند ذاك خارج القرية ، حتى ان القبيلة التي تنتسب اليها تلك القرية تصبح على استعداد للاعتراف له بالزعامة وقد حدث ذلك في الاوجيلالا منذ بضع سنوات • وكانت الشجاعة والمهارة ، والاقدام كفيلة برفع أي محارب الى ســـدة الزعامـة ، خاصة اذا كان احد ابناء الزعيم السابق ، او عضوا من افراد عائلة كثيرة العدد تؤازره وتساعده في الانتقام من خصومه ، ولكن هذا المغامر عند ما يتبوأ منصب الزعامة ، ويعترف به الشيوخ والمحاربون محفلة رسمية ، لايفكر في ادعاء اي ميزات طبقية ، كما لايتاح له ان يتظاهر بالعظمة • فهو يعلم جيدا على أي مستند واه ترتكزوضعيته• لذا فهومضطر لاستعطاف رعيته المتقلبة •والحقيقةأن كثيرين من رجال القرية يعيشون أفضل مما يعيش، ويمتلكون زوجات وخيولا أكثرمما يمتلك ، وشأن الرئيس هنا شأن الرؤساء التوتونيين القـــدماء ، يستعطف رجاله ويشتري ودهم وحبهم بتوزيع الهدايا عليهم • فيصبح في اغلب الاحيان ، فقيرا معدما • فاذا فشل في كسب ودهم استخفوا بسلطته ، ونبذوه نبذ النواة في اية لحظة ارادوا ، خصوصا وان عادات شعبه لاتضمن له الوسائل التي تثبت دعائم سلطته • ومن النادر ان يبلغ الزعيم بين هذه الفرق الغربية خاصة ، مستوى عاليا من القوة ما لم يكن رئيسا لعائلة كبيرة كثيرة العدد • وغالبا ماتتألف القرية من اقاربه واولاده •

ان قبائل الداكوتا الغربية ، ليس لها مكان اقامة ثابت • فهي قبائل رحل تصطاد وتحارب باستمرار خلال الصيف واثناء الشتاء

وبعضها يسير في اثر قطعان ثيران البافالو في الصحراء القاحلة المجدبة ، كما ان بعضها يجتاز التلال السوداء ويتجمع في الوديان والممرات الجبلية على ظهور الخيل او مشيا على الاقدام ، ثم سير الى أراضي (باركس) حيث جمال الطبيعة وكثرة الطرائد ووعورة الارض . ان حياة هولاء كحياة غيرهم من قبائل الهنود تعتمد على البافالو ، فهو يقدم لهم مايحتاجونه من مقومات الحياة ، من مسكن وطعام وثياب وفرش ومحروقات، واوتارلاقواسهم وغراء وخيطان وحبال مطاردة لخيولهم ، واغطية لسروجهم ، واوعية للماء وقوارب لاجتياز الانهر . وغير ذلك ، هذا الى انه يزودهم بوسائل سراء ما يحتاجون اليه من التجار . واذا ما قدر للبافالو ان ينقرض فسينقرضون هم معه ايضا .

ان الحرب هي النسمة التي تستسيغها انوفهم . فهم يضمرون الشر ، ويحقدون حقدا شديدا على غالبية جيرانهم من القبائل . وهذا الحقد الناري ينتقل من الاب الى الابن ، وتزيد في استعاره واضرام ناره الاعتداءات المستمرة للاخذ بالثأر . ففي كل سنة تستنجد كل قرية بالروح الاعظم فتقيم الاحتفالات والاستعراضات الحربية ، ويخرج المحاربون زرافات ووحدانا للقاء العدو .فتوقظ هذه الروح العنيفة فيهم احب امانيهم ، كما تبعث فيهم النشاط والحماسة . وهذا هو السبب الرئيسي الذي انقذهم من الغفلة والذل والمهانة . ولولا دوافعه القوية لاصبحوا كتلك القبائل المسالمة المتشرة فيما وراء الجبال والمبعثرة في المغائر بين الصخور كالحيوانات ، والتي تعيش على جذور النباتات والافاعي . ولاتملك من صفات البشر الا اشكالهم . أما محاربو الداكوتا الطامحون ، فباستطاعتهم ان يفخروا دوما ببطولتهم وشجاعتهم . ومن النادر ان

يبلغ احدهم الرفعة والجاه ، الا عن طريق السلاح • وكثيرا ما ساعد اعتقادهم بالخرافات السحرة في الوصول الى درجة كبيرة من السلطة والقوة • كما كان الحظ يواتى بعض الخطباء فيصيبهم بنصيب من الجاه والشرف •

ولنعد الان ونلقي نظرة إلى داخل خيمتنا ، ولتدخلها بصحبتي اذا استطعت ان تتحمل الرائحة النفاذه النتنة والهواء الفاسد • وهناك سترى دائرة من المحاربين الاشداء يتناقلون الغليون ، ويتبادلون النكات ويروون بمرح قصص شجاعتهم وأساطير مخاطرتهم على طريقتهم الخاصة • ومما يزيد في البلاء اولئك الاولاد العراة ذوو البشرة النحاسية اللون والبنات ذوات العيون المتلألئة مكرا وشرا ، وملاحقتهم لنا والحاحهم في طلب الطعام • لهذا كله نهضنا ونحن نلعن ضيافة الداكوتا التي لم تسمح لنا براحة ساعة من نهار • وكنت حتى ذلك اليوم لا أزال غير قادر على السير بسهولة من تأثير المرض الذي اصابني ، كما انني لم أكن استطيع اطعام عشرين ضيفا في اليوم • غير ان هذا الكرم والسخاء كان يحسب دليلا من دلائل تدفق القوة والعزيمة ، وانني اجزم بأن نصف ضيوفنا الذين نكرمهم هم من الذين ، لو صدف والتقينا بهم في البادية ونحن لوحدنا ، ونحن عزل من السلاح لنهبوا خيولنا ، ولما كان نصيبنا منهم غير وابل من السهام •

وفي صباح أحد الايام دعينا الى مسكن رجل كبير السن هو زعيم قبيلة ، وحين دخلنا عليه وجدناه مضطجعا على كومة منأردية البافالو ، وشعره الفاحم كالكهرمان الاسود • وقد تدلى على جانبي وجهه النحيف ، اما جسمه النحيل المتناسق ، فلا يدل على وهن أو ضعف ، بل على القوة والسطوة والسيطرة ، ويتجلى بطابع

من النشاط العقلي ، رغم بلوغه الثمانين • وقد جلس امامه ابن أخيه الشاب ما هتوتانونكا •

ولهذا الزعيم العجوز قصة غريبة تصويرية عن خرافة انتشرت انتشارا واسعا بين عدد كبير من القبائل • فلقد كان هذا العجوز أحد افراد عائلة كبيرة قوية اشتهرت بمغامرتها الحربية • وعندما كان فتى يافعا ، اضطر كما هي العادة بين كثير من القبائل الهندية الى المرور بتجربة دينية فريدة ، يتعرض لها كل فرد من القبيلة قبل أن يدخل الحياة العامة • فقد صبغ وجهه بالسواد ، وذهب الى غار في جزء منعزل في التلال السوداء ، حيث بقي مستلقيا صائما ، يصل الليل بالنهار عدة أيام وهو في صلاة قائمة للارواح ، وسيطر عليه الوهن بسبب حالته الضعيفة الثائرة • فتخيل انه رأى رؤيا خارقة • لقد رأى ريما ، وهو عنوان السلام والرحمة عند الاوجيللالا • وكان من النادر أن يظهر الرئم للشباب • بل كان الدب الكبير البشع ، الذي يرمز الى اله الحرب ، هو الذي يظهر عادة ، فيثير فيهم الحماسة للحرب وحب الشهرة ، واخيرا تكلم الرئم فقال للفتى الحالم ، ان عليه ان يقود شعبه بنصائحه ، ويجنبه شرور الحرب والمنازعات • ولقد فاز الآخرون بالشهرة عن طريق الحرب ، أما هو فامامه عظمة وشهرة من نوع آخر ، وعن طريق آخر •

لقد قرر هذا الحلم السريع المستقبل الذي كان عليه ان يسلكه طيلة حياته • ومنذ ذلك الوقت تخلى « الاعور » ـ وهو الاسم الذي كنا ندعوه به ـ عن التفكير بالحرب وكرس نفسه لاعمال السلام ، وأخبر الشعب برؤياه • فاكبر مهمته واحترم ارادته وارتاح لسلوكه •

ولكن أخاه ما هتوتانونكا كان يختلف عنه كثيرا ، فهو قد أورث ابنه اسمه وملامحه وكثيرا من صفاته • وهو والد زوجة هنري شاتيون ، فكانت هذه فرصة ذهبية اتاحت لنا صداقة أشهر وأقوى عائلة من فرق الاوجيللالا • وكان ماهتوتاتونكا بطلا من نوع خاص • ولم يستطع أحد من الزعماء ان يباريه بشهرته الحربية أو بسيطرته على شعبه • وكان له قلب لا يهاب ، وارادة قوية لا تلين • وهو صديق للبيض لأنه يدرك فائدة هذه الصداقة وما يجنيه منها • وعندما كان يقرر امرا من الامور كان يدعو المحاربين ليتداول معهم بشأنه ، وحين تنتهي مناقشاتهم يدلي برأيه في هدوء ، فلا يعترض عليه أحد • وكان يعاقب من يغضبه بالجلد ، ولو حدث مثل هذا العمل من زعيم آخر لكلفه حياته • لقد رفع ماهتوتاتونكا نفسه الى سدة الحكم المطلق ، في مجتمع لم يعترف أحد له منذ قديم الازل بقانون سوى ارادة الزعماء الشخصية• وكان حكمه قد اشرف على الزوال ، واعداؤه الكثيرون يتربصون به الفرص وينتظرون الوقت المناسب للانقضاض عليه والبطش به، وخاصة صديقنا القديم سموك ، الذي كان يكرهه • فقد كان سموك في أحد الايام جالسا في مسكنه ، وسط رجال قريته ، عندما دخل عليه ماهتوتاتونكا وحيدا ، واقترب من عدوه وتحداه بصوت عال ، وطلب اليه ان يخرج وينازله ، ولكن سموك لم يحرك ساكنا • فاعلن ماهتوتاتونكا عندها بانه جبانا رعديدا وشبهه بالمرأة العجوز • وسار الى مدخل المسكن وأخذ أحسن خيول الزعيم ، المربوطة هناك • ثم خرج رافع الرأس فافسح الجميع له الطريق ، غير ان ساعة حسابه كانت قريبة •

ففي يوم اشتد حره ، منذ ست سنوات ، تجمع عدد كبير من

أقارب سموك حول بعض رجال شركة الفراء الذين كانوا يتاجرون معهم في مختلف البضائع . ومن بينها الويسكي . وكان ماهتوتاتونكا مضجعا في مسكنه هناك مع بعض رجاله ، وحصل ان نشب بينهم وبين أقارب عدوه سموك خلاف حاد فارتفعت صيحات الحرب ، وبدأ الرصاص يلعلع والسهام تملأ الفضاء . وسادت الفوضى المخيم ، فقفز ماهتوتاتونكا الى الخارج غاضبا ، وأخذ يطلب الى الطرفين التوقف ، ولكن الجواب كان سريعا ، اذ اطلقت عليه ذخيرة ثلاث بنادق ، واثنا عشر قوسا ، فأردته قتيلا على الفور . واشتد أوار المعركة ، فلم تهدأ الحالة ، الا بعد ان سقط عدد كبير من الطرفين . وبقي العداء بين العائلتين حتى يوم مجيئنا الى المنطقة .

وهكذامات ماهتوتاتونكا ، ولكنه ترك خلفه عددا كبيرا من أبنائه يحملون السلاح ليحيوا ذكراه ، وينتقموا له ، بالاضافةالىالبنات ، فقد كان عدد الأبناء ثلاثين ، وهو عدد يجب ان لايدهش اولئك الذين خبروا الهنود وعرفوا صفاتهم وعاداتهم . وقد رأينا أكثرهم، ومنهم ضيفنا ماهتوتاتونكا الشاب ، وهو أكبر أولادالزعيم ، والمرشح الوحيد لأن يخلف أباه ، رغم انه لم يبلغ الحادية والعشرين من العمر . وكان يقوم بغارات سريعة مفاجئة ، فيضرب اعداءه ويسرق خيولهم ويسوق نساءهم ، ولم يكن غيره من شباب القرية يجرؤ على القيام بجزء مما يقوم به ، لهذا فقد أصبح بسبب مغامراتهمثارا للاعجاب ، وسببا في ازدياد الرفعة والمكانة في الصحراء . وكان بامكان المقاتل من قبيلة ان يسرق احدى نساء الأعداء ، ثم يعيدها الى سيدها فيهدأ غضبه ويزول خطر الانتقام كما يزول المجد الناتج عن ذلك العمل ، الا أن ذلك يعد خسة ودناءة . ولكن

ماهتوتانونكا كان يفخر بانه يدفع ثمن امرأة من نسائه ، بل كان يضع اصبعه في عين زوجها ، ويأخذها منه قسرا واقتدارا • ولقد سار على نهج أبيه ، واتبع خطواته فحازأعجابالشباب والفتيات • ولم تكن شجاعته هي الحافز الوحيد الذي يدفعه الى القيام بمثل هذه المغامرات • بل ثقته واعتداده بمن هم وراءه من أخوة السلاح المحاربين الذين يدافعون عنه ، ويفدونه بأرواحهم • وهذا ماجعل كل زعيم يفكر الف مرة قبل ان يقدم على محاولة الانتقام منه ، لأنه يعرف أن عيونا قوية كثيرة تراقبه ، وقلوبا قاسية متعطشة متشوقة تنتظر بفارغ الصبر ان تشرب من دمه • لذلك أصبح من ماهتوتانونكا وقتله عملية انتحار بالنسبة للمعتدي •

ورغم الحظوة الكبرى التي كانت له عند النساء الجميلات ، فانه لم يكن متأنقا في ملبسه أو مهتما بزيه ، كما كان قليل الاهتمام بالزخارف البراقة والزينة التي يتحلى بها رفاقه ، ويكتفي بأن يجعل زخارفه وزينته من أوسمة الشرف والنصر في المعارك الحربية ، وكان صوته قويا داويا مجلجلا يخرج من صدره كنغمات الارغن العميقة • وكنا نراه وهو مستلق أمامنا يتبادل النكات مع اخوته ، وعندما يحين الغروب يقف ليستقبل رجال ونساء قبيلته الذين يتشوقون لرؤية بطلهم المحبوب قبل ذهابه الى لقاء العدو • وكان قد زين لباس رأسه بمجموعة قيمة من ريش نسر الحرب ، فيتماوج في صف واحد فوق جبينه • وكان يمتطي ظهر جواده ، ويدفعه بين المساكن فيسير ذات اليمين وذات الشمال وترسه الابيض معلق على صدره وكنانته فوق ظهره ورمحه بيده وهو ينشد انشودة الروح الاعظم • وكان منافسوه من المحاربين يرمقونه شذرا باطراف عيونهم ، أما الفتيات فكن يرمقنه باعجاب وشوق •

كما كان الاولاد يصرخون في موجة من المرح والنشوة ، والعجائز يهتفن باسمه ويعددن مزاياه وهن يتنقلن من مسكن الى آخـــر •
وكان ماهتوتانونكا أعز صديق لنا بين الهنود • وكان كلما ضيق علينا بعض جماعات الهنود الخناق ، وحاولوا نهب امتعتنا وسلبهـا، يقطع الطريق عليهم ، ففي المخيم كان يستلقي ويحملق بعينيهاللتين تشبهان عيون الفهد ويرمي بشواظ من نار ، كل من يحاول أن يسرق شيئا من متاعنا •

ودعانا الزوبعة ذات مرة الى مسكنه ، فلبينا ، وبعد الانتهاء من تناول الطعام ، اخذنا ندخن بغليون كبير من صنف ممتاز ، حتى انني لم اتمالك نفسي من ابداء اعجابي به •
وحينما لاحظ الزوبعة ذلك الاعجاب قدمه الي وقـــال ، اذا أحببت هذا الغليون ، فلماذا لا تأخذه ؟

وكان هذا الغليون ثمينا وذا قيمة كبيرة لدى الأوجيلالا فهو يساوي ثمن حصان ، ويبدو ان الهدية كانت تليق بزعيم محارب • ولكنني كنت أعرف ان كرم الزوبعة لم يبلغ هذه الدرجة • فقد اعطاني الغليون وهو على ثقة بانني سأقدم له هدية تماثله أو تفوقه قيمة • حتى اذا ما تمنعت عن تقديم هدية مقابلة طالب بالغليـون واسترجعه • لذلك أعددت منديلا مزركشا من التفتة وقليلا من السيلقون والتبغ وبعض السكاكين والبارود ، ثم دعوت الزعيـــم الى المخيم ، واكرمت وفادته وأنا أؤكد له اخلاصي وصداقتي ، ثم رجوته أن يقبل هديتي المتواضعة دليلا على متانة الصداقـــة التي تربط بيننا ، فأومأ مشيرا بقبوله لها وسروره منا • ثم حمـل الهدية ورجع الى مسكنه •
وبعد ظهرأحد الايامقدمفجأة بعض الهنود على خيولهم من خلف

مجموعة الشجيرات التي تمتد على ضفة النهر ، وكان معهم بغـــل يعتليه زنجي بائس ، وقد أمسك بطرفي السرج الهندي ليستطيع الثبات فوقه ،وكان اصفر الوجه شاحبه ، مجمد الخدين ، متهدل العينين ، حتى يظنه الناظر اليه نائما • أما شفتاه فمتقلصتان تكشف عن اسنانه من خلفهما ، كما لو كانتا شفتا جثة • ولم يستطـــع السير على قدميه ، أو الوقوف عليهما حين انزلوه عن السرج .واتو به أمامنا ، بل زحف مسافة قصيرة ثم القى نظرة كئيبة تمسة حوله ، وجلس على العشب • وماهي الا لحظات حتى تدفق الاولاد والنساء من المساكن فتجمهروا حوله ، بينما كان ذلك المســـكين يجلس مستندا على يديه وهو ينظر من جانب الى جانب نظرة فارغة • وكان على وشك الموت جوعا • فقد ظل ثلاثة وثلاثين يوما يسير بلا هدى وحيدا في الصحراء وليس معه أي سلاح ، حافيا بدون حذاء ولا خف ، عاريا تقريبا الا من معطف وسراويل عتيقة • ولم يكن معه من يرشده الى الطريق ، وليس لديه أية معلومات ترشده في هذه الصحراء • وكان يقتات طوال الوقت بالصراصير والسحالي والبصل البري وبثلاث بيضات وجدها صدفة في عش حمامة برية • وخلال سفره الطويل لم ير أحدا من البشر •وحينما ضل هذا الزنجي في الصحراء الواسعة لم يتوقف عن السير ،ويقطع الرجاء بل استمر في سيره ، يدفعه اليأس احيانا والأمل أحيانـا أخرى حتى لم يعد يقوى على متابعة المشي ، فأخذ يزحف على ركبتيه حتى برزت عظامهما • وكان يسير ليلا وينام نهارا اتقاء حر الشمس ، والاحلام تراوده وتمنيه بما اعتاد أكله في بيت سيده العجوز في ميسوري من المرق وكعك الذرة • وقد دهش الجميع من البيض والحمر على السواء لنجاته من الجوع والدبة التـــي

تكثر في تلك الارجاء والذئاب التي كانت تحوم حوله كل ليلـة •

وعرفه رينال في اللحظة التي ادخله الهنود بها الى خيمتنا ، اذ كان قد هرب من سيده منذ سنة وانضم الى فرقة ريتشارد ، الذي كان على وشك الرحيل من الحدود الى الجبال • ثم عاش معـــه حتى نهاية مايو ، وخرج مع رينال وعدد من الرجال يبحثـــون عن الخيول الشاردة • وافترق عن الباقين حين داهمتهم العاصفة ، فلم يعد أحد يسمع شيئا منذ ذلك الوقت الى هذا اليوم • ولم يحلم أحد في ان يراه حيا ، لثقتهم بضعفه وقلة خبرته ، الا أنه كان مغشيا عليه حين عثر عليه الهنود ملقى على رمال الصحراء الملتهبة •

كان الهنود ينظرون بهدوء الى وجهه الهزيل الشاحب ، وعينيه اللتين انطفأ نورهما حين قدم اليه ديلوريه وعاء من الثريد ، لم يمسسه أول الامر ، ولكنه حين بدأ يأكل أخذت شهيته تزداد شيئا فشيئا ، فامسك بالوعاء كالمجنون والتهم محتوياته بسرعة في ثـوان قليلة ، ثم طلب لحما ، فرفضنا طلبه وافهمناه ان ذلك سيسبب لـه ضررا كبيرا وسيكون خطرا على حياته ، وان عليه ان ينتظـــر الى الصباح ، ولكنه أخذ يتوسل بحرارة حتى سمحنا له بقطعة صغيرة، ورغم حاجته الى غيرها ، لم نقدم له مزيدا منها ، ولكنه لم يتوقف عن الالحاح وآزره في ذلك بعض النساء الهنديات ، كما حـــاول بعضهن أن يجلبن في غفلة عنا اللحم المقدد والتفاح الأبيض ، ولم يقم بأوده ويكفيه ما قدمنا له ، وما جلبته النساء دون اذننا ، لـذا فقد زحف عندما أسدل الظلام ستاره ، الى مخيم الهنود ، حيث أكل ما شاء • وفي الصباح أركبه جينجراس الصياد على ظهر جواده وأخذه الى الحصن •

انني اذكر هذه المشاهد الآن بشعور يمتزج فيه السرور بالألم •

وكان المرض الذي نزل بي قد جعلني اسيرمشدوها كالثمل من شدة الألم • وعندما كنت أحاول الوقوف كنت اشعر وكأن غشـــــاوة مظلمة تنتشر أمام عيني • فيخيل الي أن الاشجار والمســـــاكن تتراقص أمامي ، ورمال الصحراء ترتفع وتنخفض كامواج البحر • والحقيقة انني لم اكن في حالة أحسد عليها • وعندمايكونالانسان في بلاد تتوقف حياته فيها على قوة ذراعيه ، أو نشاط ساقيه يجـد الحياة تزداد صعوبة • فلا النوم فوق الارض الرطبة ولا التعرض للامطار المنهمرة ، يفيدان في مثل هذه الاحوال • وقد كابدت من المرض والاعياء والألم ما جعلني اكفر عن حبي للصحراء بالبقاء فيها الى الابد •

وجعلت من الراحة وتناول أطعمة الحمية الخفيفة مدة طويلة سبيلا الى استرداد صحتيفكنت أمكثالساعاتفي المخيم بدون حراك أو اسير متثاقلا نحو مخيم الهنود ، بخطوات متأرجحة • وبقيت أتناول قطعة من البسكويت في كل يوم لمدة خمسة أيام • وقــد شعرت في نهايتها بانني ازداد ضعفا ، غير ان وطأة المرض ،أخذت في التلاشي تدريجيا ، فأخذت عند ذاك في انقاص حميتي أيضا •

واعتدت ان استلقي أمام خيمتي واستعيد ذكريات الماضـــي ، وأحلم بالمستقبل وعندما يتغلب الاعياء على الجميع ، تتحول عيناي نحو التلال السوداء النائية ، والجبـال الشاهقة ، حيث تســود الانسان روح النشاط وتشع علىمن يقترب منها • لقد كانت الخرافات والقصص الخيالية تصاحب سيرة التلال السوداء في عقول الهنود ، فهم ينظرونالبهابوجل ، غير اني كنت تواقا لزيارة مخابئها الدفينة والصعود الى قممها الشاهقة والانحدار الى مهاويها ووديانهـــــا السوداء وغاباتها الهادئة •

الفصل الثاني عشر

ســـوء الحظ

وصل رجل كندي من حصن لارامي ، وقص علينا خبرا غريبا ، وهو أن صيادا قدم حديثا من الجبال ، قد وقع في حب فتاة مـن ميسوري تنتسب لعائلة تقيم منذ أيام مع غيرها من المهاجرين في مخيم بجوار الحصن . ولو كانت الشجاعة أقوى سحرا وافتك سلاحا ، لكسب حب المرأة الجميلة واعجابها ، لهذا فلم تجـد مفرا ، ولم تستطع مقاومة صياد آت من جبال روكي . وهكذادبر العاشقان خطة ، وقررا تنفيذها باقصى سرعة ممكنة . وحدث ان غادر المهاجرون الحصن في الليلة التالية ، وانتقلوا الى مكان آخـر حيث شيدوا خيامهم واقاموا حارسا عليها . وعند انتصاف الليـل ، اقترب الصياد العاشق من أحد الجياد ، فحـل رباطه وامتطـى ظهره ، وسحب جوادا آخر وراءه ، وخرج من المخيم ، وربطهما الى شجرة قريبة ، ثم تسلل عائدا نحو العربات ، واقترب منهـا بخفة وحذر كما لو كان يتربص قطيعا من ثيران البافالو . وكـان النعاس قد غلب على الحارس فلم يشعر به ، وحين حضرت حبيبته التي كان على موعد معها ، تسللا بهدوء حتى وصـلا الى خارج المخيم ، فاركبها جوادا وامتطى الآخر ، ثم انطلقا معا في ظلام الليل متجهين الى مقرهما . ولم تصل مسامعنا بقية انباء المغامرة ، كما لم نعرف كيف وجدت الفتاة مسكنها الهندي الجديد ، وهل اعجبتها الاقامة فيه ، وهل احبت هذا الصياد المغامر كزوج ، وهل هي سعيدة

في حياتها معه أم لا .

واخيرا قرر الزوبعة ومحاربوه ان ينتقلوا ، ولـكن ليس الى مخيم لابونتيه ، وهو المكان المتفق عليه ، بل عزموا بعد الاستعدادات اللازمة ان يذهبوا الى جهة التلال السوداء ، ليقضوا بضعة اسابيع في صيد البافالو ، فيتوفر لهم ما يكفيهم من اللحوم لطعامهم ، ومن الجلود لمساكنهم طيلة الفصل القادم . وبعدئذ سيرسلون فرقـة صغيرة من المحاربين لقتال العدو . وقد جعلنا قرارهم في حـيرة من امرنا . فهل بات من الافضل ان نذهب الى مخيم لابونتيه ، بعد ان اصبحنا نعتقد ان من المحتمل ان تكون القبائل الاخرى متقلبة الاهواء والاراء ، مثل الزوبعة ورجاله ، وعندها لا يتم الاجتماع .. وكان صديقنا القديم رينال يحبنا او بالاحرى يحب القهـوة والبسكويت الذي نقدمه له ، والهبات الصغيرة التي كنا نجود عليه بها بين حين وآخر . لذا كان يتلهف شوقا ، لكي نرافق القبيلة . وقد عزم هو ايضا ان يرافقها . لانه كان واثقا ، كما قال ، بأن احدا من الهنود لن يحضر هذا الاجتماع ، وانه من السهل علينا جدا ان ننتقل بعرباتنا وامتعتنا خلال التلال السوداء . وعلى كل حـال فقد كنا نعلم انه يجهل كل شيء عن هذا الموضوع . فلاهو ولا أي رجل ابيض منا عرف او رأى المضائق الصعبة المظلمة الخطرة التي قرر الهنود ان يسلكوها في طريقهـم ، ولكنني مررت في تلك الطريق فيما بعد . فلاقيت عناء شديدا ، يجل عن الوصف ، وفعلت المستحيل في اجبار جوادي المتعب الذي كان سوء الطالع يفـرض عليه المرور في تلك الوديان الضيقة وفجواتها التي لايصلها نور الشمس . وكان من الممكن ان تسير عربتنا بدون ان تجد اي مشقة فوق رأس بايك غير اننا كنا نجهل تلك الامكانية ، ونظرا لوعورة

الممرات وعدم التثبت من محاولة الذهاب الى الموعد ، فقد تذكرنا المثل القديم (عصفور في اليد) ، وقررنا ان نتبع رجال القرية •

وفي صباح اول تموز (يوليو) افترق المخيمان ، مخيمنا ومخيم الهنود ، وكنت لا أزال حتى ذلك الوقت ضعيفا لدرجة لم اقومعها على الثبات فوق ظهر جوادي خلال الرحلة القصيرة التي قمنا بها في ذلك اليوم حتى اضطررت الى تناول جرعات من الويسكي في فترات قصيرة متقطعة • وكانت الصحراء تمتد أمامنا على مسافة لا تزيد عن نصف ميل ، كما كانت جموع الهنود المتقدمين الى التلال تسير خلفنا على بعد ميل واحد ، وقد انبسط أمامنا السهل القاحل المتعرج ، وامتد ذات اليمين وذات الشمال ، وارتفعت امامنا قمم التلال السوداء فاندفعنا قدما نحو (رأس العمود المبعثر) • بينما اخذت تمر بنا الزحافات المثقلة بالاحمال ، والخيول التي تجر العربات بتثاقل ، والنساء العجائز اللواتي يسرن على اقدامهن ، والفتيات وهن على ظهور الجياد ، والاولاد وهم يركضون بين الزحام ، والشيوخ وهم يسيرون في أرديتهم المصنوعة من جلد البافالو في مواكب من الفتيان المحاربين ، وهم يمتطون جيادهم • ولاحت من هنري شاتيون التفاتة الى الخلف ، اردفها بصيحة مفاجئة ، واخبرنا بأن خيالا يقترب منا • وتحققنا من صحة الامر حين استطعنا ان نميز بقعة سوداء صغيرة تتحرك ببطء فوق سطح رابية بعيدة ، كذبابة تسير على حائط • ثم بدأت تلك البقعة تدنو بسرعة ويتضح مظهرها كلما اقتربت •

قال هنري : « اعتقد انه رجل ابيض ، انظر كيف يمتطي جواده ، فالهنودلا يدفعون خيولهم حين يطاردون كما يفعل هذا الراكب ، كما انهم لا يعلقون بنادقهم على سرج الجياد » •

واختفى الخيال في فجوة من البادية ، ولكن سرعان ما عاد الى الظهور ، واخذ يسرع متجها نحونا والهواء يتلاعب بشعره الطويل. وعرفنا من الوجه الاحمر والمعطف المصنوع من جلد الوعل الذي يرتديه ، الصياد جينجراس . لقد كان قادما من حصن لارامي ، وهو يحمل رسالة من تاجر من اصدقاء هنري يدعى بيزونيت ، قادم من المستعمرات ، في طريقه الى مخيم لابونتيه حيث ستجتمع اثنتا عشرة قبيلة من الهنود ، على زعمه ، وهو يطلب منا ان نجتمع هناك بعد ان وعد بأن يجعل رجاله ، يحافظون على خيولنا وامتعتنا مدة وجودنا بين الهنود ، وعلى أثر ذلك توقفنا عن التقدم وترجلت وشو عن جوادينا وعقدنا مجلسنا ، وفي ساعة نحس غامرة قررنا الذهاب .

سرنا مع الهنود في طريق واحد بقية ذلك اليوم . وفي اقل من ساعة وصلنا الى نهاية الصحراء القاحلة ، فظهر امامنا فجأة منحدر عامودي ، فتوقفنا عند حافته حيث بدا في أسفله مرج كبير ، يحده من اليسار نهر لارامي الذي ينساب تحت ظلال القمم الشامخة ويمر رقراقا سريعا في اسفل المنحدر . وحين كنا نتأمل هذه المناظر الرائعة ، والمشاهد الخلابة ظهر موكب الهنود المندفع بقوة ، وانتشر افراده فوق المرج المنخفض . وفي بضع دقائق كان السهل يموج مكتل بشرية متحركة تبدو عن بعد ، كنقط ضئيلة . وقد اخذ البعض يجتاز النهر بفوضى تامه ، وعلى حافة المرتفعات جلس جماعة من المحاربين الشيوخ ، يدخنون بهدوء وينظرون بوجوه جامدة الى مناظر الطبيعة الاخاذة .

انتشرت مساكن هؤلاء في شبه دائرة على حافة النهر . وانتحينا نحن ناحية بعيدة بين الاشجار طلبا للهدوء . وبعد الظهر توجهنا

صوب القرية ، حيث رأينا السلام يرفرف بينهم لاول مرة ،والهدوء يسود سكان المخيم الذين كانوا يتبادلون المودة والصداقة . وكذا كان حال الاولاد والبنات ، فهم يضحكون ويمرحون مسرورين . اما المحاربون فقد اعتلوا ظهور الجياد ، واخذوا يتبارون في اظهار شجاعتهم ، فجعلوا يتسابقون في الصحراء نحو التلال المجاورة .

وجلست مع شو على العشب بالقرب من مسكن رينال . فأتت امرأة هندية عجوز بوعاء مملوء بلحم الغزال المسلوق ، وضعته امامنا . وكنا نروح عن انفسنا بمشاهدة بعض الفتيات الهنديات ، ومتابعة حركاتهن ، وهن يلعبن ويطاردن بعضهن ، فيدخلن الخيام ثم لا يلبثن أن يخرجن منها . وفجأة سمعنا صيحات الحرب تنبعث من جهة التلال . وسرعان ما ظهرت جموع الفرسان المسرعة متوجهة نحو القرية ، وكان الهواء يداعب شعورهم فيرسلها الى الخلف . وعندما اقتربوا من المساكن انتظم عقدهم في صف ثنائي ، واخذوا يدخلون بنظام حتى التفوا بشكل دائرة في الباحة الكائنة بين المساكن بينما كانوا يغنون اغنية الحرب ، وهم يختالون فوق صهوات جيادهم . وكان بعضهم يرتدي ملابس رائعة ، وخوذا من الريش ، ومعاطف ضيقة من جلد الرئم مزينة بخصل من الشعر اخذت من رؤوس اعدائهم ، اما اقواسهم وسهامهم ، فكانت وراء ظهورهم . الا ان بعضهم حمل رمحا طويلا وبعضهم الاخر تسلح بالبنادق . وكان رئيسهم يتبختر ببزته الفخمة على ظهر حصان أبيض منقط بالاسود . ولم يشترك ماهتوتانونكا أو اخوته في هذا الاستعراض ، لحدادهم على اختهم . فقبعوا في بيوتهم ، بعد ان دهنوا أجسادهم من الرأس الى القدم بالطين الابيض . وقطعوا خصلة من الشعر من مقدم رأس كل منهم اشارة الى حزنهم وحدادهم .

دار المحاربون على خيولهم ثلاث دورات حول القرية ،وكلما مر بطل تقف احدى العجائز وتدعوه باسمه كاعلان عن شجاعتـــه وتعريف به ، ولتحث المحاربين الفتيان على منافسته والاقتداء به . وكان الأطفال الذين لايتجاوزون السنتين من العمر يتابعون المهرجان الحربي بعيون تبرق اعجابا وهم يرمقون ابطال قبيلتهم .

ثم خرج الموكب من القرية كما دخلها ، وبعد نصف ساعة عاد جميع المحاربين بهدوء بعد ان ترجلوا زرافات ووحدانا .

وبعد انتهاء الاستعراض ، دعينا لنشاهد فصلا من الحياة البيتية الهندية . حيث رأينا امرأة هندية تدل ملامحها على الشر ، قـــد استشاط بها الغضب فاخذت تعنف زوجها الذي كان متربعا في وسط الكوخ ، ومنهمكا بتدخين غليونـه في سكون ، وهو ينظر اليهـــا بفتور وعدم اكتراث . ولما كان الامر على هــــذه الصورة وكانت المشاجرة من طرف واحد دون أن ينبس الزوج ببنت شفة ، جن جنونهـــا واندفعت الى داخل المسكن ، وسحبت الاعمـــدة التـي تسنده واحدا بعد الاخر ، حتى سقطت الاغطية الجلدية فوق رأس الزوج ، فدفن تحت انقاض بيته . ولكنه مالبث ان سحب الجلود التي سقطت فوقه جانبا ، وأخرج رأسه من بين أكداسها ، كمـــا تخرج السلحفاة رأسها من درعها الصدفي ، ثم عاود اشعال غليونـه واخذ يدخن بهدوء واطمئنان كأن لم يحدث شيء ، الا ان عينيه كانتا تقدحان شررا لتنذر بشر العاصفة القادمة ، التي أضـحت على وشك الانفجار . اما الزوجة فكانت مستمرة في تعنيفه وتقريعـــه حين أخذت تسرج جوادها الذي امتطته . وغادرت المخيم قاصدة على ما يظهر بيت أبيها . عندئذ نهض الزوج ببرود وهو يمرر ناظريه في وجهها ، ومن فوق رأسها استكبارا واستعلاء بعد ان تخلص من

الانقاض ، ثم ربط حبلا من شعر البافالو بعنق جواده ، وقطع عصا يقارب طولها اربعة اقدام من احد اعمدة المسكن • ثم ركب جواده وراح يعدو به بعظمة وخيلاء ناحية الصحراء في اثر شريكتـــه المذنبة ليعاقبها •

وعند شروق الشمس في صباح اليوم التالي اخذنا ننظر في آفاق المراعى فرأينا مساكن الهنود قد تهدمت وخيامهم قـــد تقوضت ، وتجمعوا استعدادا للرحيل ، فاتجهنا نحو الشمال مع رجالنـــا الثلاثة ، ثم لحق بنا الصيادون الاربعة وعائلة موران الهنـــدية • فتابعنا سيرنا حتى الليل ، حيث ضربنا الخيام تحت بعض الاشجار بجانب نهر صغير • ولم نبارح المكان طيلة اليوم بانتظار قدوم بيزونيت ولكنه لم يأت • وحصل ان افترق عنا اثنان من الصيادين واتجهـــا الى جبال روكي • وبدأ الياس يتسرب الى نفوسنا بسبب تأخـــر بيزونيت عن الحضور حتى صباح اليوم التالي ، واستأنفنا رحلتنا مجتازين سهولا قفراء تلفحها الشمس بشواظ من نار لهبها المحرقة، وليس فيها اثر لاي مخلوق حي سوى بعض حيوانات الرئم التـي كانت تهرب من امامنا بسرعة الريح بين حين واخر • وبدأ امامنا مع حلول الظهيرة منظر حبيب الى النفس هو مجموعة من الاشجار الباسقة المتناثرة على ضفاف نهر صغير يدعى (حدوة الفرس) وهي تظلل باوراقها الكثيفة واغصانها الطويلة ما حولها من الارض • اما النهر فكان يجري سريعا نقيا وكأن مياهه من الكريستال الصافي ، وهي تلمع فوق المجرى المفروش بالرمل الابيض • وكان التعب قد انهكني ، فألقيت بنفسي على الارض • وانا لا أقوى على الحركة •

وبعد ان اشرقت علينا شمس الصباح ، تقدمنا في طريقنا حتـــى بلغنا مكانا محوطا بالتلال القفراء ، التي تتناثر فيها أشجار الصبير

التي تشبه الافاعي • وكان يمتد امامنا سهل منبسط وعر ليس فيه الا بعض الاعشاب المتناثرة هنا وهناك ، والا صف من الشجيرات الكثيفة على مسافة بعيدة الى أخر ما تصل اليـــه انظارنا • وخلف تلك الشجيرات يقع المكان الذي سيعقد فيه الاجتماع والذي كنا نقصده، حيث كنا نأمل ان نجد الاف الهنود مجتمعين يتداولون لاتخاذ قرار نهائي تقوم بعده الحرب ، ولقد كنا ننظر ونصغي بشوق ولهفـــة ونحن نحث الجياد في الوصول الى هدفنا بأقصر وقت • وسارت خيولنا بين الاشجار تتسلق الاكمات بسرعة البرق • واثناء تقدمنا خلال الاغصان ، كانت الوعول تقفز عن يميننا وشمالنا خائفة ملتاعة وتنطلق باقصى سرعتها لتجد لها مخبأ تأوى اليه • واشرفنا اخيرا على سهل فسيح يمتد بعيدا امامنا من فرسخ تلو آخر دون ان تقع العين على كائن حي او شجرة او جدول او عشب ، ورغم كل هـــذه المصاعب ، فلم نقطف ثمار المشاق التي قاسيناها والمتاعب التـــي تحملناها وعناء المسافات التي قطعناها • اذ لم نجد اثرا لمعسكرات الهنود التي كنا نأمل ان نراها تملأ السهل والجبل •• وكانت بالنسبة الى صدمة مؤلمة زادت من حدة مرضى • ولو اني لم اؤمن نفسي على الرضوخ للامر الواقع وقبوله لادى بي مرضى الى نتائج لاتحمد عقباها ، ولكان تمام رحلتنا التي تتراوح بين ثلاثة واربعـة الاف ميل لامرا مستحيلا فلا نبلغ هدفا ولا نصل الى مرمى •

أين كان الهنود في هذه اللحظة ؟ لقد عرفنا بعد بضعة أسابيع ان عدم وجود ثيران البافالو في تلك المنطقة ، وبالتالي عدم توفـــر الصيد لطعام الهنود ومؤنهم جعلهم يحتشدون باعداد هائلة في نقطة لاتبعد اكثر من عشرين ميلا ، ويتأهبون للحرب ويرقصون رقصاته التقليدية • بينما كنا نحن في مخيم لابونتيه ، نندب سـوء حظنـا

ونرثي لجهودنا الضائعة وننعى ما لاقيناه في طريقنا من عذاب وألم وشقاء •

وساط شو جواده ، فراح يعدو به الى الامام ، ومع انني كنت اشد استياء منه ، فلم تسعفني قواي في ان احذو حذوه ، لذا لحقت به بهدوء وتؤدة حتى وصلنا الى شجرة وحيدة كانت المكان الصالح لاقامة المخيم • فطرحنا سرج الخيل على الارض • وجلسنا نستريح في الظل ، وكان قد انقضى أكثر من ساعة ونحن جلوس ندخن ونتفيأ الظل هربا من حر الهاجرة •

الفصل الثالث عشر

صيد الهنود

بلغنا أخيرا مخيم لابونتيه ، الذي كانت عيوننا تتطلع لرؤيتـه ، ونفوسنا تتوق للوصول اليه . وقد قاسينا خلال الساعات القليلة التي قضيناها بين الظهر وغروب الشمس اشد انواع التعب والشقاء وفزت بنصيب من صعاب الرحلـة ومشاقها . وكنت مستلقيا تحت احدى الاشجار افكر في الطريق الذي علي ان اسلكه ، وأتأمـل الظلال الساكنة الهادئة ، بينما كانت الشمس تسطع في قبة السماء . فاعتراني شوق عارم لرؤية رجال بيزونيت فوق خيولهم قادمين من الغابة . أما شو وهنري فقد خرجا في بعثة استكشاف ، لم يعودا منها الا عند غروب الشمس . ولم تكن تظهر على وجهيهما أمارات تشجع على الظن بأنهما يحملان أخبارا سارة .

قال شو : « لقد قطعنا مسافة عشرة أميال ، وتسلقنا أعلى قمـة نستطيع ان نصل اليها ، فلم نشاهد اثار الهنود ولا البافالو . فلا شيء حولنا سوى صحراء تمتد عشرين ميلا ونيفا . » وقد عجز جواد هنري عن تسلق التلال . والهبوط الى اطراف الوهاد لوعورة مسالكها . أما جواد شو فقد انهكه التعب فتوقف عن السير .

واقترحت على شو بعد تناول طعام العشاء ان ننتظر يوما آخر ، آملين ان يصل بيزونيت . وفي حالة عدم وجوده ، نرسل ديلوريه مع العربة والامتعة الاخرى الى حصن لارامي ، بينما نلحق نحـن برجال الزوبعة ، ونحاول ادراكهم خلال مرورهم بالجبال . ولكن

شو الذي لم يكن يهمه مثلي متابعة الهنود رفض هذه الفكرة • فقررت عندها أن أسير لوحدي • وقد تبنيت هذه الخطة كارها مضطرا ، لانني أعلم أن رحلتي ، وأنا على ما عليه من مرض ، ستكون شاقة منهكة كما ستكون محفوفة بالخطر • لذا كنت آمل ان يظهر بيزونيت في اليوم التالي ، حاملا معه خبرا نسترشد به في رحلتنا المقبلة • فاصل الى هدفي عن طريق أقل صعوبة ، وأقل اجهادا وشقاء •

كان بقاء هنري شاتيون ضروريا للمحافظة على الفرقة اثناء غيابي ، لهذا استدعيت رايموند وأمرته ان يستعد للخروج معي ، فاستغرب سماع قولي وأخذ يدير عينيه فينا ببلاهة • ولكنهاستطاع أخيرا ان يتقبل الفكرة ويقتنع بها ، فاستدار وانسحب الى فراشه تحت العربة • وكان رايموند هذا قوي البنية ذا وجه عريض ، تبدو عليه أمائر البلاهة ، كما تلوح على وجهه علائم الثقة والاعتداد بالنفس • أما خصاله الحسنة فمنها الاخلاص والصبر على الشدائد، الى شيء من الذكاء الفطري الذي كثيرا ما كان يرشده الى الصواب، حين يقع غيره في الخطأ ، يضاف الى ذلك براعته في استعمال البندقية وركوب الخيل •

اشتدت حرارة الشمس فوق رؤوسنا في اليوم التالي ، وخيل الينا ان الصحراء تهتز من تأثير الاشعة اللافحة الملهبة • وكأن مساكن اصدقائنا الهنود وبنادقنا المسندة الى جذع احدى الاشجار قد خرجت لتوها من أتون من النار الحامية ، فلم نستطع لمسها من شدة الحرارة • وسيطر السكون والهدوء في جو مخيمنا ، فاضحى كأنه دار للاموات ، اذ لم يعد يسمع فيه ألا طنين البرغش والبعوض • ونام الرجال تحت العربة وهم يسندون جباههم الى

اسلحتهم • وقبع الهنود في مساكنهم ، ولم يبق مستيقظا سوى العروسين اللذين كانا جالسين تحت خيمة من جلد البافالو ، والساحر العجوز الذي كان جاثما بين اغصان الشجرة اليابسة القديمة ، بوجهه الهزيل ، يراقب الافق البعيد بعينين ملؤهما الحذر والانتباه خشية أن يداهمنا عدو اثناء غفلتنا • وبعد تناول طعام العشاء ، اسرج شو جواده وقال :

« سوف أعود الى نهر هورس شو ، لأرى ما اذا كان بيزونيت هناك • • »

فاجبته : كنت أود ان اذهب معك ، ولكن علي ان أحافظ على ما تبقى لي من القوة • ولولا ذلك لما تركتك تسير وحيدا •

انقضى ما بعد الظهر أخيرا ، اذ كنت منهمكا في تنظيف بندقيتي وغدارتي ، والقيام بالاستعدادات الاخرى للرحلة • ثم مر جزء طويل من الليل ، ولم يعد شو ، فالتفت ببطانيتي واضجعت للنوم وأسندت رأسي الى سرجي • ولم يزعجنا تأخر شو لاننا حسبنا انه التقى ببيزونيت ، وسيقضي الليل بصحبته • ومر يومان استعدت خلالهما بعض قواي ، غير انني استيقظت في منتصف الليلة الثانية على نوبة ألم شديد منع عني النوم ، فلم استطع الرقاد الى أن خفت حدة الألم بعد بضع ساعات • وكان خيال القمر يهتز فوق مياه نهر البلات الواسع العريض • ولم نكن نسمع سوى تلك الاصوات الخفيفة المبهمة التي تشبه الهمس ووقع بعض أقدام الحارس • ويفهم هذه الاصوات كل من اعتاد ان يقضي الليل وحيدا في الصحاري والغابات • وبعد أن غلبني النوم ، واستسلمت للرقاد ، استيقظت ثانية على أثر سماعي صوتا أليفا ينبعث من بعيد ، واقتربت خطوات سريعة باتجاه المخيم ، وعلى الاثر دخل شو مسرعا ، وبندقيته في يده •

فسألته وقد أسندت جسمي الى مرفقي : أين جوادك ؟
فأجاب : لقد فقد • أين ديلوريه ؟
فأجبته : هناك • واشرت الى كومـــة من البطــانيات واثواب البافالو •
حرك شو تلك الكومة بعقب بندقيته ، فقفز الكندي المخلـص واقفا ، فقال له شو :
تعال ياديلوريه ، حرك النار ، وهيء لي شيئا من الطعام •
وسألته : أين بيزونيت ؟
ـ : الله أعلم ، لايوجد أحد عند نهر هورس شو •
وكان شو قد وصل الى النقطة التي أقمنا مخيمنا فيها قبل يومين، ولما لم يجد أحدا سوى رماد نيراننا ، ربط جواده الى الشجرة ، وذهب ليستحم في النهر • ويظهر أن شيئا أخاف الجواد فقطــع العنان وتاه في الصحراء • وحاول شو عبثا ان يمسك به بعد أن داوره لمدة ساعتين ، فلم يفز منه بطائل • وحين اقتربت ساعـــة الغروب ، وكان على بعد اثني عشر ميلا من المخيـــم ، تخلى عن محاولته ، وعاد مشيا على قدميه ليلحق بنا • وقضى الجزء الأكبر من مغامرته الخطرة وهو يسير في الظلام ، حتى تمزق حـــذاؤه وتورمت قدماه • وعندما جلس ليأكل ، كانت رباطة جأشه ، قد تغلبت على مصيبته وألمه • وكان شو آخر من رأيت قبل أن يسيطر علي الكرى ، وأغرق في لجة الاحلام ، وقد جلس القرفصاء أمام النار وأخذ يدخن غليونه •
ولما استيقظت في صباح اليوم التالي كان الاحساس برطوبة الهواء يملأ أنفي ، وكان الشفق الرمادي يكتنف الصحراء ، وقد ارتسم خط أحمر في أفق السماء فوق حافتها الشرقية • ودعوت الرجال ، ولم تمض الا لحظـــات حتى كان وميض النار يضيء المكان بنوره

الخافت • وحيث هيء طعام الافطار وأضحى جاهزا • فجلسنا جميعا فوق العشب نتناول طعامنا فوق المائدة ككل المتمدنين ، حيث قدر علي وعلى رايموند ان لا نجلس الى مثل هذه المائدة الا بعد زمن طويل •

ـ : والآن ، احضر الخيول •

وبعد قليل كانت فرسي الصغيرة بولين تقف بجوار النار • وبولين هي فرس خفيفة قوية أطلقت عليها اسم بولين نسبة الى صاحبها بول دوريون ، الذي تخلى عنها مقابل تنازلي له عن بونتياك • وعلى سرجها العالي علق جرابان في داخلهما غدارتان ثقيلتان • وكيسان ، وبطانية ملفوفة وحزمة مملوءة بالهدايا الهندية • وقد القى فوقها بجلد من جلود البافالو ، وكيس من الطحين ، وآخر من الشاي ، وحبل ربط حول عنق الفرس • وكان مع رايموند بغل قوي أسود اللون يحمل مثل ما تحمله بولين وبنفس الطريقة والترتيب • وملأنا قرني البارود ، ثم امتطينا خيولنا فالتفت الى شو وقلت له :

ـ : سألتقي بك في حصن لارامي في أول اغسطس •

فأجاب : هذا اذا لم نلتق قبل ذلك الحين • وأظن انني سألحق بكم بعد يوم أو اثنين •

وقد حاول ذلك بالفعل ، وكاد ينجح لو لم يلاق من العقبات مالم يستطع اجتيازه بقوة ارادته • وبعد مرور يومين ، أرسل ديلوريه مع العربة والامتعة الى الحصن ، وخرج الى الجبال مع هنري شاتيون • ولكن عاصفة هوجاء هبت فأغرقت الصحراء ، ولم تطمس معالم الطريق الذي نسلكه نحن فحسب ، بل طمست معالم الطريق الذي يسلكه الهنود أيضا • فاضطروا أن يقيموا مخيمهم على سفح أحد الجبال • وقد بلبلت الحيرة أفكارهم ، فترددوا في سلوك

طريق معين أو اتجاه ثابت • وفي الصباح وجدنا شو متسمما بنبات يعرف بالحليق السام ، فلم يعد قادرا على متابعة السفر ، فعادأدراجه الى حصن لارامي ، حيث ظل هناكاسبوعا يتقلب على فراش المرض، الى أن لحقت به بعد مدة من الزمن •

وخرجت أنا ورايموند بعد أن صافحنا اصدقاءنا وودعناهم ، نضرب في أرجاء الصحراء • فتسلقنا الفجوات الرملية في جوانب التلال ، حتى بلغنا السهول المرتفعة • ولو أن لعنة حلت بأرض ، لما بدت أكثر تعاسة ووحشية من تلك البقاع ، فهناك تلال وعرة وفجوات عميقة وسهول واسعة ، وتشققت من آثار لفح الشمس وحرارتها المحرقة ، فتشعبت الى شقوق ومهاو ووديان ، وقفت حائلا بيننا وبين التقدم ، وكل هذه التضاريس كانت تلمع ببياض مستمد من أشعة الشمس ، وقد اكتشفنا في أعماقها اثار الدببة الرمادية بكثرة لا توجد في أي مكان آخر • وكنا نرى فوق التلال بعض أشجار الصنوبر متعلقة على حافة الوادي ، فتذكرنا رائحتها الراتنجية بجبال اينكلاند المغطاة باحراج الصنوبر •

ووصلنا عند الظهر جدولا صغيرا نمت على ضفتيه الاشجار فحططنا الرحال ، وجلسنا نستريح ساعة من الزمن ، ثم عاودنا المسير ، وقد جعلنا الشمس دليلنا حتى بلغنا قبل الغروب جدولا آخر يدعى نهر بيتركوتن وود ، كانت ترتفع على ضفته بعض الشجيرات ، والاشجار القديمة التي حطمت العاصفة اغصانها • فوضعنا سروجنا تحت أحد الاشجار ، وقيدنا الجياد ثم رأينا ان نطلقها لترعى • وكان الجدول الصغير صافيا سريعا يجري ماؤه بسلاسة وعذوبة فوق رمال واديه البيضاء ، كانسياب انغام الموسيقى، والطيور الصغيرة المائية تطير فوق سطح الماء ، فتملأ الجو بزقزقتها

وتغريدها • وكانت الشمس تختفي بين السحب الذهبية الحمراء وراء جبل لارامي • واضطجعت على جذع بجانب الماء ، أراقب حركات السمك الصغير الدائمة في قاع الجدول • ومن الغريب انني أخذت اشعر بالصحة تعود الى جسمي والحياة تدب في عروقي ، وأحسست أنني معافى تماما • ولما حل الظلام أضرمنا النار مع ارتفاع أصوات عواء الذئاب التي أخذت ترددها الوديان ، والسهول والغابات أصداء عميقة • الا أن مثل هذه الاصوات لا تزعج النائم في الصحراء • وبعدئذ ربطنا الفرس والبغل ، ورحنا في سبات عميق لم نستيقظ منه حتى شروق الشمس • وكنا نستعد لتناول طعام الافطار عند مالمح رايموند رئما على نصف ميل ، فنهض وقال انه سيعمل لاقتناصه •

وحاولت ان أثنيه عن عزمه بقولي ان عملك يقتصر على العناية بالحيوانات ، وأنا ضعيف لا استطيع القيام بعمل مرهق ، فعليك أن لا تبتعد عن المخيم •

فوعدني رايموند أن لايتخلى عن نصيحتي ، وخرج حاملا بندقيته • وكانت الفرس والبغل قد اجتازا الجدول في تنقلهما بالرعي بين العشب الطويل الى الجانب الآخر ، اذا ازعجتهما هجمات الذباب الكبير ذي الرأس الاخضر • وحانت مني التفاتة ، فاذا بهما ينزلان في احدى الفجوات ، ومرت بضع دقائق ، قبل ان يظهرا لمستوى النظر ثانية ، الا أني رأيتهما هذه المرة يعدوان مسرعين على بعد كبير مناه وكانت فرسي بولين تتقدم البغل بعد أن كسرت قيدها، في حين أن القيد ما زال في قوائم البغل • فاطلقت بندقيتي وصرخت أدعو رايموند الذي غاد مسرعا ، واجتاز النهر ، وقد ربط منديلا أحمر حول رأسه • فاشرت اليه أن يطارد الهاربين فنظر نظرة

الغاضب ، ثم أخذ يشتم ويلعن ويصك اسنانه وخرج يركض بأقصى سرعته ، وهو يمسك بندقيته في يده • أما أنا فأخذت طريقي نحو قمة احدى التلال وتطلعت الى الصحراء ، فاستطعت ان أرى الهاربين يعدوان بما يملكان من السرعة والقوة • ثم عدت وقبعت بجانب النار التي تتقد تحت احدى الاشجار • ومرت ساعات شعرت خلالها بالضيق والقلق ، الذي زاده طنين البعوض فوق رأسي وفي أذني • والمصيبة اننا لم نكن نستمتع في تلك البادية المحرقة بنغمة أكثر طربا أو نستمع الى صوت آخر غير هذا الطنين • ثم تبين أن من الصعب جدا استعادة الحيوانين وتذليلهما مما جعلني في مركز حرج للغاية • ذلك أن شو ـ كما يذكر القراء ـ كان قد قرر الرحيل في ذلك الصباح الى حصن لارامي ، ولكنه لم يشر الى الطريق التي سيسلكها ، لذا فان البحث عنه يعتبر اضاعة للوقت في محاولات فاشلة • وكان حصن لارامي يبعد عن مكان وجودنا نحو أربعين ميلا ، ولم يكن باستطاعتي أن اقطع ميلا واحدا دون جهد كبير • فقررت ان استمر في البحث عن اثار الهنود ، وألحق بهم ، مهما كانت النتيجة • وهداني التفكير الى أن أرسل رايموند الى الحصن ليحضر لنا جيادا بدلا من التي فقدناها ، وأبقى بانتظار عودته التي قد تستغرق ثلاثة أيام • ولم يكن بقائي في مكاني وحيدا ثلاثة أيام في منطقة تعج بالهنود مسألة سهلة ولا أمرا تحمد عقباه • وشعرت بالجوع حينما كانت تدور في خلدي هذه الامور ، ولما كان معين مؤنتنا من الطحين قد نضب ، فقد غادرت المخيم لأبحث عن صيد اقتات به • فلم أر الا أربعة أو خمسة من طيور الكروان كانت تحوم على ارتفاع بسيط فوق رأسي •فاسقطت اثنين منها ، وكنت على وشك العودة عندما لمحت منظرا مرعبا أفزعني ، فقد رأيت

شيئا صغيرا أسود يشبه رأس رجل ، ظهر فجأة من بين الشجيرات القريبة من ضفة النهر ، ثم اختفى فجأة كما ظهر . وبما أن كل غريب يعتبر عدوا في هذه البلاد فانني سددت فوهـــة بندقيتي الى الامام حتى لا أوخذ على غرة ، وبعـــد لحظة اهتـزت الشجيرات بعنف وظهر من بينهما رأسان لا كرؤوس البشر ، أشاع ظهورهما الفرح في قلبي وغمر بالسرور نفسي ، لقد كانا بولـين الاصفـر والبغل الاسود . وكان رايموند يعتلي ظهر البغل ، وقد شحب لونه، وأخذ يشكو من ألم شديد في صدره . وما أن وصل حتى ترجل وجثا على حافة النهر وأخذ يعب حتى أرتوى . وعرفت منه أنـــه تتبع الهاربين مسافة لا تقل عن عشرة أميال وأمسك بهما بعد أن لاقى صعوبات جمة . ولفت نظري الى أن بندقيته لم تكن معه . ولما سألته عنها ، قال انه تضايق منها أثناء المطاردة ، فخبأها في مكـان يعتقد أنه سيعثر عليها فيه عند عودته . ومع ان فقدان بندقية يعد خسارة كبيرة في مثل هـــذه الظروف ، فقد سررت كثــيرا لعودة الخيول وتأثرت من اخلاص رايموند الذي كان في وسعه أن يهرب ويستأثر بها لنفسه ، وهيأت له كوبا من الشاي في اناء من الصفيح ، وطلبت اليه أن يستريح ساعتين قبل أن نتابع السفر ثانية . وكان قد فقد شهيته في ذلك اليوم لشدة التعب ، فلم يتناول شيئا مـــن الطعام . واستلقى في الحال ، وراح في سبات عميق . فتركته نائما وذهبت فربطت الحيوانات ثم أوقدت نارا من الحطب الاخضـــر لتطرد الذئاب بدخانها . وجلست بجانب شجرة أراقب حركـــة الشمس البطيئة وأفكر في اللحظات القاسية التي مرت بنا ، واسترجع وقائعها وقلبي مفعم بالحقد والتشاؤم .

ومرت ساعتان ، فايقظت رايموند ، واسرجنا الدابتين وتابعنا

السير في الطريق الذي عاد منه رايموند ، عسانا نجد البندقيــة المفقودة ، وشاء حسن الحظ أن نجدها بعد مسير ساعة من الزمن• وعند ذلك غيرنا اتجاهنا نحو الغرب ، وعلونا التلال والفجوات ، ونحن نتقدم بخطى بطيئة نحو التلال السوداء • وفقدت حرارة الشمس حدتها بسبب الغيوم المتكاثفة التي كانت تظللنا وتدفــع عنا حرارتها وتشبع الهواء بالرطوبة ، بدت الجبال البعيدة متجهمة معتمة • وجعل هدير الرعود يقصف في فترات متقاربة فيجلجـل داويا • وشاهدنا كتلا كثيفةمنالسحب خلف قمم الجبال الشاهقة• فبدت في أول الامر وكأنها مزركشة باللون الفضي • ولكن سرعان ما انتشر ظلام حالك ، ساد الصحراء من حولنا • وانفجرتالعاصفة ببرق ورعد شديدين ، وانهمر المطر فوق رؤوسناماء منهمــرا ، فتطلع رايموند حوله يبحث عن مأوى وهو يلعن الطبيعة التــي لاترحم • ولم يكن بالقرب منا مكان نلجأ اليه ، ولكننا أخـــيرا هبطنا واديا ضيقا فألفينا في منتصف الطريق المؤدي اليه شجرة صنوبر باسقة انتشرت اغصانها الكثيفة بشكل أفقي فشكلت ما يشبه طنف البيوت فلجأنا اليها • وربطنا خيولنا الى احــدى الصخور الكبيرة في أسفل الوادي ، وتسلقنا الشجرة ، وقد اسدلنا بطانيتنا فوق رأسينا ، وقبعنا ملتصقين بجذعها مدة ساعة • والامطار تنهمر كالسيل الجارف • وبقينا على هذا الوضع حتى هدأت العاصفة ، ولكن هطول الامطار استمر قويا ، حتى فرغ معه صبر رايموند• فترك مخبأه وخرج من الوادي الى الصحراء •

فسألته وأنا قابع في مكاني : كيف حالة الطقس الآن ؟

فأجاب : انه رديء ، والظلام مخيم في كل مكان • وعاد فتسلق الشجرة وأخذ مكانه السابق بجانبي مدة تزيد عن عشر دقائق •

قلت له : اصعد حافة الوادي ثانية ، وألق نظرة أخرى • فصعد الهوة ، فسألته حين ذاك ، وكيف الطقس الآن ؟

أجابني قائلا : ان الطقس لم يتغير ، ولكنني أرى بقعة صغيرة تلمع فوق قمة الجبل •

وبعد وقت قصير أقلعت السماء عن الامطار ، فهبطنا الوادي ، وحللنا رباط الدابتين اللتين كان الماء قد غمر قوائمهما حتى الركب، فقدناهما الى رقبة الوادي الصخرية ، ثم اتجهنا نحو السهل • بينما كان الظلام يحيط بنا من كل جانب • غير ان البقعة المشرقة التي أشار اليها رايموند فوق الجبل ، بدأت تتسع وتزداد احمرارا حتى أخذت السحب تتفرق • وما لبثت اشعة الشمس أن انتشرت فغطت السهول والمنحدرات بلونها الازرق الباهت الذي يشبه الاشعة المتلألئة فوق جبال الاينين في أمسيات الربيع • وتم تفرق السحب بالسرعة التي تجمعت فيها وتبعثرت كفرق من الارواح الشريرة المدحورة • وارتفع قوس قزح في كبد السماء ممتدا من الشمال الى الجنوب ، وشاهدنا أمامنا صفا من الغابات تدعونا الى احضانها لنستظل في ظلالها الوارفة ، ونتنعش في أفيائها ، ونعيد الى نفوسنا الكئيبة المحزونة نشاطها • فلما وصلنا اليها رأينا فيها قطرات الندى تتلألأ على غصون الاشجار ، والطيور تغرد فوقها بانغامها الشجية العذبة ، والحشرات ذات الاجنحة التي شلت الامطار حركتها فتعلقت باوراق الاشجار وأغصانها •

لم يستطع رايموندايقاد النار الا بصعوبة كبرى • وكانت الدابتان ترعيان بينما لففت نفسي ببطانية واستلقيت أتأمل مناظر الماء وهو يجري سلسا رائقا رقراقا ، وقد بدت الجبال تشرق وتبتسم تحت أشعة الشمس الدافئة • ورغم مرضي وابتلال ثيابي واضطرابي

فقد بدا لي أنني اكثر حيوية واوفر نشاطا . وعددت شعوري هذا فكان بشيرا بالخير .

واستيقظ رايموند عند الصباح وهو يسعل بشدة . أما أنا فلم أصب بأية علة . وامتطينا خيولنا وسرنا بين الاشجار بعد أن اجتزنا الجدول الصغير . وتقدمنا ببطء ونحن نتحرى بقلق كل شبر نمر به بحثا عن اثار الهنود ، الذين ولا بد ان يكونوا قد مروا باطراف دلك المكان . ولكن كان العشب قصيرا ، والارض يابسة ، لا يترك الإنسان حين يمر فوقها أي أثر خلفه ، وأخذنا نعلو تلا ونهبط آخر ونتسلق الوديان ونصعد الجبال . وبينما كنا نمر في سفح احدى التلال لاحظت رايموند يشد عنان بغله فجأة ، ثم ينزل عنه بسرعة ويركض وهو منحن الى الامام متجها نحو احدى الفجوات. ولم تمض سوى لحظة سمعت بعدها طلقة مدوية ، ثم رأيت أثر ذلك رثما يعدو على ثلاث قوائم وهو يركض باقصى سرعته فوق التل ، فارخيت عنان بولين وتبعته ، وبعد قليل استطعت أن أدركه. وسرعان ما وقف بعد أن قفز عدة قفزات ، وكأنه علم ان لافائدة من المقاومة ، فرفع وجهه ونظر الي نظرة استعطاف ، جعلتني اطلق عليه غدارتي ، وضميري يؤنبني . وسلخه رايموند وقطعه أربع اجزاء علقناها بسروجنا فرحين بالحصول على هذه المؤنة الجديدة بعد أن أوشكت مؤنتنا السابقة على النفاذ .

صعدنا قمة احدى التلال ، فاستطعنا ان نرى عند حافة الصحراء التي تعلو السحب ، صفوفا كثيفة من الاشجار والغابات الصغيرة الظليلة على طول مجرى نهر لارامي . فأخذنا نجد في السير حتى بلغناها قبل الظهر . واسترحنا بعض الوقت وتناولنا طعامنا ثم جعلنا نبحث عن اثار اقدام الهنود ، ونحن نشعر بالقلق يسيطر على نفوسنا.

ثم تقدمنا بمحاذاة مجرى النهر عدة أميال ، تارة نسير بجانب الضفة واخرى نخوض النهر وندقق بين السدود الرملية والضفاف الموحلة ، وطال بنا التحري ، حتى ظننا اننا تركنا الامر وراءنا دون ان نكتشفه • وسمعت أخيرا صوت رايموند يصيح ، ورأيته يقفز عن البغل ويفحص شيئا تحت الضفة • فأسرعت اليه ورأيت اثار حذاء هندي • وشجعنا هذا الاكتشاف ، فتابعنا تحرينا حتى جلب انتباهي بعض آثار فوق سطح الارض اللينة بالقرب من شاطىء النهر • وعندما دققتها ، وجدت اثارا لعدة أقدام ، بعضها لرجال والبعض الآخر لاطفال • وفي نفس الوقت لاحظ رايموند في الجانب الآخر من النهر ، مصب جدول صغير آت من الجنوب • فخاض الماء وسار في الثغرة ، ولم تمض برهة حتى سمعت صراخه• فلحقت به • وكان مجرى النهر رمليا عريضا يترقرق فيه الماء ، وتنمو على ضفتيه الشجيرات المتلاصقة الكثيفة التي تحجب ماوراءها من مشاهد • ورأيت رايموند منحنيا فوق آثار قوائم أربعة جياد • وتابعنا التحري ، فعثرنا على اثار أقدام رجل ، ثم على اثار طفل واثار عدد كبير من الخيول ، كما وجدنا على الضفتين شجيرات بعضها مقطوع وبعضها تحطم بفعل العواصف • وظهرت الارض كأنها محروثة لكثرة الاقدام التي اجتازتها ، هذا عدا عن آثار أعمدة المساكن التي غرست في الارض • لقد تأكدنا الآن من العثور على الاثر المطلوب ، فاندفعت بين الاشجار ، ولم يطل بنا الوقت حتي وجدت رماد نيران مائة وخمسين مسكنا ، وعظاما وقطعا ممزقة من أردية البافالو مبعثرة في كل مكان • كما كانت الاوتاد التي تربط بها الجياد لا تزال في الارض • وعمنا سرور عظيم ، ووجدنا مكانا مناسبا ، ثم اطلقنا سراح الدابتين ، وبدأنا في تحضير طعامنا من فخذ حيوان الرئم •

لقد آتت الشدائد التي تعرضت لها أكلها ، وانتجت ثمارها ، اذ منحتني الصحة والقوة منذ بارحت مخيم لابونتييه . فتناولت طعام الغداء مع رايموند وأنا اشعر بصحة طيبة ونفسية عالية . وخيل الينا اندفاعنا وعواطفنا أنه طالما عثرنا على طرف الطريق ، فاننا سنصل الى نهايته دون ان نصادف صعوبات تذكر ، او تعترضنا عراقيل مهمة . ولكن عندما أعددنا الدابتين ، وجدنا ان سوء الحظ لا زال يقتفي اثرنا ويرافقنا . اذ بينما كنت أسرج بولين ، لاحظت أن عينها مظلمة بلون الرصاص ، أما جلدها الاصفر فقد شابه السواد . وما أن وضعت قدمي في المهماز لاعلو ظهرها ، حتى تمايلت وسقطت على جانبها . ثم أخذت تحاول النهوض حتى تمكنت من ذلك ، بعد ان ثبتت قائمتيها بجهد شديد ، وبقي رأسها متدلي الى اسفل . ولم أدر ما اذا كانت قد عقصتها افعى ، أو تسممت من أكل بعض النباتات السامة ، أو أصابها عارض مفاجيء ، وعلى كل حال ، فقد كان مرضها في مثل هذا الوقت مزعجا ومؤسفا ودليلا على محالفة سوء الحظ . ونجحت في محاولة ثانية باعتلائها . وتابعنا سيرنا ببطء شديد مقتفين اثار الهنود . فوصلنا الى تل يشرف على سهل موحش . وللأسف فقد اختفت الاثار هنا لآن الارض كانت صلبة كالصوان لاتحمل أثرا ولا تبقي عليه . واذا كان قد علق بتلك الارض القاسية اثر لحافر ما ، فالطوفان الذي طغى في اليوم السابق محا كل ما يمكن أن يرشد الى أثر الهنود الذين كانوا قد انتشروا في موكب مضطرب في سيرهم خلال الصحراء الى مسافة نصف ميل . ولم يعد التعرف على معالم الاثر ممكنا عندئذ . وأصبح امر اللحاق بالهنود من أصعب الامور واشد المشاق . ولكن شاء حسن الحظ ، ان نجد في طريقنا أوكارا للنمل يزيد قطرها على

الباردة ، وقد انتشرت فوق السهل . فسحقتها اثار اقدام الرجال والخيول ، كما ظهرت بعض قطع من أعمدة المساكن . وفي مكان آخر ، ساعدت أوراق الصبير الحلوة التي داستها الاقدام في ارشادنا أيضا . وهكذا تابعنا سيرنا بوصة بعد بوصة. نفقد الاثر حينا ،ونجده حينا آخر . واسقط في أيدينا بعد الظهر ، فلبثنا وحيدين دون ان نجد ما يهدينا الى الاثر . وقد امتد السهل حولنا فرسخا بعد آخر. وامتدت أمامنا سفوح الجبال وسلاسلها من الشمال الى الجنوب . وكان يعلوها جميعا عن يميننا جبل لارامي . واستطعنـــا ان نرى كتلا من الدخان الابيض تصعد ببطء من واد يقع خلف احـــدى المنحدرات .

فقال رايموند : « اظن انه يوجد بعض الهنود في ذلك المكان ، وربما كان من الانسب ان نعود » . ولكن كان علينا ان نتروى في تنفيذ هذه الخطة. فقررنا ان نتابع التحري عن اثر الهنودالضائع. وقد الهمنا حسن حظنا هذا القرار ، لاننا علمنا من الهنود فيما بعد ، ان ذلك الدخان المتصاعد كان خدعة من محاربي الغربان .

حل الليل . وكان الماء والحطب بعيدين عنا في سفوح الجبال. فاتجهنا اليها بمحاذاة مجرى نهر لارامي . وحين بلغناها ، كانت رؤوس الجبال القاحلة لا تزال تلمع تحت اشعة الشمس المتسللة ، والنهر الصغير يندفع بتيار غاضب من سجنه المظلم . وهناك عثرنا على بقعة نبت فيها العشب على ضفة النهر ، واحاطت بها قمم ضئيلة الارتفاع ، كانت تحجبنا ونارنا عن أعين الهنود المتجولين .ولاحظت هنا دوائر كثيرة من الاحجار الكبيرة ، واثار مخيم هنود الداكوتا الشتوي . ولم نلبث ان انتقلنا الى عالم الاحـــلام ، فاستلقينا ولم نستيقظ الا بعد أن بزغت الشمس ، وملأت الارض باشعتها الفضية،

فخلعت ثيابي وارتميت في احضان النهر ، ومائه الذي كاديجرفني تياره القوي لو لم اتشبث ببعض جذور النباتات المائية المتينة . ولم استطع ان اسحب نفسي الى الضفة الا بعد ان بذلت جهدا كبيرا . ورغم ذلك الجهد فقد شعرت بتأثير هذا الحمام المنعش لدرجـــة جعلتني اظن مخطئا ، ان ذلك النشاط ناتج عن استرداد صحتي . ولكن ما كدنا نمتطي خيولنـــا ونتابع سيرنا حتى تلاشت هـــذه الومضة الخادعة من الحيوية . وأخذت اتعلق بكربوس السرج غير قادر ان اثبت فوق ظهر الفرس .

قال رايموند : « انظر الى هذه الجهة ، هل ترى هذه الفجوة الكبيرة ، لاشك ان الهنود مروا منها ، هذا اذا كانوا قد وصلوا الى هذه المنطقة » .

وصلنا الى الفجوة التي تشبه اخدودا عميقا شق في داخل سفـــح الجبل . وعثرنا فيهاعلى آثارغرس عمود واحد من أعمدة المساكن. كان هذا دليلا كافيا للقضاء على الشك الــــذي خامرنا في وصول الهنود . وعندما تقدمنا في المسير ، لاحظنا ان الفجوة بدأت تضيق شيئا فشيئا ، حتىاضطر الهنود الذين مروا قبلنا الى التقدمفي صفوف متراصة ، فظهرت اثارهم الآن واضحة متلاصقة ، وانتهت الفجوة الى طريق صخري يؤدي الى ممر وعر بين جبلين . وكانتالاعشاب والنباتات قد سحقت تحت اقدام تلك الجموع الغفيرة التـــي مرت فوقها . وتابعنا سيرنا ببطء فوق الارض الصخرية مدة ساعتين ، مررنا خلالهما على منحدرات عديدة ، يبلغ انحدار بعضها مئـــات الاقدام . وكان رايموندیتقدمني وهويعتلي ظهر بغله القوي الشديد المراس . فوصلنا الى مرتفع اشد وعورة واصعب منالا مما سبقه ، وهو أعلى نقطة في ذلك المكان . فتسلقت بولين بضع ياردات ، ثم

وقفت بعدها لانملك حيلة • فترجلت وحاولت ان اقودها ، ولكن قواي الضعيفة لم تسعفني • ففككت الحبل عن عنقها وربطه بذراعي وركبتي ، وبدأت ازحف حتى بلغت القمة ، والعرق يتصبب من جبيني • وبولين تقف بجانبي وخيالها يرتسم فوق الصخور •

استطعت بعد برهة أن أتابع التسلق ، وما لبثنا ان بدأنا في الانحدار الى جانب الطريق الغربي • والحق اننا كنا في وضعية مضحكة مؤلمة في نفس الوقت • فالرجل والفرس عاجزان ، لا يستطيعان الكفاح ولا السير •

وافلت حزام سرج رايموند ، فتوقف لاصلاحه بينما تابعت تقدمي حتى بلغت قمة المنحدر ، وهناك شاهدت منظرا أثار فرحي، هاهنا زاوية ملأى بالعشب الاخضر النضير تحيط بها الجبال ،وفي أحد جوانبها مجموعة من الشجيرات ، وفي الجانب الآخر اشجار الصنوبر الشامخة القديمة ، وقد انحنت فوق الصخور • وحياني صوت أليف دقيق ذكرني بأيام الطفولة • كان صوت جرادة من الجراد المنتشر بين الاشجار ، وقد تعلقت في اغصان الصنوبر الدافئة • ولما مررت بالشجيرات سمعت خرير المياه المتساقطة • فدارت بولين بملء ارادتها واندفعت بين الاغصان ، فوجدنا صخرة سوداء تظللها اعشاب خضراء نضرة ، ويجري في جوانبها نبع بارد اشبه ما يكون بالثلج في حوض مفروش بالرمل الابيض • وحين كنت أملأ كأسا من النبع • كانت بولين تغطس رأسها في الحوض • وعلمنا من اثار أقدام الايلة والغزلان واغنام جبال روكي ، والدببة الرمادية التي تستوطن هذه الجبال ، ان زوارا عديدين سبقونا في الوصول الى هذا المكان •

وبعد أن تمتعنا بالراحة بعض الوقت بجانب ذلك الينبوع الفياض،

أخذنا طريقنا نحو سهل صغير اخضر ، تحيطه الجبال من جوانبه، وتكثر فيه اثار الهنود • واكتشفت عين رايموند الخبيرة بعض اشارات عرف منها ان رينال كان مخيما في هذا المكان • واقتربت اجيل نظري ، وكأن بي شوقا لذلك الرجل الذي خلف هذه الاثار • وبما انني لم أكن أشارك رينال أي شعور ، فقد ترددت وعجبت في ادراك سبب اطالتي النظر في رماد ناره ، طالما لم يكن بيني وبينه رباط آخر من الصداقة سوى تلك الصلة الضعيفة التافهة ، ألا وهي صلة العرق •

وبعد نصف ساعة تحررنا من المناطق الجبلية • وبدا أمامنا سهل قفر تملؤه الكلاب البرية التي تجثم أمام أوكارها ، والتي لم تكن تنفك عن النباح اثناء مرورنا بها • ورغم ان عرض السهل لايزيد عن ستة أميال ، الا اننا لم نستطع اجتيازه في مدة تنقص عن ساعتين • وعلى حافة ذلك السهل كانت تقوم سلسلة جديدة من الجبال الشامخة التي تغطيها الاشجار الباسقة المنتصبة من السفح الى ارتفاع الف قدم ، حيث ترتفع صخور عالية سوداء مائلة نحو جهة واحدة • وقد فعلت فيها العواصف والرعود وحطمتها ، فبدت لنا وكأنها تماثيل مخيفة خطرة • وعندما اقتفينا اثر الهنود في احد الممرات الضيقة ، مررنا تحتها وقد تعلقت انظارنا بها ، وكأنها سيف القدر مصلتا على اعناقنا •

وعثرنا في مكان مكشوف تحيط به الصخور المرتفعة ، على حصنين هنديين ، شيدا على شكل مربع من جذوع وأغصان الاشجار بشكل بدائي بسيط • وربما تم بناؤهما في السنة الماضية • وكل منهما يتسع لعشرين شخصا • وكانا على وشك السقوط ، اذ يغلب على الظن أنهما تعرضا لهجوم الاعداء • ولم يظهر أثر المعارك الدموية

التي دارت بين الفريقين فوق الصخور ، بل اختفى معظمهما بين الشجيرات والنباتات الغزيرة •

واتسع الممر الذي كنا نسير به بين الجبال ، حتى اصبح سهلا فسيحا ، حيث عثرنا على بعض اثار لأحد مخيمات الهنود • وجلسنا نحو ساعة من الزمن تحت اشجار باسقة غضة تتقى الطبيعة ،ونحصل على قسط من الراحة والاستجمام • ولما انتهينا من تناول الطعام أوقد رايموند النار واشعل غليونه ، ثم جلس يدخن تحت احدى الاشجار ، واخذت انعم النظر فيه وهو ينفخ دخان غليونه ، وقد اكتسى وجهه بالهيبة والجلال • وبعد فترة صمت رفع غليونه من بين شفتيه ببطء ونظر عاليا ، ثم اقترح رأيا فقال : اننا نحسن عملا اذا توقفنا عن السير •

فسألته ، ولماذا ؟

فقال : ان الصحراء شديدة الخطر ، وقد دخلنا سلسلة جبال السنيك والاراباهوس والبلاك فيت ذوات البطون الكبيرة ، وان أي لقاء بيننا وبين أية فرقة من محاربيهم ، اذا قدر لنا ان نلتقي بها سيكلفنا حياتنا ، ولكنه اضاف يقول مخلصا ، انه سيذهب حيثما أريد • ولم أجبه بشيء ، بل أمرته أن يحضر الدابتين • واعتلينا ظهريهما وتابعنا السير • وأني اعترف هنا أن ما كان ينتظرنا اكتنف بالغموض ، لذا فقد وقعت في حيرة من أمري ، وتمنيت أن أهب كل ما أملك في هذا العالم لقاء استعادة صحتي وعقلي ، وحصولي على جواد له مثل هذه المرونة التي تتطلبها مثل هذه الرحلة الشاقة الطويلة المنهكة •

اعترضت طريقنا الصخور ، واحاطت بنا من جميع الجهات ، وأخذت تضيق شيئا فشيئا ، حتى دخلنا مضيقا لم أر له مثيلا من قبل •

فقد كان الجبل وكأنه شق من قمته الى سفحه • فاتجهنـــا نحوه وسلكنا طريقنا ونحن نزحف في الظلام والرطوبة •واصوات حوافر خيلنا ترن فوق الحصى ، وماء النهر الذي رافقنا في هذه الطريق ، ينساب لينا رقراقا في خرير عذب كأنه لحن شجي يطفو تارة فيغطي الممر الضيق ، ثم يرتد تارة أخرى الى جانب الممر فيفسح لنـــا طريقا ضيقا يمكننا من السير دون أن تبتل اقدامنا • ولم يطـــل الامر على هذه الصورة ، فقد أخذ الممر بالاتساع وتسللت الشمس حتى بلغت قعر ذلك المنفذ الضيق •فلمعت أشعتها فوق المياه المظلمة• ثم بدت أمامنا على ضفة النهر ، أشجار باسقة وزهور مختلفـــة الالوان • ولكن سرعان ما عدنا للسير في الظلام • ولم يكد ينتهي ذلك الممر الذي يبلغ طوله أربعة أميال حتى تشققت حوافر الدابتين من السير فوق الحجارة الحادة • ووجدنا انفسنا في سهل آخر ، تحيط به المنحدرات ، ويسوده هدوء وسكون غريبين ، وكأنه في عزلة ابدية • وكان الهنود قد خيموا هنـــا ايضا حين مروا مـــع سائهم واطفالهم ، من المضيق الذي استغرق اجتيازه ثلاثة أيام في حين قطعناه نحن في يوم واحد •

ويقع المنفذ الوحيد للمدرج فوق تل يعلو مائتي قدم • فتسلقناه بعد صعاب جمة ، وحانت منا التفاتة من القمة ، فرأينا اننا تحررنا أخيرا من الجبال ووصلنا السهول ، وامتدت الصحراء أمامنـــا ، قاحلة وعرة موحشة • وبعد مسير طويل، برز تل مرتفع ، فشاهدنا على سطحه الاملس المكسو بالاخضرار ، أربع نقاط سوداء تتحرك، ثم اتضح لنا انها ثيران البافالو ،فرحبنابرؤيتها ،وعددناهافألا حسنا • فالهنود يعيشون حيث يوجد البافالو ، لهذا فقد كنا متلهفين ومتأملين في أن نبلغ القرية في هذه الليلة ، كي نختم رحلتنا • وكنا نعرف

أنه ولو كان دخول القرية في وضح النهار امينا لا خطر فيه ، فان اقامة مخيم في جوارها أمر خطير للغاية • وبدأت الشمس تميل نحو الغروب ولم يبق على افولها سوى نصف ساعة • فصعدنا تلا للتحري عن مكان نقيم فيه مخيمنا • فبدت الصحراء شبيهة بالمحيط الهائج الذي تجمد فجأة ، بينما أخذت أمواجه ترتفع عاليا ،فاصبح نصفه في النور ونصفه الآخر في الظل • وكانت شجيرات القصمين تملأ الصحراء • ففي كل مكان ، وحيثما نظرت ، كنت ترى مئات منها حتى فوق التلال وفي الفجوات • ووقع نظرنا على خط اخضر من الاعشاب في السهل القريب ، حيث يجري نهير صغير بمياهه الضحلة اللامعة • فنزلنا عنده، وأوقدنا نارا ثم اطلقنا دوابنا لترعى•

وضعنا قطعة اللحم الباقية من الرئم ، فوق نار خفيفة ، ونحن نندب حظنا من مؤونتنا التي اوشكت على النفاذ • وشاهدت وأنا اقلب اللحم فوق النار ، أرنبا رماديا كبيرا يقفز بالقرب منا ويقف على بعد خمسين ياردة ينظر الينا • وتتميز هذه الصحراء بوجود مثل هذا النوع من الارانب • فرفعت بندقيتي بدون روية ولا تفكير وصوبتها اليه ، ولكن رايموند صاح بي محذرا من اطلاق الرصاص حتى لا يتنبه الهنود الى وجودنا • وبدأنا نفكر جديا في تلك الليلة لاول مرة بالخطر الذي كان يحيق بنا ، ونتعرض اليه • وقد يستغرب اولئك الذين لم يخبروا الهنود ، من توجسنا الخفية ، وتوقعنا الشرحين اقترابنا من الشعب الذي رغبنا في زيارته • ولو ان فريقا من محاربي اولئك الاصدقاء شاهدونا ، لعاد الينا في الليل لينهب خيولنا او يسلخ جلود رؤوسنا • ولكن الصحراء لا تحبذ الانفعالات ، لذلك طردنا هذه الفكرة من رؤوسنا في ذلك المساء •

وبعد أن وضعنا رأسينا فوق سروجنا ، لم نلبث ان غرقنا فيسبات

عميق • وعند ما استيقظت في الصباح ، وجدت رأس بولين الاصفر ممددا فوقي • فنهضت وفحصتها ، فوجدت ان ورم قوائمها الذي سببته لها متاعب الامس قد تلاشت ، كما ان عينيها كانتا تلمعـــان وحركاتها اكثر نشاطا ، بعد أن زال عنها مرضها الخفي • تابعنا السير على أمل أن تلوح لنا القرية الهندية بعد ساعة • ولكن خاب فألنا وضاع أملنا حين ظهر أمامنا سهـــل قاحـــل تملؤه الصخور والاحجار • فسرت ورايموند نتحرى ونفتش هنا وهناك في كـل باردة من الارض ، حتى وجدنا اخيرا اثار أعمدة المساكن بجانب حافة الصخور • فبدأنا باتباع تلك الاثار •

وسألت : « ماهذه البقع الصغيرة هناك في الصحراء ؟ »

فأجاب رايموند : يخيل الي أنها بافالو ميت •

واسرعنا لنجد جثة ثور اصطاده أحد الصيادين في اثناء اجتيازهم هذه السهول • وقد مزقت الذئاب الجثة اربا حين اقامت عليهـا وليمة حافلة ، ولم تبق منها سوى الهيكل العظمي الذي ملأتـــه الصراصير • فجعلت منظرا مثيرا تشمئز منه النفس ويعافه النظر • وهنا التفت الى رايموند ، وقلت له : ان الهنود لا يزالون يبعدون عنا حوالي خمسين او ستين ميلا • فهز رأسه وأجاب انهم يجرؤون على السير بعيدا خوفا من اعدائهم السنيك •

وسرعان ما اضعنا الاثر ثانية • فصعدنا جرفا مجاورا • وقــد استولت علينا الحيرة فوجدنا أنفسنا أمام سهل منبسط ، يمتد الى اليمين واليسار دون حدودمعينة،ولكن خطا منكسرا من التلال يحده من الامام على مسافة اثني عشر ميلا • وكل ما فيه ظاهر للعيان ، غـير اننا لم نجد اثرا لانسان أو لبافالو أو غيرهما •

قال رايموند : « والان علينا أن نعود أدراجنا » •

ولكن لما كنت أخالفه في الرأي ، فقد هبطنا التل • وأخــــذنا نجتاز السهل الممتد أمامنا • فقد اصبحنا أبعد كثيرا من أن تستطيع قوائم بولين حملي في الرجوع الى حصن لارامي • واصبـــــح من الافضل لنا أن نستمر في تقدمنا • وبعد قليل ظهرت أمامنا سهول مملوءة بالجماجم وعظام البافالو التي دلت على أن الهنود قاموابدورة في هذه الاراضي قبل سنتين • ومع ذلك فلم نشاهد أي ثور عـلى قيد الحياة • واخيرا قفز حيوان من الرئم ووقف ينظر الينـــا • فاطلقنا بندقيتنا عن بعد ثمانين ياردة ، فأخطأناه • وكان لهذا الفشل وقع شديد على نفوسنا فذخيرتنا بدأت تنفذ ومؤنتنا لم يبق منها سوى القليل • وشاهدنا من بعيد عددا من الغدران تتألق وتلمع ، ولمـــا اقتربنا منها رأينا عددا من الذئاب والآرام تجري حولها وتجوب في تلك المنطقة • وكانت اسراب طيور الزقزق الابيض تشدو فـوق سطح المياه • فجرب رايموند حظه مع الطيور بعد أن فشل مـع الرئم • ولكن الفشل رافقه في هذه المرة أيضا • فتحولنا الى السير باتجاه التلال عسى ان نلاقي حظا أوفر •

واستقبلنا الصحراء القاحلة التي لا أثر فيها يرشد الى الطريـق ولما اقتربنا من احد التلال ، ظهرت امامنا ثغرة لابد ان يكون الهنود قد مروا بها ولا شك ، ولو انهم وصلوا الى هذا المكان ، واخـــذنا نتسلقها ، وانا اشعر بالتشاؤم • ونظرت حولي ، فلم أجد أي أثر من آثار أقـــدام الهنود ، ولا من أعمـــدة مساكنهم ، مـــع ان الممر كان ممتلئا بجماجم البافالو • وفجأة اسودت الدنيا أمامنـــا ، وسمعنا قصف الرعد ، فادركنا ان العاصفة على وشك ان تثور •

ولما بلغنا قمة الثغرة بدت المشاهد امامنا واضحة جلية • فرأينا في اول الامر خطا اسود من الغيوم المعقدة في الافق ، وقد ارتفعت فوقها قمم سلسلة جبال ميديسين بو ، وهي طليعة جبال روكي • ثم

أخذت السهول الخضراء تظهر شيئا فشيئا ، ونهر لارامي يخترقها وينساب بخط متعرج • ولم يكن علىضفتيهاية شجرة•• واستمررنا في السير ، ولم يطل الوقت حتى شاهدت فجأة بضع بقع سوداء في الصحراء على طول ضفة النهر •

فصرخت : بافالو !

وصاح رايموند ، يا الهي ، خيول • وجلد بغله وهو يستحثه السير ، وبدأت الصور تتضح شيئا فشيئا على أرض الصحراء ، فظهر امام اعيننا من الجياد المنتشرة على طول ضفة النهر ، وهي ترعى في أرض البادية ، وعلى بعد ميل أو اثنين كانت تقف مساكن قبيلـــة الاوجيللالا التي اتخذت شكل دائرة بجانب النهر،واكتظت بساكنيها الهنود ، والحق ان شعور الفرح والسعادة ما اعترانا مرة في حياتنا كما غمرنا في تلك اللحظة التي شاهدنا فيها مخيم الهنود •

الفصل الرابع عشر

قرية اولاجيلالا

ليس هذا هو المكان الذي استطيع فيه ان ارسم صورة لمظاهر العقلية الهندية • ولكن لو ادخلنا على هذه الصورة تعديلا طفيفـــا في اللون والخيال ، فقد تصلح ، مع بعض الاستثناءات لتكون ممثلة لجميع قبائل شمال الاراضي المكسيكية • ومع هذا التشابه في التفكير فقبائل البحيرة وشواطىء المحيط والقبائل التـــــي تسكن الغابات والسهول، يختلف كل منها في طراز حياته عن القبائل الاخرى •• ولما كنت قد اقمت عدة اسابيع مع اكثر القبائل وحشية ، وهي تضرب في مختلف انحاء الصحراء النائية ، فقد اتيحت لي فرصة نادرة لمشاهدة اشياء كثيرة لم تتح لغيري فرصة رؤيتها ، ولذا اغبط نفسي لمشاهدتها على أن معظم المشاهد اليومية التي كانت تبدو يوميا امام عيني ، لم تخل من الاهمية والفائدة • ولقد كان هؤلاء متوحشين بكل ما في هذه الكلمة من معنى • فلم يفدهم الاحتكاك بالمدينة كما لم تتبدل افكارهم او عاداتهم • ولم يكشفوا عن قوة الرجل الابيض واخلاقه الحقيقية ، اذ كان الاطفال يصيحون خوفا ورعبا عند رؤيتي • أما تعصبهـم ودياناتهم المملوءة بالخرافات ، فلم يطرأ عليها تبديل ولا تغيير او تحول منذ الازل • وكانوا يحاربون بنفس انواع الاسلحة التي حارب بها اباؤهم واجدادهم ، ويرتدون نفس الازياء من الجلود التي ارتداها اسلافهم • والحق انهم كانوا المثل الحي والصـــــــورة الحقيقية للعصر الحجري • ورغم ان رماحهم وسهامهم صنعت من

الحديد الذي يبتاعونه من التجار • فقد كانوا يستعملون المطرقة الحجرية الموروثة عن العصور القديمة •

ولكن لاشك ان تبدلات كبيرة جوهرية ستحدث قريبا في هذه المنطقة • ولسوف يتناقص عدد ثيران البافالو ، فينفرط عند ذلك السيل الجارف من المهاجرين الذين يعتمدون في بقاء واستمرار حياتهم على وجوده وكثرته بسبب الهجرة الى اوريجون وكاليفورنيا • وسوف يذوق الهنود الذل لادمانهم شرب الويسكي وسيستولى عليهم الرعب والرهبة لوجود المخافر العسكرية • ولن يمضي وقت طويل حتى يجتاز المسافر هذه البلاد بكل طمأنينة وامان ، بعد ان تزول عنها حجب كل خطر وسحر •

عندما اكتشفنا انا ورايموند القرية من الثغرة الواقعة بين التلال، عرف الهنود مكاننا بدورهم فكانت عيونهم ترقبنا باستمرار ، وقد غصت الجهة القريبة منا اثناء مرورنا بالسهل باشكال عارية • وتقدم عدة رجال لملاقاتنا ، فاستطعت ان اميز بين الالوان البطانية الخضراء التي يتدثر بها رينال ، وبعد ان تصافحنا اعرب الجميع عن شوقهم الشديد لمعرفة مصير بقية الرفاق • فاجبتهم عن هذه النقطة ، ثم سرنا نحو القرية •

وقال رينال : لقد فاتك الكثير هنا ، فلو كنت معنا قبل يومين لرأيت الصحراء على رحبها مغطاة بثيران البافالو ، ولم يكن بينها بقرة واحدة • فكنا نخرج كل يوم للصيد حتى البارحة • انظر القرية هناك ، الا ترى ما يسر ويبعث النشوة في النفوس ؟

واستطعت بالفعل ان ارى الجبال الممتدة من مسكن الى مسكن ، وقد علقت فوقها كميات كبيرة من اللحوم التي قطعتها النسوة قطعا رقيقة ، وعلقنها في الشمس حتى تصبح قديدا •

ولاحظت ايضا ان القرية اصغر مما كانت عليه عندما رأيتها قبـلا، فسألت رينال عن السبب ، فقال : ان الاعور العجوز الذي كـان اضعف من أن يستطيع السير واجتياز الجبال ، تخلف وراءهم مع أقاربه ، ومنهم ماهتوتانونكا واخوته . وكان الزوبعة قد رفض أن يتقدم كثيرا لأنه كان خائفا ، بعد ان قذف رينال في روعه ، فخاف على حياته ، وتخلف معه بعض اتباعه . أما القسم الاكبر من سكان القرية ، فقد رفض اطاعة أوامر الزعيم ، وتابع رحلته التي طالما تاق اليها .

وسألته : من من الزعماء موجود الآن في القرية ؟

فأجاب : هناك « الماء الاحمر » و « ريش النسر » و « الغراب الكبير » و « الذئب المجنون » و « الفهد » و « الدرع » وغيرهم .

وكنا في تلك الاثناء ، قد اقتربنا من القرية ، فلاحظت أن غالبية المساكن تمتاز بكبرها واتساعها ودلالة مظهرها الخارجي عـلى النظافة التامة ، بينما لمحت في الجانب الآخر مجموعة من الاكواخ الحقير الزري ، وكأنني بقولي هذا لمست نقطة حساسة ، فقال رينال:

ان أقارب زوجتي يعيشون في تلك المساكن ، وليس بين هؤلاء القوم من هو خير منهم .

فسألته : وهل يوجد بينهم زعماء ؟

فتساءل مرددا : زعماء ؟ نعم كثيرون !

ـ : ماهي اسماؤهم ؟

ـ : اسماؤهم ؟ هناك « رأس السهم » ، ومع انه ليس زعيما ، ولكنه سيصبح كذلك قريبا ، وهناك أيضا « عاصفة البرد » الـذي لا يزال صبيا ، ولكنه سيصبح زعيما في المستقبل .

وكنا في هذه الاثناء ندخل ساحة القرية الكبرى ، بعد أن مررنا بصفين من المساكن • وكانت جميع الوجوه تنظر الينا بوجوم •

وهنا سألت رينال : أين مسكن « الجرح الرديء »؟

فاجاب : انه لم يحضر معنا ، فقد بقي مع « الزوبعة » ولو كان حظك طيبا لوجدته هنا ، واقمت معه ولقيت منه افضل معاملة يمكن أن تجدها عند أي رجل آخر في القرية • ولــكن هناك مسكن (الغراب الكبير) وراء مسكن (الماء الاحمر) العجوز ، فهوصديق طيب للبيض ، وأنا انصحك بان تذهب وتعيش معه •

ـ : هل معه نساء واولاد كثيرون في المسكن ؟

ـ : كلا ، امرأة وثلاثة اطفال فقط • ويسكن الباقون لوحدهم في مسكن آخر •

وهكذا سرت مع رايموند ، يتبعنا رتل من الهنود ، حتى مدخل مسكن « الغراب الكبير » فخرجت امرأة وأخذت الجياد بعيــدا ، ثم عادت فرفعت ستارة الجلد التي كانت تغطي المدخل المنخفض ، ودخلت المسكن • فرأيت الزعيم خلال النور الضعيــف ، وهو جالس في أحد الجوانب على أكداس من أثواب البافالو • فحييته وطلبت من رينال ان يخبره اننا قادمون لنسكن معه • فتنحنح الزعيم واعتبر هذا الطلب تطفلا ، غير ان كل هندي في القريــة يرى في قبول الرجل الابيض ونزوله ضيفا عليه ، شرفا كبيرا له •

وفرشت المرأة في صدر المسكن رداء من جلد البافالو لنجلس عليه، واحضرت سروجنا • وما كدنا نستقر حتى عج المسكن بالهنــود الذين تجمعوا لرؤيتنا • واحضر الغراب الكبير غليونه وملأه بالتبغ والسونساشا ، أو قشور جذع الصفصاف الاحمر • ودار الغليون بيننا اثناء الحديث • وفي خلال ذلك كانت امرأة اخرى تقــدم

للضيفين اناء من مغلى لحم البافالو ، ولم تكن هذه الوليمة ، مع الاسف ، هي الوحيدة التي أرغمنا على المشاركة فيها • فقد كان الاولاد والفتيات يدخلون ويدعوننا لزيارة مساكنهم • فبقينا نصف ساعة ننتقل من مسكن الى آخر ، نأكل مرغمين في كل بيت من تلك البيوت من اللحم الذي يوضع أمامنا ، وندخن مع صاحب الدار • وبدأت العاصفة التي هددتنا منذ برهة تتأهب للانقضاض بعنف وقسوة فأسرعنا الى مسكن رينال واتخذنا مجلسنا ، وقد احاط بنا الهنود

وقلت : ما هو سبب العاصفة ؟

فقال رينال : انها صخرة كبيرة تدور في السماء على ما أعتقد •

فاجبته : يحتمل أن يكون كذلك ، ولكن أريد أن أعرف ما هو رأي الهنود في العاصفة •

ترجم رينال كلامي الى الحضور ، فسبب الموضوع جدالا طويلا بينهم ، واختلافا في الآراء ، لم يؤد الى نتيجة • وكان « الماء الاحمر » جالسا لوحده في احدى الزوايا ، فرفع رأسه وقال : انه يعلم دائما ما هي العاصفة • لقد كانت طيرا أسود كبيرا ، وقد رآه مرة في الحلم ، وهو ينقض من التلال السوداء بجناحيه اللذين يصدر منهما صوت مدو • عندما يصفقان فوق البحيرة ، يتسبب البرق

وقال رجل آخر كان يجلس ملتفا برداء من البافالو ، ان الرعد شرير ، فقد قتل أخي في الصيف الماضي •

فسأله رينال بايعاز مني وتلبية لرغبتي ، ان يحدثنا عن سبب ذلك ، ولكن الرجل بقي مصرا على الصمت ، دون أن يرفع رأسه أو يلتفت نحونا • وعرفت القصة بعد ذلك • وهي أن الرجل المقتول كان ينتمي الى جمعية تدعى ان من ضمن أعمالها الغامضة امتلاكها القوة لمحاربة الرعد • وعندما تهدد العاصفة بالانفجار ، يستعد

محاربو الرعد ،ويأخذون معهم اقواسهم وسهامهم وبنادقهم وطبولهم اسحرية ، وصفارة صنعت من عظم جناح نسر الحرب ، ثم يهرعون الى الخارج ، فيطلقون السهام والنار على الغيوم المتجمعة في السماء وهم يصيحون ويصفرون ويقرعون طبولهم لاخافتها وتبديدها • وفي مساء أحد الايام ظهرت غيوم كثيفة سوداء ، فصعد أفراد تلك الجماعة فوق احدى التلال مستصحبين معهم أدواتهم السحرية ، ثم بدأوا باطلاقها على السحب المتجمعة • غير أن تلك السحب الباسلة لم تخف ورفضت انذارهم ولم تتبدد ، بل أرسلت شهابا لامعا ضرب أحد أفراد الفرقة ، بينما كان يهددها وهو رافع رمحه الحديدي المدبب الرأس • فتفرق الباقون راكضين الى مساكنهم ، وقد استولى عليهم رعب شديد •

كان مسكن مضيفي كونجراتونكا ، أو الغراب الكبير ، يبدو في حلة قشيبة ذلك المساء • وكان عشرون هنديا أو أكثر يجلسون حوله في شكل دائرة ، وقد أخذت اجسادهم السوداء العارية تلمع حول النار المتأججة وسط المكان ، والغليون يتقد في الظلام وهو ينتقل من يد الى اخرى • وأتت امرأة فقذفت قطعة من شحم البافالو فوق الجمر ، فارتفع في الحال لهيب ساطع انتشر نوره في جميع ارجاء المسكن ، فظهرت رؤوس الاعمدة التي تسند الغطاء المصنوع من جلد البافالو • ولمعت قسمات وجوه الهنود المجتمعين حول النار والمنهمكين في رواية الاساطير والقصص عن الحروب والصيد ، كما بدت الثياب الجلدية الخشنة المعلقة حول المسكن والقوس والكنانة والحربة المعلقة قرب المكان الذي يجلس فيه الزعيم ، وظهرت أيضا بندقيتا الضيفين الابيضين وقرنا البارود • ثم خبت الشعلة ، فساد الظلام المسكن ثانية ، وغمرت الظلمة من فيه •

عندما خرجت من المسكن في الصباح ، استقبلتني الكلاب بالعواء والنباح من كل نحو من انحاء القرية ، واندفع نصفهـــا محاولا الهجوم علي • ولما كانت رعديدة بقدر ما كانت شديدة العواء ، فقد أخذت تقفز حولي عن بعد بضع ياردات ، ماعدا كلبـــا صغيرا ، طوله عشر بوصات ، هجم علي وأمسك بانيابه الشرابة التي كانت تمتد خلف خفي على طريقة قبيلة الداكوتا • فكنت كلما خطوت خطوة ، أضطر أن أجره معي ، فينقلب ويقع على الارض ، ولكنه بقي متمسكا بالشرابة وأنا أجره أثناء سيري لا أتلفت يمينا ولا يسارا حتى لا يظن الهنود الذين يراقبونني انني اشعر بالخوف من الكلاب المحيطة بي • ولما وصلت الى مسكن رينال جلست بجانبه ،فتفرقت الكلاب ورجعت الى قواعدها ماعدا كلبا كبيرا أبيض بقي يركض أمامي مكشرا عن أنيابه • وكان سمينا جميلا ، ولكنني خاطبته في نفسي فقلت له : « ياصديقي ، سوف تدفع ثمن هذه الوقاحـة ، وسأجعل منك وليمة هذا الصباح • »

عزمت في ذلك اليوم على اقامة وليمة للهنـــود • وكانت عادة الداكوتا في مثل هذه الولائم ان يكون ضمن الطعام لحم كلب ابيض ، وهو الطبق المفضل لديهم ، واستشرت رينال ، فاخبرني ان الكلب الابيض يخص امرأة تسكن بجوارنا ،فاخذت منديلا مزركشا أبيض اللون ومددته على الارض ، ووضعت فيه بعض السيلقون الاحمـر والخرز وغيرها من أدوات الزينة ، ثم استدعيت المرأة العجوز ، واشرت الى الكلب ثم الى المنديل ، فعلت منها صيحة فرح وسرور وأخذت الثمن وذهبت مهرولة الى مسكنها • واتفقت مع امرأتين أخريين لقاء بعض الاشياء الطفيفة• فحملتا الكلب من قوائمه وذبحتاه ووضعتاه على النار ، وصنعتا منه الطعام المطلوب • وفي هذه الاثناء

أمرت رايموند أن يطهو الطحين الباقي معنا بقليل من شحم البافالو، ثم يغلي ابريقا من الشاي •

وكانت امرأة الغراب الكبير نشيطة في عملها ، فنظمت المسكن استعدادا للوليمة القادمة • وبعد أن تم اتخاذ الترتيبات اللازمة ، كلفت مضيفي بدعوة الضيوف قاصدا بذلك ان ارفع عن كاهلي كل اهمال وخطأ •

وتم الاستعداد للوليمة في الساعة الحادية عشرة حيث قام رينال ورايموند يحملان وعائين مملوءين بلحم الكلب ، وسط نظرات استحسان الهنود ، الذين كانا يمران بهم • ثم وضعاها في وسط المكان ، ورجعا لاحضار الخبز والشاي • وفي تلك الاثناء وضعت في قدمي خفا لامعا واستبدلت المعطف المصنوع من جلد البافالو بمعطف آخر ، أحضرته معي لارتديه في مثل هذه المناسبات• واهتممت بحلاقة ذقني ، وهي عملية لا يهملها كل من يرغب في أن يحوز اعجاب الهنود واحترامهم • وبعد ان انتهيت من اتخاذ زينتي وترتيب هندامي ، جلست في صدر المكان بين رينال ورايموند، ولم تمض بضع دقائق حتى غص المكان بالضيوف الذين دخلوا وجلسوا في شكل دائرة على الارض ، وقد أتى كل منهم بوعاء خشبي ليضع فيه نصيبه من الطعام • وعندما اكتمل الجمع تقدم اثنان من « الجنود » يحملان ملعقتين مصنوعتين من قرون أغنام جبال روكي ، وبدآ يوزعان الطعام على الحضور • فخصصا الشيوخ والزعماء بنصيب مزدوج • واختفى لحم الكلب بسرعة عجيبة • وقد قام كل ضيف بقلب وعائه ليظهر أنه فارغ مما فيه الكفاية ، وبعدئذ وزع الجنديان الخبز وأخيرا قدما الشاي • ولما كان « الجنديان » قد سكبا الشاي بنفس الطاسات الخشبية التي وضع فيها لحم الكلب ، فقد بدا ذا لون غريب وطعم ممجوج •

وقال رينال : لم يعد لدي كفاية من الشاي ، لذلك خلطت قليلا من الهباب في الاناء ومزجته جيدا كي يبدو أسمر داكنا .

وكان من حسن حظنا أن الهنود يتميزون بضعف متناه في حاسة الذوق من ناحية ، وأن المهم عندهم من ناحية أخرى ، أن تكون كمية السكر المذابة في مشروب الشاي كبيرة ، ولا عبرة بعد ذلك للطعم أو لأي اعتبار آخر .

وبعد أن انتهى الطعام ، بدأ وقت السمر . فأحضر الغراب الكبير لوحا من الخشب ليفرم عليه التبغ والشونفساشا ، ويمزجهما بعد ذلك بالنسب المعينة ، ثم ملأ الغلايين ، وبدأت تنتقل بين الحضور من يد الى أخرى . ثم بدأت حديثي الذي جعل رينال يترجم لهم كل جملة منه ، فلقي صدى واستحسانا عميقين من الحاضرين. واني لاذكر بعض ما قلت لهم ، مما سأعيده الان عليكم . قلت :

لقد أتيت من بلاد بعيدة جدا لو أردتم ان تصلوا اليها بالطريقة التي تسيرون بها ، فلن تبلغوها قبل عام .

هاو ! هاو !

والرجال البيض ، أو المياسكا كما يسميهم الهنود ،هناك،كثيرون كثرة العشب الموجود في الصحراء . ونساؤهم أجمل من كل النساء اللواتي رأوهن في حياتهم . أما الرجال فهم اشداء ، ومحاربون شجعان .

هاو ! هاو ! هاو !

وشعرت بشيء من تقريع الضمير ، وأنا الفظ هذه الكلمات الاخيرة ، غير انني استعدت رباطة جأشي ، فتابعت كلامي .

عندما كنت أعيش في منازل البيض ، كنت اسمع كثيرا عن الاوجيللالا ، فهو شعب عظيم شجاع ، يحب البيض ، ويجيد اقتناص البافالو ، كما يجيد ضرب اعدائه .

لهذا قررت أن آتي وأرى صدق ما سمعته وألمسه بنفسي •
هاو ! هاو ! هاو ! هاو !
ولما كنت مضطرا لاجتياز الجبال على ظهر جوادي ، فلم استطع أن احضر لكم الا قليلا من الهدايا • هاو !
ولكنني احضرت لهم كمية كافية من التبغ لاعطي كلا منهم قليلا منه • وما عليهم الا أن يدخنوه ويعرفواكم هو افضل من التبغ الذي يأخذونه من التجار •
هاو ! هاو ! هاو !
وان معي كثيرا من البارود والرصاص والسكاكين والتبغ في حصن لارامي ، واني لارغب ان أقدمها لمن يزورني في الحصن قبل أن أغادر البلاد •
هاو ! هاو ! هاو ! هاو !
وهنا قطع رايموند علي الحديث ، ووزع على الحاضرين ثلاث ليبرات من التبغ • وبدأ (ميني سيلا) العجوز حديثـــه ، وكـــان طويلا ، الا أني لا أزال احفظ منه الفقرات التالية :
انني كنت دائما أحب البيض ، فقد عرف عنهم أنهم أعقل أمة في العالم • واني أعتقد انهم يستطيعون ان يفعلوا كل شيء • وبالنسبة الي فان أحب شيء لنفسي ، هو أن أرى أحدهم يأتي ليعيش بيننا في أحد مساكن الاوجيلالا ، وانه على الرغم من انني لم احضرلهم كثيرا من الهدايا ، وذلك لاسباب واضحة ، فهم مقتنعون بانـــي احببتهم واحببت العيش معهم ، والا لما حضرت من بلادي البعيـدة لزيارة قريتهم •
وتلاه خطباء عديدون تحدثوا أحاديث مماثلة • وأعقـــب ذلك فترة تدخين وضحك ، وأحاديث ، قطعها ميني سيلا العجوز فجأة بصوت عال فقال :

انها فرصة مناسبة ، وقد اجتمع الشيوخ والزعماء في هذا المكان، ان نقرر ما يجب ان يفعله شعبنا العظيم • لقد أتينا من الجبال كي نقيم مساكننا للسنة القادمة ، لأن المساكن القديمة لم تعد تصلح لشيء • فقد فسدت وتمزقت • ولكن خاب أملنا • فرغم اننا اصطدنا كثيرا من ثيران البافالو ، فاننا لم نجد بقرة واحدة بينها • وجلد الثيران قاس سميك ، كما تعلمون ، لا تستطيع نساؤنا صنع المساكن منه • فلا بد أن تكون في جبال ميديسين بو ، ابقار كثيرة • لذلك يجب أن نتوجه الى هناك • ومن المؤكد أن المنطقة تقع في أبعد نقطة الى الغرب • وقد نتعرض لهجوم السنيك علينا • لان تلك الاراضي تخصهم • غير اننا يجب ان نحصل على جلود كافية لنقيم منها مساكننا مهما كان الثمن • لأن مساكننا الحالية لن تخدمنا أكثر من عام واحد • ويجب علينا ان لانخاف من السنيك ، فان محاربينا شجعان ، عدا عن أنهم مستعدون للحرب • وفضلاعن ذلك، فمعنا ثلاثة من البيض يحمل كل منهم بندقية تؤمن لنا مساعدة كبيرة •

واحدث هذا الخطاب جدالا عنيفا ولغطا شديدا • ولما كان رينال لم يترجم لي حديثهم ، فاني لم أستطع ان افهم الا القليل ، وذلك ما استنتجته من ملامحهم واشاراتهم • وأخيرا ظهر أن الغالبية انضمت الى ميني سيلا ، وكانت من رأيه • وتبع ذلك الجدال فترة سكون قصيرة ، القى الشيخ العجوز نشيدا ، قيل لي فيما بعد ، انه اغنية شكر للوليمة التي اقمتها لهم •

وحين انتهى من اغنيته ، التفت الى الحضور وقال : « والآن فلنذهب ونترك للرجل الابيض فرصة للتنفس •

وخرج الجميع الى الهواء الطلق ، ثم تفرقوا وذهب كل منهم

الى مسكنه ، وبقي الزعيم الشيخ يدور حول القرية وينشد اغنية الشكر للوليمة التي اقمتها ، على عادة شعب الاوجيللالا •

وانتهى ذلك النهار ، وعند الغروب أتت قطعان الخيـــل من السهول المجاورة لترابط بجانب مساكن اصحابها • وبدا توهـج النيران من هنا وهناك وهي تلمع في وسط الظلام ، فتلقى ظلالا شاحبة على الوجوه المظلمة التي كانت حولها • وذهبت لاقضـي بعض الوقت بجانب مسكن رينال ، فوجدت « ريش النسر »يجلس هناك • وريش النسر هذا هو أحد ابناء ميني سيلا وشقيق مضيفي الغراب الكبير • وحين استقر بنا المقام سألته عما اذا كانت القبيلة ستتابع سيرها عند الصباح • فهز رأسه وقال : لا يستطيع أحد التنبؤ بذلك • فمنذ موت تاهتوتاتونكا الأب ،أصبح الشعب كالاطفال ، لا يعرفون ماذا يريدون • فهم كالجسم بلا رأس • وقضيت ليلتي مع الهنود ، دون أن يعلم أحد منا ، ما اذا كنا ستتابع سيرنا عنـد الصباح متوجهين نحو بلاد السنيك أم لا •

وعند الفجر رأيت وأنا عائد من الاستحمام في النهر ، حركةغير عادية في القرية • فقد هدمت بعض المساكن ، ولم يبق منها سوى هياكل من الاعمدة • وأخذت النساء تجر اغطية المساكن التـي كانت ترفرف في الهواء • ويبدو أن بعض الزعماء المرموقين قرروا الرحيل ، وامروا نساءهم أن يبدأن العمل • ورأى رجال القرية ذلك ، فامروا نساءهم بدورهم أن يهدمن مساكنهم أيضا •وسرعان ماأخذت تهبط واحدا في اثر الاخر بدون توقف ولا تريث • ولم يبق من القرية الا دائرة من الخيول والهنود ، الذين تجمعوا ، وقد سادت بينهم الفوضى وكثر الهرج والمرج • وكانت بقايا المساكن من الاوعية والمطارق الحجرية ، والمغارف الكبيرة المصنوعـة من

قرون الثيران واثواب البافالو ، والحقائب المصنوعة من الجلد المدبوغ ، والممتلئة باللحم المقدد مبعثرة وملقاة على الارض وقد انهمكت النساء بالاستعداد بينما كانت عجائزهن يتصايحن ويصرخن بدون انقطاع ولا تصبر . أما الخيول فكانت تقف صابرة وهي تضرب باكفالها أعمدة المساكن وقد كدست الامتعة فوق ظهورها ، في حين ان الكلاب استلقت بكسل وفتور ، وتدلت السنتها ،وأخذت ترقب ساعة الرحيل . ولم يكن يجلس صامتا سوى المحاربين الذين قبع كل بجانب ناره الخامدة ، وهو ممسك بعنان جواده بانتظار ساعة الرحيل .

وحين تمت الاستعدادات سارت القبيلة بسرعة . فكنت أراهم يجتازون النهر ويمرون متتابعين في طرف التل . وحين اختتمت جموعهم ، امتطيت فرسي وسرت اتبعهم وخلفي رايموند . ولما بلغنا القمة رأينا سكان القرية يجتازون سهلا قاحلا ، ورؤوس حرابهم تلمع تحت اشعة الشمس ، بينما تقود الخيول المثقلةبالاحمال بعض العجائز ، وقد علقن أولادهن وراء ظهورهم . وكنا نلاحظ لما تحين منا التفاتة نحو احدى الفتيات الهنديات ، أن وجهها يحمر والسرور والغبطة يغمرانها ، لأن الناظر هو الرجل الابيض المقدس الشجاع . وكان المحاربون من الفتيان يسيرون بجيادهم بين الجموع ، وهم يدفعونها في سباق حار للتأكد من سرعتها ، كما كان هناك بعض الشيوخ الذين يسيرون على الاقدام بثيابهم البيضاءالمصنوعة من جلد البافالو . انهم أسياد القرية ، وشيوخها وخيرة محاربيها الذين ينظر اليهم الجميع نظرة احترام وتقدير ، نظرا لكبر سنهم وخبرتهم .

كانوا في هذه الصحاري القاحلة والتلال المتفرقة الواقعة خلفها ،

يمثلون صورة اخاذة تفوق الوصف ، وقد الفتها بعد تلك الايام والاسابيع الطويلة ، حتى لم يعد في الامكان ان يضعف تأثيرها في مخيلتي او يتلاشى خيالها من ذاكرتي •

وفي اثناء تقدمنا السريع ازداد رتل الهنود تفرقا واضطرابا حتى اقتربنا من سفح احدى التلال ، فرأيت شيوخ القرية وقد جلسوا جميعا في صف واحد على الارض يدخنون ويتسامرون ، بينما وقف باقي الرتل خلفهم • وبعد وقت قصير رفعوا أرديتهم المصنوعة من جلد البافالو فوق اكتافهم وتابعوا السير عائدين سيرتهم الاولى • وحين بلغنا قمة التل وجدنا أمامنا منحدرا عموديا ، فانحدر الجميع فيه بين الغبار والفوضى • وبعد لحظات رأيت وأنا لا أزال على قمة التل ، ان القرية بأسرها انتشرت فوق السهل •

وفجأة بينما كنت جالسا في المخيم بعد ظهر ذلك اليوم ، عاودني مرضي القديم مرة أخرى وفقدت بعد نصف ساعة قواي التي استعدتها منذ اسبوع • فاصبحت وكأني في عالم الاحلام • وعند غروب الشمس استلقيت في مسكن الغراب الكبير واستغرقت في نوم عميق لا اعي حولي شيئا حتى الصباح حيث كان أول ما ايقظني تصفيق حاد فوق رأسي تبعه ضوء شديد صوب الى عيني • وحين نهضت وجدت النساء يعملن في هدم المخيم • وكنت أشعر بصحة تامة • ولكنني لم أكد أقف حتى شعرت بضعف شديد لم استطع معه استمرار الوقوف على قدمي • واحضر رايموند لي فرسي بولين والبغل ، فحاولت ان اعتلي ظهرها ، ولكن لم تسعفني قواي الخائرة للقيام بذلك ، فطلبت منه أن يساعدني ففعل • ولم استطع امتطاءها الا بجهد شديد وسرنا ببطء نضرب في انحاء السهل الكبير المحاط بجروف متكسرة شامخة طويلة ، وأنا اتقدم الهنود وقد

سرحت افكاري بعيدا عن الزمن والمكان • وفجأة اظلمت السماء وأخذ الرعد يقصف ، وسيطرت الغيوم السوداء فوق التلال • ولم تمض الا برهة حتى اصبحت الظلمة تغشى كل شيء • ونظرت خلفي فرأيت الهنود منهمكين في الاستعداد لملاقاة العاصفة • وكان تأثير هطول الامطار علي شديدا قاسيا منذ بدء مرضي • فلم تكن لي قوة تمكنني من الثبات فوق سرج الجواد الا بكل جهد ومشقة وعناء • وخيل الي لأول وهلة انني لن استطيع النجاة من هذه الصحراء • فخاطبت نفسي قائلا : « ان الصحراء تعمل عملا سريعا حاسما ، واني افضل ان أموت هنا فوق سرج الجواد من أن اختنق في احدى الغرف ذات الهواء الفاسد ، كماأفضلالفمرةأن لا أبقى طيلة حياتي ، كما يفضل الاخرون ، فريسة للمرض • وعندما وصلت في تفكيري الى هذا الحد ، سحبت رداء البافالو فوق رأسي وانتظرت هباب العاصفة • وقد مرت بسرعة شديدة عنيفة ، ثم تركت السماء تسترجع صفاءها المعتاد • ووقفنا حوالي نصف ساعة • وبما انه لم يكن لدينا ما نبدل به ثيابنا المبتلة • فقد استعرت بعض ثياب رينال الغريبة الشكل والمنظر • وعدتالى مسكنالغراب الكبير أبدل ثيابي • وكان في المسكن بعض النسوة • فنهضت احداهن لمساعدتي وتأبطت ذراعي وعندها ثارت عاصفة من الضحك وعلا صياح العجب والدهشة للتناقض الشديد بين لون البشرتين •

وكان مخيمنا لايبعد كثيرا عنالتلال السوداء التي كسيت اطرافها باشجار الشربين • ولما كان الهنود على عجلة من أمرهم ويودون الوصول الى مناطق الصيد البعيدة باقصى سرعة ممكنة ، فقد قرروا أن يتركوا مؤونتهم من اللحم المقدد ، واشياءهم ومؤنهم في هذا المكان • وقد غلا بعضهم فترك مسكنه ولم يحمل معه سوى بعض

الجلود ليستظل بها من الشمس ويتقي المطر • وبعد الظهر سار نصف سكان القرية نحو الجبال يقودون خيولهم المثقلة بالاحمال ، حتى جاء المساء فحطوا رحالهم حيث علقوا اللحم المقدد على اقصى علو استطاعوا الوصول اليه فوق الاشجار ، حتى لا تستطيع الذئاب أو الدببة الرمادية الوصول اليه • وادعى بعض الفتيان انه طرق اسماعهم بعض طلقات البنادق التي يظنون أنها صادرة من بين الجبال ، واختلفت الآراء عن مصدرها ، وتمنيت في قرارة نفسي ان يكون شو وهنري شاتيون قادمين للانضمام الينا • ولم يخطر ببالي ان صاحبي المسكين كان في تلك اللحظة ملقى فوق رداء جلد البافالو في حصن لارامي • وقد حم على أثر تناوله سم العليق ،وكل ما يحاول عمله في سبيل التخفيف عن نفسه هو التدخين وقراءة روايات شكسبير •

وتابعنا السير في صباح اليوم التالي ، وقد سبقنا الى الصحراء بعض الفتيان للاستكشاف ، فكنا نلمحهم احيانا فوق قمم التلال ، يلوحون بارديتهم دلالة على رؤيتهم لثيران البافالو • وبعد برهة شاهدنا بعض تلك الثيران • فاندفع خلفها بعض الخيالة يطاردونها • ورأينا عن بعد اثنين منها صريعين بسهام الهنود • فالهمت رؤيتها رايموند فكرة قيمة حيث قال :

ان العيش يطيب لي في هذه المنطقة ، فاذا تمكنت من نقل ثيران البافالو التي يقتلها الهنود كل شهر من هنا الى سانت لويس ،فسوف اجمع ثروة طائلة في فترة فصل شتاء واحد • وسأصبح غنيا مثل بابن العجوز أو ماكينزي ، أو في غنى كليهما ، وسوف اطلق على هذا العمل (سوق الرجل الفقير) • وحينما أكون جائعا ، فلن يكون أمامي سوى أن احمل بندقيتي واخرج لاحصل على لحم أكثر

مما يستطيع ان يحصل عليه اولئك التجار الجشعون بكل ما لديهم من المال ، ولن تروني أعيش في سانت لويس بعد الآن •

فقال رينال : كان من الاحسن ان تقول ذلك حينما كدت أن تموت جوعا مع زوجتك الاسبانية • لقد ارتكبت حماقة كبرى عندما أخذتها لتعيش هناك •

فقلت : زوجتك الاسبانية ! انني لم اسمع بها قبلا هل تزوجتها ؟

فأجاب رايموند : كلا • ان القساوسة لايتزوجون نساءهم ، فكيف اذا أتزوج امرأتي ؟

وقد جعلتنا هذه الاشارة الى الاكليروس نتطرق الى موضوع الدين • فوجدت ان رفيقي وبقية الرجال البيض في تلك المنطقة لا يبالون بسعادتهم ولا بمستقبلهم كرجال يحملون دماءهم فوق أكفهم ، وهم عرضة للخطر في كل لحظة ، حتى أن رايموند لم يسمع طيلة حياته بالبابا • وكانت تتجسم في الاسقف الذي يعيش في تاوس وسانتافي ، أعلى فكرة وأجلاها عن اعظم شخصية دينية • وذكر رينال أن أحد رجال الدين قد مر في حصن لارامي في طريقه الى بعثة في بيرسي ، فعرف جميع من في الحصن ، ثم منحهم البركة • وكنت لحسن الحظ قد سافرت من الحصن في ذلك الوقت •

وقطع رينال حديثه وقال : انظروا (الفهد) يطارد رئما •

وكان الفهد من أمهر رجال القرية ، وقد أخذ يعدو فوق التل باقصى سرعة على ظهر جواده الابيض المبقع بالسواد وراء رئم كان يقفز أمامه كالبرق • وكانت المحاولة مجرد رياضة ، واظهار فروسية • فقد يندر بين الخيل من يستطيع مجاراة هذا الحيوان الصغير في سرعته • وهبط الرئم التل واتجه نحو جمهور الهنود

الذين كانوا يسيرون في السهل • فتعالت الصيحات واندفع الفرسان يحاولون منعه من الهرب • فانفتل الى اليسار بسرعة تفوق الوصف وابتعد عن جميع مطارديه • وقد سبق جميع جيادهم بما فيها جواد (الفهد) الذي كانوا يفخرون بسرعته وخفة حركته • وبعد لحظات شاهدت سباقا رياضيا بين أحد ثيران البافالو الذي قفز من فجوة مجاورة ، وصبي هندي نحيل القد يركب جوادا صغيرا بدون ركاب ولا سرج • وكان يطارد الثور مطاردة عنيفة ، فكان يقترب منه يارده فياردة ، بينما الثور يبذل قصارى جهده لينجو منه، وقد رفع ذيله الى الاعلى وتدلى لسانه ، وخرج الزبد من بين شدقيه • وبعد برهة كان الصبي ، وهو صديقنا (زخة البرد) يسير بمحاذاته ، وقد لف العنان حول عنق الجواد ، ثم استل سهما من كنانته بسرعة البرق •

وهنا قال رينال : « انني اتنبأ ان يصبح هذا الصبي بعد عام واحد أحسن صياد في القرية • هاهو قد أرسل أول سهم فاصاب الثور • لقد نفذ السهم الثاني في كبد الثور ، ألم تشعر بالسهمين أيها الثور العجوز • ها قد أرسل السهم الثالث • اصغ الى الصبي كيف يصيح وهو يطارد فريسته • اقفز اليه ياصاحبي • اقفز قبل ان يغرز قرنيه في بطن جوادك » •

وكان الثور يقفز المرة تلو الاخرى ، ويثب على مهاجمه ،ولكن الجواد كان يتملص بخفة رائعة • وتابع الثور هجومه بشدة فاضطر (زخة البرد) الى الهرب وأخذ الثور في مطاردته الآن • وكان الصبي ثابتا فوق الجواد ومطمئنا الى سرعته ، فنظر الينا ضاحكا • واصبح في هذه اللحظة يسير بجانب الثور الذي استولى عليه اليأس • فجحظت عيناه وسط لبدته ، وجرى الدم من فمه وانفه • ثم اختفى العدوان في طريقهما نحو قمة التل •

واسرع عدد كبير من الهنود نحو المكان • وتبعناهم ببطء ، فرأينا الثور ممددا • وقد لفظ انفاسه فوق سفح التل ، فتجمع الهنود حوله وبدأت عدة سكاكين تعمل في جثته • فقطع اللحم وفصل عن العظام • وتم ذلك بفعل ساحر مبين • وبعد دقائق كان الهيكل العظمي مجردا عن كل شيء وملقى في بركة من الدماء •وكان منظر الهنود في تلك اللحظة لا يسر العين التي ألفت العيش في المدينة• لأن بعضهم يأكل اللحم النيء ، والآخر يقضم العظم باسنانه • وقد امتلأت وجوههم بالدم ، واصطبغت من الاذن الى الاذن • وقدم الى بعضهم قطعة من العظام كما قدم آخر قطعة من اللحم ، ولكنني رفضت أخذها محتجا بمرضي القريب العهد •

قضينا تلك الليلة ، واتجهنا في صباح اليوم التالي نحو الغرب • ثم تابعنا رحلتنا • واظن ان ذلك اليوم كان السابع من تموز، الا اذا كانت مفكرتي مخطئة في تعيين التاريخ الصحيح • وبعد الظهر وصلنا في ذلك اليوم الى ضفاف نهر صغير لم يعرف الهنود اسمه ، لانهم كانوا يجهلون هذا الجزء من البلاد • وكان الجفاف يسود تلك الصحراء ، فلم يجدوا فيها ما يكفي لرعي خيولهم ، فاضطررنا ان نتابع السير بعيدا على طول ضفاف النهر بحثا عن أرض تصلح لاقامة المخيم عليها • ولكن المنطقة بدت هنا اقسى من ذي قبل • فالسهول تقطعها الوديان والفجوات والمنحدرات العمودية التي شطرت طريقنا الى خطين طويلين منفصلين • وسار الهنود في محاذاة النهر ، بينما كان ميتي سيلا يستشير الوحي ويطلب منه ان يرشده الى المكان الذي يجد فيه ثيران البافالو • وأخيرا جلس مع غيره من الزعماء وأخذوا يدخنون ويتحدثون ويروون قصص البطولة والصيد ، كعادتهم طوال الرحلة • وأمسك الشيخ بأحد الصراصير الكبيرة

السوداء الملونة بالاخضر ، وهي حشرة يطلق عليها الداكوتامامعناه : (تلك التي ترشد الى مكان البافالو) وكان يسكن خلف تلك الجبال، احدى القبائل الحقيرة التي لقبها (قالمو الجذور) وهي التي جعلت لهذه الحشرات قيمة كبيرة ، لأنها بدأت تطهو منها حساء ، وتقدمه في المناسبات للضيوف •

امسك الشيخ الهندي الحشرة المتنفخة بين اصابعه بكل احترام، ونظر اليها بانتباه ولهفة ثم سألها قائلا ، اخبرني ياأبي العظيم ، الى أين يجب أن نذهب لنجد البافالو ؟ فلوى الصرصور قرنيه الطويلتين بضيق واضح • وأخيرا سددهما نحو الغرب • وكأنه يشير اليهما باتباع ذلك الاتجاه • فانزله مني سيلا بلطف، ورقةفوق العشب وهو يقهقه ضاحكا ثم قال : اذا سرنا صباحا في ذلك الاتجاه سوف نصطاد صيدا وفيرا •

وعند المساء وصلنا مرعى اخضر نضيرا يشطره نهر صغير ، وتحيط به الاجراف عالية قاحلة • فهبط الهنود ضفتيه العموديتين• ولما كنت في مؤخرة الركب ، فقد كنت آخر من وصل الى هذه النقطة وكانت الحراب تلمع والريش يرفرف ، والماء يغمر الرجال والخيول ، وقد أخذ الجميع يتزاحمون لاجتيازه في حين كانت الشمس التي أوشكت على المغيب ، ترسل باشعتها الفضية فيصل اليهم نورها الخفيف ، وينصب عليهم من خلال الثغرات في التلال •

وقلت لرينال : لقد عثرنا أخيرا على مكان صالح للمخيم •

فأجاب بسخرية : انه مكان جيد جدا ، وعلى الخصوص اذا كان بجواره فرقة من محاربي السنيك الذين تخطر لهم ان يقتنصونا من أعلى رؤوس تلك التلال ، ولو سألتني رأيي ، لما وافقت على أن نخيم في مثل هذه الفجوة •

وكان القلق نفسه يبدو على الهنود أيضا • فقد كان أحد المحاربين فوق قمة أعلى جرف منتصبا يرقب من على صهوة جواده ، المناطق المجاورة ، والشمس ترسل باشعتها الى مستقرها • وقـد اخبرني رايموند ان عددا من الشبان تفرقوا في جهات متعددة بقصد اكتشاف تلك المنطقة •

وبلغت الاشباح قمة الاجراف قبل ان ننتهي من تشييد المساكن ، وتأخذ القرية في الاستقرار والهدوء ويسودها النظام • وارتفـع صراخ مفاجيء ، فخرج الرجال والنساء والاطفـال يتراكضون بوجوه مشرقة • وقد تسلط نظرهم الى الثغرة التي يجري منهـا النهر من الجهة الغربية • واستطعت ان اميز كتلا سوداء متراصة تمر الى جانب تل منخفض • واختفت ثم ظهرت كتل اخرى • لقد كانت قطعانا من ثيران البافالو • واذن فقد بلغنا أخيرا منطقة الصيد• ولما كنت منهكا مريضا ،فقد كنت متمددا في مسكن الغراب الكبير ، عندما أطل رايموند برأسه وطلب مني ان اخرج لاشاهـد بعض الالعاب الرياضية • وكان بعض الهنود قد تجمعوا وهم يتضاحكون ويمرحون أمام البيوت الكائنة في الجهة الغربية من القرية • وقد استطعت ان أرى في الشفق بوضوح وحشين كبيرين اسودين قادمين نحونا ببطء وخيلاء • وكانا ثورين من البافالو ، وقد هبت الريح تحمل رائحتهما الى القرية • أما البافالو فيتصف بالبلاهة والغباء ، كما اشتهر عنه أنه يسير نحو العدو دون أن يشعر بوجوده • قال لي رايموند : ان شابين من الهنود كمنا ومعهما بندقيتاهما في واد يبعد عنا نحو عشرين ياردة • وسار الثوران بتثاقل ، وهما يتأرجحان من جنب الى آخر ويدبان دبيب الغباوة والحمق حتى اصبحا على مسافة عشرين مترا من الوادي الذي يكمن فيه الهنديان الشابان •

وهنا شعرا أن هناك شيئا غريبا ، فقد وقفا في مكانهما ساكنين دون أن يلتفتا يمينا أو يسارا • وأخيرا قرر أحدهما أن وقت التراجع قد حان • فبدأ يدور ببطء شديد وبعظمة وجد ، كما لو كان يقف على نولب • وفجأة انتشر دخان أبيض ، وسمع معه صوت حاد ، فقفز الثور العجوز قفزة غير لائقة بعظمته ثم جعل يركض • وتبعه رفيقه ، فاطلق الهندي الآخر بندقيته عليه ، واندفع الثوران باقصى سرعتهما ، بنما ركض نصف فتيان القرية وراءهما يصرخون ويصيحون • وسرعان ما وقف الثور الاول ، فوقفت الجموع تنظر اليه عن بعد ، حيث أخذ يترنح الى جانبه • أما الاخر ، وكان جرحه في مكان أقل خطرا ، فقد ركض مبتعدا نحو التلال ونجا بنفسه •

وعم الظلام بعد نصف ساعة • فاستلقيت كي أنام • وبقـــدر ما كنت مريضا ، بقدر ما كنت اتوقع ان تكون مناظر الصيد التـــي سأشاهدها في اليوم التالي خير منعش واكبر منشط ينفض عني غبار المرض •

الفصل الخامس عشر

مخيم الصيـــد

هدم الهنود مخيمهم قبل بزوغ الفجر • وكانت نساء ميني سيلا كعادتهن أول من اتممن استعدادهن للسفر • ورأيت الشيخ نفسه جالسا بجانب ناره التي بدأت تخبو ، يحاول ان يبعث الـدفء في اصابعه الذاوية من برد الصباح ورطوبته • وساد المخيم هـــرج وصخب ، وفوضى واضطراب ككل مرة يحاول سكانه أن يتأهبوا للرحيل • وتبدأ بعض العائلات بالمسير ، بينما لاتزال عائلاتاخرى في صخبها وضجيجها ملتهية عن اتمام عملها فمساكنها لاتزال قائمة لم تمسها يد الهدم • وحين نفذ صبر ميني سيلا ، خرج الى وسط القرية وهو متدثر بثوبمنجلد البافالو،وأخذ يستحث القبيلةبصوت عال ، وخاطب رجالها قائلا : ان الوقت لايناسب تصرفاتكم التي تشبه تصرفات الاطفال ، وانتم في أرض اعدائكم ، فعليـــكم أن تكونوا أكثر نشاطا واتحادا ، وامضى همة والا اضعنا كل شيء • وكان لكلامه اثره الفعال ، فلم تمض الا لحظات حتى هدمالمتأخرون مساكنهم وحملوها على خيولهم ، ولم تكد تبزغ في الافـــق أول خيوط للنور ايذانا بقرب شروق الشمس حتى كان آخر الرجال والنساء والاطفال قد تركوا المخيم المهجور •

لقد انتقل الهنود من هذا المكان كي يجدوا مكانا أفضل وأكثـر أمنا • وتقدمنا ثلاثة أو أربعة أميال بمحاذاة الجدول الصغير • ثم اتخذت كل عائلة لنفسها مكانا خاصا في الحلقة الكبرى • وعندها

هبت النساء يعملن بهمة ونشاط في اقامة المخيم ثانية • واثناء هذه الفترة لم يترجل أي محارب عن ظهر جواده • وكانت الخيول التي يمتطونها في ذلك الصباح اضعف من خيولهم • أما جيادهم الاصيلة فقد تركوها لعناية الاولاد الذين أمسكوا باعناقها ، وأخذوا يقودونها وراءهم ، بينما كان القوم جميعا يسيرون منقسمين الى فرق صغيرة تشق طريقها عبر السهول في اتجاه الغرب ، وخارت قواي فلم أعد استطيع الصبر على الجوع ، ولم أكن أحمل طعاما ، لهذا يممت شطر مسكن مضيفي الذي اقامته النساء سريعا بدون ابطاء • وجلست في وسط المكان ، واشرت بانني جائع • فوضعن أمامي في الحـــال اناء مليئا باللحم المقدد الذي تدعوه الداكوتا (واسنا) • وبعد أن تناولت بعض قطع منه خرجت من المسكن لأرى آخر فرقة من الصيادين وهي تختفي فوق أحد الاجراف المجاورة • فامتطيـت بولين واسرعت خلفهم وشاهدت من أعلى التل فرقا صغـيرة مـــن الخيالة العراة تعدو في الصحراء الشاسعة القاحلة • فلحقت باقرب فرقة منهم ، وبعد قليل تجمعت الفرق المتناثرة • ثم سارت في كتلة متراصة واحدة ، وكل أفرادها يشتعلون حماسا ويلهبـون ظهور جيادهم على أمل أن يحصل كل منهم على طريدة قبل غيره ، غير ملتفت الى اليمين أو اليسار • ورافقناهم ونحن نصعد تلا ونهبط آخر ونجتاز في طريقنا صفوفا من شجيرات القصعين البرية ، وكلنا صامتون لم ينبس أحدنا ببنت شفة ، ولكن شيخا هنديا ، قرع رايموند تقريعـا شديدا لانه ترك بندقيته وراءه في وقت يحتمل فيه أن يهاجمنـا العدو قبل انقضاء النهار • وبينما كنا نسير باقصى سرعة في السهل المتلىء بشجيرات الشربين ، اختفت عن الانظار طـلائع الخيالة ، كما لو كانت الارض قد انشقت وابتلعتها • ولكن ظهر لنا ان الارض

القاحلة قد تكشف عن واد عميق • فهبطنا خلف بعضنا حتى وجدنا منفذا بدأنا بالخروج من طرفه المقابل ، الواحد بعد الآخر • وبعد برهة وصلنا الى جدول عريض رقراق • ولم نكد نهم باجتيازه حتى أخذ خيالة الهنود يرمون بانفسهم الى الماء ، فيعب كل منهم حاجته منه ثم يعود الى ظهر جواده • ويتابع سيره السابق •

وفي تلك الاثناء وصل الكشافون الى اطراف التلال حيث أخذوا يلوحون بأرديتهم ، اشارة الى انهم يرون البافالو • والواقع أن مارأوه لم يكن سوى ثيران مقاتلة طاعنة في السن ترعى في السهول المجاورة • ورأينا أخيرا عددا منهم يشيرون الينا ، وقد وقفوا في منخفض من الارض ، ولم يلوحوا هذه المرة بارديتهم حتى لا يشاهدهم من في السهول • لقد اكتشفوا أخيرا الطرائد التي تستحق الصيد • واستحث الهنود خيولهم المنهكة • كما أخذت بولين المريضة ، تصهل بشدة وقد اسود جانباها لكثرة ما سال عليهما من العرق • وقد سمعت رينال ورايموند يصيحان بي من جانب التل القريب منا ، ثم اذا بهما يسرعان خلف جماعة من صعاليك الهنود من أقارب زوجة رينال ، الذين رفضوا ان يشتركوا في الصيد العام مع باقي افرادالقبيلةحينمارأواقطيعا صغيرا منالبافالو يسير بجانب فجوة بعيدة ، فاندفعوا يحاولون الحصول عليه ، وقد استجبت للنداء • فأمرت رايموند أن يعود فيلحق بي ، وأطاع على مضض ، على الرغم من احتجاج رينال الشديد ، سيما وانه يعتمد على مساعدته في سلخ وتقطيع ، وحمل القنائص من ثيران البافالو مع رفاقه الآخرين، وتبعت الفريقالاكبر منالصيادين وخلفي رايموند، بينما اندفع رينال بجواده غاضبا ، نحو التل ليلتحق بأقاربهالصعاليك• وكان نحو مائة من الهنود يعدون في مجموعة متراصة الى الامام ،

تاركين خلفهم سحابة من الغبار تتناثر ذراتهـــا في مهب الريــــح • وحاولت اللحاق بهم ، فلم أتمكن من ذلك الا بعد أن وقفوا بجانب التل حيث يقف الكشافون • وقفز كل صياد عن ظهر جواده المتعب، واعتلى ظهر جواد آخر لم يصبه التعب ولم ينهكه طـول الجـري والطراد • ولم تكن الخيول الجديدة مجهزة بسرج أو أعنة ، بل كان فوق ظهر كل منها قطعة من جلد البافالو تقوم مقام السرج ، وحبل من الشعر المفتول حل محل العنان • وقد زين عرف ذيل الجواد بريش النسر كدليل على الشجاعة والسرعة • أما راكبه فلم يرتد غير حزام في خصره وحذاء في قدمه • وربط برسغـه سوطا ثقيلا صنعت قبضته من قرن الوعل المتين وشفرته من جلد الثور ، وحمل قوسا وعلق في كتفه كنانة من جلد كلب البحر أو من جلد النمر • وعدا ثلاثون صيادا بوضعهم هذا بعيدا نحو اليسار مشكلين دائرة ، أو كماشة يستطيعون منها أن يهاجموا من جهتين في آن واحد • وقد انتظر الباقون بفارغ الصبر أن يمر الوقت الكافي لكي يصل رفاقهم الى المكان المقصود ، وعندها ابتدأنا السير مكتلة واحدة حتى بلغنا حافة التل • ولاول مرة وجدنا أنفسنا نطل على السهل المنخفض ، وأمامنا ثيران البافالو التي تضرب في أنحائه طولا وعرضا •

تجمعت نحو أربعمائة أو خمسمائة بقرة على ضفة نهر عريض يجري في الوادي فوق فراش من الرمل • وكان في هذا الوادي ، حوض واسع مستدير ، يتعرض كما يتعرض الوادي لاشعة الشمس المحرقة ، ولا ينبت فيه الا القليل من العشب • وتحيط به تلال قاحلة مرتفعة • وقد أحس ثيران البافالو باقترابها لانها كانت تسير في اتجاه الريح ، فأخذت الثيران تتحرك ببطء شديد • وعندما هبطنا التــل

أثار انتباهي عـدد من ثيران البافالو المنتشرة فوق السهل ، والتي حاولت الهروب عند اقترابنا منها . فأخذت تخوض في الماء تارة ، وتغوص في تجمعـات الرمال على ضفـة النهر تارة أخـرى . ثم لا تلبث أن تعدو مبتعدة نحو التلال . وكان أحد هذه الثيران يكافح خلف الجميع جادا للحاق بالقطيع على قوائمه الثلاث ، بعد أن كسرت قائمته الامامية في حادث وقع له . وكان منظره وهو يسير متثاقلا على ثلاث قوائم يثير الضحك الى حد لم أقو معه ، إلا أن أقف وأتأمل المنظر . ولما اقتربت منه ، حاول أن ينقض علي ، فيقع عند كل محاولة يقوم بها . ورفعت رأسي فرأيت معظم الهنود يقفون على بعد مئة ياردة مني ، فجلدت بولين حتى لحقت بهم في الوقت المناسب . وفي تلك اللحظة ساط الصيادون خيولهم ، فقفزت بهم الى الامام ، وتفرقوا وهجموا لاقتحام القطيع مرة واحدة فهجمنا ولم تمض الا دقيقة واحدة ، حتى كنا ننتشر بينهـا ، في غمرة الضجيج والصياح وسحب الغبار المتصاعدة ، فكنا في دوامة هائلة لا ترى فيها الا أجساما سوداء تحاول الفرار ، والخيالة تنطلق خلفها كالسهام ، وبينما كنا نهاجم القطيع من أحد جوانبه ، كان رفاقنا يهاجمونه من الجـانب الآخر . وكانت الفوضى تسود صفوفـه والاضطراب يسيطر على حركاته . ثم انقشع الغبـار عن فلول البافالو المبعثرة ، التي تحاول النجاة والفرار بجلودها ، وهي تركض مندفعة فوق السهل بصفوف طويلة ، أو بكتل متراصة أو بشكل فردي، بينما كان الهنود يعدون خلفها بسرعة جنونية وهم يطاردونها ويصرخون ويزرعون في أجسامها السهام الواحـد تلو الآخر . وتكدست الجثث فوق الارض ، وتساقطت ثيران البافالو هنا وهناك مضرجة بدمائها ، وقد اخترقت السهام قلوبها ، وراقبتها وهي تمر

من جانبنا ، فرأيت أعينها تلمع ، وشعرها يتجعد كأنها قطط كبيرة تحاول متخاذلة أن تهاجمني أو تنطح جوادي •

تركت المعسكر في ذلك الصباح ، وأنا مقتنع بأنني لا أصلح لا أنا ولا جوادي للصيد • وعزمت أن أبقى متفرجا هادئا ليس بينه وبين الحوادث أية صلة • ولكنني وجدت أنني لن أستطيع الهدوء في هذا الغبار والضجيج ، وبين ازدحام الخيل وثيران البافالو • وهكذا فلم أحافظ على قراري طويلا • فما ان رأيت أربعا من أبقار البافالو تعدو أمامي ، حتى لكزت بولين فراحت تخوض في الطين والماء • ثم صعدت الضفة وانطلقت خلفها بين شجيرات الشربين البرية التي كانت تغطي الارض المرتفعة البعيدة • ولم يطل بها الوقت حتى فقدت قواها فلم يعد ينفع فيها اللكز والوخز حتى ولا ضربات سوط الجلد الذي كنت أحمله ، وعجزت عن اللحاق بالابقار الهاربة التي وصلت أخيرا الى واد عريض • فاضطرت أن تستدير الى اليسار كي تستطيع الهبوط فيه • وحاولت الاقتراب منها حتى صرت على بعد اثنتي عشرة ياردة عن المتخلفة الاخيرة • فاستدارت نحوي ، وهي تتلظى غضبا وحاولت الهجوم علي • فلم أمهلها بل أطلقت عليها الرصاص في عنقها ، فتدحرجت في الوادي ، ثم نهضت وانضمت الى القطيع • وبعد لحظة لم أعد أرى سوى ظهورها السوداء تظهر وتختفي وهي تعدو هاربة الى قاع الوادي • وما لبثت أن أخذت تخرج الواحدة تلو الاخرى من الطرف الثاني والبقرة الجريحة في اثرها •

لاحت مني نظرة الى الخلف ، فرأيت رايموند على بغله الاسود يتقدم مسرعا الى لقائي ، وفي عودتنا أخذنا نحصي الجثث الملقاة فوق السهل ، وفي قعر الوديان ، وفوق حوض النهر • وكان

الصيادون لا يزالون يطاردون الثيران وقد ارتفع سحب من الغبار خلفهم ، كما رأينا صفوفا طويلة من الثيران الوجلة الخائفة تصعد مسرعة أطراف التلال • ثم بدأ الصيادون بالعودة • كما عاد الاولاد الذين كانوا في حراسة الجياد • وبدأت بعد ذلك عملية السلخ والقطع بنشاط وجد ، فوق مساحات شاسعة من الصحراء• وشاهدت مضيفي الغراب الكبير على الضفة الاخرى من النهر ، وهو يقف الى جانب البقرة التي اصطادها • فأسرعت اليه فوجدته يسحب سهما من جسم الضحية • وطلبت اليه أن يسمح لي بالاحتفاظ به ، كدليل على قوة الهنود ومهارتهم في الصيد واطلاق السهام •

تكدست الجلود واللحوم فوق ظهور الخيل ، وبدأ الصيادون يغادرون تلك المنطقة • فخرجت مع رايموند الى القرية بعد أن تعبنا من متابعة مشاهد الصيد ، وسرنا الى الامام نجتاز الصحراء ، ولم يكن أمامنا طريق معبد ، أو علامات نسترشد بها • غير أن رايموند كان يستعين بغريزته الفطرية في معرفة الطريق التي علينا أن نسلكها • وكانت الارام تقفز أمامنا ومن حوالينا بين حين وآخر ورأيناها قطعانا تعدو بخفة فوق المنحدرات الصخرية ، ثم لا تلبث أن تقف لتنظر الينا من أعلى القمة ، وتنطلق بعدئذ في طريقها • واستطعنا بعد مدة طويلة أن نرى الصخور البيضاء العالية وأشجار الصنوبر القديمة ، التي تقع فوق المخيم •

دخلت مسكن مضيفي ، فأسرعت امرأته وأحضرت الطعام والماء ، ثم فرشت لجلوسي رداء من جلد البافالو • ولما كنت أشعر بانهاك شديد ، فقد استلقيت حالا واستغرقت في سبات عميق دام ساعة ، استيقظت بعدها حين دخل الغراب الكبير والدماء تقطر من ثيابه وذراعيه • فجلس في مكانه المعتاد ، وأسرعت زوجته فقدمت اليه

وعاء فيه ماء ليغتسل ، ثم وضعت أمامه وعاء من اللحم المسلوق • وما كاد ينتهي من طعامه حتى ذهب الى فراشه وارتمى فوقه تعبا منهكا •

كان الصيادون يصلون كل اثنين أو ثلاثة معا ، فيسلم كل منهم جواده الى احدى نسائه ، ثم يدخل مسكنه ، وهيئته تشير الى أنه قام بعمله اليومي • وتأخذ النساء في انزال الاحمال من فوق ظهور الجياد • وتكدست اللحوم والجلود أمام أبواب المساكن • وفي الوقت الذي أخذ يتقدم فيه الظلام نحو المخيم تقدما حثيثا ، أخذت النيران ترسل بأشعتها الخافتة لتضيء القرية • وتجمع النساء والاطفال حول أكداس اللحم لينتخبوا ألذها طعما وأطيبها مأكلا ، يشووها فوق النيران المتأججة ، ثم يلتهموها بشراهة ، وهم يتلمظون متلذذين بما يأكلون •

جلس بعض الصيادين بجانب النار في مسكن الغراب الكبير يتحدثون عما جرى في ذلك اليوم • ودخل ميني سيلا ، الذي كان قد اشترك في عمليات الصيد ، رغم أنه جاوز الثمانين من العمر • وأعلن بفخر وخيلاء ، أنه اصطاد بقرتين عند الصباح ، وكاد يصطاد الثالثة لو لم يقف الغبار الكثيف حائلا بينه وبين الطرائد ، عدا عن انه عجز عن مشاهدة الطرائد التي أمامه لدرجة جعلته يرمي القوس والسهام ويفرك عينيه لكثرة الغبار الذي تسرب اليهما بكلتا يديه ليخفف ألمهما نوعا • وسطعت أشعة النار على وجهه المجعد وهو جالس يروي قصته باشارات وحركات يصعب على الممثل البارع تقليدها ، حتى انفجر جميع الحضور بالضحك •

كان ميني سيلا من الهنود القلائل في القرية الذين كنت أستطيع الثقة به والركون اليه ، دون أن تكون له مصلحة خاصة أو غرض

عندي . لقـــد كان صديقا حميما للبيض يحب معاشرتهم ويزهو بالمساعدات التي حصل عليها منهم . فقد قال لي ، بعد ظهر أحد الايام ، بينما كنا نجلس معا في مسكن ابنه ، انه يعتبر الســـمور والرجال البيض ، أعقل من على وجه الارض . وكان بالطبع يعتقد أنهما متساويان في المقام والعقل والادراك . وقد بنى اعتقاده هـذا على حادث جرى معه منذ زمن طويل وفي اجتماع ضم الكثيرين من زعماء الهنود ومحاربيهم ، أخذ يروي ذلك الحادث . ودار الغليون على الحضور ووصل بدوره اليه . فانتهز رينال تلك الفرصـــة ليترجم لي ما قاله ميني سيلا . غير أن الشيخ كان يرفق كلماتـه باشارات جعلت الترجمة غير ضرورية . وهو كما أسلفنا بارع جدا في ذلك ، حتى أن أمهر الممثلين لا يستطيع مجاراته . قال ، انه لم يكن قد رأى رجلا أبيض حينما خرج مع أربعة من رفاقه لصيـد السمور . وكان لا يزال طفـــلا صغيرا ، فزحف الى داخل وكر كبير ، ليرى ما فيه . وكان يزحف تارة على يديه وركبتيه وتارة يضطر الى الانبطاح على وجهه والزحف الى الامام لضيق الطريق . وكان المكان مظلما باردا ضيقا ، حتى انـه كاد يختنق . وأحس بالاغماء ، وما لبث أن سقط مغشيا عليه . وعندما أفـاق سمع في الخارج أصوات رفاقـه الذين اعتبروه مفقودا . فبدأوا ينشدون أغنية الموت . ولم يستطع رؤية شيء في أولّ الامر ، غير أنه سرعان ما رأى شيئا أبيض أمامه ، واستطاع أخيرا أن يميز بوضوح ثلاثة أشخاص من البيض ، رجلا وامرأتين . يجلسون على حافة بركة ماء سوداء ، فأصابه خوف شديد . وانسحب راجعا . ولما نجح ، بعد جهد شديد في الخروج الى الفلاة ، حيث النهار يبتسم ضاحكا وهو يرمي بأنواره الفضية في كل مكان ، حيث بركة الماء التي خيل

اليه أنـه رأى بجانبها الاشخاص الثلاثة • وهنـــا حفر الارض بهراوته • ولما أنهكه التعب جلس ، وغفل عما أمامه ، وبعد لحظة برز من الحفرة أنف سمور ذكر كبير فأمسك ميني سيلا بـــه ، وسحبه من الحفرة • ولم تلبث أن برزت اثنتان من أنثى السمور وأخرجتا رأسيهما ، فأمسكهما أيضا • ثم ختم كلامه قائلا : «وكانت أفراد الســـمور هذه هي الاشـخاص الثلاثة البيض الـذين رأيتهم يجلسون الى طرف الماء » •

كان ميني سيلا أكبر مستودع للخرافات والعادات القديمة في القرية • وعلى كل فقد نجحت في الحصول على بعض منها • كان كجميع الهنود شديد الاعتقاد بهذه الخرافات ، ويجد دائما عذرا في الامتناع عن سرد قصصه وخرافاته • فكان يقول : ان روايـة القصص في الصيف تجلب الشرك وتنزل بنا المصائب • فابق معناحتى يحل الشتاء القادم ، فأروي لك كل ما عندي • أما الآن ، فان فرقتنا المحاربة قد خرجت • وسيقتل فتياننا اذا جلست لاروي لك بعض القصص قبل ابتداء الشتاء •

لندع الآن هذا الشذوذ ، ونعـد الى قصتنا ، فقد بقينا مخيمـين في هذا المكان مدة خمسة أيام ، كان الصيادون خلالهـا في عمل مستمر لا يتوقف ، وانتهى حـين أمنوا كميات كبيرة من اللحوم والجلود • ورغم كثرة الخيرات ، فقد كان يسيطر على القريـة خوف شديد وتحسس أشـد للخطر ، فالكل يقظون • والشباب يجوبون المنطقة للاستكشاف • والشيوخ يبذلون اهتمامـا خاصـا بالفأل والمعجزات • وهم في أحلامهم سادرون • وكانوا ينصبون أكداسا من العصي والحجارة فوق التـلال المحيطة بصورة تظهر معها عن بعد على شكل حراس يرصدون ما حولهم • وذلك كي

يوهموا العدو أنهم يقظون دائما • ولا يزال هذا المشهد ماثلا في مخيلتي ، وكأنه صورة مرئية • فالصخور البيضاء العالية ، وأشجار الصنوبر الكبيرة فوق قمم التلال ، والنهر الذي يجري عند السفح ، وشجيرات الشربين البري بلونها الاخضر ورائحتها الطيبة المنتشرة بكثرة من المنحدرات المجاورة • والنساء اللواتي يمررن رائحات غاديات وهن يحملن أوعية الماء من النهر الى مساكنهن • ولم يكن لاحد أن يرى في المخيم سوى النساء والاطفال واثنين أو ثلاث من الشيوخ الطاعنين في السن ، وبعض الفتيان الكسالى ، والكلاب التي سمنت ولانت طباعها من كثرة الطعام • وكان المخيم لا يزال في حركة وضجيج دائم بسبب من العمل المستمر • فكنت ترى في كل مكان لحوما معلقة في الشمس على حبال من الجلد ، وجلودا لم تجف • وقد فرشت على الارض ، وأخذت النساء يفركنها بنخاع البافالو لتبقى طرية مرنة •

وأشفقت على نفسي وعلى فرسي ، فلم أخرج مع الصيادين بعد اليوم الاول • حيث أخذت أسترد قوتي بسرعة ، واستطعت أن أسير بسهولة • فكنت أخرج مع رايموند الى التلال المجاورة ، فأتلهى بصيد الرئم أو مهاجمة البافالو سيرا على الاقدام • وخرجت ذات مرة عند الصباح من مسكن الغراب الكبير ، فوجدت رينال في الجهة المقابلة • وألح في دعوتي لتناول طعام الفطور معه • والحقيقة انها كانت وجبة مغذية ، تتألف من لحم البقر المشوي • وقد انضم الينا رايموند • فجلسنا جميعا واستللنا السكاكين ، وبدأنا نقطع اللحم ونلتهمه بنشاط غريب •

قال رينال : سيحضر بعض الغرباء قبل المساء •
فسألته : وكيف عرفت ذلك ؟

أجاب : لقد رأيت ذلك في المنام ، وأنا كهندي أعلم أن أحلامي صحيحة • كما أن (زخة البرد) رأى نفس الحلم • وكنت أود أن يكون حاضرا ليؤكد لي قولي ، لولا أنه خرج مع صديقه (الارنب) للاستكشاف •

سخرت من اعتقاد رينال بمثل هذه الخرافات ، وتركته يهيم في ظلمات نفسه • وذهبت الى مسكن مضيفي حيث تناولت بندقيتي واتجهت نحو الصحراء متوغلا • فرأيت ثورا كبيرا يقف منفردا • فأطلقت عليه الرصاص ، ولكني أخطأته • فهرب لينجو بحياته • أما أنا فعدت منهك القوى مستاء يأكلني الغيظ لسوء الحظ • وللمصادفة الغريبة ، وجدت أن نبوءة رينال قد تحققت ، فكان أول من قابلته اثنين من الصيادين ، هما رولو وسارافان اللذان قدما للاجتماع بي • وكان هذان الرجلان ، كما يذكر القراء ، قد بارحا مخيمنا منذ أسبوعين للصيد في سفوح (التلال السوداء) وهما الآن في طريقهما الى جبال روكي • وقد عزما أن يتابعا مسيرهما بعد يوم أو يومين الى (ميديسين بو) المجاورة • رغم أنه لا تروقني صحبتهما لانهما لم يكونا على جانب من اللطف بحبب الانسان برفقتهما • وجلسنا جميعا في مسكن رينال ندخن ونتبادل الاحاديث المختلفة • ومسكن رينال هذا كوخ وضيع أقيم من بعض الاعمدة التي علقت عليها جلود ثيران البافالو ، كما فرشت أرضه بنفس الطريقة • وبقينا هنا حيث تحيط بنا الادوات والاواني المنزلية المختلفة اتقاء لحر الشمس • ولقد كان كل شيء هادئا في القرية • فلم يخرج أحد من الصيادين في ذلك اليوم • بل أقاموا في مساكنهم طول النهار يستيقظون وقتا ثم لا يلبث أن يغلبهم النوم ، فيذهبون في سبات عميق • بينما كانت النسوةمنهكات

من أعمالهن المرهقة • أما الفتيات الصغار فكن يلعبن في ساحـــة القرية • ولما مللن وسيطر عليهن التعب ، حل محلهن بعض الفتيات اللواتي أخذن يصخبن ويلعبن ويقفزن • كذلك كان بعض الصبية العراة منهمكين بعيـــدا في قلب الصحراء ببعض الالعاب • وجعل فريق منهم يطارد الطيور أو السنجاب الارضي بأقواسهم وسهامهم • والويل لمن يقع بين أيديهم من هذه الحيوانات المسكينة • وبعـد برهـة قدمت لنـا امرأة مشهورة تسكن الكوخ المجـاور وتدعى (ويه واشتي) أو (المرأة الصالحة) ، اناء كبيرا مملوءا (بالواسنا)• وعادت وهي تكاد تطير من الفرح بعد أن قدمت لها خاتما أخضر من الزجاج ، كنت أضعه في اصبعي لمثل هذه المناسبات •

غربت الشمس واصطبغت السماء بلون احمر قان انعكس عـــلى سطح الجدول الصغير في جريانه بين شجيرات الشربين • وفي ذلك الوقت عاد بعض شبان القرية ، وهم يقودون أمامهم عددا من الخيول من مختلـــف الاحجـــام والالوان والاعمـــار وأخـــذ كل من الصيادين ما يخصه منها ، ففحصها جيدا ثم ربطها بحبال طويلة مشدودةالى أوتاد غرستعميقا أمام مسكن كل منهم•ولمتمضنصف ساعة حتى هدأت الضوضاء ، وساد السكون أرجاء المخيم • ثم بدأ الظلام ينتشر ، فوضعوا الاباريق فوق النار ، واجتمعت النساء حولها مع أطفالهن يتضاحكن ، ويتبادلن الاحاديث ، كما اجتمع الشيوخ والمحاربون ، بأرديتهم البيضاء المصنوعة من جلد البافالو ، فشكلوا دائرة أخرى في وسط القرية ، وأشعلوا الغليون الذي جعل ينتقل من يد الى أخرى ، ولم يكن في حديثهم ذرة من الاتزان أو التحفظ اللذين اشتهر بهما الهنود • وجلست معهم كالعادة ، وكان في يدي بعض الالعاب النارية التي صنعتها من البارود والفحم حين كنت في

حصن لارامي • ولففتها على شكل قلم الرصاص ، وانتظرت حتى تمكنت من الوصول الى قطعة من الخشب المشتعل ، فأخذتها وأشعلت بواسطتها اللعبة النارية وقذفتهم بها ، فجعلت تستعر وقد انتشرالشرر منهـــا في الهواء فوق رؤوسهم • فقفز الجمع وولوا هاربين وهم يرسلون صيحات الدهشة والذعر • ثم ما لبثوا أن عادوا بعد برهة واحدا في اثر الآخر • فأخذ أشجعهم صناديق الورق المحترقـــة وفحصها باهتمام شديد على سبيل اكتشاف سرها الخفي • وقـــد اشتهرت بينهم بعد ذلك بلقب (ساحر النار) •

امتلأ المخيم بأصوات مختلفـة ، بعضها مرح خفيف ، وبعضهـا الآخر على النقيض منها ، بكاء ونحيب وعويل يشبه عواء الذئاب وكلها صادرة من أحد المساكن الكبيرة المضاءة بنار شديدة اللمعان • ورأينا امرأة تجلس القرفصاء شبه عارية ، خارج المسكن ، وهي تبكي وتجرح ساقيها بسكين في يدها حتى سال الدم منها • لقـــد كانت تندب شابا من عائلتها قتله العدو قبل سنة في مثل ذلك اليوم ، وشاركها أقاربه البكاء والعويل ، فأخذوا يندبونه وينعـون فقـده وفراقه • وكان ضجيج وصياح الشبان الذين يستعدون للذهاب في بعثة حربية بعد أيام ، يسمع في ظلمات الليل من مسافة بعيدة خارج القرية وكانوا يقفون فوق قمة التل ويستنجدون بالروح الاعظم ، ليساعدهم في رحلتهم وينصرهم على أعدائهم • وبينما كنت أصغي اليهم ناداني رولو ، وابتسامة اللامبالاة ترتسم على وجهه ، ولفت انتباهي الى الجهة المقابلة ، حيث وقفت امرأة تنتهر كلبا أصفر اللون مستلقيا على الارض ، وأنفه بين يديه ، وعيناه الناعستان تنظران الى وجهها كما لو كان يصغي اليها ويهتم بكلامها • ولكنه كان قد صمم بنفس الوقت على أن يأخذ قسطه من النوم بأسرع ما يمكن •

قالت المرأة تخاطبه : يجب أن تخجل من نفسك • لقد أطعمتك جيدا واعتنيت بك منـــذ أن كنت صغيرا مغمض العينين ، تزحف وتزعق قبل أن تعرف النباح الآن • وعندما كبرت ، قلت لنفسي انك كلب طيب • وانك أصبحت قويا لطيفا تحمل ما أضعه من الحمل فوق ظهرك ، ولن تسير بين أرجل الخيل عندما نرحل الى الصحراء • ولكنك كلب أسود رديء • فكلما رأيت أرنبا يقفز من بين الشجيرات ، قفزت وراءه ومعك جميع الكلاب • كان عليك أن تعلم أن هذا عمل خطير يجب أن لا تفعله • ماذا تستطيع أن تعمل لو ابتعدت لوحدك في الصحراء دون أن يكون معك مـــن يساعدك ، ثم خرج عليك ذئب من أحد الوديان • فهو لابد قاتلك ومفترسك لا محالة ، وان أحدا لا يستطيع أن يكافح وظهره مثقل بالاحمال • وقد شردت في تلك الطريق منذ ثلاثة أيام • وقلبت حقيبة الدبابيس الخشبية التي أربط بها واجهة المسكن • أنظر اليها انها الآن لا تزال مفتوحة ، كما انك سرقت هذه الليلة قطعة كبيرة من اللحم كنت شويتها على النار لاطعمها للاطفال • انك ذو قلب رديء تستحق الموت •

وبعد أن انتهت من خطابها الحماسي ، دخلت المسكن وخرجت وبيدها مطرقة حجرية هوت بها على رأس الكلب المسكين فقتلتـــه بضربة واحدة • ولقد رأيت من الضروري أن أنوه عنهذا الحادث باختصار ، لاصور صفة غريبة من صفات الهنود ، وهي أنهم يعزون الذكاء وينسبون قوة الفهم الى الحيوانات الدنيئة التي ربطتها التقاليد بقرابة معهم ، كما انهم يدعون شرف الانتساب الى سلالـة الدببـة والذئاب والوعول والسلاحف •

وفي ساعة متأخرة ، سرت مخترقا القرية الى مســـكن مضيفي

الغراب الكبير ، ولما دخلت رأيته مضجعا في مكانه المعتاد والنعاس يداعب جفنيه . ومتكؤه مكان مريح يتألف من اثواب من جلـــد البافالو فرشت فوق الارض ، ووسادة مملوءة بالريش ومزينـــة بالحرز صنعت من جلد الوعل ، ووراء ظهره دعامة من الاعمـدة والقصب الرفيع ، يستند اليها بكل راحة عندما يتخذ وضعية الجلوس أما قوسه وكنانته ، فقد علقت فوق رأسه . ويظهر أن زوجتـــه وهي امرأة ذات وجه عريض ضحوك ، لم تكن قد انتهت بعـد من اعمالها المنزلية . ولسوء الحظ لم تكن هي وزوجهـــا الساكنين الوحيدين في هذا المكان . فقد انتشرت نصف دستة من الاطفـال في كل ناحية من أرجائه . وكان سرجي لم يزل في مكانه من صدر المكان ، وقد نشر امامه ثوب من جلد البافالو . فاستلقيت بعد ان لففت نفسي ببطانيتي . ولو لم أكن منهكا لما امكنني ان أنام وسط ذلك الضجيج المنبعث من المساكن المجاورة . فهناك صـوت طبـل هندي ، تختلط معه اصوات العويل واصوات كورس مؤلف من حوالي عشرين عضوا . وكنت قد حضرت مرة مشهد حفلة قمار بكل ما فيها من انظمة وقوانين . وكان اللاعبون يراهنون على زينتهم وخيولهم ، وكلما اشتد الحماس بين اللاعبين كلما ارتفع الرهان حتى يشمل ثيابهم واسلحتهم ، لأن اللعب اليائس لايقتصر عـلى حانات باريس . فان رجال السهول والصحاري والغابات ليســوا أقل لجوءا الى القمار للتخلص من الوحدة القاسية التي يعيشونها بين الثورة الجامحة والهدوء المتواصل ، نمت وصوت الطبل يطن في اذني . أما الحفلة فقددامت حتىالفجر . ولكن سرعان ماأيقظني أحد الاطفال وهو يزحف فوقي ، بينما كان الثاني يجذب طـرف بطانيتي . فاوقفت هذه المحاولات ، بان وخزت رأسيهما بعصـــا

صغيرة كنت احتفظ بها دائما لهذا الغرض • ولما كانوا ينامون نصف النهار ، ويأكلون الطعام أكثر من حاجتهم • فهم مصابون غالبابالقلق الذي اضطرني الى تكرار عملية الزجر هذه عدة مرات في الليلة الواحدة • وكان مضيفي هو السبب غير المباشر في ازعاجي من جهة أخرى • لأن هؤلاء الهنود ، ومضيفي من بينهم ، يعتقدون بانهم يرتبطون باجراء بعض الاعمال ، كشرط أساسي يتوقف عليه نجاحهم في الحياة والحرب والحب والصيد ، أو في أي عمل آخر، لذا فالهنود يستعملون (العقاقير) كما يسمونها ، وهي التي توحي اليهم بها احلامهم • ولا أدل على سخافة هذه العقاقير من أن تعرف ان بعض الهنود يدق رأس الغليون بالارض كلما دخن ، والبعض الآخر يلح في أن يترجم كل ما يقوله بصورة عكسية • وقد ذكر لي شو أنه التقى مرة بشيخ هندي كان يعتقد انه يخسر كل شيء مالم يلزم كل رجل أبيض يقابله بان يشرب كوبا من الماءالبارد • أما مضيفي فقد كانسيءالحظمن قسمته• فقد فرضتعليهالارواحفيالمنام ان يغنيأغنية معينةفي منتصف كلليلة•وكانت اغنيتهالمحزونةتوقظني بانتظامفيالساعةالثانية عشرة،فأجده جالسا منتصفالقامة فوقمتكئه ، وهو يغني وملامحه تنطق بما يشعر به من الجد والاهتمام وكانت أصوات مئات الكلاب تعوي وتنبح كاحدى فرق الكورس ، بضجيج فظيع لم اسمع بمثله من قبل ، سوى ما سمعته ذات مرة من عواء الذئاب ، عندما كنا نهبط الى اركنساس في أعقاب جيش الجنرال كيرني •

وجاء الصباح فخرج التراب الكبير مع بقية الصيادين على ظهور الخيل • وقد لانخطيء اذا القينا نظرة اليه بصفته زوجا ووالدا • لقد كان هو وزوجته مثل معظم الهنود ، يحب أولاده حبا جما ، ويدللهم ما استطاع الى ذلك سبيلا ، فلا يعاقبهم الا في أسوأ حالة

تحتاج الى عقاب ، ولذا بات الاطفال لايدركون معنى للواجب أو الطاعة . وصار من العسير من جراء هذه التربية الفاسدة التي تميل بهم نحو تغذية روح الحرية ، وكبح جماحهم وضبطهم .وهذه العادة هي أساس الصفات والعادات الهندية ، لذلك يندر وجود أب أكثر حنوا من الغراب الكبير ، الذي كان شديد التعلق بطفل لايزيد طوله عن قدمين . فكان يفرش احيانا رداء من البافالو في المسكن ، ويجلس عليه . ثم يضع أمامه طفله الصغير المفضل ،ويغني له بعض كلمات من أغنية كانوا يغنونها في رقصة الحرب . فيقف الصغير ويدور حول نفسه ببطء على ايقاع موسيقى والده ، الذي كان يقهقه من شدة السرور وهو ينظر مبتسما في وجهي ليرى ما اذا كنت أعجب ببراعة طفله في الرقص أم لا . أما كفاءته كزوج ، فقد كان أقل درجة . ان المرأة تعيش معه في المسكن ، هي رفيقته منذ سنوات كثيرة . وقد بذلت جهدها في الاعتناء باطفاله وأموره البيتية ، لذلك كان يحبها كثيرا ، فلم يتشاجر معها أبدا ، غير انه كان يخص حبه العنيف بزوجاته من الفتيات اللواتي هن أكثرجمالا وأشد نضارة . وكان عنده منهن في الوقت الحاضر واحدة فقط ، تعيش لوحدها في مسكن خاص . وقد إستاء منها في أحد الايام . وكنا لانزال في هذا المخيم . فدفعها الى الخارج ومعها زينتهاوثيابها، وكل ما لها ، ثم أمرها ان تذهب الى والدها . وبعد اتمام هذا الطلاق السريع ، الذي استطاع ان يجد مبررا ، عاد وجلس في مكانه المعتاد ، وبدأ يدخن بكل هدوء ورضى ، وكأنه لم يفعل شيئا.

كنت أجلس معه في المسكن بعد ظهر ذلك اليوم .فشعرت برغبة جامحة في أن أعرف قصة الندوب العديدة التي تبدو فوق جسمه العاري ، الا أنني لم أجرؤ على السوأل عن بعضها ، فاني كنت اعرف

اسبابها ، وكانت ذراعاه موشومتين ، كما وجدت ندبات مختلفة فوق ظهره ، وعلى ثدييه . وكانت تلك آثار العذاب الذي كان يفرضه هؤلاء الهنود وبعض القبائل الاخرى على انفسهم في مواسم معينة ، وقد يكون أهم الدوافع لهذا العمل ، هو أن ينال الرجل شرف الشجاعة والقدرة على التحمل . ومما يستحق الذكر ان مثل هذه الاعمال لم تقم اصلا الا لتكون سببا لنيل رضى الارواح . وقد نتجت الندبات الموجودة فوق صدره وظهره من غرز قطع رفيعة من الخشب في جسده ثم تعليق جماجم البافالو ، بواسطة حبال من الجلود . وبعد ذلك يأخذ التعس بالركض الى الامام بكل ما لديه من قوة يساعده اثنان من رفاقه ، فيمسكان بذراعيه حتى يتمزق جسده وتسقط الجماجم خلفه . أما بعض تلك الندبات فكانت بسبب مثل هذه الحوادث ، أو في ساحات الوغى ومعارك الحرب ، خصوصا وهو من أشهر محاربي القرية . وكان يفخر أمامي ، فيدعي انه قتل خلال حياته أربعة عشر رجلا ، ورغم اعترافه الذي لقى تأييدا عاما ، فقد كان كاذبا كبقية الهنود . وكنت اطري أعماله ، فيندفع في رواية قصة تلو الاخرى ، صادقة كانت أم كاذبة ، عن مغامراته الحربية . ومن ضمن ما حدثني به قصة تصور اخلاق الهنود بأسوأ وأبشع الصور ، فقد أشار من ثغرة في جدار المسكن حيث كنا نجلس ، الى جبل ميديسين بو ، الذي يبعد عنا بضعة أميال . ثم قال : كنت هناك مع بعض رجالي المحاربين منذ عدة سنين . فوجدنا اثنين من صيادي السنيك ، فقتلنا أحدهما بسهم ، وأخذنا نطارد الآخر حتى وصل الى حافة الجبل ، فاحطنا به وقفزت فوقه من بين اغصان شجرة باسقة وقبضت على ذراعه . فاسرع اثنان من رجالي وامسكا به ، بينما أخذت أسلخ جلده وهو حي . ثم اشعلنا نارا قوية

واحرقناه •وبينما كان يروي قصته لي ، كان ينظر الى وجهـــي بساطة الطفل الذي يروي الى أمه قصة من أعمال طفولته وبراءته • واستطاع الشيخ ميني سيلا ان يقدم لي صورة أخرى من وحشيـة الحروب الهندية • كان هناك صبي صغير ذو عين براقـة يعيـش بينهم رغم انه ينتسب الى قرية بلاك فيت ذات البطن الكبير• ورغم قلة عدد افراد تلك الجماعة ، فقد كانوا من أشد القبائل غدراوفتكا باعدائهم وهم في نفس الوقت حلفاء لقبائل الارباهوس • وقد وجد الغراب الكبيروبعض رجاله ، منذ سنة نحو عشرين مسكنا من مساكن اولئك الهنود منتشرة فوق السهل الى الشرق من مخيمنا ، فاحاطوا بها خلال الليل وفتكوا بالرجال والنساء والاطفال • ولم ينج من تلك المذبحة الرهيبة سوى هذا الطفل • فتبناه الشيخ وعاش معه في مسكنه • وسرعان ما اختلط مع اطفل الاوجيلالا فاصبحوايعاملونه على قدم المساواة • وهناك في القرية أيضا محارب من قبيلة (الغربان) وهو رجل عملاق ذو قسمات متناسبة • أخذ اسيرا منـــــذ سنوات عديدة ، فتبنته احدى النساء بدلاً من ابن لها فقدته في احـــــدى المعارك • وطال به العهد ، فنسيوطنه السابق واصبح من الاوجيلالا قلبا وقالبا في كل اعماله وميوله •

ومما يذكر ان خطة الغز الكبير ضد هنود السنيك والغربان،رتبت ونظمت في هذه القرية • ورغم فشل تلك الخطة ، فان نار الحرب كانت لا تزال تستعر في القلوب ، وقد استعد حتى الصبيان للاشتراك في الحملة ضد الاعداء • وعين اليوم الرابع من وجودنا في المخيم لخروجهم • وكان على رأس هؤلاء المحاربين شاب مفتول الذراعين يدعى (الدرع الابيض) ، اشتهر كما لاحظت بنظافة ثيابه واناقتــه ومظهره • وكان مسكنه رغم صغره اجمل مسكن في القرية ، كما

كانت امرأته من أجمل نسائها • وكان وزوجه مثالا حيا لما يمكن ان تكون بيوتهم • وكنت اكثر من زيارته لأنه يميل الى الرجال البيض • وكان يدعوني في اكثر الاحيان الى ولائمه المستمرة ، التي لا تنتهي • وفي احدى تلك الولائم وبعد ان انتهينا من تناول الطعام، جلسنا فوق رداء من البافالو ، ندخن ونتجاذب حلو الحديث بروح المودة والصداقة • فأخذ يعرض أمامي اسلحته المعلقة حول مسكنه بفخر واعتزاز واهتمام • وكان من بينها زينة بديعة للرأس صنعت من الريش ، فأخذها من الحقيبة ووضعها فوق رأسه وهو فخور بما تضفي على وجهه الاسمر من مظاهر الروعة والقوة • واخبرني انها تحمل ريش ثلاث من نسور الحرب • وتساوي قيمتها قيمة خير جياد القبيلة واحسنها ، كما اخرج ترسا ملونا زينت اطرافه باشكال متنوعة من الريش • وكان تأثير هذه الزينة البدائية رائعا عندما اضاف اليها كنانته المصنوعة من جلد النمر الارقش ، الذي يكثر وجوده حول التلال السوداء • وختم استعراضه هذا مستجديا مني شيئا من البارود والرصاص • الا اني رفضت طلبه لانني لم أكن أملك ما يفي بحاجتي • ولكنني اهديته ورقة من السيلقون الاحمر ، وتركته وقد شمله السرور وغمره الفرح •

وفي الصباح التالي أصيب (الدرع الابيض) ببرد شديد والتهاب في الحلق • فهبطت قوة معنوياته سريعا • وهو الذي لم يكن لاحد في القرية أن يفتخر بقوة تماثلها • فأخذ ينتقل من مسكن الى آخر ، وهو كئيب كسير النفس • وأخيرا جلس أمام مسكن رينال ملتحفا بردائه • وحينما علم أنني لا أستطيع شفاءه ، كما لا يستطيع رينال ذلك • نهض ميمما شطر مسكن أحد سحرة القرية • فلطمه ذلك الدجال بكلتا يديه ، وأخذ يصيح ويعوي ويقرع الطبل بجانب

أذنيه حتى يطرد الارواح الشريرة من جسده • وحينما فشلت محاولات الساحر من شفائه عاد (الدرع الابيض) الى مسكنه ، فاستلقى حزينا مكتئبا عدة ساعات • ولما عاود الخروج بعد الظهر جلس ثانية أمام مسكن رينال ، وهو يضع يده على حلقه • وبقي جالسا مدة من الزمن ساكنا ، وعيناه الحزينتان تحدقان بالارض • وأخيرا أخذ يتكلم بصوت منخفض فقال :

« انني رجل شجاع ، والناس جميعا يعلمون أنني محارب عظيم • وقد أبدى عشرات من الفتيان استعدادهم لمرافقتي الى الحرب • وسوف اصحبهم معي واريهم ما افعل بالعدو • في السنة الماضية قتل محاربو السنيك اخي • ولن استطيع العيش قبل أن اثأر لمقتله • وغدا سنخرج اليهم وساعود بفروات رؤوسهم » •

ولم يمض على قوله هذا الا دقائق قليلة ، حتى بدا وكأنه فقد حماسه واندفاعه ، فتدلى رأسه فوق صدره ، وقد استولى عليه اليأس والقنوط •

وبينما كنت جالسا في ذلك المساء بجانب النار ، رأيته مرتديا ثياب الحرب الجميلة المزركشة، وقد لون خديه بالسيلقون • وقاد جواده المفضل، وسار يتبختر في انحاء القرية، وهو ينشد أناشيد الحرب بصوت اجش عال ، بين هتاف النساء واعجاب الرجال • ثم ترجل وخر على وجهه فوق الارض ، كما لو كان يتضرع الى الارواح ان تساعده وتنصره • وانتظرت صباح اليوم التالي بفارغ الصبر لاشاهد رحيل المحاربين ، ولكن كان كل شيء هادئا في القرية • ولما حان وقت الظهيرة اتى (الدرع الابيض) ، وجلس امامنا في المكان الذي اعتاد الجلوس عنده ، فاستفهم منه رينال عن السبب الذي أخره عن الخروج لقتال الاعداء •

ث بصوت يائس فقال : لا استطيع الذهاب ، لانني اعطيت جميع سهام الحرب الى الرجل الابيض •
فقال رينال معترضا : لقد اعطيته سهمين فقط ، وسيردهما اليك اذا طلبتهما منه •

فالتزم (الدرع الابيض) جانب الصمت ، ولم ينبس ببنت شفة• واخيرا قال بصوت حزين ، « لقد رأى احد رجالي حلما سيئا • لقد اتت روح الميت والقت عليه حجارة اثناء نومه » •
ولو ان الحلم وقع فعلا ، لكان سببا كافيا لايقاف المحاربين عن الخروج لقتال الاعداء • غير أنني كنت ورينال نعتقد أن الدرع الابيض قد اخترع هذا السبب ، كي لا يترك مسكنه •

وكان (الدرع الابيض) محاربا مشهورا ببسالته ، لذا فلا يظهر عليه شيء من دلائل الالم لو أصيب بجراح • وقد تحمل أشــد ألوان التعذيب التي كان يفرضها العدو عليه ، دون أن تطرف له عين • فقوى الرجل الهندي عرضة دائما لمثل هذه التجارب • وقد أعدته تربيته منذ الطفولة لمثلها ، ولما هو أسوأ منها • وقد تكون أسباب عذابه ماثلة أمام عينيه ، ولكن روحه تقوى متحدية عدوه ، وتنال أعظم مجد يمكن لمحارب أن يناله ، وهو يجابه الموت بجلد وصبر وثبات • غير انه عندما يشعر بأنه سيجابه قوة شريرة خفية لا تنفع معها قوته ورجولته ، فسرعان ما يتخاذل ويستسلم • فقد كان أشجع المحاربين يخضع عندما يرى أمامه عدوا لا يستطيع أن يقاومه أو يتحداه • فيعتقد أن روحا شريرة قد تملكته ، أو أنه وقع فريسة السحر • وعندمـــا يشكو الهندي أحـــد الامراض المستعصية ، يستسلم الى مصيره • وما أسرع ما ينحل جســمه ثــم يذوي ويموت ضحية تصوراته وأوهامه • وكثيرا ما ينتهي الى نفس

المصير بعد أن تصيبه سلسلة من المصائب أو سوء الحظ • ويعرف عن الهنود ، أنهم يهاجمون عدوهم في وسط مخيمه أو يهاجمون الدب الاشيب بيد واحدة ، ليتخلصوا من حياة ظنوا أنها وقعت تحت حكم روح شريرة •

وهكذا تلاشت رحلة الدرع الابيض الحربية ، فلم يتح القدر أن تظهر الى عالم الوجود رغم صياحه وأحلامه ، واستغاثته بالروح الاعظم ، وقد انتهت الى لا شيء •

الفصل السادس عشر

الصيادون

عندما تحدثت عن الهنود ، فاتني أن أذكر اثنين من المغامرين الشجعان ينتسبان الى عرق آخر ، ألا وهما الصيادان رولو وسارافان اللذين يميلان الى المغامرات والمخاطر • لقد كانا في طريقهما الى المناطق التي يقيم بها هنود الارباهوس ، والتي تبعد عن مخيمنا مسيرة يوم الى الغرب • وهؤلاء الارباهوس الذين التقيت مع شو بعدئذ بعدد كبير منهم ، هم برابرة شرسون ، أعلنوا عداءهم المطلق للعرق الابيض ، وهددوا بالموت كل من تحدثه نفسه بالمجازفة في الدخول الى أرضهم • وكان الباعث على هذا الاعلان هو ما يلي :

في الربيع الماضي ، عام ١٨٤٥ ، ترك الكولونيل كيرني حصن ليفنوورث ومعه عدة فرق من الدرايجون ، وبعد أن انحرف نحو الشرق ، عاد ثانية الى النقطة التي خرج منها ، وكان قبل أن يخرج من حصن لارامي قد أرسل بعض قواته الى سويت ووتر ، وبقي هو في الحصن ، يبعث الرسائل الى القبائل الهندية المجاورة ويطلب فيها اليهم الحضور للتشاور معه • ورأت القبائل المجاورة لاول مرة المحاربين البيض ، وسيطرت عليهم الدهشة لنظامهم الدقيق وجمال بزاتهم واستكمال أجهزتهم الحربية ، وحجم خيولهم وقوتها • وكانت قبيلة الارباهوس احدى القبائل التي لبت الدعوة ، حيث حضر أفرادها الى الحصن بأعداد كبيرة ، بعد أن اقترفوا عددا من

جرائم القتل والسرقة • لهذا هددهم الكولونيل كيرني بأنه سيطلق في اثرهم فرق الدرايجون اذا قتلوا أي رجل من البيض بعد ذلك اليوم ، ولن يتركهم حينذاك الا بعد أن يفنيهم عن بكرة أبيهم • ولكي يقنعهم بصحة قوله وعزمه على تنفيذ تهديده ، أمر باطلاق أحد مدافع الهويتزر ، كما أمر بقذف أحد الاسهم النارية • فسقط عدد كبير من الاراباهوس ، وفر الباقون ، وهم يطلقون صيحات الذعر والدهشة والخوف • وفي اليوم التالي انسحبوا نحو الجبال التي يسكنونها • وقد حيرهم ظهور فرق الدراجون وبنادقهم الكبيرة التي تطلق طلقتين في آن واحد ، كما زاد في حيرتهم الرسول الناري الذي أرسلوه عاليا الى الروح الاعظم • فمكثوا اثر هذا الدرس القاسي عدة أشهر هادئين ، ولم يقترفوا أي ذنب كما لم يسببوا أي ضرر • ولكن أحدهم قتل اثنين من الرجال البيض غدرا ، بينما كانا يصطادان بين الجبال ، ووقعت الجريمة قبل أن نصل الى المنطقة بعدة أيام • وكان من المستحيل اكتشاف سبب جوهري يدعو لارتكاب مثل هذا العمل الوحشي • ولكن يبدو أنها احدى تلك الدوافع الغامضة التي تستولي أحيانا على الهنود ، وهي كما يظهر مجرد ثورات من الشراسة الخلقية والوحشية • ولم يكد ينتشر خبر اقتراف هذه الجريمة حتى عم الذعر جميع أفراد القبيلة ، وصاروا يتوقعون في كل يوم قدوم فرق الدراجون للانتقام منهم • ولم يدر بخلدهم أن تسعماية ميل من الصحراء تمتد بينهم وبين أعدائهم • وقامت بعثة منهم بالذهاب الى حصن لارامي ، وهي تحمل هدايا قيمة من الخيول فدية للقتيلين ، واستنكارا منهم للجريمة • ولكن بوردو رفض قبولها • وحين سألوه عما اذا كان يرضيه تسليم القاتل ، رفض عرضهم هذا أيضا • فلم يجد الاراباهوس سبيلا الى

استرضائه حين ذاك ، فغادروا الحصن وقد امتلأت قلوبهم ذعرا وفزعا . ومرت أسابيع وانقضت أخرى ولم يظهر أي أثر لفرق الدرايجون . وكانت النتيجة التي تنبأ بهـا كل من عرف عادات الهنود وأخلاقهم . لقد اعتقدوا أن الخوف هو الذي منع بوردو من قبول هديتهم . وأنه ليس هناك مبرر للخوف من انتقام البيض . وحلت السفاهة بأوسع معانيها محل الخوف . فأخذوا ينعتون الرجال البيض بالجبناء والخونة ، والنساء العجائز . وأتى صديق من الداكوتا الى حصن لارامي فأخبر القوم هناك بأن الارباهوس عزموا على قتل كل كلب من البيض يقع في قبضتهم .

ولو وجد في حصن لارامي ، ضابط مع قوة كافية ، فقبل عرض الارباهوس واستلم القاتل وأعدمه أمام قبيلته ، لساد الهدوء المنطقة زمنا طويلا ، ولتجنبنا كثيرا من الاخطار والآلام . أما الآن فقد أصبحت جميع المناطق المجاورة لجبل ميديسين بو تموج اضطرابا وفي أشد حالات الفوضى . وأصبح الاقتراب منها خطرا أكيدا . واجتمع ميني سيلا ، صديق البيض ، وعدد آخر من الهنود الى الصيادين وحاولوا عبثا حملهما على العدول عن خطتهما . غير أن رولو وسارافان سخرا منهم واستهزءا بالخطر . ولم يأبها بالنتائج . وفي اليوم السابق لمغادرتهما المخيم ، شاهدنا أعمدة بيضاء ضعيفة من الدخان تتصاعد من سفح جبل ميدسين بو . فأرسلنا الكشافة في الحال لاستطلاع الاخبار ، فأنبؤونا حين عادوا بأن تلك النيران تنبعث من مخيم الارباهوس ، الذي هجره ساكنوه قبل بضع ساعات فقط . ولم يتريث الصيادان بل تابعا استعدادهما للرحيل .

وكان سارافان طويل القامة قوي البنية ذا ملامح كئيبة تنطق بالشر والجريمة . ولا بد أنه أسال ببندقيته من غير دماء البافالو

والهنود دماء كثيرة • أما رولو فكان له وجه أحمر مستدير ، تبدو عليه سيماء الجد والتفكير ، كما تبـــدو فوق صفحة وجهه براءة الاطفال ، وهـو مربوع القامة ، قوي البنية ، فيما ســـوى بعض عضلات قدميه التي أصابها التجمد • وقد ألقى به جواده مرة على الارض وسقط فوقه فأدى ذلك الحادث الى اصابته في صدره • غير أنه لم يكن هناك شيء يستطيع التغلب على مرحه ومنعه عن الضحك والابتسام • فكان يسير طوال النهار على قدميه في المخيم ، وهـــو يتحدث ويغني ويمزح مع كل من يصادفه في طريقه ومع النساء الهنديات اللواتي كان مغرما بهن • حيث كان يختار من يحب أن تعيش معه • فيغرقها بالهدايا ، وأنواع الزينة من خرز وشرائط مزركشة وغيره من الحلي الهندية • ومع أنـه كان مضطرا لان يترك فتاته أثناء رحلاته ، فان هذا الاضطرار الخطر لم يكن يقلقه ، لان مزاجه لا يقبل الغيرة • وكان عندما يعجز عن انفـــاق جميع أرباحه التي لم تكن ترتكز على أسس ثابتة على محظيته ، فانه كان يصرف ما بقي معه على اقامة ولائم لرفاقه • وكما هي الحـــال في أغلب الاحيان فانه يستبدل فيها المشروبات بالقهوة حين لا يجد شيئا منها • ولما كان رجال تلك المنطقة لا يفهمون معنى للتدبير والاحتياط فقد كانوا لا يتورعون عن التصرف بكل ما يقع تحت أيديهم في مثل هذه المناسبات في جلسة واحدة مهما عز ثمنه وارتفعت قيمته • وكانت حياة رولو كحياة غيره من الصيادين مليئـــة بالمتناقضـــات والمتنوعات • فقـد كان يتغيب في رحلاته في مواسم معينـة مـددا محدودة • أما ما يتبقى من أيام السنة ، فقد كان يصرفه متسكعا في الحصن • أو مخيما الى جواره مع أصدقائه يصطادون ، وينعمون بمزايا البطالة والكسل • ولم تكن تحدق بهم الاخطار والحرمان ،

الا عندما يطاردون القندس • حيث يضطر الصياد أن يكون عيونا مفتحة ، وآذانا يقظة ، وأيدي وأرجلا متحفزة وعلى أهبة العمل • وكثيرا ما يضطر الى تناول عشائه بدون طهي ، حتى لا يجتذب ضوء النار انتباه المارة من الهنود • وكان في بعض الاحيان يترك النار مشتعلة ، ثم ينسحب بعيدا تحت ستار الظلام فيتربص لعدوه الذي جذبه الضوء ويوقعه في مأزق ويجعله عرضة للخطر ، فالضحية التي يسعى اليها هذا العدو قد غادرت المكان • ولا يستطيع اقتفاء اثرها في الظلام • هذه هي الحياة التي كان يحياها عشرات من الرجال في جبال روكي • وقد التقيت مرة بصياد كانت تظهر على صدره آثار (دستة) من الرصاص والسهام • وقد كسرت احداها ذراعه الايمن وحطمت اخرى ركبته • ومع كل ذلك فقد استمر في الاجابة الى نداء المخاطرة بحماس وبأس شديدين •

وفي آخر يوم قضيناه في هذا المخيم ، استعد الصيادان للرحيل • وكان الحظ قد حالفهما فاصطادا من التلال السوداء سبعة سنانير (قنادس) • وتركا جلودها عند رينال حتى عودتهما • وكان على جواديهما النحيفين القويين سرجان مكسيكيان قاسيان ، علقت اليهما ركابات من الخشب وربط خلفهما ثوب ملفوف من جلد البافالو ، وعلقت أيضا في قربوس السرج رزمة من الفخاخ ، هذا عدا عن البندقيتين والسكاكين ، وقرني البارود، وجرابي الرصاص ، والاكواب المصنوعة من الصوان أو من الفولاذ أو القصدير في أحيان أخرى • وكانت هذه الادوات تشكل مجموعة اجهزتهما التي كانا يحتاجان اليها اثناء رحيلهما • وبعد ان صافحناهما انطلقا بستحثان الجوادين • وكان ساراتان بوجهه العبوس يسير متقدما عن زميله رولو الذي ثبت نفسه فوق سرجه وحرك سوطه ،

ولكز جواده ، فراح يعدو به بسرعة فوق الصحراء • وكان هـو يغني اغنية كندية بأعلى صوته • وكان رينال يتابعهما بنظره الذي تبعث منه الشراهة وبوجهه الذي ترتسم عليه الانانية ويقول : اذا حسن الحظ فقتلا ، فسأربح جلود القنادس وأبيعها فاكسب مـن ثمنها خمسين دولارا بدون أن أغادر الحصن •

وكانت تلك آخر مرة رأيتهما فيها •

ومضت خمسة أيام ونحن في مخيم الصيد ، حتى جفت اللحوم المعلقة بالشمس ، واصبحت صالحة للنقل ، كما كانت جلودالبافالو كثيرة جدا وكافية للمساكن في الموسم القادم • غير انه بقي عـلى الهنود ان يحصلوا على أعمدة طويلة لاقامة مساكنهم ، ولكي تنصب عليها الاغطية الجلدية • وهذه الاعمدة تؤخذ من اشجار التنوب العظيمة الشاهقة ، والتي تكثر في التلال السوداء • لذلك كان اتجاه سيرنا المقبل الى ذلك المكان • ونظرا لوفرة الصيد عند الجميع ، لم يكن ثمة ما يدعو الى حرمان أحد من أفراد القبيلة من الحصول على قسم من لحم البافالو ، فيما عدا جلده ولسانه ، اللذين كانا من حق الشخص الذي اصطاده لوحده • وكنت ترى الضعيف والمسن وحتى الكسول ، يأتون فيحصلون على حصة من الغنيمة • وحتى العجائز من النساء كان يصيبهن نصيب كبير •

كانت شمس الخامس والعشرين من تموز ، تتألق في كبد السماء، حين شرع في هدم المخيم وسط العاصفة المعتادة من الضجيج • وسرنا نقطع السهول على ظهور الخيل • ولم نتقدم اكثر من بضعـة أميال ، حتى افترش الشيوخ الارض على شكل دائرة • وعنـدها أخذت كل عائلة تشيد مسكنها وفق النظام الذي ذكرناه آنفا ، حول باحة المخيم • وخلال ذلك كان شيوخ القرية يـدخنون

ويتحدثون بجد واهتمام . ولما وصلت سلمت مقود حصاني الى رايموند ، وجلست بينهم كالعادة . فلم يظهر عليهم التحفظ وعزة النفس التي تبدو على الهندي عندما يعقد مجلسا ، أو يكون جالسا مع رجال من البيض لايثق بهم . بل على العكس كانت جلسة سادها المرح والضحك والسرور .

وعندما انتهينا من تدخين الغليون الاول ، نهضت وانسحبت الى مسكن مضيفي . وكنت واقفا انزع قرن البارود ، وجراب الرصاص عن كتفي ، عندما رنت في اذني فجأة صيحة الحرب المخيفة . فخطفت امرأة الغراب الكبير طفلها الصغير ، وركضت به خارج المسكن . وحين لحقت بها وجدت القرية كلها قد عمت فيها الفوضى والاضطراب ، فارتفع الصراخ والعويل . وقد اختفى الشيوخ من مركز الساحة ، وخرج المحاربون بعيونهم اللامعة ، وسلاحهم بأيديهم من مساكنهم الواطئة . وأخذوا يركضون مسرعين نحو طرف القرية الآخر . وتقدمت قليلا في ذلك الاتجاه . فرأيت جمعا من الناس سيطر عليهم الهياج الشديد . وطرق سمعي في تلك اللحظة صوتا رايموند وريتال وهما يناديانني من مسافة بعيدة ، والقيت بنظري الى الخلف ، فرأيت الاخير يحمل بندقيته ويقف على ضفة الجدول الصغير .

كانت هذه هي الطريق التي يجب ان نسلكها ، الا اذا أردنا ان نقحم أنفسنا في تلك المعركة . لذلك استدرت وتبعتهما ، ولكن برزت امامي عينان تلمعان كعيني الافعى ، وملامح شيخوخة اليفه . واذا بالشيخ ميني سيلا وهو يستعد للكفاح ، ويتنكب قوسه وسهامه ، ويحمل سكينه في يده . ولكنه تعثر فسقط على وجهه ، وتبعثرت اسلحته في كل اتجاه . وكانت النساء يهربن وهن يحملن اطفالهن

بين اذرعهن ، والامل يراودهن في ان يجدن مكانا امينا بعيدا عن الخطر • ورأيت البعض يسرعن في حمل كل ما تقع عليه ايديهن من الاسلحة • بينما كانت بعض العجائز يقفن فوق مرتفــع من الارض ، ينشدن بعض الاناشيد السحرية ، اعتقادا منهن ان هذا سيخفف الضرر ويهدىء الشغب ، وعندما اقتربت من جانب النهر، سمعت بضع طلقات ، فالتفت خلفي ، فاذا الجمع ينقسم الى صفين متقابلين من المحاربين العراة يتحدى كل منهما الآخر • وتعـــالت الصيحات ، واشتد الهرج ، وبدأ كل منهم يزوغ ويقفز من طلقات غريمه • ثم يطلق الرصاص أو السهام على عـــدوه • وفي نفس الوقت سمعت فوق رأسي اصوات طنين حاد في الهواء يشبه طنين الجعل (الخنفسة) في احدى امسيات الصيف • وكأنها تحذرني بان الخطر لا يقتصر على مسرح الشغب المجاور • فخضت عنـــد ذاك النهر ، ولحقت بريتال ورايموند وجلسنا على العشب ، جلسة حياد مسلح ، نرقب النتيجة •

وكانت نتيجة سعيدة بالنسبة لنا ، ومخالفة لما كنا ننتظر ، فقـد هدأ الاضطراب بنفس السرعة التي بدأ بها تقريبا • وعندما نظرت ثانية نحو المخيم ، وجدت المحاربين لا يزالون ملتحمين بعضهـــم ببعض في كتلة واحدة • ومع ان الصياح كان يعلو بين حين وآخر • الا أن اطلاق الرصاص كان قد توقف تماما • وشاهدت بعـــض الاشخاص يتجولون باهتمام بين الجموع ، كما كانوا يقومون بدور وسطاء السلام • ثم أعلن المنادي بصوت عال بضع كلمات ، لم يترجمها لي رفيقاي • لانهما كانا مهتمين بالتعليق على الحوادث أكثر من اهتمامهما بالقيام بالترجمة • وأخيرا أخذت الجموع تتفرق على الرغم من أن كثيرا من العيون السوداء العميقة كانت لاتزال

تبرق بريقا غير طبيعي ،عندماكان المحاربون ينسحبون الى مساكنهم، وتم الصلح بفضل بعض عقلاء الشيوخ الذين هم أقل مشاكسة من ميني سيلا ، والذين بادروا في الوقوف بشجاعـــة بين الفريقين المتحاربين ، يساعدهم في ذلك بعض (الجنود) أو الشرطةالهندية، فنجحوا في فرض ارادتهم .

وقد استغربت كثيرا حين علمت أن مئات السهام التي اطلقت ، ومالا يقل عنها من الرصاص ، لم تصب أحدا اصابة مميتة . ولكن ذلك يسهل تفسيره حين نعرف ان الرامي والهدف كان كلاهمـــا يقفزان ويتغير مكانهما باستمرار . وكان أكثر أهل القرية قـــد اشتركوا في هذا النزاع . ودل سماعي ثماني أو عشر طلقـــات على الاقل على استعمال هذا العدد من البنادق . مع انه لم يكن في المخيم سوى ستة منها .

وبعد مرور ربع ساعة ساد سكون نسبي . وجلس جماعة مــن المحاربين في وسط القرية ، فلم أخاطر في الجلوس بينهم والاقتراب منهم ، لانني استطعت أن أرى الغليون ينتقل من اليسار الى اليمين حول الدائرة ، خلافا للنظام المعتاد . وهي دلالة أكيدة على أنجلسة (التدخين السحري) تعقد الآن للصلح . وان وجود الرجـــل الابيض ، أو محاولته الاشتراك في مثل هذه الجلسة يعتبر تدخلا غير محمود . وعندما رجعت الى المخيم المضطرب ، كان الظلام قد ساد المكان تقريبا . ولم يعد يسمع فيه سوى بعض صيحات النساء وعويلهن . ولا أعلم ما هي علاقة الصراخ والعويل بالاضطرابات الاخيرة . وهل هي احدى التقاليد المتبعة عندهم في مثـــل هذه الظروف ، ام انها بسبب قريب قتل في بعض الحروب السابقة .

ولم يكن من الحكمة البحث عن سبب الخصام . فلم استطـع

ان اكتشف ذلك السبب الا بعد مضي وقت طويل ، حيث عرفت أنه كان بين الداكوتا جمعيات كثيرة خرافية وحربية واجتماعية • وكان من بينها جمعية تدعى (كاسرو السهام)• وقد حلت وتفرقت، ولكنها انتشرت في قبائل كثيرة أخرى • وكان في القرية من أعضاء هذه الجمعية أربعة رجال ، يعرفون من قص وجدل شعورهم ، فقد كانوا يرفعونه في خصلة براقة عالية في مقدم الرأس ، فيظهرون اطول قامة ، الا أن ذلك يضفي عليهم أشد وابشع مظاهر الشراسة والقسوة • أمارئيسهم (الذئب المجنون) فكان محاربا طويل القامة، يتميز بقوة خارقة وشجاعة عظيمة ووحشية مارد • وكنت دائما اعتبره اخطر رجل في القرية • فلم ادخل مسكنه ابدا بدون سلاح، مع انه دعاني الى كثير من ولائمه • وعلمت ذات مرة ان (الذئب المجنون) قد أعجبه أصيل يخص هنديا آخر يدعى (الدبالطويل) ولما كان يتوق للحصول عليه ، فقد قدم الى مالكه جوادا مماثلا له عوضا عنه • وكان من عادة الداكوتا ، ان من قبل احدى الهدايا تستوجب مقابلتها بأخرى تماثلها • وكان (الدب الطويل) يعلم أن الرجل يقصد بذلك جواده المسمى بافالو • ومع هذا فقد قبل الهدية دون أن يجيب بكلمة شكر • وربط الجواد أمام مسكنه • ومرت عدة أيام دون أن تقابل الهدية بالمثل ، وعندها فرغ صبر الذئب المجنون ، ورأى أخيرا ان كرمه لم يأت بالنتيجة المطلوبة • فقرر المطالبة باستعادتها وحين أقيم المخيم في هذا المكان ، ذهب الى مسكن (الدب الطويل) ، وامسك بالجواد الذي كان قد اهداه له ، وقاده معه • فانفجر غضب الدب الطويل بشكل لم يعهد منه • وركض نحو الجواد التعس فطعنه ثلاث طعنات مميتة • فشدالذئب المجنون قوسه الى نهايته باسرع من البرق ، وصوب سهما الى صدر

غريمه • وذكر الهنود الذين شهدوا الحادث ان (الدب الطويل) وقف وبيده سكينه الدامية ، يواجه خصمه بهدوء عظيم ، وبدون ان تطرف له عين • وهرع بعض اصدقائه واقاربه الى مساعدته عندما رأوا الخطر الذي يواجهه • كما انضم كاسروا السهام الثلاثة الى شريكهم (الذئب المجنون) • ولحق بهم اصدقاؤهم ، فعلت صيحات الحرب وعم الشغب والفوضى جميع انحاء القرية •

وكان (الجنود) الذين مدوا يد المساعدة لفض النزاع ، أهم سلطة تنفيذية في القرية • وتعد هذه الوظيفة شرفا عظيما ، لأنه لايعهد بها الا الى رجال شجعان ذوي شهرة واسعة • كما انهم يستمدون سلطتهم من الشيوخ وكبار المحاربين في القرية ، فهم الذين ينتخبونهم في مجالس يعقدونها لهذه الغاية • وبذلك يمارسون درجة من السلطة لا يجرؤ أحد في القرية على انتحالها • وفي الحين الذي كان من النادر ان يقوم أحد زعماء الاوجلالا بضرب اصغر صعلوك في القرية ، دون أن يخاطر بحياته كان أولئك (الجنود) يتمتعون بسلطة لا حدود لها أثناء تأديتهم واجباتهم ، فيستعملون الوسائل الزجرية التي يرونها تفي بالغرض ، كما يستعملون غيرها مما يروق لهم •

الفصل السابع عشر

التلال السوداء

سافرنا باتجاه الشرق يومين متتاليين • بدت بعدها امامنا قمم التلال السوداء الشاهقة • واستمرت القبيلة تغذ السير نحو السهول القاحلة سالكة ما بين المنحدرات او ملتفة حول حفر خلال التلال الصغيرة المتفرقة •
ولم نلبث أن تحولنا فجأة نحو اليسار لنجتاز مضيقا واسعا بين الجبال ، يجري في قاعه نهر نمت على حافيته الاعشاب الطويلة والشجيرات الكثيفة التي حوت في مخابئها الكثير من أوكار القندس (السمور) • ومررنا بين صفين من الهوات السحيقة والصخور العالية التي تكدست فوق بعضها دونما ترتيب أو انتظام في الشكل ، وبندر في مثل هذه التضاريس أن تشاهد شجرة أو شجيرة أو دغلا من الاعشاب • وكان الممر يزداد ضيقا كلما تقدمنا في المسير ، ثم اتسع فأصبح مرجا مملوءا بالعشب تحيط به الجبال • فتوقفنا عنوة وسرعان ما انتصب المخيم ، وكأن يدا سحرية ساهمت في اقامته •

وما كادت المساكن تنتصب حتى خرج الهنود مندفعين كعادتهم للوصول الى أهدافهم ، التي قدموا من أجلها الى هذا المكان ، الا وهي الحصول على أعمدة لمساكنهم الجديدة • وامتطى نصف أهل القرية من رجال ونساء وصبية ظهور الخيل • وتوغلوا داخل الجبال • وقد بدوا في موكب غريب ومظهر عجيب وهم يسيرون خببا فوق الصخور والحصى الى داخل ثغرات مظلمة تؤدي الى المضيق الخلفي • أما نحن فقد مررنا بين وهاد حادة ، ومنحدرات

وعرة ، تنتشر فيها أشجار التنوب • وتعلو عن يسارنا كالحائط • أما في اليمين فكان ينساب نهر صغير رقراق يجري تارة في أرض مرزغية ، وتكثر مياهه تارة أخرى فيعود الى الجريان ، وقد امتلأ مجراه بالشجيرات الغليظة المتساقطة وأغصان الاشجار اليابسة ، على الرغم من أن السمور قد التهم معظمها حيث آثار أسنانه لا تزال على القطع الباقية منها • وكنا نختفي أحيانا بين الاشجار وما نلبث أن نخرج الى الامكنة المكشوفة ، لنعدوا فيها كالهنود بأقصى السرعة• وبينما كانت بولين تقفز فوق الصخور شعرت بحزام السرج ينقطع• فترجلت لاعقده ثانية ، فكانت الخيل تمر بي مسرعة كالسهام • وكانت النساء يختلن في ثيابهن البراقة وحليهن التي كان رنينهـــا وصوتها متناسبا ومسايرا لحركة الخيل التي يمتطينها ، وكان الرجال ملهبون ظهور جيادهم بالسياط وقد ملأ صياحهم وضحكهم جنبات الوادي • وفجأة قفز وعـلان أسودان من بين الصخور ، فأطلق رايموند عليهما الرصاص من على ظهر جواده • فرددت أنحـــاء الوادي الصدى الذي جاوز الى الوادي الذي يليه • وهكذا الى أن تلاشى في بطون الجبال البعيدة •

وبعد أن سرنا على هذه الوتيرة ثمانية أميال تغير المشهد ، فصرنا نرى أشجار التنوب الفضي العالية تغطي سائر المنحدرات • فترجل الهنود وتفرقوا يمينا ويسارا وقـــد حملوا بلطاتهم وسكاكينهم ، وانهمكوا في اعداد الاعمدة المطلوبة وقطعها • وكدت أشـعر أني وحيد لولا ضربات البلطات وأصوات الرجال التي كانت تسمع من مسافة بعدة في سكون هذه الجبال الموحشة •

أما رينال الذي كان يقلد الهنود في عاداتهم وأخلاقهم الدنيئة ، فقد اقتنص من البافالو ما يكفيه ليشيد مسكنا له ولزوجته • ثم أخذ

يسعى للحصـول على الاعمـدة الضرورية لاتمامه • فطلب مني أن أسمح لرايموند بأن يصطحبه ليساعده في عمله • فأجبته الى طلبه • ودخل الرجلان الى أشد الامكنة كثافة في الغابة • ولما كنت قد تركت حوادي برعاية رايموند ، فقـد امتطيته ، وأخذت أتسلق الجبل الرغم من أن السمور قد التهم معظمها حيث آثار أسنانه لا تزال بصعوبة وبطء وأقف كثيرا لاستريح ، وبعد ساعة بلغت ارتفاعا رأيت منه الوادي الصغير وقد تمثل هوة عمقة بين الجبال ، مع أن بني وبين الوصول الى القمة مسافة كبيرة • وكانت تحيط بي مناظر تذكرني بأيـام الطفولة ، الصخور الكبيرة ، والنهر الكئيب الذي يسمع خريره عميقا بين الفجوات ، والغابة الغاصة بالاشجار الملتوية، المغطاة بالطحالب ، والجذوع التي أخنى عليها الزمن والعواصف ، مسافة بعيدة في سكون هذه الجبال الموحشة •

وكانت هذه الجبال مأوى وملجأ لمختلف أنواع الحيوان • فقد وجدت أثناء تسلقي لها الممرات العريضة التي فتحتها الايلة أثنـاء مرورها في أطراف الجبل ، وآثار أقدام الذئاب ، كما وجدت في الاماكن العالية الشديدة الوعرة ، آثار أقدام تختلف عن جميع ما رأيته سابقا • فحسبتها أقدام أغنام جبال روكي • وجلست فوق صخرة ، وقد ساد الهدوء الكون فلم أعد أسمع أصوات الحشـرات أو صفير الرياح • وفجأة تصورت خطر الضياع في مثل هذا المكان وهذه الوحول • فنظرت الى أعلى قمة في الجبل المقابل ، وكانت ترتفع عمودية من وسط الغابات المنتشرة حول سفوحهـا • ولفت نظري صخرة عاتية شاهقة ، تقف منفردة وقد انتصبت فوق أعلى تلك القمم • وهي من التضاريس الطبيعية التي لا يمكن أن يخطيء

المرء في معرفتها . وبعد أن شعرت بالراحة والثقة ، أخذت أتسلق القمة ثانية ، وأجد في الوصول اليها . وبينما أنا في عراك مـــع الصخور ، اذا بذئب أبيض يقفز من بـــين الشجيرات الكثيفة ، ثم ينطلق هاربا بأقصى سرعته . ولكنه حين أمن طرفي ، وقف هنيهة والتفت الى الخلف بعينيه البراقتين وأنفه الخشن . فتمنيت عند ذاك أن أستولي على فروة رأسه ، وأعود بها كذكرى من هذه التلال السوداء اللعينة . غير أنه لم يلبث أن اختفى بين الصخور قبل أن أطلق عليه النار . وطرأ سمعي بعد ذلك صوت خفيف وتحطيم بين الاغصان ، وظهرت على أثر ذلك فوق الشجيرات قرون أحـد الايلة المتفرعة . لقد كنت حقا في وسط جنة الصيادين .

هذه هي التلال السوداء ، كما رأيتها في تموز (يوليو) ولكنها حينما يحل الشتاء ، ترتدي حلة أخرى تختلف تماما عن هذه التي أطنبت في وصفها فتنحني أغصـــان التنوب العريضـة الى الارض تحت ثقل الثلج . ويبيض لون الجبال معهـــا ، ويبني الصيادون العائدون من رحلات الخريف أكواخهم وسط هذه الامكنة المنعزلة، فيعيشون في رغد وبحبوحة بين الطرائد التي تأوي اليه . وقـــد سمعتهم يتحدثون كيف قضوا الاشهر الطوال في عزلة عن العالم مع صديقاتهم السمراوات وبعض أصدقـائهم من الهنود . وكانوا يحفرون الحفر ، لصيـــد الوحوش ، وينصبون الفخاخ لاصطياد الذئاب البيضاء وطيور الخطاف والسمور . وكانوا يقضون ليلهم في استرخاء وراحة داخل الجدران المصنوعة من جذوع الاشجار على الرغم من عواء الذئاب المستمر طوال الليل ، والذي يتجاوب صداه مع الجبال الباردة . وعند الصباح يقتنصون الوعول والايلة التي تقترب من أكواخهم . وهكذا تسير الحياة في مثل هذه المناطق

النائية ، التي يعمرها مختلف أنواع الحيوانات المفترسة والضعيفة ، وأنواع أخرى من الحشرات والزواحف ، مما يصعب وصفه فيحار الانسان في هذا الكون العجيب الساحر •

الفصل الثامن عشر

الصيد في الجبال

امتلأ المخيم بأعمدة المساكن التي قطعت حديثا • فجهز بعضها وكدس في الشمس حتى ينشف ويقسو • وظل بعضها الآخر ملقى على الارض وحوله النساء والصبية وبعض المحاربين وهم يعملون بجد ونشاط في ازالة قشوره وتلميعه ، ثم في تسويته وتقطيعه حسب القياسات المطلوبة • وكانت معظم الجلود التي أمكن الحصول عليها في حملة الصيد في المخيم السابق ، قد عولجت حتى أصبحت لينة صالحة للاستعمال • وقد انهمكت بعض النسوة في ترتيبها وضمها الى بعضها • ثم خيطت بالاطناب حيث جهزت لاستعمالها أغطيـة للمساكن • وكان الرجال يتنقلون بين الشجيرات المنتشرة على طول ضفة النهر الذي ينساب بلين ورفق بمحاذاة المخيم ، وهم يقطعون قضبانا من الصفصاف الاحمر أو يجمعون الشونفساشا الذي اعتادوا أن يمزجوا مسحوق قشرته مع التبغ ، ويستعملوا ذلك المزيج في التدخين • أما زوجة ريتال فكانت منهمكة في خياطة غطاء مسكنها ، بينما كان زوجها مستلقيا يدخن غليونه • وبعد أن انتهى من تناول طعام الافطار بقليل ، رآني أسير بصحبة رايموند ، فدعانا واقترح بأن نخرج الى الصيد معـا • ثم التفت الي قائلا : اذهب وأحضر بندقيتك من مسكن الغراب الكبير ، وأنا مستعد أن أراهنك بحصاني انياندوت مقابل فرسك ، على أننـا سنصطاد ايلا أو وعلا ذا ذيـل أسود ، قبل أن نبتعد ميلين عن المخيم • وسأمتطي جواد زوجتي

العجوز الذي لا يستطيع أن يقطع أكثر من أربعة أميال في الساعة، الا أنه قوي كالبغل ، فهو صالح للسير في الجبال •

ركبت البغل الاسود الذي كان رايموند يمتطيه عادة • وكان قويا هادئا مطيعا بطبيعته ، غير أن طباعه قد ساءت أخيرا بسبب النكبة التي نزلت به • فقد صدف أن أهنت أحد الهنود منذ أسبوع • فما كان منه الا أن تسلل الى المرعى وطعن البغل في كفله انتقاما مني • وقد أزعجت تلك الطعنة البغل كثيرا وأصبح منذ ذلك الحين ، على الرغم من شفائه أكثر تمردا وعنادا من غيره من البغال •

كان الصباح مشرقا ، فاستيقظت وأنا أشعر بالصحة تدب في عروقي بصورة لم ألمسها منذ شهرين • وغادرنا الوادي ، وصعدنا تلا صخريا • واختفى المخيم سريعا عن أنظارنا فاختفى بذلك كل شيء حي كنا نشعر به حولنا • ولم أكن قد مررت من قبل بمثل هذه الارض البغيضة راكبا بل سيرا على الاقدام • واني أرجو مخلصا أن لا أقع في هذه التجربة مرة أخرى • أما البغل فقد أظهر سخطه ، كما أخذ الجواد الاشقر المخيف يتعثر في مشيه ويكبو بين آونة وأخرى ، ويرفق ذلك بصهيل الالم الذي كان ينبعث من قوائمه التي أدمتها الصخور والاحجار الحادة •

لقد كان مشهدا هادئا كئيبا ، لا ترى فيه العين سوى الصخور المدببة والاطراف الجبلية الوعرة المفروسة بالحصى • وكل مايخفف قليلا من الكآبة التي هيمنت على المنظر ، بعض الحشائش الخضراء التي نبتت على مسافات متباعدة • واستمررنا في السير ، فبلغنا بقعة من الغابات ، لم نكد نطرقها حتى تمنينا أن نعود أدراجنا بين الصخور فقد كنا أمام منحدر عمودي بين الاشجار الكثيفة ، التي لم تمكنا من رؤية ما حولنا •

لو أراد امرؤ أن يضع نفسه في مركز يمتزج فيه الخطر بنسب متساوية ، فما عليه الا أن يمتطي ظهر بغل شرير يقطع به الغابة ، ثم يهبط منحدرا بانحراف زاوي قدره ٤٥ درجة • ولتكن معـــه بندقية طويلة ومعطف من جلد الوعل ، ذو شراريب طويلة • كما هو الامر بالنسبة لي • ثم ليكن شعر رأسه طويلا ، ليعلق بالاغصان الصغيرة ولتتشابك بها تلك الشراريب • وحين يفلت الانسان الشعر من الغصن أو يفلت منه الشراريب يقوم ذلك الغصن بضربة على وجهه بينما تلطمه الاغصان الكبيرة على رأسه • وسيقف البغل هنيهة اذا كان مخلصا ، ثم يهبط بسرعة فيبدل من وضع راكبه ، فتراه تارة يحتضنه بود كي يتجنب لطمة الاغصان التي ترتفع فوق رأسه • وأخرى يندفع الى الخلف ، ويلقي بركبته الى الامام فوق عنق البغل حتى ينقذها ، فلا تتحطم بين خاصرة البغل وساق الشجرة القاسي • وكان رينال لا يكف عن التأفف وارسال سيل لا ينقطع من اللعنات• واستمر الحال كذلك حتى وصلنا أسفل المنحدر • ولم يخطر ببال أحد منا على الرغم مما قاسيناه ، أن يسأل الى أين نحن ذاهبون • ومع انني كابدت كثيرا من مشاق السفر ومتاعبه وأخطاره ، الا انى لا أزال أحتفظ بأسوأ ذكرى لتلك الدقائق القليلة التي مرت بنا • ألقينا وراء ظهورنا بكل ما احتملناه وكابدناه من المشقات والصعوبات عندما خرجنا من الغابة الى ضفاف نهر ، يجري حول سفح المنحدر• فاتجهنا نحو اليسار ، وسرنا ونحن نشعر بالراحة والسرور فوق الحصى البيضاء • والى جانب الماء الرقراق ، تظللنا أوراق خضراء من أشعة الشمس المحرقة ، وتقينا شدتها • ولكن للاسف لم تطل بنا تلك اللحظات السعيدة • فقد انحرف النهر فجأة وانحدر من التل الصخري الى هوة سحيقة • فرجعنا ثانية الى السير في الغابة

البغيضة . ولكن عندما خرجنا منها هذه المرة ، وجدنا أنفسنا نقف في وضح النهار ، فوق نقطة مرتفعة من الجبل . وكان يمتد أمامنا واد فسيح مقفر يلتف ويتعرج بعيدا وسط الجبال ، وألقى رينال بنظرة عميقة ، كانت عيناه فيها تتفحصان بامعان كل ما تقعان عليه ، وما لبث أن قال :

عندما كنت أرافق الهنود ، كنت أجد في البحث بغية العثور على الذهب في التلال السوداء ، حيث يعتقد أنه موجود بكثرة . وكنت على ثقة من أن أجد شيئا ، لا سيما وقد حلمت بذلك أكثر من خمسين مرة . أنظر الى تلك الصخور السوداء المكدسة هناك ، فوق تلك الصخرة الهائلة . ألا تبدو كما لو أن هناك شيئا ما ؟ ان الرجل الابيض لا يمكنه أن يستفيد من كثرة التنقيب في هذه الجبال ، لان الهنود يقولون أنها مملوءة بالارواح الشريرة . وأنا أعتقد أن وجود بعض الناس للتنقيب عن الذهب ، لا يبشر بالخير ، كما أنه ليس فألا حسنا . ومع ذلك فأنا أتمنى لو يكون معنا واحد من أولئك المنقبين حاملا عصاه السحرية ، فأنا أضمن أنه لن يمر وقت طويل قبل أن يقع على منجم للذهب . ولكن لندع حديث الذهب اليوم ، ونهبط الى ذاك المكان حيث أظن أننا سنحصل على وعل له ذيل أسود .

ولكن نبوءة رينال لم تتحقق ، فقد قطعنا جبلا بعد آخر واجتزنا واديا بعد واد ، وبحثنا في كل مكان ارتدناه ، فلم نعثر على أثر للطرائد ، الامر الذي زادني عجبا واستغرابا ، وزاد صديقي تضجرا وانزعاجا . لذلك قررنا الخروج الى الصحراء واقتناص ما نجده في طريقنا من الرئم . فمررنا من واد ضيق امتلأ قاعه بشجيرات القصعين البري ، وارتسمت فوقه ممرات عميقة ، أنشأتها حوافر

ثيران البافالو ، التي اعتادت لاسباب مجهولة ، أن تدخل بمواكبها الطويلة هذه الممرات الجبلية •

وكانت عينا رينال تجوب باستمرار بين الصخور ، وفي أطراف الوهاد على أمل أن يرى احدى أغنام الجبال تهبط المرتفعات • ومر وقت طويل دون أن يظهر أثر لاي حيوان • ولكننا لاحظنا أخيرا شيئا يتحرك قرب سفح الجبل • وبعد لحظة ، وقف وعل ذو ذيل أسود وأخذ ينظر الينا من فوق احدى الصخور ، ثم استدار ببطء واختفى خلفها ، فترجل رينال سريعا ، وراح يعدو نحوه • أما أنا فقد منعني ضعفي من اللحاق به ، فجلست وأمسكت عنان جواده بانتظار ما ستسفر عنه تلك المطاردة • ثم ما لبث أن طرق سمعي دوي طلق ناري أخذ يتلاشى بين الصخور ، وأخيرا ظهر رينال وعيناه تنطقان بالفشل الذي أصابه • وامتطينا خيولنا وتابعنا السير في الوادي الطويل ، الى أن بلغنا خندقا قليل العمق ، مفروشا بالطين الابيض • فاكتشفت عينا رينال تحت هذا المظهر الخارجي الطبيعي علامات الخطر الكامن • فطلب مني أن أقف • ثم ترجـــل ورمى حجرا وسط الخندق ، فرأيته يقع محدثا رشاشا من مياه قذرة ، ثم ينفذ داخل قشرة الطين اليابسة ، فيثير في أطراف الحفرة التي سقط فيها ، سائلا لزجا أصفر اللون ، وسبرنا غوره بعصا طولهـــا ستة أقدام ، فغاصت به حتى آخرها • وعلمت بعد ذلك ، أن مثل هذه الاماكن موجودة في جبال روكي بكثرة • وطالما غاص فيها البافالو فجأة ، وهـــو يسير كالاعمى الابله ، بدون أن يكترث بالخطر ويحذره •

وجدنا بعد جهد طويل ، نقطة استطعنا منها أن نجتاز الهوة • وعندها بدأ الوادي يتكشف عن سهول تمتد أمامنا حتى الافق •

ووقع نظرنا فوق أحد المرتفعات البعيدة على ثلاث بقع سوداء ، فصاح زينال قائلا : أنظر انها بافالو ٠

ثم أردف : تعال مسرعا ، فعلينا أن نحصل على احداها ٠ ان زوجتي بحاجة الى بعض الاطناب لمسكنها ٠ كما اني بحاجة الى بعض الفراء ٠

وعدا بحصانه الاشقر بأقصى سرعته ، فهمزت البغل خلفه ٠ فراح يعدو حتى سبق غريمه السمج ٠ وعندما قطعنا ميلا أو أكثر ، قفز أرنب بري كبير بين قوائم البغل ، فجفل وأخذ يترنح بين جانب وآخر حتى طرحني أرضا ٠ وسقطت بندقيتي بجانب رأسي ٠ فانطلقت من أثر الصدمة ورن صوت الرصاص في أذني حادا مخيفا فصعقت برهة ٠ وبقيت ملقى بدون حراك ٠ فعاد زينال الى بسرعة ظنا منه أني أصبت بتلك الطلقة ٠ فأخذ يلعن البغل ٠ وبعد بضع دقائق ، نهضت والتقطت البندقية وفحصتها باهتمام ٠ فوجدتها قد أصيبت بعطل شديد ٠ الا أنه لحسن الحظ لم تتعطل تماما عن العمل ٠ فنظفتها ثم حشوتها ثانية ، وأعطيتها الى زينال الذي أمسك في تلك الاثناء بالبغل ، وقاده الي فركبته ثانية ٠ ولم أكد أعلو ظهره حتى بدأ يقفز الى الامام والخلف بشدة ٠ ولكنني كبحت جماحه سريعا اذ كنت مستعدا لذلك ٠ ثم أخذت بندقيتي من زينال ، وسرنا نعدو الى الامام ٠

واجتزنا الجبال وانحدرنا نحو الصحراء الواسعة ٠ وكانت ثيران البافالو أمامنا على مسافة ميلين ٠ وحين اقتربنا منها توقفنا واختبأنا عند مرتفع ، وأمسكت بعنان جواد زينال ، بينما انطلق هو راكضا وبندقيته بيده ، حتى اختفى عن عيني وراء قطعة أرض مرتفعة ٠ ومضت بضع دقائق ٠ سمعت بعدها صوت طلقاته ، ورأيت البافالو

يركض هاربا بأقصى سرعته نحو اليمين ، وعاد الصياد هـذه المرة فاشلا ، كما عــاد في المرة السابقــة . وامتطى جواده وهو يظهر الاكتئاب ، ويلعن التلال السوداء والبافالو ، ويقسم أنـه كان من خيرة الصيادين الماهرين . وكان ما يقوله حقا فهو لم يخرج قبلا الى هذه الجبال دون أن يصطاد اثنين أو ثلاثة من الوعول على الاقل.

اتجهنا بعد جميع هذه المتاعب نحو المخيم . وكنا نرى الوعول تقفز من أمامنا في اتساع السهل وفي كل الاتجاهات . وعندما بلغنا سفح الجبل القائم بيننا وبين القرية . كان الضجر والملل قد أخذا منا كل مأخذ، ووصلا بنا الى درجة لم نستطع معها السير بهدوء في طريق السهل الدائري . فاتجهنا نحـو اليسار ، ثـم صعدنا بـين الصخور ندفع هذه الدواب المسكينة المتعبة دون رحمة أو شفقة . وكانت الارام لا تزال تمر أمامنا عن بعد بين هذه التلال الصخرية . وبلغنا القمة الاخيرة ، ثم انحدرنا الى الوادي ، حيث لاح لنا المخيم وهو يموج بسكانه . فهبطنا اليه ونحن نجر أذيال الخيبة والخجل. وفي أثناء مرورنا بين المساكن كان الهنود يتطلعون بعيونهم باحثين عن اللحوم التي نحملها خلف سروج جيادنا . وانفضوا من حولنا هازئين ، ولكن بعض النســاء أعربن عن احتقارهن لنــا ، ببعض الصيحات المكبوتة التي جعلت رينال يتميز من الغيظ . وعند وصولنا الى مسكنه ، تلقينا أكبر اهانة وجهت الينا ، فقد كان نسيبه الفتى الهندي (زخة البرد) مضطجعا على الارض ، يتناول طعام الوسنا في اناء خشبي مع صديقه (الارنب) . ورأينا الى جانبه جلد وعل طري اقتنصه منذ برهة من بين الجبال ، على مسافة ميلين عن المخيم. ولقد امتلأ قلب الفتى بنشوة الظفر، وبدا كأنه لم يشعر بقدومنا. وكان هدوء

وجهه الجميل يدل على ضبط النفس الذي يتميز به الهندي ، والذي يمنع صاحبه من اظهار عواطفه ، دون أن يكبح جماحها • وكنت قد عرفت (زخة البرد) منذ شهرين • ومنذ ذلك الحين ، تطورت أخلاقه تطورا غريبا ، فعندما رأيته للمرة الاولى ، كانت عواطف الصبي تنقلب الى طموح الصياد الشاب المحارب ، الذي تمكن أخيرا أن يقتنص أول وعل • فأثار هذا الظفر طموحه الى الرفعة والجاه • وجعل يسعى منذ ذلك الوقت ، وراء الصيد • فما استطاع أحد من فتيان القرية أن يجاريه ، سواء بنشاطه أو بحسن حظه • وكان لهذا النجاح أثر واضح في تبدل خلقه •

وأول ما اذكره عنه ، هو انه كان دائما يتحاشى مرافقة الفتيات الهنديات ، ويذوب خجلا اثناء مرافقتهن • أما الان وقد اشتدت ثقته بنفسه ، فقد اخذ يبدو بمظهر الرجل الظريف • فيضع بطانية حمراء على كتفه الايسر ، ويصبغ خديه كل يوم بالسيلقون، ويعلق اقراطا من الصدف في اذنيه ، وأعتقد انه لاقى بعد ذلك نجاحا طيبا في مغامراته الجديدة • وكان لا يزال أمام (زخة البرد) الشيء الكثير ، قبل ان يصل الى مرتبة محارب • ومهما كان كيسا ظريفا مع النساء فلم ترافقه شدة حيائه وخجله ، أمام الزعماء والشيوخ ، لانه لم يقتل احدا بعد • ولا أشك في ان الصبي ذا الوجه الناعم ، كان يتحرق شوقا ورغبة في ان يمرن سكينهالصغيرة ولو قدر لي أن أخيم معه لوحدي ، فلن أفعل ذلك دون ان أراقب حركاته بعين ملؤها الريبة والشك •

أما أخوه الاكبر (الحصان) فيختلف عنه تماما ، اذ لم يكن سوى فتى كسول يجيد اقتناص الطرائد ، ولكنه يفضل ان يعيش على صيد الاخرين • وليس له شهوة للرفعة ، وكان له وجه بشع

أسود ، يقضي معظم اوقاته في تزيينه بالسيلقون ، والنظر اليه بمرآة صغيرة ، كنت قد اهديتها له . أما باقي النهار ، فكان يقسمه بين الأكل والنوم والجلوس في الشمس خارج مسكنه حيث يقضي الساعة تلو الساعة ، مرتديا كامل زينته وحاملا سيفاقديما من سيوف الدراجون . وكان بهذا الشكل يتملق نفسه ويخدعها بأنه محل اهتمام جميع النساء . ومع انه كان يجلس وهو يحدق بناظريه بوقار تام ، كما لو كان غارقا في التفكير . فان من السهل على المرء ان يكشف حقيقته ومجرى تفكيره اذا تابع النظرات التي كان يلقيها بطرف عينيه على النساء اللواتي يحسبهن معجبات به .

ان زخة البرد وأخاه يمثلان الطبقات المختلفة في المجتمع الهندي . ولا يمكننا هنا ان نمر دون ان نذكر شيئا عن (الارنب) صديق (زخة البرد) ، والذي كان يجلس معه عند وصولنا المخيم . فالارنب وزخة البرد لا يفترقان أبدا عن بعضهما ، يأكلان وينامان ، ويذهبان الى الصيد معا ، ويتقاسمان كل ما يملكان تقريبا . واذا كان هناك شيء يستحق ان نطلق عليه لقب (خيالي) في الاخلاق الهندية فيجب ان نتحرى عنه في صداقة كهذه التي تكثر عادة بين قبائل الصحراء .

وانتهى ذلك اليوم الشاق ، فاستلقيت في مسكن رينال ، وقد تغلب علي النعاس . وشمل الهدوء المخيم ، بعد انتهاء العمل اليومي . وراحت القرية في سبات عميق . وكنت اسمع من هنا وهناك ضحكات لبعض الفتيات ، منبعثة من مسكن مجاور . أو بعض أصوات حادة لاطفال كانوا يتنقلون لوحدهم في المكان المهجور . واصابتني العدوى ، فتشتت تفكيري ، فانغمست في التأمل والخيال . وأخيرا استولى علي النعاس ، فرحت في سبات عميق .

وجدت عند الصباح ، أنه تقرر أن يبقى المخيم في مكانه يوما آخر . ولما كنت اخشى الوحدة والاسترخاء في بقائي هناك ، خرجت استكشف الجبال المجاورة . وأخذت بندقيتي الصديق الوحيد الذي اطمئن الى مساعدته في أوقات الشدة . وكان معظم الهنود في القرية ، يبدون أطيب النيات نحو البيض، غير ان تجارب الاخرين، وملاحظاتي الخاصة ، أكدت لي انه من الخير ، ان لا أثق بهم . لانه لايمكن التنبؤ بما قد يقوم به الهندي من الاعمال عندما تدفعه بعض طباعه الطلقة . ولا يوجد مايشجعه لارضاء نزعته الوحشية ، اكثر من شعوره بان ما يظهره الرجل الابيض ، هو ضعف او خجل واستكانة .

وكانت الممرات الجبلية العميقة المظلمة ، المزدحمة بالاشجار والشجيرات ، تبدأ من جوانب التلال الزاخرة بالغابات ، والتي يغطي النبات كل شبر منها تسمح فيه الصخور للنباتات ان تنمو . وكان عدد كبير من الهنود يتسللون الى اطراف الغابات ، بينما أخذ الصبية يصيحون وهم يتسابقون فوق الجبال ، منهمكين في اشباع نزعاتهم الهدامة بقتل الطيور والحيوانات الصغيرة باقواسهم وسهامهم. وكان هناك واد صغير يمتد بين الصخور المرتفعة ، حتى قلب الجبال. فبدأت أصعد متجها نحو القمة بين الصخور والاشجار ، التي تسد الطريق وتعرقله . وسرت بعض الوقت حتى أتيت بقعة خالية من الاشجار والادغال . فرأيت عن بعد رأسا اسودا وكتفا احمر لهندي واقف بين الشجيرات القريبة . فلما اقتربت منه ، دون ان أشعره بوجودي ، عرفت فيه أعز صديق لي في القرية الا وهو ميني سيلا . فتحولت نحو نقطة استطعت أن أراه منها . فوجدته جالسا لوحده ، جامدا كالتمثال بين الصخور والاشجار ، وقد رفع رأسه

عاليا ، وشخصت عيناه الى شجرة صنوبر تبرز من شق في الهاوية العالية ، وتهتز مع لفحات الريح ، وتتماوج أغصانها ببطء كما لو أن الحياة تدب فيها • وتأملت الشيخ برهة من الزمن ، فعلمت أنه يتعبد الى ربه ، الكائن الاعلى • فتمنيت ان أصل الى قرارة نفسه وأقرأ افكاره،ولكنني لم استطع ان أستنتج أكثر من الحدس والتخمين• وكنت أعلم أن عقل الهندي يستطيع تقبل فكرة الروح العاقلة القوية ، التي تحكم العالم من الاعلى • بيد أن هذا العقل لا يمكن أن يرتفع الى درجة تكون له فيها صلة روحية بكائن ، يخيل اليه انه بعيد عنه ، ولا يستطيع ان يفهمه • وعندما يهدده الخطر ، وتتلاشى أمانيه ، وتخيم فوق رأسه المصاعب • يصبح على استعداد لأن يلجأ الى قوة يمكن لعقله ان يتقبلها ، بان يكون له حارس من الارواح يساعده ويرشده • والهندي يعتقد بان الطبيعة تتحرك بتأثير روحاني • فلا يتجول حيوان بري في تلك الجبال ولا يغرد طير ، ولا تهتز ورقة على شجرة دون ان يكون فيها ما يدل على مصيره أو يحذره مما ينتظره • وهو ينظر الى عالم الطبيعة من حوله كما ينظر الفلكي الى النجوم • لأنه مرتبط به • لذلك فان الروح التي تحرسه ، ليست خيالا غير عادي ، تتجسم عادة بصور بعض الاجسام الحية كالدب والذئب والنسر والثعبان • وكذلك كان مني سيلا ، في تأمله لشجرة الصنوبر القديمة ، قد آمن بان فيها القوة التي ترشده وتحميه في الحياة •

ومهما كان نوع التفكير الذي يمر برأس ذلك الشيخ ، فلم يكن من اللياقة ازعاجه ، لذلك فقد تراجعت بهدوء ، وهبطت الوادي الصغير حتى أتيت الى مكان استطعت منه ان أتسلق الهوة ، وأصل الى حافة الجبل • ونظرت عاليا فرأيت قمة ترتفع بين الغابات •

فاستحثني دافع غامض لان اتسلقها ، ولم اشعر منذ أيام بمثل قوة وليونة العضلات التي شعرت بها حينذاك ، وبلغت القمـة أخـيرا بعد جهاد استمر ساعة ونصف . وجلست فوق صخرة ، أجيـل النظر بين قمم الجبال الشاهقة . وكانت الصحراء الزرقاء الشاحبة الممتدة حتى الافق البعيد ، كالمحيط الهادي . وبدت هي والجبال المحيطة بها ، ذات منظر أخاذ يلفت النظر ويذهل اللب .

الفصل التاسع عشر

اجتياز الجبال

عندما تركت شو في مخيم لابوتنيه ، وعدته بان التقي به في حصن لارامي في اليوم الاول من شهر أغسطس . وقد قرر الهنود فعلا اجتياز الجبال في الطريق الى الحصن . ولكن ذلك كان مستحيلا ، لأنه لم يكن هناك ممر ، فاضطررنا مجبرين للسير مسافة أربعة عشر ميلا نحو الجنوب كي نعثر على طريق نسلكه وممر نجتازه. وتحرك المخيم بعد الظهر . وكنت أسير برفقة ثلاثة من الشبان الهنود في المؤخرة . وكانت اشعة الشمس تميل نحو الاختفاء . فهي تارة تغيب في ظلال الجبال المترامية وتارة تظهر لتتسلل الينا من بين الهضبات والتلال الجبلية . وكان المكان الذي اختاره هؤلاء لاقامة المخيم مشؤوما . فمنذ سنة خلت ، ضربوا خيامهم في نفس البقعة . ومنها ارسلوا فريقا من المحاربين بقيادة أحد أولاد (الزوبعة) لملاقاة العدو ، قبل ان يبلغ مساكنهم . ولكن ذلك الفريق أبيد عن بكرة أبيه ، ولم يعد منه أحد ، هذا هو السبب الرئيسي الذي قامت من أجله الاستعدادات للحرب على قدم وساق في هذا العام . لذلك لم استغرب تلك الاصوات الوحشية التي كانت تتعالى وتملأ الجو حين هبطت الى المخيم . فقد كان البكاء والنحيب يرتفع من كل جانب . ولم يكتف بعض النساء بذلك بل أخذن يجرحن سوقهن بالسكاكين . بينما اختار محارب فقد أخاه في تلك الحملة ، صورة أخرى للتعبير عن حزنه . فقد كان الهنود،

رغم شهرتهم بالجشع والبخل يتنازلون في مثل هذه المناسبات الهامة عن كل مايملكون ، اظهارا لشدة حزنهم،فيصبحون فقراءمعدمين. اذ حدث أن أتى هذا المحارب باثنين من أجود خيوله الى ساحـــة القرية ، ووهبهما الى اصدقائه . وعندها تعالت الهتافات التي اختلطت باصوات النساء في الثناء على كرمه .

وفي اليوم التالي ، وصلنا الى جبال جرداء قاحلة ، تشكل الصخور فيها طبقات متراصة بعضهافوق بعض. واثناء مرورنا بالوادي الفسيح الذي تصنعه هذه الصخور ، لاحظت ان رايموند يسير الى جانب فتاة هندية ويتجاذب معها اطراف الحديث ، ويغازلها من حين لآخر، بينما كانت عجائز النساء اللواتي يسرن بجواره ، يراقبن باعجاب كبير ما يدور بين الشابين . وكانت الفتاة تشيح بوجهها بين آونـــة وأخرى مقهقهة ضاحكة . وقد رأى البغل الذي يمتطيه رايموند ، ان الوقت قد حان ليداعبه بلؤم وخسة ، كما يفعل دائما حين يرى سيده ينسجم في أمر يسره أو ينسى واقعه الحالي . فأخذ يدبر ثم يثب بشراسة . وحاول رايموند ان يثبت فوق ظهره في بادىء الامر ، ولكن البغل جعل يثب بقوائمه الخلفيـــة في الهواء ، قاذفا براكبه من فوق رأسه ، وملقيا به أرضا . فعلا الصياح ، وانفجرت النسوة بالضحك وشاركتهن الفتاة ضحكهن، ثم أخذن يمطرنه بوابل من نكاتهن اللاذعة المرة . أما هو فاعتلى ظهر بغله ثانية ، واسرع هاربا ليتخلص من ألسنتهن وسخريتهن .

ولكزت جوادي فوثب يجري حتى حاذيته . فسمعته يصيح بي ، وهو يشير باصبعه الى تل صخري منفصل يقع في وسط الوادي المقابل لنا . فرأيت قطيعا من الايلة ،يعدو ثم يدخل في حافة الجبل. وما كاد يختفي حتى كانت الصيحات تتعالى من كل جانب . فقـد

ترجل الفتيان عن ظهور الجياد ، وخلعوا أرديتهم الثقيلة ،ثم انطلقوا يتسابقون باقصى ما يمكنهم من السرعة نحو سفح الجبل • ولحق رينال بهم ، وهو يهيب بي قائلا : « تعال ، اسرع ، ألا ترى ذلك القطيع من ذوات القرون الكبيرة• اننا حين نجد واحدا منها ، فسنجد حتما مئة أخرى بالقرب من المكان • »

ورأيت بالفعل ، قرب قمة الجبل ، اعدادا كبيرة تتحرك بسرعة آخذة في تسلق الصخور ، بينما سار قسم آخر بصفوف متكاثفة على الحافة الصخرية • وشاقني أن اشاهد هذه اللعبة ، فاسرعت نحوهم ، ثم صعدت بعيدا بين الصخور ، حتى لم يعد باستطاعة فرسي التقدم شبرا واحدا • فترجلت وربطتها الى شجرة صنوبر قديمة • بينما كان رايموند يسرع نحوي ، ويصيح بي مشيرا نحو القمة قائلا : انه شاهد قطيعا آخر من الغنم بالقرب من ذلك المكان • فاسرعت نحوه وأخذت اتسلق الصخور متجها حيث اشار • وحين بلغت القمة وجدت انها تشرف على الممر الصخري البعيد • وقد شاهدت بوضوح نحو خمسين رأسا من الغنم على مرمى طلقات البنادق ، تتزاحم وتتدافع وهي تصعد بين الصخور ، بينما كان الهنود العراة يقفزون من هنا الى هناك وهم يحاولون أن يلحقوا بها • ولم تمض الا برهة حتى اختفوا عن الانظار ، فلم أعد أرى ولا أسمع الا طلقات متفرقة تدوي بين حين وآخر ، ثم تزدادبعدا، ولا تلبث ان تتلاشى بين الصخور •

والتفت لكي اتبين طريق الهبوط وأبدأ به ، فرأيت الوادي يغص بالهنود الذين كانوا منطلقين ، بعضهم على ظهور الجياد وبعضهم الآخر عدوا على الاقدام • ثم رأيت باقي افراد القبيلة يقفون في مكان بعيد ، ويعملون في اقامة المخيم • فيممت نحوهم ،

وما هي الا برهة حتىالتقيت هناك برينال ورايموند ، اللذين كانا يحملان بينهما رأسا من الغنم قتلاه رميا بالحجارة حين حاول الهرب ، وهو في قعر الهوة وهما في أعلى القمة . ولم يمض وقت طويل ، حتى أخذ الصيادون يعودون واحدا في أثر الاخر . ورغم كثرة عددهم الذي زاد عن سبعين صيادا لم يفلحوا في اقتناص أكثر من ستة رؤوس من بينها ذكر ضخم الحجم ، يعلو رأسه قرنان هائلا الحجم ، وقد رأيت عند الهنود مغارف ذات اذرع طويلة ، تستوعب الواحدة منها ربع جالون صنعت من مثل هذه القرون الطويلة .

وقبل ان تبرح القبيلة أرض المخيم في اليوم الثاني ، خرجت برفقة (ريشة النسر) ، وهو رجل قوي البنية ذو وجه قبيح شرير ، وبصحبة أبنه الصبي ، الذي يمتاز بخفة الحركة ، وهندي آخر اسمه (النمر) . وقد خلفنا القرية وراءنا ، وسرنا معا بين شعاب صخرية ، حتى عثر (ريشة النسر) على بعض الطرائد . فانطلق هو وابنه يطاردانها ، بينما تابعت سيري مع النمر . وكان ذا مظهر نبيل وجسم رائع وزاد ذلك وضوحا حين القى رداءه المزخرف المصنوع من جلد البافالو فوق كتفيه . فبدأ كأنه يمثل الروعة والقوة والرجولة ، وقد علا ظهر جواده بطمأنينة وبدون تكلف . وأخذ ريش النسر يرفرف فوق رأسه ، فبدا مثالا حيا لفارس الصحراء المتوحش . واظن ، حسب ملاحظاتي ومعرفتي به ، أنه ما كان يعرف الغيرة والشك والوهاد ، كابناء جلدته وافراد قبيلته . هذا اذ كان قديرا جدا ، فلا يبدو على وجهه ما يعتلج في قرارة نفسه . وان الرجل الابيض المتمدن يستطيع في أغلب الاحيان ، أن يكشف عن بعض العواطف المشتركة بين طبيعته وطبائع الهنود .

ومع استمداده للاعتراف بالكثير من خصالهم الحميدة ، الا أن عليه أن يدرك مقدار الهوة التي تفصل بينه وبين رفاقه من الهنود الحمر • فما يكاد يتنفس هواء الصحراء ، ويألف جوها عدة أشهر ، حتى تصبح نظرته اليهم كانواع من الوحوش البرية المفترسة الخطرة المزعجة ، ومع كل هذا فقد كنت اقرأ في محيا النمر بعض دلائل التعاطف والحب الذي نشأ بيني وبينه • اذ نمت بننا صداقة متينة بعد ذلك ، فكان يعمل جاهدا في تعليمي لغة الداكوتا أثناء اجتيازنا الممرات الصخرية ، والوهاد العميقة والسهول الصغيرة القاحلة • وحين بلغنا بعد هنيهة فسحة يكسوها العشب وبعض شجيرات الريباس التي تنمو في اسفل الصخور ، تخلى عن تعليمي، لأنه لم يستطع مقاومة الاغراء الشديد • ووقف يقطف ما تقع عليه يده من الثمار • وقبل ان نتابع السير ، شاهدنا طلائع القرية قادمة عن بعد ، وقد سارت أمام الجميع امرأة عجوز كانت تقود حصانها بين الصخور ، ويتبعها باقي افراد القبيلة ، واحدا في أثر الآخر ، حتى غص الوادي الصغير بهم •

اقترب المساء ، فاقيم المخيم في بقعة ضيقة بالقرب من مرعى صغير تحيط به الجبال الشاهقة • وقد شاقني ان امتع نفسي بجمال الطبيعة في هذه المنطقة الرائعة • فتركتهم وتسلقت تلا مجاورا • وكانت الشمس ماتزال تلقي بأشعتها الفضية من خلال اشجار الصنوبر الكثيفة على قمة الجبل الغربي • وقد سيطر علي جمال المنظر وروعته ، فلم استيقظ من الحلم الجميل الا مع غروب الشمس • وعندها توجهت نحو القرية ، في حين كان عواء الذئاب والثعالب يملأ الكون ضجيجا • ويتردد آتيا من الغابات القريبة • وعندما وصلت المخيم كان يسطع تحت أنوار النيران المتقدة في

مختلف انحائه ، بينما كانت الوجوه النحاسية والاجسام العارية تبدو كالاشباح وهي تنتقل بين الصخور الشامخة المحيطة به .

ورأيت لفيفا من المدخنين يجلسون بشكل دائري على الارض ، أمام مسكن أحد المحاربين . فجلست أدخن معهم ، وكان ذلك اليوم هو الاول من شهر أغسطس فتذكرت انني كنت قد وعدت شو ان التقي به في حصن لارامي . وكان الحصن يبعد عنا مسيرة يوم أو اثنين . ولما كنت لا أحب أن أدع صديقي يصاب بالقلق بسببي ، فقد قررت ان أصل الى مكان الاجتماع بأسرع ما يمكن . لهذا أخذت ابحث عن (زخة البرد) الى ان وجدته فاهديته ورقة من السيلقون وبعض الاغراض الزهيدة الثمن ، مشترطا عليه أن يصحبني ويكون دليلي في اجتياز الجبال عند الصباح .

قبل زخة البرد الهدية قائلا : هاو ! ولم ينبس أحدنا بكلمة أخرى ، وهكذا عقدت الصفقة ، وتركته وتوجهت الى منامي في مسكن الغراب الكبير ، وأخبرني ، أن كل شيء جاهز . فارتديت ثيابي وخرجت ، فوجدت الجو باردا رطبا . وكان بانتظاري زخة البرد الذي امتطى جواده أمام مسكنه . فأسرجنا الخيول ، وقمنا بعض الاستعدادات للسفر . وما انتهينا منها ، حتى دبت الحركة في المخيم استعدادا للرحيل . وأشرقت الشمس ، فغادرنا تلك الارض ، ومررنا من ثغرة ضيقة بين الصخور تؤدي شرقا الى خارج المرعى . وحين بلغنا رأس الممر ، ألقينا نظرة خلفنا الى المخيم . فلمسنا فيه النشاط الذي جعله أشبه بخلية النحل ، فتقدمت وأنا أشعر بالامتعاض والاسى ، لفراق رفاقي الهنود . وتابعنا السير بين الصخور وأشجار الصنوبر في جو مظلم متقلب ، لا نكاد نرى فيه طريقنا . وكانت البادية التي تمتد أمامنا موحشة متعرجة تتناثر التلال

في أرجائها كما تنبسط السهول بالقرب منها • وانتشرت في أنحائها غابات من شجر الصنوبر والسنديان ، تحيط بها مرتفعات عالية من الجبال ، حجبها الضباب عن الانظار • فهتف (زخة البرد) الذي كان يسير في المقدمة ، لافتا نظري الى هذه المناظر الرائعة • وقد أخذت بعض الحيوانات الكبيرة تقفز من بين الادغال ، كما مر بنا أحد الايلة الضخمة الذي ارتاع وقفز حين فوجيء برؤيتنا ، مندفعا بين أشجار الصنوبر القريبة • فترجل رايموند عن جواده مسرعا • ولكن الايل أصبح على بعد مئتي يارد قبل أن يطلق بندقيته • وقد أصابت الطلقة الهدف ، الا أنها لم تكن قاتلة • ومع ذلك ، فقد تدحرج لدى اصابته • ولكنه نهض بأسرع ما يستطيع بين الاشجار• فأطلقت عليه طلقة ثانية حطمت كتفه ، ولكنه استمر في جريه وهو يعرج حتى هبط تجويفا مشجرا ، حيث لحق به الهندي فقتله • وعندما وصلنا الى المكان ، اكتشفنا أنه لم يكن ايلا بل كان وعلا ذا ذيل أسود ، يبلغ حجمه ضعفي حجم الوعل • وهو نوع غير معروف في المناطق الشرقية • وكان بعض الهنود قد لحقوا بنا حين سمعوا أصوات الطلقات النارية • وبعد أن أهديت جلد الوعل الى (زخة البرد) ، وحملنا ما أمكننا حمله من اللحم خلف سروجنا ، تركنا الباقي للهنود ، ثم تابعنا سيرنا • وكانت القبيلة تجد أيضا في سيرها ، حتى أصبحت على مسافة يستحيل علينا أن نسبقها • فجعلنا اتجاهنا طبق خط مستقيم • فاستطعنا بعد وقت قصير ، أن نرى الهنود من خلال أشجار الصنوبر ، وهم يسيرون بينها حيث أدركناهم ، وقد تجمعوا في ممر ضيق بين الصخور وأشجار الصنوبر القديمة • فهبطنا المنحدر الشرقي للجبل ، حتى بلغنا ممرا وعرا يؤدي الى هوة عمودية ، فاجتازته الجموع دفعة واحدة • فاكتظ الطريق وبدا

كأنه جبلي هائج • أما الجبال المقابلة لنا ، فقد ظهرت مشتعلة بنار أقل تأججا بعد أن مضى عليها عدة أسابيع لم يخمد أوارها •

وضربت القرية خيامها في الصحراء بالقرب من سفح الجبل • وكان الحر شديدا خانقا • لذلك لم يسدلوا أطراف الخيام بل أبقوها مرفوعة ، حتى لا تعيق التيارات الهوائية ، ولتخفف قليلاً من وطأة الحرْ • أما رينال فقد خلع ثياب الصيد ، وارتدى ثياب الهنود الانيقة ، ثم تمدد بها في مسكنه فوق رداء من جلد البافالو ، وهو يلعن الحر ، وينفخ دخان الغليون الذي كنت أشترك معه في تدخينه •

قال رينال وهو يشير الى خارج المسكن : « أنظر هناك ، هل ترى تلك السلسلة من التلال التي تبعد عنا حوالي خمسة عشر ميلا ؟ وهل ترى أيضا ذلك التل البعيد ، وتلك البقعة البيضاء التي تعلو قمته ؟ هل تظن أنك رأيتها من قبل ؟ »

فقلت : « يخيل الي أنها تشبه الجرف الذي خيمنا تحته عندما كنا بالقرب من نهر لارامي قبل ثمانية أسابيع » •

فأجاب رينال : لقد أصبت المرمى •

قلت عند ذاك : اذهب يا رايموند وأحضر الدواب ، فسوف نقضي الليل قرب ذلك التل ، ثم نتابع سيرنا في الصباح الى الحصن •

وبعد قليل كانت الفرس والبغل أمام المسكن ، فأخذنا نضع حوائجنا فوق ظهريهما ، بينما اجتمع حولنا عدد من الهنود ، وكانت فرسي النشيطة بولين قد اشتهرت بقوتها ورشاقتها • واذن فما كان اجتماع هذا العدد الكبير منهم ، وكل يجر حصانا أو فرسا قدمت لي كلها هدية ، الا بسبب طمعهم بأخذ بولين ، الا أنني رفضت هداياهم • لان قبولها يعني التخلي عن بولين الى أحدهم حسب عادة الهنود •

ودعنا رينال فقط دون بقية الهنود الذين لا يقيمون وزنا لمثل هذه الرسميات ، ثم غادرنا المخيم متجهين نحو الجرف الابيض العالي الذي كانت قممه الشاحبة ، تلوح لنا بعيدا . وقد رافقنا هندي غاب اسمه عن ذاكرتي ، ولكن بشاعة وجهه وسعة فمه بقيت زمنا طويلا لا تبارح مخيلتي أبدا . وفي اليوم الثاني نهضنا مبكرين ، فامتطينا جيادنـا ، وسرنا الى هدفنـا متنقلين بين السهول الفسيحـة والتلال القاحلة . ولم يحن وقت الظهيرة حتى شاهدنا منظرا خلابا مـن الاشجار التي يتميز بها مجرى نهر لارامي . ولكننا داومنا السير خلال أشجار الصفصاف القديمة الباسقة التي تنمو على ضفتي النهر ، حتى بلغنا الضفة الثانية ، فتوقفنا كي نروي ظمأنا ، ونأخذ قسطا من الراحة ، وترجلنا وتركنا خيولنا تشرب ، وجثونا فوق الرمال ، وأخذنا نعب الماء حتى ارتوينا ، وبعد نحو ساعة من الزمن ، امتطينا الدواب ثانية ، وتقدمنا ولم نبتعد كثيرا حتى بدت لنا بعض المشاهد المألوفة .

فقلت : لقد اقتربنا من الحصن .

فقد كانت هناك شجرة اعتدنا أن نخيم في ظلها ، كما لاحت أمامنا الصخور البيضاء الشاهقـة التي تشرف على مخيمنا بجانب النهر ، الذي كانت خيولنا ترعى فيه . وخلف ذلك كله قرية الكلاب البرية حيث كنت أقضي الساعات الطويلة في اقتناص سكانها التعساء .

قال رايموند وقد رفع وجهه العريض نحو السماء : سوف تدركنا العاصفة ، قبل أن نستطيع أن نجد مأوى يعصمنا من المطر . ولم نمض الا دقائق قليلـة حتى خيـم الظلام بسرعـة فوق الاجراف والمروج ، والجداول والغياض . وفي كل مكان . وارتفعت كتل سوداء من السحاب ، وما لبث الرعد أن أخذ يهدر بشدة .

قلت وأنا أدفع فرسي بسرعتها القصوى وأشير الى غابة كثيفة من الاشجار بجانب الجدول : سنخيم هنـاك ، وتبعني رايموند ؛ ولكن الهندي وقف يناديني بحماس والحاح • وحين سألناه عن سبب توقفه وندائه • أجاب أن شبح اثنين من المحاربين يسكن بين هذه الاشجار ، وسوف يصيحان ويقذفان الحجارة فوق رؤوسنا طول الليل ، اذا خيمنا قربهم ، وقد يسرقان خيولنا قبل أن يحل الصباح • ومسايرة له وحتى لا نغضبه ، تركنا ذلك المكان واتجهنا نحو (شاج ووتر) مسرعين ، بينما أخذت الامطار تهطل بقوة • وبعـد قليل بلغنا بضع شجيرات من الصفصاف تقوم قرب مصب جدول صغير • فترجلنا ورفعنا السروج عن ظهور الدواب ، وفككنا أحزمتها • ثم بدأنا نقطع بعض الاغصان ، لنقيم لنا ملجأ يقينا المطر • ولم تتكلل جهودنا بالنجاح ، لان العاصفة اجتاحتنا بسرعة • ولكن لم يصبنا لحسن الحظ الا قطرات من سحابة عابرة • وأخيرا صحا الجو وسطعت الشمس • فأخذنا في تحضير طعام من الوسنا ، كان الهندي رفيقنا قدمه لنا ، وبعد أن فرغنا من طعامنا ، أحضر الهندي غليونه وكيسا من الشونفساشار ، فجلسنا ندخن سوية ، ولم نلبث طويلا ، اذ كنا بأشد الحاجة الى الراحة • فانصرفنا الى النوم • أما صديقنا ذو الفم الواسع ، فقد قام بجولة تفقد فيها الاماكن المجاورة على سبيل الحذر والاحتياط ، وحين انتهت جولته ، أخبرنا أن ثمانية أشخاص أحصاهم على أصابعه ، قد خيموا قريبا من مكاننا قبل قليل، وهم بيزونيت ، وبول دوريون ، وانطوان لورج ، وريتشاردسون ، وأربعة آخرون ، لم يستطع ذكر أسمائهم • وقد ثبت صدقه ، ولكني لم أستطع أن أعرف كيف تمكن بغريزته أن يصل الى هذه النتائج الدقيقة •

وكان الظلام لا يزال مخيما عندما استيقظت ونبهت رايموند • وكان الهندي قد غادرنا ، اذ قرر أن يسبقنا الى الحصن • فأسرجنا جيادنا وتبعناه • وعندمـــا أشرقت الشمس أخـــيرا ولمعت كالكرة السحرية المصنوعة من النحاس الاصفر ، كنا لا نزال على بعد عشرة أميال عن هدفنا • وقد استطعنا أخيرا أن نشاهد حصن لارامي ، من فوق قمة جرف رملي ينتصب بجانب النهر كبقعة رمادية اللون ، في وسط الصحراء النائية • فأوقفت جوادي وجلست أنعـم النظر برهة من الزمن • وقد خيل الي أن الحصن مركز المدينة والرفاه • وأخيرا تابعنا السير ، فلم يطل بنا الوقت حتى وصلنا اليه ، لاننا كنا قد قطعنا قسما كبيرا من الطريق ، ونحن نعدو بأقصى سرعـــة • فوصلنا الى ضفاف نهر لارامي ، الذي كان يقف بيننا وبين الجدران الصديقة • فأخذنا نخوض النهر ، وسرعان ما رأينا عددا من الرجال يهرعون لاستقبالنا • وقد لمحت شـو بينهم وكذلك هنري شاتيون بوجهـه الحبيب الجميل الذي يفيض بالرجولة والصراحة • كما هرع لاستقبالنا ديلوريية الذي رحب بنا بحرارة • ولم يكن لقاؤنا عاديا • فقد أترعني السرور وذهب باتزاني ، لانني انتقلت من الحياة مع المتوحشين ومن هم على شاكلتهم ، الى الحياة مع رفيقي الشهم الراجح العقل ، ومع دليلي ذي القلب النبيل • وقـــد رحب شو بعودتي أجمل ترحيب بعد أن بدأ يساوره القلق الشديد على مصيري•

ورحب بوردو بي بحرارة ، ثم دعا الطاهي • وهذا الاخير موظف جديد قدم من حصن بيير ، مـع عربات التجـــار • وكان يتباهى بصنعته وبراعته في الطهي ، غير أنه لم تكن لديه المواد والوسائل الكافية لاتقـان صنعته • فوضع أمامي طعـــام الافطار المؤلف من البسكويت والقهوة والخنزير المملح • وقد خيل الي ، أنني انتقلت

الى مرحلة جديدة ، استطعت عندها أن أجلس على مقعد ، وأستعمل الشوكة والسكين ، بينما كان أمامي طبق وقدح من الشاي ، وضع فوق شيء يشبه المائدة • وكانت القهوة لذيذة ، والخبز نوعا جديدا من المآكل الطيبة • لانني لم أذق منذ ثلاثة أسابيع شيئا سوى اللحم الذي كانوا يقدمونه الي بدون ملح في أكثر الاحيان • وقد استمتعت بالاضافة الى الطعام ، بالرفاق الطيبين ، وكان شو يجلس أمامي بثيابه الخفيفة • وان من يود معرفة قيمة الرفيق الصالح ، عليه أن يقضي بضعة أسابيع لوحده في احدى قرى الاوجيللالا ، خاصة اذا أضاف الى تلك العزلة مرضا خطيرا منهكا ، كما حصل معي • وعند ذلك يتضح شعوره ويعلم قيمة ما أقول • أما شو فقد بقي في الحصن ثلاثة أسابيع ووجدته حيث تركته في مكانه القديم ، في تلك الغرفة الواسعة التي كان يستعملها مدير الحصن • وقد كدست في احدى زواياها بعض أثواب البافالو • فاضطجعت فوقها ، بعد أن أحضر لي ثلاثة كتب قائلا :

« هذه كتب لشكسبير وبايرون ، وهذه هي التوراة التي تحوي من الاشعار ما يعادل ما في هذين الكتابين معا •

واخترت أسوأ الكتب الثلاثة ، وجلست أتمتع بابداع ذلك العبقري الفذ ، الذي لم يظفر بعمل ما سوى الاحتيال علينا حتى ينسينا صفاته المخنثة •

الفصل العشرون

الرحلة الموحشة

جلست يوم وصولي الى حصن لارامي ، مع شو على ثوبين من جلد البافالو في الغرفة التي قدمت لنا ، وكان هنري شاتيون ، يجلس معنا منهمكا بتصليح سروج الخيل وتنظيف الاسلحة التي أتينا بها ، بينما جثم ثلاثة من الهنود على الارض ، يحملقون بنا بعيون ثابتة .

وقال شو : « لقد كنت مسرورا بمجيئي الى الحصن من كل الوجوه ،ولم يزعجني سوى عدم حصولي على(شونفساشا) جيدة ، لا بالصداقة ولا بالمال » .

فقدمت له كيسا صغيرا من الجلد يحتوي على نوع جيد منه ، وكنت قد أتيت به معي من التلال السوداء . وحين رآه صرخ مناديا هنري طالبا منه أن يحضر لوح التهريم الذي يخص بابين . ولكنه استدرك . بل أعطه الى ذلك الهندي ، ودعه يهرم لنا هذا الخليط ، انهم يتقنون ذلك أكثر من أي رجل أبيض .

خلط الهندي اللحاء والتبغ بالمقادير اللازمة دون أن ينطق بكلمة ثم ملأ الغليون وأشعله . فتناولته منه وجلست أتداول مع صاحبي تفاصيل خطتنا القادمة ، وكان شو قد سرد علي قبل ذلك بعض الحوادث التي جرت في الحصن أثناء غيابي .

كان قد وصل الى الحصن منذ أسبوع ، أربعة رجال قادمين من الجبال ، وهم سوبليت وريديك واثنان آخران . وقبل أن يبلغوا مقرهم ، التقوا بعدد كبير من شبان الهنود ممن ينتمون الى قبيلة

صديقنا القديم سموك ، الذي طالما ادعى هو وأتباعه أنهم من أصدقاء البيض • واقترب المسافرون ، وأخذوا يجاذبونهم أطراف الحديث دون أن يرتابوا بشيء• وعلى حين غرة ، أمسك الهنود بأعنة الخيول وأمروا راكبيها بالترجل • ولم يرضخ المسافرون للأمر ، بل ألهبوا ظهور الخيل بسياطهم ، وراحوا يعدون بأقصى سرعة هاربين من الهنود ، بينما كان أولئك يقهقهون ضاحكين ، ويطلقون الرصاص فوق رؤوسهم ارهابا • فلم يصب أحد منهم بأذى ، وشعروا بأن عليهم بعد هذه التجربة ، أن لا يثقوا بالهنود ولا يركنوا اليهم حتى لا يتعرضوا لاخطار جديدة • وقرروا متابعة سيرهم نحو الغرب على طول سفوح الجبال الى حصن بينت • ولما كانت خطتنا تتفق مع خطتهم ، فقد اقترحوا بأن نسير مجتمعين • ولكن سرعان ما فرغ صبرهم حينما وجدوا أنني لم أرجع بعد فنسوا الاخطار التي تعرضوا لها في الماضي القريب • وساروا وحدهم ، بعد أن وعدوا بانتظارنا في حصن بينت • ومنذ ذلك الحين بدأنا سفرنا الطويل الى المستعمرة برفقتهم ، لان الطريق كثيرة الاخطار ، وقد ابتليت بوجود قبائل البوني والكومانش المعادية •

وانتظرنا عند بلوغنا حصن بينت ، أن نجد مددا آخر • وقد خرج الى الجبال شاب من كينتوكي بصحبة فريق روسل أحد مهاجري كاليفورنيا • وكان من أهم أهدافه أن يقتل أحد الهنود ، وقد نجح بذلك دون أن يقيم وزنا للاخطار التي كنا سنتعرض لها نحن وغيرنا من المسافرين حين نمر في البلاد التي يقطنها أقارب القتيل الموتورون الساخطون • ثم ما لبث أن ترك رفاقه المهاجرين مدعيا أنه اشمأز منهم • ورحل مع بعض الرفاق قاصدين رأس اركنساس ، بعد أن ترك لنا رسالة يقول فيها ، انه سينتظر حتى نصل حصن بينت ،

ومن هناك سيسير برفقتنا الى المستعمرات ، ومع ذلك فحين وصل الحصن ، وجـد فريقا مؤلفا من أربعين رجلا على وشـك السفر عائدَين الى الوطن ، فلم يتوان ، بل شد رحاله وانضم مع رفاقه الى هذه الفرقة مستغلا وجود مثل هذا الحرس القوي برفقته • وبعد ستة أسابيع وجدنا أن جميع حلفائنا قـد هجرونا وتركوا مصيرنا الى القدر •

وفي الرابع عشر من أغسطس ، ألقينا لآخر مرة نظرة وداع على بوابة حصن لارامي المضياف ، بعد أن اتجهنا للسير أنا وشو في الصحراء مرة أخرى • وكان يرافقنا في الخمسين ميلا الاولى الصياد تروشيه ، وموظف غريب اسمه روفيل ، يعمل لدى شركة الفراء ، وكانا في طريقهما للانضمام الى التاجر بيزونيت في مخيمه قرب نهر هورس • قطعنا ثمانية أميال في ذلك اليوم ، وصلنا بعدها الى بقعة يجري فيها جدول صغير في وسط هذه الصحراء المقفرة • وعلى جانبيه أجمات من أشجار الكرز البري ، تتدلى من أغصانها أثمار ناضجة • فحططنا رحالنا في هذا المكان • ولم ننصب خيمتنا كسلا ، بل أنزلنا سروج الخيل فوق الارض • وفرشنا ثوبين من البافالو ، ثم اضطجعنا عليهما وأخذنا ندخن ، بينما انهمك ديلوريه أثناء ذلك بمقلاته • كما وقف رايموند ديدبانا بجانب الخيول التي أخذت في الرعي • وقد وجد ديلوريه مساعدا نشيطا في شخص روفيل ، الذي كان يمتاز ببراعته في فن الطهي ، فأخذ الاثنـــان يعملان في تحضير الطعام • وكان روفيل ، على حد قوله ، رجلا له معرفة عالية في كل شيء • فهو لم يدع فرصة تفلت منه كي يثبت قوله بصورة عملية الا انتهزها • وقد كان فيما مضى يعمل خيالاً في سيرك أقيم في مدينة سانت لويس ، وذات مرة ، حينما كان يقيم

في حصن لارامي ، استعمل فنه فدار حول الحصن على رأسه أمام الهنود ، فدهشوا بألعابه • وقد اشتهر بنكاته ، ولما كان مرحا خفيف الظل فقد ساعد ذلك على اشاعة روح المرح والسرور في المخيم • وكانت مساهمته في ذلك تفوق ما قدمه جميع أفراد الفريق • فتارة كان يجلس بجانب ديلوريه ، ويلقي عليه درسا في كيفية قلي شرائح لحم الايل • وتارة يعود للجلوس معنا فيسهب بالحديث عن الطريقة الصحيحة في جدل ذيل الحصان • وكان أحيانا يروي قصصا نشك في صحتها عن اقتناصه أحد ثيران البافالو بسكينه ، أو يقص علينا حكايات خيالية غريبة عن التاجر بابن • وأخيرا رفع كتابا لشكسبير ، كان ملقى على العشب ، وفتحه محاولا أن يقرأ ولكنه توقف ، ثم تعثر في قراءة سطر أو سطرين مثبتا لنا أنه يستطيع القراءة • ثم أخذ يقفز متمتما كالقرد اللعوب • وكان رفيقه تروشيه يجلس فوق العشب ، دون أن يفوه بكلمة ، وينظر بعين يقظة الى فتاة بشعة الوجه من هنود الاوتاه ، كان يغار منها •

وفي اليوم التالي ، تابعنا سيرنا فاجتزنا الحوض القاحل المتسع المسمى « حفرة جوشه » وعند حلول الظلام ، كنا لا نزال نجد بالسير في الوديان ، عسانا نستطيع العثور على الماء ، وقد طال سفرنا عبثا حتى ساعة متأخرة جدا من الليل• وفوق ذلك فقد كنا مضطرين للمرور في خط طويل من الاجراف العالية ، الرطبة الباردة ، ذات اللون الابيض الشاحب ، الذي يبعث الضيق في نفس الناظر • وعندما صعدنا الى فجوة من هذه التلال رأينا فوق أرضها آثار أقدام ضخمة تشبه أقدام العمالقة • فعرفنا فيها أقدام الدب الرمادي الذي رأينا كثيرا منه في اليوم السابق • واجتزنا بعد ذلك سهلا مقفرا يمتد حتى الافق ، ويتموج تموجات لطيفة • وقد انتشر فوقه

ضباب خفيف رغم شروق الشمس • واتخذت التلال البعيدة أشكالا غريبة متقلبة • وكنت أسير مع شو ، وقـــد سبقنا هنري شاتيون بمسافة قصيرة ، عندما أوقف جواده فجأة ، وتلفت حوله بجـــد واتزان • وطلب منا أن نتقـــدم الى الامام • فأسرعنا الى جانبه • فأشار الى بقعة سوداء تعلو التل الرمادي وهي تبعـد عنا ما يقارب ميلا وقال : « أعتقد أنه دب ، فهيا بنا ، نستمتع برياضة جميلة • فاقتناصه أشد متعة من اقتناص ثور البافالو • لان الدب الرمادي قوي المراس شديد الذكاء » •

وسارت الخيل تعدو بنا نحو تلك البقعة السوداء • وقد أعددنا أنفسنا لمعركة حامية ، فهذه الدبة تخفي خلف مظاهرها السمجة ، شراسة ونشاطا لا يمكن تصورهمـــا • وكان التل الواقع في قلب الصحراء قد حجب البقعة السوداء عن أنظارنا • ولكنها لم تلبث أن ظهرت ثانية قريبة منا • فأنعمنا النظر فيها ، وقد استولت الدهشة علينا ، فاذا بها تنفصل الى قسمين نشر كل منهما جناحيه ثم طار بعيدا • فأوقفنا خيولنا ، وأخذنا ننظـر الى هنري الذي بدت عـلى وجهه أمارات المرح ممزوجة بالخيبة والفشل • فقد خدع بهـذا الجو الغريب ، فلم يستطع أن يميز عن بعد مائتي ياردة بين غرابين كبيرين ودب رمادي •

روفيل يسألنا عن أحوالنا وما نطمح اليه عند عودتنا الى الوطن •
روفيل يسألنا عن أصوالنا وما نطمح اليه عند عودتنا الى الوطن •
فبدأ شو يذكر له قصة خيالية عن زوجته وطفله ، فاستمع اليها روفيل بايمان وثقة • ولما بلغنا قمة التل أمكننا ان نرى انحناءات نهر (هورس) في السهل المنخفض • واستطعنا عندها تمييز بيزونيت الى اليسار بين الاشجار والادغال الواقعة على طول مجرى النهر •

ولكن وجه روفيل قد اربد بشكل واضح مضحك • وحين سألناه عن السبب ، أوضح لنـــا بأن بيزونيت كان قد أرسله الى حصن لارامي كي يحضر له مؤونة من التبغ ، ولكن صديقنا الثرثار نسي السبب من رحلته حين وصل الى الحصن ، فلم يذكر ذلك حتى هذه اللحظة ، فيكون قد سافر مسافة مائة ميل بدون جدوى • وبلغنا نهر (هورس) ، فخضنا الى الضفة الثانية ، حيث كان أحد الهنود ينتظرنا ممتطيا صهوة جواده ، في ظل احدى الاشـجار الظليلة ، ولم يفه بكلمة حين رآنا ، بل لوى رأس جواده وقادنا الى المخيم • وكان بيزونيت قد اختار لخيمته مكانا ممتازا ، فقد كان النهر يلتف من ثلاث جهات بأشجاره الباسقة حول مرعى أخضر ، ضرب فيه أربعون مسكنا لهنود الداكوتا على شكل دائرة ، كما أقـام بعض أصدقائنا من الشين مساكنهم خلفهم •

كان بيزونيت نفسه ، يعيش على الطريقة الهندية ، فقد وجدناه حين وصلنا الى مسكنه جالسا في صدر المكان ، تحيط بـه وسائل الراحة المختلفة التي لم نألفها • ولم نفكر بمثلها في مثل هـــذه الصحراء • وكانت امرأته بجانبه وأطفاله بوجناتهم الموردة يلعبون ويزحفون بثيابهم المصنوعة من الخـام • بينما كان بول دوريون بوجهه القاسي ، ومعطفه الابيض العتيق ، يجلس في المسكن مع انطوان لوروج • وهو أحد المولدين من البوني ، وسيبيل التاجر وعدد آخر من الرجال البيض •

قال لنا بيزونيت : « لن يضيركم أن تقيموا معنا يوما أو اثنين قبل أن ترحلوا الى بويبلو » •

فقبلنا الدعوة شاكرين ، وأسرعنا في اقامة خيمتنا على مرتفع من الارض قرب الاشجار • وقد دعانا بيزونيت في الحال الى وليمة ،

كما تلقينا دعوة مماثلة من شركائه الهنود • وربما يذكر القارىء ، أنني عندما لحقت بالقرية الهندية خلف التلال السوداء ، قيل لي أن بعض العائلات قد تخلفت ، ورفضت اجتياز الجبال ، كما فعل غيرها، وكانت هذه العائلات هي نفس عائلات الهنود الذين وجدناهم الآن مع بيزونيت • وقد أتى عدد منهم ليسألوني عن أقاربهم وأصدقائهم • ولم يستاؤوا عندما علموا أن القبيلة استطاعت أن تؤمن مساكن جديدة للموسم القادم ، وتحصل على كميات وافرة من المؤونة ، وتعيش في بحبوحة ورغد ، بينما كانوا هم في حالة صنك وحرمان وجوع بسبب كسلهم وخوفهم من الذهاب للصيد في الجبال • وكان رفاق بيزونيت قد اكتفوا بأن يعيشوا فترة من الزمن على ثمار الكرز البري ، التي كانت تسحقها النساء بالحجارة وتفرشها فوق أقمشة البافالو ، وحين تجف في الشمس تؤكل دون أن يزاد في تحضيرها أو يضاف اليها •

وفي صباح اليوم التالي ، وصل هندي يدعى (الطاعن) مع عائلته من اركنساس • وكانت ملامحه تدل على النبل والسمو والكرامة ، وأعلن انه يحمل أخبارا مهمة سينقلها الى البيض • وبعد أن شيدت النسوة مسكنه ، أرسل ابنه الصغير يدعو جميع البيض ونخبة الهنود الى الطعام معه • فوصل المدعوون ، وأخذوا أماكنهم كل بجانب الآخر في جو حار خانق • وكان الطاعن قد أصطاد ثورا من البافالو ، في طريق الوصول الينا • فقدم الينا طبقا رئيسيا مؤلفا من امعاء الحيوان المسلوقة ، التي هي اقسى من حلده • أما باقي الاطباق ، فكانت من الكرز البري المقلي بالدهن • وحين وزع الطعام ، أخذ الجميع يأكلون بشراهة متناهية دون أن ينبس أحد منهم بنت شفة • ثم قلب كل مدعو طبقه الخشبي

ليثبت لصاحب الدعوة ، بأنه تمتع بضيافته • ثم أخرج (الطاعن) عدة غلايين ، ملأها واشعلها • فأخذت تدور بين الحضور •وبعدها جلس الرجل في مقعده ، وأخذ يسرد قصته •ولم ينقطع طـوال مدة حديثه عن التعبير عن قصده بالاشارة والايماء • وقد استطعت ان ألم منها بمَا يلي :

لقد رأى عندما كان في الاركنساس ست فرق حربية من البيض• ولم يكن يعتقد قبلا أن العالم بأسره يحتوي نصف هذا العدد من الرجال البيض • وكانوا يعتلون خيولاً كبيرة ويحملون سيوفـا طويلة ، وبنادق قصيرة • وكان بعضهم يلبس زيا موحدا من أجمل ملابس الحرب • فاتضح من حديثه ان فرقا من خيالة الدرايجون والمتطوعين قد مرت من الاركنساس • ورأى (الطاعن) أيضـا كثيرا من المساكن البيضاء ، التي تجرها ثيران البافالو • ولم تكن تلك سوى عربات الثيران المستعملة فيِنقل المؤن والذخائر للجيش• والتقى مضيفنا بعد ذلك بأحد الهنود ، وكان قـد غادر قبائـل الكومانش حديثا ، فأخبره ان المكسيكيين قد خرجوا لصيدالبافالو ، وان الامريـكيين اختبئوا في أحـد الوديان ، وانتظروا حتى رمى المكسيكيون جميع سهامهم وعندها اطلقوا عليهم النار ، ثم هجموا عليهم وقد تعالت صيحاتهم ، فلم يتركوا أحدا منهم على قيد الحياة ، بل افنوهم عن بكرة أبيهم • فاستنتجنا من قوله ، ان الحرب أعلنت على المكسيك ، وان الامريكيين انتصروا في احدى المعارك • ثـم سمعنا عندما وصلنا الى البويبلو ، ان الجنرال كيرني ، قد زحـف الى الاركنساس ، وتبع ذلك اخبار وانتصارات الجنرال تيلور في ماتا موروس •

احتشدت الجموع قرب غروب الشمس فوق السهل ، بالقرب

من مخيمنا لاختبار سرعة جيادها ، وقد جيء ببعضها من كاليفورنيا ، وكان البعض الاخر من خيول الصحراء البرية ، وفيها الاحمر ، والابيض ، والاسود ، والاسمر الداكن ، وبعضها كان لا يزال فزعا لم ينفع فيها الترويض ، فكانت لاتهدأ عن الصهيل والقفز ، ومحاولات الافلات ، بخلاف جياد المدن الاصيلة الوقورة الهادئة. وحين انتهى السباق ، قلدت الجياد الفائزة اوسمة من ريش النسر، علقت فوق اطرافها واذيالها ، وقد حضر تلك الحفلة خمسون أو ستون من أفراد الداكوتا المتلفحين من الرأس الى أخمص القدم ، بأرديتهم الجلدية البيضاء الثقيلة ، يرافقهم عدد كبير من هنود الشيين ، وقد اختلط بالهنود عدد كبير من الكنديين الذين لايعملون لحساب بيزونيت ، وهم رجال احبوا الصحراء ،فاتخذوها وطنا لهم ، وفضلوا نار المخيم على موقد البيت ، وقد اقتنعوا فسعدوا رغم المشقات والحرمان والمخاطر ، ولم يستطع شيء أن يؤثر في نفوسهم ، فظلوا على مرحهم وسرورهم ، وكان بالاضافة الى هؤلاء ثلاثة من المولدين ، من سلالة غريبة ، اختلط فيها على ما يقال ، الدم الهندي بالدم الأبيض ودم الشيطان ، واشتهر من بينهم انطون لوروج بسراويله الفضفاضة ، وقميصه الخام ، ومنديله الذي ربطه حول شعره الذي كان ينسدل فوق عينيه اللتين تلمعان ببريق من الخبث والدهاء وقد أحب أن يختبر سرعة جواد له ، ذي لون بني غامق ، فرمى القربوس عن ظهره ووضع مكانه رداء من جلد البافالو ، وقفز فوقه ، فأخليت الساحة ، ثم أعطيت الاشارة، فانطلق من بين الجموع مع منافسه كالبرق ، وقد انحنى كل منهما فوق عنق جواده ، وهو يلهب ظهره بسوطه الهندي الثقيل ، واختفيا وسط الظلام ، وما فتيء أن عاد انطوان ظافرا بعد قليل ،

وهو يربت بيده على عنق جواده •

وفي منتصف الليل ، وبينما كنت مستغرقا في النوم على الارض بجانب عربتنا ملتفا بثوب من جلود البافالو ، أيقظني رايموند ، وهمس في اذني فقال : انني أرى أن أمورا غريبة تجري في هذا المكان ، فعلينا أن نكون على حذر وحيطة • ورفعت رأسي ،فرأيت في الجانب الآخر من المخيم عددا كبيرا من الهنود يجلسون مجتمعين حول النار ، وقد بدوا كالاشباح في أشعة النار الخافتة • ثم بدأ أحدهم يغني بصوت عال ، يتخلله من حين لآخر انفجار من العويل الحاد • فتلفحت بردائي ، وسرت الى حيث كانوا يجلسون فاعترضني أحد الزمصاء ، بينما كنت أحاول أن أشق طريقي بينهم • وأفهمني انه يجب ألا يقترب الرجل الابيض من المكان الذي تقام فيه حفلاتهم الدينية • واستطعت ان أرى من الجانب الآخر ، ماكان يجري ، بدون أن أدنس بوجودي حلبتهم الداخلية المقدسة • فقد كان اعضاء جمعية « القلوب القوية » ، يرقصون • وهي جمعية حربية تضم رجالا من الداكوتا والشيين • وتتألف من شبان شجعان ذوي بأس شديد • أما مبدؤهم الاساسي ، فهو عدم التراجع أمام أي عمل أو مشروع يباشرونه • وكان لكل من هذه الجمعيات الهندية روح تحميها • وكانت الروح التي تحمي جمعية «القلوب القوية »تتقمص جسد الثعلب الذي لا يحبذ البيض اختياره لمثل هذه الاغراض • وكان الراقصون يدورون حول النار ، فتارة تلمع وجوههم بلون أصفر ، وتارة يبدون كأشباح سوداء عندما يمرون بين النار والنظارة ، وهم يقلدون بصورة مضحكة حركات وصوت حارسهم الداهية ، وهو الثعلب • ثم ترتفع صيحة مرعبة ، ويندفع عدد آخر من المحاربين ، ويرفعون وجوههم نحو السماء الخالية

من النجوم ، ويضربون الارض بأرجلهم ويصيحون ملوحين بأسلحتهم كالشياطين المجنونة .

وبقينا في ذلك المكان الى اليوم التالي، ثم خرجت مع صاحبي ومساعدينا الثلاثة ، قاصدين البويبلو ، الذي يبعد عنامسافة ثلاثمائة ميل . وقدرنا أن الرحلة سوف تستغرق نحو أسبوعين . وقد تمنينا أن لا نلتقي بأحد ، لاننا لن نلتقي الا بأعداء ، وليس من سبيل للخلاص منهم الا بمضاء اسلحتنا . ولم يحدث في اليومين الاولين ما يستحق الذكر ، غير ان حادثا مؤسفا وقع في صباح اليوم الثالث، فقد كنا نخيم بجانب جدول صغير في أحد السهول الواسعة . وكان ديلوريه قد استيقظ قبل الفجر ، ففك رباط جميع الخيول قبل أن يحضر طعام الافطار . وكان قد انتشر ضباب خفيف بارد فوق الارض ، فاخفى رؤية الحيوانات عن الانظار ، وعندما استيقظنا لم نستطع اكتشاف اتجاهها من اثار قوائمها الا بعد بحث وجهد شاق ووقت طويل . وكانت وجهتها حصن لارامي ، بقيادة بغل مسن متمرد . وقد سارت مسافة ثلاثة أميال قبل ان نتمكن من اللحاق بها وارجاعها ، رغم ان بعضها كان مقيدا بالسلاسل .

وسرنا فوق الصحراء القاحلة مدة يومين أو ثلاثة ، فلم نشاهد من النبات سوى بعض الاعشاب القصيرة التي لفحتها أشعة الشمس، فذبلت وجفت واستوطنت بينها الحشرات والافاعي على اختلاف أنواعها ، فشاهدنا صراصير كبيرة وجنادب بدون أجنحة من أحجام مختلفة ، تدب تحت أقدام الخيول . وعظايات لا عد لها ولا حصر ، تنساب كالبرق بين الاعشاب . وكان أغرب حيوان بينها ما يسمى بالضفدع ذي القرن . وقد أمسكت أحدها وتركته لعناية ديلوريه، فربطه بأحد الاحذية ، وفحصت حالة السجين بعد مرور شهر من

ذلك اليوم ، فوجدته سليما نشيط الحركة ، فوضعته في قفص من جلد البافالو وعلقته بالعربة • وبقي حيا سليما لم يمسه أذى ، حتى وصل الى المستعمرات ، ومنها أرسلته الى بوسطن داخل حقيبة يتجدد هواؤها من ثقوب بأطرافها بصورة منتظمة • وحين بلغ المكان المرسل اليه ، وضع وسط صندوق زجاجي ، حيث مكث بهدوء تام • وأخيرا أسلم الروح في صباح يوم من أيام الشتاء ، فوضع في زجاجة مملوءة بالكحول في متحف أجاسيس • ويغلب على الظن ، أنه مات من الجوع لانه لم يتناول طعاما خلال ستة أشهر على الرغم من تدليل زائريه له ، واغرائه بمختلف أنواع الحلويات ، كما عثرنا أيضا على أنواع كثيرة منه أكبر حجما • ولكننا وجدنا أن كلاب الصحراء هي أكثر الحيوانات عددا •

وفي اليوم الخامس ، بعد أن تركنا بيزونيت ، رأينا أن ما ظنناه نهرا كبيرا ، كان مجرى جافا من الرمل ، شحت مياهه وتبخر ما تبقى منها في أشعة الشمس ، فافترقنا عن بعضنا ، وسار كل منا باتجاه مخالف • ومع ذلك فلم نعثر على أي أثر للماء ، حتى ولا على بقعة رطبة من الرمل • وهكذا فأشجار الصفصاف المنتشرة في تلك البقاع قد أحرقتها حرارة الشمس كما حطمتها الصواعق والعواصف • وقد تجمعت فوق أغصان أحد الاشجار ، نصف دستة من الغربان ، أخذت تصرخ وتنعق بشدة تثير الاشمئزاز والتشاؤم • ولم يكن لنا معدى من الاستمرار وقد طال ، فلم نجد الماء الا قرب (سوث‌فورك) المتفرع من نهر البلات على مسافة عشرة أميال • وقد تابعنا تقدمنا بسكون ، ونحن نكاد نتفجر غيظا وحنقا ، فوق صحراء ممتدة كالمحيط الذي يتيه الانسان بين أمواجه •

وكانت السماء قد اكتست منذ الصباح بضباب خفيف • غير أن

سحبا كثيفة تجمعت الآن في جهة الغرب • ولم تلبث أن ارتفعت فوق الافق • ونظرت نحوها فرأيت سحابة مخروطية الشكل أشد سوادا من غيرها • فنظرت اليها ثانية ، فاذا هي ثابتـة • فقلت في نفسي : لا شك انها قمة أحد الجبال • وكان استنتاجي صحيحا ، فقد كانت قمة جبل لونج التي كان يعتقد في الماضي أنها أعلى قمة في سلسلة جبال روكي ، مع أن الاكتشافات الحديثة أثبتت عكس هذا الاعتقاد •

وانحرفنا عن اتجاهنا عند المساء ، فسرنا نحو أقرب نقطة مـــن النهر ، مع أنه لم يكن من السهل التعرف على الطريق في مثل ذلك الظلام الدامس • فكان رايموند يسير في طرف وهنري في الطرف الآخر • ثم صرخا مشيرين الى أنهما وصـلا أمـام واد عميـــق ، وسرعان ما وجدنا أنفسنا وقد أحاطت بنا هوات عميقة ، ولفنا ظلام لم نستطع معه رؤية شيء حولنا على مسافة خمسة أمتار في جميع الاتجاهات • فأخذنا نزحف ببطء خلال مضيق قليل الغور تتبعنا العربة ، حتى بلغنا منحدرا عموديا • فانزلقنا دون أن نعلم ما ينتظرنا بعده • وقد سمعنا تكسر الاغصان والقضبـــان اليابسة التي تحطمت تحت أقدامنا ، كما اصطدمت رؤوسنا بأشياء كبيرة • وتراءى أمامنا لمعان ضعيف يشبه الماء ، بينما اصطدم جواد رايموند باحــــدى الاشجار • فترجل هنري على الاثر ، ثم أخذ يتحسس الارض ، وأعلن أخيرا بأن ما يوجد في هذه البقعة من عشب يكفي الجياد • ولم تمض سوى دقائق قليلة بعد ذلك ، حتى ربطنا الجياد ، واستلقينا فوق العشب ، ورحنا في سبات عميق • وحين استيقظنا في الصباح ، وجدنا أنفسنا بالقرب من سوث فورك المتفرع من نهر البلات ، في مكان تحيط به الادغال والحشائش الطويلة • فتناولنا افطارنا ، ثم

امتطينا جيادنا ثانية ، وتابعنا المسير • ولم نجتز في طريقنا سوى مسافة بسيطة حتى رأيت شو يتوقف ، ثم يسدد بندقيته ويطلقها على جسم مر مسرعا بين الحشائش • ورأيت ديلوريه يقفز الى الامام • ثم يأخذ في الرقص وهو يضرب ذلك العدو المجهول سوطه • وانحنى أخيرا ليلتقط أفعى كبيرة من ذوات الاجراس ، مزقت رأسها الرصاصة التي أطلقها شو عليها • ولما رفع ديلوريه يده بها ، كان ذيلها لايزال يمس الارض • أما جسمها فكان أغلظ من ذراع الرجل • وقد قتلنا منذ ذلك الوقت حتى ساعة وصولنا الى البويبلو أربعا أو خمسا منها • وكان شو كالقديس باتريك ، كلما قتل حية قطع ذيلها ووضعه في جيب الرصاص • وسرعان ما امتلأ بمجموعة علمية من ذيول الافاعي ذات الاجراس ، الكبيرة منها والصغيرة • وقد استحق ديلوريه مع سوطه جزءا من الثناء • اذ تمكن بعد يومين من الحصول على أفعى يبلغ طولها خمسة وثلاثين سنتمترا ، ولها حلقات صغيرة في نهاية ذيلها •

خضنا نهر سوث فورك • فوجدنا على ضفته الاخرى آثار مخيم كبير للاراباهوس ، ورأينا رماد ثلاثمائة موقد من النيران بين الاشجار المبعثرة • مع بقايا المساكن والادوات التي لا بد منها لاقامة مخيم دائم • ومع ذلك فقد كان المخيم مهجورا منذ عدة أشهر • وقد وجدنا على بعد بضعة أميال آثارا كثيرة للهنود ، الذين فروا قبل يومين وبقايا بعض مساكنهم • وكانت آثار الاقدام ظاهرة جلية • وقد سببت لنا بعض الضيق لان عدد المحاربين كان يزيد قليلا عن عددنا • وعند الظهر حططنا الرحال تحت أسوار حصن كبير كان قد بناه السيد سانت فرين ، في هذه البادية منذ عدة سنين ، وهجره ساكنوه بعد ذلك ، فأصبح خرابا وتشققت جدرانه المصنوعة من

الآجر ، كما جفلت خيولنا فزعا من ارتياد مدخلــه وباحته التي امتلأت بالاعشاب والحشائش • وشاهدنا آثار حصن آخر مهجور على مسافة اثني عشر ميلا من المكان الذي خيمنا فيه • ومررنا في صباح اليوم التالي بمخيم مهجور للاراباهوس ، لا تزال تشتعل فيه نيران خمسين موقدا • فأثارت هذه الآثار مخاوفنا وشكوكنا • واتضح لنا من الدلائل التي عثرنا عليها ، أن الهنود تركوا المكان قبل ساعتين من وصولنا • وكان طريقهم يتقاطع مع طريقنا في زاوية قائمة ، ويؤدي الى خط من التلال يبعد نصف ميل الى يسارنا • وكان يصحبهم نساؤهم وأطفالهم ، مما جعل خطر الالتقاء بهم ضعيفا • وقد قام هنري شاتيون بفحص كل كبيرة وصغيرة وجدها في المخيم أو في الطريق بعين المجرب الخبير •

فقلت أسأله : لنفرض أننا التقينا بهم ، فماذا نفعل يا هنري ؟

فأجاب : نمد أيدينا اليهم ، ونعطيهم كل ما نحمل • وحين يأخذون ما معنا ، أعتقد أنهم لن يقتلونا • ثم أضاف يقول وهو ينظر الينا بوجهه الهادىء الذي لايتغير : وقد لا ندعهم يسلبوننا • فاذا أتاح الحظ لنا فرصة ، فسنلتجىء الى أحد الوديان ، أو الى ضفة نهر قبل أن نصادفهم ، وعندها نستطيع أن نحاربهم •

وعند الظهر بلغنا نهر تشيري كريك الذي تنمو على ضفتيه أشجار الكرز البري والريباس والزبيب الرومي • وكان النهر كغيره من الانهار التي مررنا بها ، جافا قد غاض ماؤه من شدة الحر ، فاضطررنا أن نحفر في الرمل حتى نجد ماء نروي به عطشنا ونسقي خيولنا • وغادرنا ضفتي النهر الذي سرنا في اتجاهه بعض الوقت ، ثم بدأنا باجتياز قمة الجبل الشاهقة التي تفصل مياه نهر البلات عن مياه الاركنساس • وتبدلت المشاهد جميعها ، وبدأنا نمر في وهاد

موحشة وعرة بين تلال وجبال مكتظة بأشجار الصنوبر الكثيبة •
وقد قضينا ليلة الخامس عشر من أغسطس في ذلك المكان المنعزل •

وتركنا الجبال في صباح اليوم التالي ، وقد تكشفت السحب من نفس النقطة التي كانت قد تجمعت فيها من قبل ، ونشرت الشمس أشعتها الدافئة فوق الجبال • فبدت كأنها مشهد جميل من مشاهد قصة شرقية خيالية أكثر منها حقيقة تتمثل في تلك الصحراء • وقد انصهرت كلها في لون أزرق لطيف يشبه سماء نابولي ، أو مياه البحر الصافية التي تغسل صخور كابري الدافئة •

اجتزنا في ذلك اليوم والصباح التالي ضفتي النهر المسمى : « نهر النبع الفوار » نسبة للنبع الحار الذي تصب مياهه فيه • ولما وقفنا عند الظهر ، كنا لا نزال على مسافة ستة أو ثمانية أميال من البويبلو • وحينما تابعنا المسير وجدنا من الآثار الرطبة أن خيالا قد خرج للاستكشاف ، وربما كان يقصد البحث عنا • ودار حول المخيم ، ثم عاد بأقصى سرعته الى البويبلو • ولم نعرف سببا لخجله منا • وأخيرا بلغنا حافة أحد التلال بعد مسير ساعة ، فشاهدنا منظرا سارا ، فقد كان الاركنساس يجري على طول الوادي السحيق بين الغابات والغياض • وقد قامت أسوار حصن بويبلو المنخفضة المبنية من الطين بالقرب منه في منتصف حقول الحنطة الواسعة والمروج الخضراء التي تنتشر فيها قطعان الماشية •••

الفصل الحادي والعشرون

البويبلو وحصن بينت

اقتربنا من باب حصن بويبلو الخارجي ، وكان بناء بدائيا حقيرا ، مؤلفا من باحة محاطة بجدار من الطين أخنى عليها الدهر لقدمها ، فتهدم كثير منها ، كما تحطمت الاوتاد الرفيعـــة التي تعلو الباب الخارجي ، فتدلى فوق مصراعيه الخشبيين ، ولم يعد بالامكان فتحه أو اغلاقه الا بدفعه الى الارض ، أو بحمله وتثبيته مكانه • وكان اثنان من المكسيكيين القذرين يسيران على ضفة النهر المواجهة لباب الحصن ، وعلى رأسيهما قبعتاهما الواسعتان اللتان تتوجان وجهين زاد في قبحهما ذلك الشعر الطويل الذي يحيط بهما • وحين بلغنا باب الحصن الخارجي ، خرج الينا شخص صغير الجسم تبدو عليه سيماء النشاط والحيوية • واذا هو صديقنا ريتشارد ، الذي قدم بتجارة من حصن لارامي الى تاوس • ولكنه تمهل وتوقف عـــن الرحيل حينما علم أن الحرب تعيق تقدمه ، وأنه لا بمكنه السير الا بعد أن يتم الاستيلاء على هذه البلاد ، ويسمح له بالعمل • ورأى أن يقوم بواجب الترحيب بنا ، فصافحنا بحرارة وتقدمنا الى داخل الحصن •

ورأينا عربات سانتافي التي يملكها ، تقف متلاصقة ، والنساء الاسبانيات والهنديات يتجولن بارتخاء وكسل بثيابهن ورثاثتهـــن التي تتبارى بمظاهر التعاسة مع المكان نفسه • وقادنا ريتشارد الى قاعة الاستقبال ، وهي غرفة صغيرة من الطين ، فرشت باتقان ،ووضع

فيها صليب ومرآة وصور للعذراء وغدارة علاها الصدأ • ولم يكن فيها مقاعد ، بل استعيض عنها بعدد من الصناديق ، صففت في جوانب الغرفة • وكان وراءها غرفة أخرى ، أقل أناقة وأكثر حقارة • وقد جلس فيها أربع فتيات اسبانيات ، احداهن على قسط وافر من الجمال ، يخبزن فطائر على موقد من الطين في احدى زوايا الغرفة • وقامت احداهن فأتت ببونشو (وهو رداء يرتديه الاسبان) وفرشته على الارض ، ووضعن فوقه بعض الطعام الذي عددناه فاخرا بالنسبة لنا ، ثم وضعن جلود البافالو مطوية حول ذلك الغطاء ، ليجلس عليها الضيوف • وحضر الوليمة معنا ثلاثة من الامريكيين • فجلسنا على الطريقة التركية وبدأنا نسأل عن الاخبار، بينما كنا نلتهم طعامنا ، فأخبرنا ريتشارد بأن جيش الجنرال كيرني ترك حصن بينت منذ ثلاثة أسابيع في زحفه على سانتافي • وان آخر مابلغنا عنه ، هو انه قد اقترب من مداخل المدينة ، وأن أحد الامريكيين أصدر صحيفة تحتوي على وصف معارك بالواكتو وريساكادولابالما •وبينما كنا نتجاذب أطراف الحديث حول هذه المواضيع، اذ بشخص طويل ، حجب النور عنا حين وقف في باب الغرفة ، ودلف متثاقلا وهو يضع يديه في جيبه ، ووقف يلقي نظرة فاحصة قبل أن يدخل • وبدا لنا زريا في لباسه ، فقد كان يرتدي سراويل محبوكة باليد ، قصيرة على ساقيه ، ويضع غدارة وسكينا في حزامه • ويعصب رأسه واحدى عينيه بمنديل عريض من الكتان الابيض • ولما اكتفى من القاء نظراته الفاحصة ، سار بترهل حيث جلس فوق أحد الصناديق ، وتبعه ثمانية اشخاص من نفس النموذج ، تفرقوا في انحاء الغرفة ببرود تام ، وهم يحملقون في الحاضرين • وعادت بنا الذكرى بالنسبة لهيئتهم

وشبكلهم الى مهاجري الاوريجون، مع ان هؤلاء الزائرين السمجين كانوا يحملون في اعينهم بريقا خاصا ، ويضغطون على شفاههم حين يتكلمون ، بصورة تميزهم عن اصحابنا القدماء في الصحراء • وبدأوا بالقاء سيل من الاسئلة ، فاستفسروا عن المكان الذي قدمنا منه ، وعما سنقوم به فيما بعد ، وما نطمح اليه ، الى كثير من مثل هذه الاسئلة التي تنم عن الفضول •

وعلمنا ان الرجل ذا العصابة قد صادفه منذ بضعة أيام حادث مؤسف • فبينما كان يهبط النهر ليملأ دلوا بالماء ، مر بين شجيرات الصفصاف التي كانت تغطي تلك الارض المنخفضة • ووجد نفسه على حين غرة ، وجها لوجه مع دب اسمر كان قد انتهى من افتراس نور من البافالو ، وتمدد لينام بعد هذه الوجبة الفاخرة • وحين رآه آتيا انتصب على قدميه الخلفيتين ، ولطم الدخيل بكفيه لطمـــة سلخت جلد جبينه ، وقلعت احدى عينيــه • وكان الدب عازفا عن المشاكسة لحسن الحظ ، وذلك بعد ان اتخمته تلك الوجبة الدسمة الاخيرة •

وقد اطلق الرجال الذين جاؤوا خلفه النار على الدب ، ولكنــه ابتعد محطما ما يجد في طريقه من اغصان الصفصاف •

كان هؤلاء الرجال من جماعة المورمون ، وقد اجبروا عـــلى تأجيل سفرهم خوفاً من المهاجرين الاخرين • وحتى يتم جــــلاء من تبقى منهم ، فلم يستطيعوا بسبب هذا التأخر ان يصلوا الى حصن لارامي ، بعد ان اصبح الوقت متأخرا لمتابعة سفرهم الى كاليفورنيا • ولما بلغتهم الانبـاء التي تشير الى وجود أراض خصبـــة في رأس اركنساس ، اتجهوا اليها بقيادة ريتشارد ، وأخذوا يستعدون لقضاء فصل الشتاء في نقطة تبعد نصف ميل عن البويبلو •

كانت الشمس على وشك الغروب حين افترقنا عن ريتشارد • وقد استطعت اثناء مرورنامن الباب الخارجي ان القي نظرة عـــلى وادي أركنساس الصغير • وكم كان المشهد رائعا ومتميزا بالجمال في اعيننا التي اعتادت منذ وقت طويل على الصحاري والجبـــال • كانت الغابات تمتد على طول ضفتي النهر ، بينما تنتشـــر المروج الخضراء في جميع الجهات ، وتستمد الاجراف العالية الدفء من أشعة الشمس التي تنحدر عموديا عليها ، ورأينا أحد المكسيكيين ، وهو يمتطي ظهر جواده ويقود قطيعا من الماشية متجها نحو الباب الخارجي • وكانت خيمتنا الصغيرة البيضاء التي اقامها الرجال في ظل شجرة في المرج ، تضيف صورة جميلة الى تلك المشاهد الخلابة • وقد وجدنا حين رجعنا اليها ان ريتشارد قد ارسل أحد المكسيكيين ليأتينا بمؤن من الخضار والحبوب الخضراء • وطلب منا أن نأخذ ما نحتاج اليه من الحقول المحيطة بالبويبلو •

كان ساكنو الحصن يخشون يوما من وقوع غارات على المزروعات• فقد كان الارباهوس يخيمون كل سنة حول البويبلو في موســـم نضج الحبوب • فاضطرت تلك الحفنة الصغيرة من الرجال البيض، والتي كانت تحت رحمة هذه الحشود البربرية ، ان تستقبلهـــم بترحاب ، وتصافحهم وتعلن لهم ، أنها تضع المحاصيل كلها تحت تصرفهم • وقد اعتقد الارباهوس بصحة ذلك الكلام ، فاستباحوا حقول الحبوب لخيولهم ، ثم تركوا قسما من المحصول دون ان يمسوه ليبقى بذارا للموسم القادم •

وقد انقسم العرق البشري في هذا الجزء من العالم الى ثلاثة أقسام: الرجال البيض ، والهنود ، والمكسيكيين • ولم يحظ الفرعـــان الاخيران بشرف الانتماء الى الرجل الابيض •

كان اليوم التالي باردا ممطرا على الرغم من الدفء الذي ساد وقت الغروب في اليوم المنصرم • وقد انتشرت السحب حتى هبطت عن رؤوس الاشجار العالية • فاجتزنا النهر لنقوم بزيارة مستعمرة المورمون • فرأينا أثناء مرورنا بالماء ، بعض الصيادين ، وهم يمتطون جيادهم قادمين من الجهة المقابلة • وقد ابتلت ثيابهم من المطر الذي صادفهم هطوله •

وشاهدنا بعد نصف ساعة من سيرنا ، عربات المورمون البيضاء تنتشر بين الاشجار • وسمعنا اصوات الفؤوس ، ورأينا الاشجار وهي تتساقط ، والاكواخ الخشبية وهم يقيمونها في أطراف الغابات ، وفوق المروج المتاخمة لها • وعند وصولنا ترك المورمون أعمالهم وجلسوا حولنا فوق جذوع الاشجار المقطوعة حديثا • ثم أخذوا يبحثون بصورة جدية مختلف المواضيع الدينية ، ويشكون سوء معاملة « الكافرين » ، ويندبون ضياع معبدهم الكبير في نوفو •وحين عدنا الى مخيمنا بعد ان قضينا معهم ساعة من الزمن ، كنا نشعر بالراحة والسعادة لخلو المستعمرات من مثل هؤلاء المتعصبين •

خرجنا في اليوم التالي من البويبلو ، قاصدين حصن بينت • وكان الشك يخامرنا في مستقبل رحلتنا • فالطريق الذي يمتد مسافة ستماية ميل بين حصن بينت والمستعمرات مشحون بالخطر في هذه الايام • فقد تجمع عدد كبير من الهنود الاعداء من قبائل البوني والكومانش منذ مرور جيش الجنرال كيرني • وازدادت جسارتهم ، فلم تعد أي جماعة مهما كثر عدد افرادها ، تستطيع السير بين الحصن والحدود ، دون ان تشعر بعداوتهم وقد وصفت الصحف في ذلك الحين ، هذه الحالة باسهاب وعلقت عليها بما يتناسب وما كان يجري من أحداث • فقد قتل رجال كثيرون

وسلبت الخيول والبغال • والتقيت منذ مدة قريبة بشاب قدم اثناء الخريف من ستنافي الى حصن بينت ، بحيث صادف في طريقه فريقا مؤلفا من سبعين رجلا لم يكونوا على ثقة من انفسهم ، لانهم اعتقدوا أنهم لايستطيعون اجتياز الطريق الى المستعمرات بدون معونة من الرجال والسلاح • ومع ان هذا كان يدل على جهل الرجال بحقيقة الحال أكثر مما يدل على الجبن ، الا أنه يوضح حالة الفزع التي كانت تسود البلاد آنذاك • ولم يكن الخطر كبيرا في شهر اغسطس • وظهر لنا اننا لن نجد من يرافقنا لو مكثنا حتى منتصف الشتاء ، لان سوبليت ورفاقه الذين كنا نعتمد في رحلتنا على صحبتهم ، كانوا قد غادروا حصن بينت قبل وصولنا ، كما اخبرنا ريتشارد • فقررنا أنا وهنري وديلوريبه ان نسير معتمدين على الحظ ، عوضا عن أن نمكث ونتحمل تهكم الهنود وسخريتهم •

ويقع حصن بينت على ضفاف النهر ، على مسافة خمسة وسبعين ميلا عن البويبلو • وبعد مسير ثلاثة أيام ، اصبحنا على بعد أميال قليلة عنه • فضربنا الخيمة تحت شجرة باسقة • وبعد ان فرغنا من اصلاح هندامنا ، ذهبنا الى الحصن الذي كان يغص بالسكان • وقد انتشرت خيول الجنرال كيرني على مساحات شاسعة من الاراضي الممتدة حوله • فسعينا دون جدوى لنجد شيئا من المؤونة في الحصن لان كثرة المهاجرين الذين يمرون في طريقهم بالحصن لم يتركوا شيئا من المؤن يمكن لغيرهم الاستعانة به • وحين شد الجيش رحاله سكنت الحياة والضوضاء ، وعاد الحصن مسرحا كئيبا للهدوء والكسل • وقد دعانا مستر هويت الذي عهد اليه بادارة الحصن ، الى تناول الطعام معه • وتملكنا الفرح عندما شاهدنا المائدة وقد فرش عليها غطاء أبيض ، واصطفت الكراسي حولها ، مما جعلنا

نلهج بالشكر والامتنان •

ورأينا بينما كنا نجلس بعد العشاء حول النار ، ثلاثة رجال قادمين من جهة الحصن تحت جنح الظلام • وحين بلغوا قرب خيمتنا ، جلسوا على الارض قريبا منا • وكان في مقدمتهم رجل طويل القامة قوي البنية ، يوحي وجهه وأسلوبه بالثقة والطمأنينة • أما الرجل الذي تبعه ، فكان نشيطا مرحا صغير الجسم ، قوي البنية ، له وجه اسمر يشبه المكسيكيين ، تغطيه لحية سوداء ، مجعدة وقد ربط حول رأسه منديلا قديما قذرا من الخام ، بينما كان الثالث رجلا قوي الجسم يرتدي ملابس خشنة حاكتها يد غير ماهرة ، ويحمل سلاحا قديما من اسلحة الولايات المتحدة ، لم يستطع أن يصيب به الهدف ولو مرة واحدة • ولكنه كان يعتز به كثيرا •

وكان اثنان منهم من فريق قدم حديثا من كاليفورنيا ومعه عدد كبير من الخيول ، باعها في حصن بينت • وكان اطول الرجلين من ايوا ، وهو يدعى مونرو ، وكان ذكيا طيبا صريحا ، ذا قلب نبيل • أما الرجل القصير فيدعى جيم جورني ، وهو بحار في بوسطن ، أتى على ظهر باخرة تجارية الى كاليفورنيا ، ثم خطرت له فكرة العودة برا ، فاختبر في هذه الرحلة ، الجبال والصحارى وما يتصل بهما • أما ثالثهم وهو المدعو ايليس ، فكان من ميسوري • وقد حضر مع فريق من مهاجري الاوريجون ولكنه ما ان بلغ حصن بريدجر ، حتى اصابه حنين شديد الى الوطن ، أو بتعبير آخر الى الحب ، فرأى ان من الافضل له ان يرافق اولئك الرجال، ويكر راجعا في صحبتهم •

وقد طلبوا منا أن ينضموا الينا ، ويعودوا برفقتنا الى المستعمرات ،

فاجبناهم الى طلبهم سريعا • وقد اعجبنا بمظهر الرجلين الاولين ، وسرنا ان نحصل على هذا المدد الفعال • وطلبنا منهم ان يسعوا الى لقائنا في مساء اليوم التالي ، في مكان يبعد ستة أميال عن الحصن الى جانب النهر • وبعد ان دخنا معهم غليونا ، تركنا حلفاؤنا ، واستلقينا للنوم ، وما لبثنا أن غرقنا في سبات عميق •

الفصل الثاني والعشرون

« الرأس الاحمر » المتطوع

عدنا في صباح اليوم التالي الى الحصن ، لنقوم بتهيئة شؤوننا للرحيل، بعد أنأمرنا ديلوريه بأن يتوجه بعربته الى مكانالاجتماع، وجلسنا بعد قضاء حاجاتنا أمام أحد المنازل ، ندخن مع بعض هنود الشين . ولم تمض الا دقائق قليلة حتى شاهدنا شخصا يشبه الاقزام ويرتدي ملابس الجُنود ، متجها نحونا . وحين أصبح أمامنا رجانا أن يرافقنا الى المستعمرات ، وأكد لنا أنه سيضطر الى البقاء في الحصن طيلة الشتاء اذا لم تتح له فرصة مصاحبتنا ، ورغم قوله هذا فقد رفضنا طلبه لاننا شككنا به ، ولم نسر بمظهره كثيرا . ولكنه ألح في التوسل الينا أن نشفق عليه . وروى لنا قصة محزنة ، فأشفقنا عليه ورضينا أن نصحبه أخيرا ، والريبة تساور نفوسنا .

وقد اضطر هنري شاتيون لان يطلق عليه اسم الرأس الاحمر ، نسبة الى جدائله الحمراء ، بعد أن حاولنا عبثا ، أن ننطق باسمه الانكلوسكسوني الصعب . وكان يشغل فيما مضى كاتبا في باخرة تعمل في المسيسيبي ، كما عمل وكيلا لاحدى المؤسسات التجارية في نوفو بالاضافة لبعض الاعمال الاخرى التي مارسها . والتحق في الربيع الماضي باحدى فرق المتطوعين في سانت لويس ظنا منه أن معركة الصيف ستكون مجرد نزهة جميلة .

قال الرأس الاحمر : كنا ثلاثة رجال ، أنا وبيل ستيفنس وجون هوبكنس . فرأينا أن نلتحق بالجيش . وبعد الاستيلاء على هذه

البلاد تنتهي خدمتنا ونأخذ تعويضنا ، ونذهب الى المكسيك • لقد قيل لنا أنها رحلة ممتعة • وسنعود بعد ذلك الى نيويورك عن طريق فيراكروز •

ولكن محاربة المكسيكيين لم تكن عملا مسليا بالقدر الذي كان يظنه ، فقد عكرت صفو رحلته السارة اصابته بالحمى الدماغية عندما كان في طريقه الى حصن بينت ، فوضع في عربة الامتعة التي ظلت تهتز به حتى وصل الى الحصن ، فترك هناك مع بقية المرضى • ولم يكن في حصن بينت ما يؤمن راحة المريض ، فقد كانت غرفة الرأس الاحمر صغيرة مبنية من الطين ، يستلقي فيها مع مريض آخر مصاب مثله بحمى الدماغ • وكان مندوب الطبيب الجراح يزورهما مرة في اليوم ، ويأتي لكل منهما بكمية كبيرة من الكالوميل ، وهو الدواء الوحيد الذي كان يستعمله لمريضه الذي يظل على قيد الحياة •

واستيقظ الرأس الاحمر في أحد الايام ، وتلفت الى صاحبه في الغرفة فرآه قد أسلم الروح ورقد بدون حراك وعيناه شاخصتان الى الاعلى • ففقد المسكين شعوره في الحال • وأخيرا شفي الرأس الاحمر بالرغم من اهمال الطبيب ، الا أن عقله بقي ضعيفا من أثر الحمى والكالوميل ، فلم يعد الى توازنه السابق • وعلى الرغم من قصته المحزنة ، فقد كان في مظهره ، وفي التناقض الغريب بين زيه العسكري وتصرفه الذي لا يمت الى الجنديــة بصلة ما يبعث على الضحك • وسألناه ذات مرة فيما اذا كان لديه بندقية ، فأجاب أنهم أخذوها منه حينما كان مريضا ، ولم يرها بعد ذلك • وأردف ملتفتا نحوي قائلا بتوسل : « ربما تفضلتم باعارتي احدى غداراتكم اذا التقينا بالهنود » ، وحين سألته عما اذا كان لديه جواد ، أجاب أن لديه جوادا ممتازا • وحين قاده أحد المكسيكيين للفحص بناء على

طلب شو ، تبين أنه من الجياد الطيبة ، غير أن عينيه كانتا غائرتين ، كما أن أضلاعه تكاد تبرز من جسمه النحيل • وقد انتهز رفاق الرأس الاحمر فرصة مرضه الاخير ، فربطوا الجواد الى أحد المدافع مع غيره من خيول الجر • وعندما أوصيناه بأن يقايض جواده بأحد البغال اذا استطاع ، استولت عليه الدهشة • ولكن أصحاب الحصن الراغبين في التخلص منه ، أبدوا استعدادهم للتضحية ، فتمكن عندها من الحصول على بغل مقابل جواده المنهك •

وظهر في الباب الخارجي رجل يقود البغل بحبل وضعه بيد الرأس الاحمر ، الذي كان خائفا أول الامر ، ولكنه أخذ يربت على عنقه حتى يسير الى الامام • الا أن البغل ثبت في مكانه دون أن يتزعزع أو يتحرك ، حتى تلقى سوطا من الخلف • غير أنه قفز الى الوراء ، ودار حول نفسه واندفع نحو الباب الخارجي ، وقذف الرأس الاحمر عدة أمتار بعيدا ، وكان لا يزال متمسكا بالحبل • ولما أفلته ، وقف ينظر الى البغل الذي سار يعدو نحو البادية • فأسرع أحد المكسيكيين خلفه وأمسكه بأن قذفه بحبل المطاردة •

وبدأ الرأس الاحمر يعد المؤونة التي سيحتاج اليها في الرحلة • فلجأ الى الموظف المختص بالمؤونة في الحصن • وكان له وجه قبيح زاد في بشاعته استياؤه من تركه في الحصن بعد ذهاب الجيش • ولما كان يتوق للتخلص من الرأس الاحمر ، فقد أخذ مفتاحا علاه الصدأ ، وفتح له بابا صغيرا يؤدي الى قبو • وغاب في داخله بصحبة الرأس الاحمر ، ثم خرجا بعد مدة وقد ناء الاخير بحمله المكون من رزم عديدة تحوي مختلف المؤن التي استحقها في مدى أربعين يوما ، وسلمها الى ديلوريه الذي كان يمر بعربته في تلك اللحظة في طريقه الى المكان المعين للالتقاء مع مونرو ورفاقه •

ثم طلبنا من الرأس الاحمر أن يحصل لنفسه على بندقية ، فأخذ يتوسل عبثا الى مختلف الاشخاص في الحصن ، ولكنه فشل فلم يحصل على طلبه ، ولم نستأ من ذلك لانه قد يكون أكثر استعدادا لالحاق الضرر بنفسه أو بأصدقائه من العدو ، وأسرجنا خيولنا عندما تمت جميع الاستعدادات ، وأخذنا نستعد لمغادرة الحصن ، عندما تلفتنا حولنا لنرى رجلا يمسك برسن البغل ، بينما يحاول صاحبنا الرأس الاحمر وضع القربوس فوق ظهره دونما فائدة ، فقد كان يقفز الى الامام والى الخلف ، ثم الى اليمين واليسار ويدور حول نفسه ، حتى ملأ اليأس قلب صاحبه ، وكان بحاجة للمساعدة حتى يتغلب على هذه الصعاب ، وبعد جهد شاق استطاع أن يعتلي السرج الاسود الذي كان عليه أن يحمل الرعب والفزع في صفوف المكسيكيين ،

وقال الرأس الاحمر مخاطبا البغل : والآن هيا بنا ،

وسار البغل الى خارج الباب ، وكان تصرفه سببا في تخوف صاحبه ، فلم يجرؤ على مسه بسوطه ، فسارت بنا الخيول تعدو نحو مكان الاجتماع ، ولكننا رأينا قبل أن نسير بعيدا ، أن بغل الرأس الاحمر ، الذي خبر الضعف والخوف براكبه ، قد وقف وأخذ يرعى العشب بهدوء على الرغم من احتجاجاته الصارخة ، فعدنا اليه ، ودفعناه بالسوط أمامنا ، وسرنا حتى استطعنا أن نرى بعيدا خلال الشفق لمعان نار استلقى مونرو وجيم وايليس حولها ، وتبعثرت قرابيسهم وأمتعتهم وأسلحتهم في أنحاء المكان ، وكان معهم ديلوريه وعربتنا الصغيرة ، وحين وصلنا ، دعونا حلفاءنا الجدد الى تناول قدح من القهوة معنا ، ولما ذهبوا الى الناحية الاخرى من المخيم ، بقي جيم جورني واقفا بقرب النار ينفخ دخان غليونه

الصغير الاسود وقال :

حسنا ، ها نحن أصبحنا ثمانية ، بل سته ، لان هذين الصغيرين ، ايلبس وذلك الرجل الجديـــد الذي يرافقكم لا ينفعان لشيء . وسوف نجتاز الطريق ، دون أن نخشى شيئا ، الا غدر الكومانش ولؤمهم .

الفصل الثالث والعشرون

الحذر من الحنوه

بدأت رحلتنا الى المستعمرات في السابع والعشرين من اغسطس • وكانت قذارة هيئتنا ورثاثة ملابسنا قد جعلت منا فريقا من المشردين لم تر ضفاف الاركنساس الاعلى أحقر ولا أزرى منه • وقد اضطررنا ان نستبدل جيادنا الفاخرة القوية التي كنا نمتطيها عندما تركنا الحدود في الربيع ، بجياد نشأت وعاشت في الصحراء ، فهي قوية كالبغال ، كما انها شبيهة لها ببشاعتها • وكانت جميع الدواب التي معنا ، قد انهكها فرط التعب ، على الرغم من قوتها وتحملها للشدائد ، وتمزقت سروجها وأعنتها ، كما علا الصدأ أسلحتنا جميعا •

وهكذا كنا نزحف كالمتسولين ببطء وسرور وعدم مبالاة ، بالقرب من ضفاف نهر الاركنساس الموحشة ، ولم يكفنا ما كنا نلاقيه من البلاء بل كان الرأس الاحمر يثير المتاعب باستمرار ، فهو لا يستطيع ان يكبح جماح بغله ويسرجه أو يقوم بأي عمل دون مساعدة • وكان يدعي كل يوم مرضا جديدا ، عدا عن أننا كنا نراه تارة كئيبا حزينا وأخرى تتجمع حوله أمواج متتابعة قوية من الارواح فلا يستطيع التخلص منها الا بالضحك والصفير المتواصل ورواية القصص والحكايات • وكنا نسلي انفسنا أحيانا بتعذيبه ، جزاء له على المتاعب التي يسببها لنا • وكان يسره أن نجعل منه مدعاة للضحك والسخرية • لأنه كان مركبا غريبا من

الضعف والشذوذ ودماثة الاخلاق • وقد بدا في هيئـة تصلح لأن تكون نموذجا مضحكا يرسمه الفنانون • وخاصة عندما كان يسير ، وهو على ظهر بغله متدثرا برداء من جلد البافالو ، وهبه اياه أحد المحسنين حينمـا كـان في الحصن • وكـان ذلك الثوب فضفاضا يتسع لاثنين بالاضافة اليه ، وقد اختاره لسـبب لايعرفه الا هو ، فلم ينزعه عن كتفيه ابدا ، حتى في أشد الايام قيظا • وقد ضغط باحدى رجليه على جانب البغل ، وترك الثانية ممدودة في زاوية منفرجة • وزين سراويله بشريط أحمر عسكري ، كان شديـد الاعجاب به • وتدلت بطانيته الملفوفة وراء السرج ، ولم يمض يوم من أيام سفرنا الا وكانت تقع على الارض أربع أو خمس مرات • كما كان يرمي غليونه وسكينه وحجر الصوان أو قطعة من التبـغ كل خمس دقائق • ثم يترجل ليلتقطها فيمر ويقف بين قوائـم الخيول التي تتوقف عن السير • فيمطره راكبوها بوابل من اللعنات باشاراتهم والسنتهم • فيثور او يتظاهر بالثورة ، ثم يعلن انـه لا راحة في هذه الحياة ، وانه لم يرقط مثل هؤلاء الرجال •

لم يمض يوم أو اثنين على تركنا حصن بنيت حتى تقدمنـا هنري شانيون وقد اصطحب معه ايليس ، آملا أن يجد في طريقـه بعض الطرائد فيصطادهـا • ولكن لم يمر وقت طويل على غيابهمـا حتى عاداً وهما يقودان ثلاثة من جياد الدراجون كانت قد فرت أثنـاء الطريق ، او ربما أفلتت عن قصد • وكان احدها قويا سمينا • أما الآخران فكانا هزيلين وعلى جسميهما تبدو آثار نهش الـذئاب • فاخذنا اثنين منها الى المستعمرات وبدل هنري ثالثها ببغل من أحد هنود الارباهوس •

ومر بنا في اليوم التالي ، عندما وقفنا لنستريح ، قافلة طويلـة

من عربات سانتافي وهي تسير ببطء في موكب بديع • وكانت تخص تاجرا يدعى ماجوفين ، الذي زارناشقيقه مع بعض الرجال •وجلسنا نتناقل الاخبار • فلم يكن مانقلوه الينا سارا ، اذ ذكروا أن الطريق التي قدموا منها محفوفة بالاخطار • فقد رأوا مرارا بعض الهنود يحومون ليلا حول مخيماتهم • وان القافلة الكبيرة التي كانت قد خرجت من حصن بينت قبلنا ببضعة اسابيع تعرضت لهجوم الهنود، الذين قتلوا أحد أفرادها المدعو سوان من ماساشوتس • وبعد أن دفنه رفاقه ، عثر ماجوفين على قبره وقد نبشه الهنود وسلخوا الجثة ورموها للذئاب • وقد بشرنا أصحاب ماجوفين من جهة أخرى ان البافالو ينتشر بكثرة على مسير بضعة أيام •

سرنا في اليوم التالي في محاذاة ضفة النهر ، فرأينا عند الافق رؤوس عربات بيضاء • ولم تمض الا ساعات قليلة حتى التقينا بها، فوجدناها عربات غير متقنة الصنع ، تختلف عن عربات تجار سانتافي السريعة النظيفة ، وكانت تحمل مؤنا وذخائر للجيش • وأوقف السائقون هذه العربات ، وتجمهروا حولنا • وكان اغلبهم فتيانا صغارا ، وقد أيدوا أقوال رجال سانتافي ، الذين قابلناهم من قبل • وكان حراسهم اثناء مرورهم بين بوني فورك وكاشز يطلقون الرصاص كل ليلة على الهنود ، سواء شاهدوهم أولم يشاهدوهم • وأكدوا لنا أن شابا من كنتوكي يدعى ايونيج من القافلة التي سبقتنا ، اطلق الرصاص على هندي كان يحوم ليلا حول المخيم • وتضاربت اراء الناصحين ، فمنهم من طلب منا أن نعود فورا ومنهم من نصحنا بأن نغذ السير ونسرع فيه • وعلى كل حال فقد كانوا جميعا في قلق واضطراب شديدين ، وفي حالة من الارتباك ، تجعلهم لا يستطيعون اصدار حكم متزن على مجريات

الأمور • ولهذا السبب لم نقم أي وزن لكلامهم ، الذي كان منه أيضا أن قرية كبيرة من الاراباهوس كانت تخيم بجانب النهر • ولما قابلناهم أبدوا لنا صداقة وودا لأنهم يميزون طبعا بين قافلة مؤلفة من ثلاثين رجلا في عربات تقودها الثيران ، وليس بها ما يفيد، ولا قيمة لها في نظر الهنود ، وبين حفنة من الرجال يقودون قطيعا من البغال والخيول الثمينة التي تغري بالاستيلاء عليها •

وفي اليوم التالي ، دققنا النظر في الافق البعيد • فرأينا في نقطة منه تسننات شاحبة تشبه اسنان المنشار• لقد كانت مساكن الاراباهوس المرتفعة تقف شامخة بيننا وبين السماء ، وذلك هو سبب هذه الظاهرة الغريبة • وكان لا يزال لغروب الشمس ثلاث ساعات عندما اقتربنا من مخيمهم • فرأينا مائتي مسكن وسط مرج اخضر ، بينما كان قرابة الف وخمسماية رأس من الجياد والبغال منتشرة على ضفتي نهر اركنساس ترعى في السهول • وكان كل شيء يبدو واضحا لنا في ذلك المكان الفسيح المنبسط لاتتخلله التلال ولا يمنع امتداد البصر فيه شجرة او دغل •

وكان يسير في كل جهة أحد الهنود المكلفين بحراسة الخيل • ولم نكد نراهم حتى توسل الرأس الاحمر الى ديلوريه أن يوقف العربة ويعطيه بزته العسكرية التي كانت موضوعة فيها • فارتداها واستوى على قربوسه ووضع قبعته على رأسه بتحد واضح ، ثم طلب منا أن نعيره بندقية أو غدارة لمدة نصف ساعة فقط • ولما سألناه عن السبب في عمله هذا • أجاب ، انه يعلم من التجارب التي مرت به ، ماهو التأثير الذي يحدثه وجود أحد رجال الجيش ببزته الرسمية في عقل الهندي • لهذا نشط في انذار الاراباهوس بان أحد الجنود يسير مع هذا الفريق •

وكان اللقاء بالاراباهوس هنا في أراضي الاركنساس ، يختلف جدا عن الالتقاء بهـم في جبالهم الاصلية حيث يقيمون • كما كانت هناك ظروف أخرى في صالحنا • فمنذ بضعة اسابيع رآهم الجنرال كيربي ، وهو يقود جيشه على ضفاف النهر • فجدد تهديده لهم وذكرهم بأنـه سيفني شـعبهم اذا حـاولوا الضرر بشعرة من رأس أحد البيض • وقد أقلقهم هذا التهديد ، وجعلهم يخشون عواقبه • فأخلدوا الى السكينة ردحا من الزمن • وعند وصولنا لم تكن اثار التهديد قد زالت بعد • فتمنيت أن أرى القرية وساكنيها • ورأينا أن من حسن السياسة أن نزورهم زيارة نظهر لهم فيها أننا لا نشك في وجود أية خطة عدائية من جانبهم نحونا • وأخذت أنا وشـو وهنري شاتيون نستعد لاجتياز النهر بينما تابع الباقون سيرهم باقصى السرعة ، لنترك بيننا وبين جيراننا الهنود أطول مسافة ممكنـة قبل ان يحل الظلام •

ولم يكن الاركنساس في هـذا المكان والى مسافة عـدة مئات من الاميال ، سوى فراش عريض من الرمل تلمع فيه خيوط دقيقـة من الماء • وتنساب بهدوء وسكون • أما الماء خلال فصل الخريف ، فكان يغيض في الرمل ويختفي • ولقد كان من السهل اجتياز النهر من أي نقطـة وبدون صعوبـة في هـذا الفصل من السنة • امتطينا خيولنا بعد راحة قصيرة ، واتجهنا صوب مساكن الاراباهوس ، كما اسلفنا ، فخاضت جيادنا في الماء ، ثم سارت تعدو بحرية فوق الارض الرملية التي تغطي مجرى النهر ، حتى بلغت الضفة التالية • وعلى مسافة قصيرة صادفنا بعض الهنود ، فانتظر أحدهم حتى اقتربنا ، ووقف أمامنا بسكون تام وأخذ ينظر الينا بطرف عينه الصغيرة التي تشبه عين الافعى • فافهمه هنري بالاشارة عن رغبتنا ، فتدثرالهندي

بردائه المصنوع من جلد البافالو • وتقدمنا صوب القرية بدون ان ينبس ببنت شفة •

كانت لغة الاراباهوس صعبة والنطق بها جافا خشنا يخرج من الحلق • فلا يستطيع أي رجل أبيض ان يتقنها • ولا يغيب عن الذهن ان ماكسويل التاجر الذي مكث بينهم مدة طويلة ، كان يضطر في أكثر الاحيان للالتجاء الى لغة الاشارات الشائعة بين قبائل الصحراء ليعبر عن قصده • غير أن هنري شاتيون كان قد اعتاد على استعمالها بشكل أفضل من سواه من البيض •

رأينا عند اقترابنا من القرية ، أن الارض تزخر بأكداس من بقايا لحوم البافالو • وكانت من الكثرة بحيث لا يصدق وجودها • وقد أقيمت المساكن على شكل دائرة • فهم في هذه المظاهر يشبهون الداكوتا في كل شيء الا في النظافة • وحين دخلنا الباحة الكبرى في أواسط القرية ، خرج لرؤيتنا مئات من الهنود ، رجالا ونساء وأطفالا • في حين بدأت الكلاب تنبح • أما دليلنا الهندي فقد ظل يسير أمامنا نحو مسكن الزعيم • وحين وصلنا ، حللنا أعنة الخيول قليلا ، ولكننا لم نتركها من أيدينا • ثم جلسنا أمام المدخل ، وبنادقنا في أحضاننا • وخرج الزعيم ، فصافحنا وأهل بنا • والزعيم هذا طويل القامة ، نحيف الوجه ، قوي البنية مثله في ذلك مثل بقية أفراد شعبه • ولم نكد نجلس حتى احتشدت حولنا جموع الهنود من جميع أنحاء القرية • فصرنا كأننا في سجن وسط سور من الوجوه المتوحشة التي تحيط بنا • وقد جثم بعض الزائرين حولنا على الارض ، بينما جلس الآخرون خلفهم ، ووقف غيرهم يحملقون بنا • وعبثا حاولت وأنا أحدق في هذه الوجوه ، أن أرى رجلا عليه سيماء الشهامة والمروءة • فقد كان الجميع كالذئاب الكاسرة ، أشرارا

خبثاء ، على العكس من هيئة وأوصاف أفراد الداكوتا ، الذين يبدو على وجوههم كثير من علائم الشهامة والرجولة . ونادى الزعيم الذي كان يجلس بجانب المدخل ، امرأة من داخله . فخرجت تحمل وعاء خشبيا من اللحم ، وضعته أمامنا . وقد لاحظنا بملء الدهشة أنهم لم يقدموا لنا غليونا للتدخين ، ولكننا لم نبد شعورنا ذاك ، بل أخذنا نتذوق اللحم حسب الاصول ، ثم فتحنا رزمة الهدايا . وكانت مؤلفة من التبغ والسكاكين والسيلقون وغيرها من المواد . فلمعت عيون الهنود عند ذاك ، وارتسمت ابتسامة غامضة على الوجوه المحيطة بنا ، وامتدت الاذرع الطويلة الرفيعة من كل جانب لتسلم الهدايا .

كان الاراباهوس يهتمون كثيرا بدروعهم التي يتوارثونها أبا عن جد ، وأردت أن أحظى بواحد منها ، فعرضت قطعة كبيرة من القماش الاحمر مع بعض التبغ وسكينا ، وأعلنت لهم أنني أقدمها الى الرجل الذي يقدم لي أحد الدروع ، وهكذا أحضروا لي بعد قليل درعا متوسطا . وهم يتوقون لمعرفة ما سأفعل به . وأجابهم هنري على تساؤلهم فقال : أننا سنحارب به أعداءهم البوني . وكان لهذا التصريح وقع حسن زاد في اثره توزيعنا للهدايا التي كان من ضمنها ورقة كبيرة ، تحتوي على مخارز للنساء ، فطلب هنري أن يخرجن لاستلامها ، وانما فعلنا هذا عن قصد ، لنشاهد مبلغ الجمال لدى الاراباهوس . فصاح أحد الهنود يدعوهن ، كما لو أنه يدعو زمرة من الكلاب . فخرجن من مساكنهن يتصايحن ويتضاحكن ، وشققن طريقهن بين الرجال ، والتففن حولنا وقد زاد حماسهن في تلك اللحظة من بشاعتهن .

امتطينا ظهور الخيول التي لم تترك أعنتها من أيدينا طوال الوقت

الذي أقمناه بين الاراباهوس • واستعددنا للرحيل فتدافـع الناس الى الوراء من كل جانب • ووقفوا ينظرون الينا ، وقد خطرت لنا قبل أن نغادر المخيم فكرة ، وهي أن نخبر الاراباهوس أن أعداءهم البوني يخيمون في جوار الكاشر • وأن نثيرهم كي يرسلوا فريقا من المحاربين ليطردوهم ، بينما نسير نحن خلفهم ، نقضي الوقت في صيد البافالو ، وقد بدا لنا في بادىء الامر أن فكرة ضرب أعدائنا بعضهم ببعض رائعة ، الا أن وجود محاربي الاراباهوس بالقرب منا لم يكن أقل خطرا من البوني • لذلك طرحنا هذه الفكرة جانبا وخرجنا من القرية الى الجانب الآخر ، ونحن نستحث خيولنا •

وسرنا في محاذاة النهر بعد وصولنا اليه ، فشاهدنا خلال الغسق عربتنا الصغيرة على الضفة المقابلة • كما وجدنا عند وصولنا عددا كبيرا من الهنود • وكان الرأس الاحمر ببزته العسكرية يتحدث مع واحد منهم الى جانب العربة ، ولما وجد أن اشاراته وحركاته لم تجديا نفعـــا ، حاول أن يفهم الهندي بترديد بعض الكلمات الانكليزية بصوت عال واضح • ولكن الهندي ظل جالسا وعينـه مثبتة فيه ، وظهر أنه كان يفهم صاحبه الجندي ، ولكنه يكن له كرها عميقا • وكان ذلك الحديث بالنسبة الينا مدعاة للتسلية أكثر من النفع ، فطلبنا من الرأس الاحمر أن ينهي حديثـه بسرعة • فزحف تحت العربة • ولما نظر اليه هنري شاتيون ورآه قابعا في ذلك المكان ، قال : ان الهندي يستطيع أن يقتل وهو يضحك عشرة أشخاص مثل هذا الرجل •

ونهض زائرونا واحدا بعد الآخر وانصرفوا • وعند حلول الظلام استقبلتنا أصوات موحشة • فالذئاب كانت كثيرة في هذا الجزء من البلاد ، وقد جذبتها فضلات الطعام الملقاة حول مخيم الاراباهوس •

فأخذت تعوي جميعها بكورس واحد في جوارنا . ودام عويلها ساعات طويلة بعد غروب الشمس . وكنا نراها تعدو في البادية على بعد عشرات الياردات أو تقفز فوق فرش الرمل وتخوض ماء النهر. ولم تتهددنا بأي خطر ، لانها كانت أجبن حيوانات الصحراء .

وكنا نخشى الذئاب البشرية أكثر من تلك الذئاب . ففرش كل منا في تلك الليلة رداءه المصنوع من جلد البافالو على الارض ، ووضع بجانبه بندقيته المحشوة . وربط جواده قريبا منه . ولم يكن من عادتنا تعيين حرس ، بل كان كل منا يقظا حذرا . يقف أحيانا وينام أخرى . واستلقيت وأنا نصف نائم ، فشعرت بحركة ، فوقفت لارى الرأس الاحمر يضطجع بجانب النهر . ثم يغير وضعه ويجثم على يديه ورجليه تحت العربة . وغلبني النعاس ثانية فاستغرقت في نوم عميق أيقظتني منه يد تهزني من كتفي بارتجاف . ففتحت عيني ، فرأيت الرأس الاحمر منحنيا فوقي بوجه شاحب وعيون متسعة من شدة الخوف .

سألته « ما الخبر » ؟

فأجاب انه شاهد شيئا أثار ريبته بينما كان مضطجعا على ضفة النهر ، فزحف على يديه ورجليه وجثم تحت العربة ، حيث رأى اثنين من الهنود يرتديان ثيابا بيضاء ، ويتسلقان الضفة ثم يمسكان ماتنين من الجياد ، ويذهبان بهما . فكان الرعب يبدو عليه جليا واضحا وهو يروي القصة بصورة مفككة . فلم أصدقه ، ولم أشأ أن أثير مخاوف بقية الرجال . ومع ذلك فقد يكون ما رواه حقيقيا. فأمرته عندئذ أن يرشدني الى الطريق التي سلكها الهنود . ونهضت فأخذت بندقيتي وتركت المخيم ، وسرت محاذيا مجرى النهر مسافة ثلاثماية ياردة أنصت بانتباه وأنظر بحذر في كل جانب ، فلم أستطع

رؤية شيء يثير مخاوفي ، وكل ما رأيته ذئب يقفز فوق سطح الماء ٠
فرجعت الى المخيم حيث وجدت الجميع قد استيقظوا ، فأخبرني شو
أنه وجد الخيول كاملة العدد لم ينقص منها شيء ٠ ولما سئل الرأس
الاحمر عما رآه ردد قصته السابقة مصرا على أن الهنود سرقوا اثنين
من جياد المخيم ٠ وقرر جيم جورني عند ذاك أنه مخبول ، ولكن
الرأس الاحمر اعترض بتعال على قوله ٠ وطلب جيم رأينا بما قال ،
ولكننا لم نشأ أن نصدر حكما بمثل هذه القضية الحساسة ٠ فحمي
وطيس الجدل بين الاثنين ، الى أن أمرنا الرأس الاحمر بأن يذهب
للنوم ، وأن لا يعود لاثارة مخاوف رجال المخيم ، حتى ولو شهد
قدوم جميع الاراباهوس ٠

الفصل الرابع والعشرون

المطاردة

كانت البراري مكتظة بأسراب البافالو ، لذلك رأيت من المناسب أن أذكر هنا ملخصا عن طريقة صيده • ان هناك طريقتين متبعتين في هذا الشأن • وهما (السباق) و (التقرب) • فالسباق أو المطاردة على ظهور الخيل ، هي طريقة عنيفة جريئة تستعمل عندما يكون الحيوان في أشد حالات الهياج ، لأن من عادتـه الهدوء في أكثر الاوقات • وان الصياد الماهر الخبير يستطيع حين يكون ممتطيا جوادا طيبا أن يصطاد ست بقرات في مطاردة واحدة • وكما يقل الخطر ، فان حماس الصياد ينقص عندما يهاجم قطيعا صغيرا من الابقار ، أو يطارد بقرة واحدة • وأحيانا تكون الحيوانات مغفلة بليدة غير راغبة في الحركة • وعندئذ يصبح صيدها خاليا من المتعـة والتسلية • ويستطيع الصياد من على ظهر جواد جسور ممرن على الطراد جيدا أن يطارد ثور البافالو حتى يحاذيه ، ويسير معه جنبا الى جنب ، حتى أنه يكاد يلمسه بيده • وليس من خطر عندما يكون البافالو مالكا لقواه ، قادرا على التنفس ، أما عندما ينهكه التعب ويصبح غير قادر على العدو ، ويتدلى لسانه ويخرج الزبد من فكيه ، فيحسن بالصياد أن يتجنبه ويبقى بعيدا عنه • فالحيوان الغاضب اليائس قد ينقلب في كل لحظة الى وحش كاسر ، خاصة عندما يطلق الصياد الرصاص • فيقفز الجواد الى الجانب ، وغالبا ما يقذف براكبـه الى الارض اذا لم يستطع الثبات فوق السرج • ويكون في ذلك

القضاء عليه • ويسرع البافالو بالهرب عندما يرى أن الصياد فشل في هجومه • أما اذا كانت الرصاصة محكمة التصويب ، فانه يقف نبضع دقائق ، وهو يترنح ، ثم يسقط فوق أرض الصحراء •

وكانت الصعوبة الرئيسية في مطـاردة البافالو هي حشو البندقيـة أثناء المطاردة • فكثير من الصيادين كانوا يضعون عدة رصاصات في أفواههم تأمينا لسهولة العمل ، ثم يصبون البارود في فوهة البندقية ويضعون الرصاصة بعد ذلك ، ويضغطونها جيدا • ولكن خطر هذه الطريقة شديد في الحالة التي لا تستطيع الطلقة معها ارسال الرصاصة الى الهدف • وعندها قد تنفجر البندقية في يد صاحبها • ونجمت عن هذه الطريقة حوادث عديدة ذهبت فيها أذرع وأرواح كثيرة • ولقد تبين بعد ذلك أن السهام التي يستعملها الهنود في مطاردة البافالو أفضل بكثير من الاسلحة النارية • وهذا ما جعل كثيرا من الرجال البيض يفضلون استعمال الاولى في كثير من الاحيان •

ولا ينشأ خطر المطاردة من هجوم الحيوان الجريح فقط بل من طبيعة الارض التي يجري الطراد فوقها ، فالصحراء ليست دائما أرضا مستوية ، بل غالبا ما يتخللها فجوات وأودية وصخور ، كما تزين أنحاءها البعيدة أدغال كثيفة من القصمين البري • وكان انتشار أوكار الوحوش كالذئـاب والغرير وكلاب الصحراء يشكل أكبر جانب من الخطر • ويؤلف أشد العقبات في الصحراء • فحين يندفع الصياد بجواده في الصحراء خلال المطاردة ، دون أن يفكر في الخطر الذي يتهدده ، تسقط احدى قوائم الجواد في أحد هذه الاوكار فتتكسر لتوها وعندئذ يقع الجواد بعد أن يرمي براكبه الى الارض ، فيلاقي حتفه •

أما طريقة التقرب التي تمارس على الاقدام ، فانها تمتاز عـن

طريقة المطـــاردة بأن الصياد لا يخاطر بكسر قوائم جواده ، ولا بتعريض حياته للخطر • وما عليه الا أن يكون متزنا رابط الجأش يقظا ، وقادرا على فهم طباع البافالو • فيراقب معالم البلاد ، واتجاه الريح ، هذا عدا عن حاجته الى البراعة في استعمال البندقية •

وكان اليوم التالي ، حافلا بالنشاط • فلم تكد الساعة تبلغ العاشرة حتى صاح الرجل الذي كان يسير في الطليعة « بافالو » فرأينا أمامنا قطيعا من الثيران يرعى في فجوة من الفجوات الكثيرة الموجودة في الصحراء • وكان الاغراء شديدا ، فأسرعت اليها مع شو • وطاردنا ثورا منها • وأطلقنا عليـه الرصاص فسقط في الحـال • ثم تابعنـا مطاردة باقي أفراد القطيع طيلة ذلك اليوم ، في المروج الواسعة وعلى طول النهر وبعدئذ جلسنا نستريح قرب غابة صغيرة بجانب النهر •

لم نبتعد أكثر من ميل ، عندما شاهدنا منظرا مهيبا • فقد كان هناك قطيع كبير من البافالو امتـــدت صفوفه من ضفة النهر حتى الصحراء المرتفعة الى الشمال ، بينما ارتفعت بينها أعمدة الغبار • وفي أثناء ذلك ، تنشب بين الثيران معارك يشتبك فيها بعضها مع بعض ، فتسمع أصوات احتكاك القرون ، والخوار الحاد ، وقد رأيت شو بسير بعيدا في المقدمة مع هنري شاتيون • ثم رأيته يسحب الغطاء الجلدي عن بندقيته • وكنت قد استعملت غدارتي في الصيد ذلك الصباح ، ولكني أردت الآن أن أجرب قيمة البندقية • فسرت الى أن حاذيت العربة وناديت ديلوريه قائلا :

« أعطني بندقيتك يا ديلوريه » •

فأجاب : « ها هي يا سيدي » • ثم شد عنان البغل بأقصى جهده وناولني البندقية •

فسألته : « هل هي محشوة ؟ »

« نعم ، محشوة جيدا . وسوف تساعدك في الصيد ، لانها بندقية ممتازة » .

فأعطيته بندقيتي ولحقت بشو .

فسألني : « هل أنت مستعد ؟ »

قلت : « هيا بنا » .

وقال هنري : « اذا بقيت في هذه الفجوة ، فلن تراك ثيران البافالو حتى تصبح بالقرب منك » .

وبدأت ثيران البافالو تتجمع وهي تبتعد عن النقطة التي كنا فيها . فقال شو : « عليك بالقطيع الذي يتجه يسارا . أما أنا فسأتولى ذاك الذي يعدو أمامنا » . وقفز بجواده . فلم يلبث أن اختفى في الغبار المتصاعد ، ولم أعد أراه . وكان بيدي سوط هندي مربوط برسغي ، فرفعته في الهواء ، وضربت به خاصرة فرسي بكل ما أوتيت من قوة . فمرقت بي كالسهم ، ولم أعد أرى أمامي سوى سحب الغبار . ولكنني كنت أعلم أنها تخفي وراءها قطيعا مؤلفا من مئات البافالو . وكنت في تلك اللحظة ، وسط سحب الغبار أكاد أختنق . وقد أذهلتني أصوات حوافر القطيع الهارب . ولكن أسكرتني لذة المطاردة ، فلم أهتم بشيء سوى اللحاق بالبافالو . وكانت الحشود السوداء ، قد ظهرت للعيان ، وهي تعدو خلال الغبار . فأصبحت قريبا منها لدرجة كنت أستطيع معها اصابتها بسهولة ، ولكن الدهشة استولت علي عندما رأيت القطيع يختفي أمامي ، وكأن الارض انشقت وابتلعته . فلحقت به ، فاذا بنا ندخل واديا ضيقا . وسقطت الفرس على ركبتيها فوق الرمل المتحرك ، ثم وقفت بسرعة . وكنت متعلقا بعنقها وهي تسير بين ثيران البافالو ، في الغبار الكثيف الذي يعمي الانظار ، حتى صعدت من الجانب الآخر . وقد خشيت أن

تنزلق فتقع على ظهرها فتحطمني . ولكنها خرجت بجهد شديد . فوصلت الى الصحراء الجرداء . فوجدت نفسي أخيرا بين عدد قليل من البافالو . وكانت الثيران تعدو في مؤخرة القطيع حتى تحمي اناثها . فتلتفت نحوي عندما أمر بها ، وتحاول أن تنطح فرسي . ولكنها لا تكون لديها القوة الكافية حين تعدو بسرعتها القصوى . خاصة وان بولين كانت أسرع منها ، ثم تكشف الغبار وبدأت أرى الابقار بين الجموع أمامي . فأعجبتني واحدة منها . فأطلقت عليها الرصاص . وعندما اقتربت منها ، اندفعت نحو بولين . ولكن الفرس الخفيفة تحاشت الصدمة . وضاعت البقرة الجريحة بين سحب الغبار الذي يثيره ذلك القطيع الهائج . وانتخبت بقرة أخرى ، وحثثت فرسي على التقدم باتجاهها ، ثم أطلقت عليهـا غدارتي الاثنتين . الواحدة تلو الاخرى . وراقبتها هنيهة ، ولكني عندما حاولت أن أحشو بندقيتي ، اختفت بين ثيران البافالو الهائجة . ولما كنت متيقنا من أنها تلقت اصابة مميتة ، لا تستطيع معها الاستمرار في السير مع القطيع ، أوقفت فرسي بينما اندفعت الثيران والابقار تعدو الى الامام. ثم انقشع الغبار ، فرأيت خلف القطيع عن بعـد ، احدى الابقار تسير متثاقلة لوحدها . فلحقت بها بعد قليل ، وسرت معها جنبا الى جنب . وكانت أسلحتي كلها فارغة من الرصاص . الا أنه كان بجيبي بعض الرصاص الذي لا يصلح للبندقية . فحشوتها علهـا تنطلق ، ولكن لم ينطلق منها سوى البارود الذي لم يؤثر في شيء . وسبقت بقرة البافالو لكي أردها عن الاتجاه الذي كانت تسير فيه ، ولكنها أرخت رأسها ، ونفخت أوداجها ، واندفعت نحوي بكل قوتها . فأخذت أعدو أمامها . واستمرت في هجومها بكل شراسة وقسوة . ولكن بولين كانت لها بالمرصاد . فتحاشت هجماتها بخفة وبراعة ، الى أن وقفت البقرة . وقد أنهكها الجهـد والتعب وتدلى

لسانها من بين فكيها •

ابتعدت عن بقرة البافالو مسافة قليلة ، وترجلت لكي أجمع حفنة من العشب اليابس ، وأحشو البندقية على مهل • ولكنني لم أضع قدمي على الارض ، حتى اندفعت البقرة نحوي في أشـــد حالات الهياج ، فقفزت ثانية فوق السرج بكل ما أوتيت من السرعـة • وقررت بعد هنيهة ، أن أحاول طعنها بالسكين • ولكنني عدلت عن هذه الفكرة ، وحشوت بندقيتي مستعينا بقطعة من القماش مزقتها من سراويلي ثم اقتربت من البقرة وأطلقت الرصاص عليها فسقطت على ركبتها ، ثم تدحرجت فوق أرض الصحراء • ولما اقتربت منها استولت علي الدهشة ، اذ وجدت أنها لم تكن سوى عجل صغير ففتحت فمه وقطعت لسانه ، وعلقته وراء السرج وقفلت راجعا ، وكان من السهل أن يقع من كان أمهر مني في هذا الخطأ وسط ذلك الغبار والفوضى •

ونظرت حولي لاول مرة فرأيت الصحراء قد اسودت بالقطعان الهاربة نحو النهر • وكان الاركنساس على بعد أربعة أميال • فأدرت رأس فرسي واتجهت نحوه • ومضى وقت طويل قبل أن أشاهد غطاء العربة والخيالة الذين يواكبونها من الامام والخلف • ولمـــا اقتربت منهم عرفت المعطف الانيق الذي يرتديـــه شو وقميصه الاحمر • وسألتهم عن مدى نجاحهم في الصيد ، فأجابوا : انهم أصابوا بقرة سمينة بجرح مميت • ولم يكن أحد منا مستعدا للصيد بعد الظهر كما لم أعد أملك رصاصا في جرابي وكذلك شو ايضا ، وقد تركنا الحيوان الجريح لعناية هنري شاتيون الذي تبعه وقتله برصاص بندقيته وحمل لحمه على ظهر الجواد • وخيمنا بجانب النهر بينما كان عواء الذئاب يدوي في الليل البهيم مختلطا بخوار البافالو الذي يشبه أمواج المحيط التي تلطم الشاطيء البعيد •••

الفصل الخامس والعشرون

مخيم البافالو

لم يكن في المخيم من هو أكثر نشاطا من جيم جورني ، ولا أشد كسلا من ايليس ، لذلك كانت بينهما كراهية متبادلة • فكان ايليس لا يتحرك في الصباح حتى يطلب منه ذلك • أما جيم فكان يستيقظ عند الفجر • وفي هـذا الصباح ارتفع صوت جيم في ايقـاظ ايليس وباقي الرجال • وتأججت نار ديلوريبه ، فأطلق الخيول والبغال التي أخذت ترعى في المرج المجاور • وتناولنا طعـام الافطار ، ثم امتطينا خيولنا عند شروق الشمس وتابعنا سيرنا •

وصاح مونرو : « بافالو أبيض ! »

فقال شو : « سأتولى أمر تلك البقرة ولو طاردتها بجوادي حتى الموت » •

ورمى غطاء بندقيته الى ديلوريبه وراح يعدو بجواده فوق أرض الصحراء •

فناداه هنري شاتيون : « قف يا مستر شو ، انك تتعب عبثا ، لأنه ليس الا ثورا أبيض •

ولكن شو كان قد ابتعد فلم يسمع ما قاله شاتيون • وكان الثور يقف في تل منخفض ، فيرعى بجانبه عدد من ثيران البافالو ، أفزعهم اقتراب شو ، فأخذت تعـدو صاعـدة جوانب التلال كي تبتعد في الصحراء • ورمى أحدها نفسه في مأزق حرج عندما سقط في أخدود عميق ضيق ، وسط تربة مرزغية عميقة ، غاص فيها حتى رقبته •

فأسرعنا الى المكان ووجدنا الحيوان غارقا في الوحل ، يكافح عبثا للتخلص من شر المأزق . فحاولنا مساعدته وشددناه من ذيله دون فائدة ، حتى استسلم أخيرا لمصيره ، وأخذ ينظر الينا بغضب. فترجل ايليس ببطء ، وأطلق عليه الرصاص ، ثم عاد الى جواده وقـــد امتلأت نفسه غرورا بأنه قتل أحد ثيران البافالو .

وكان الصباح صافيا ضاحكا والهواء نقيا رقيقا ، فشعر شو برغبته في الذهاب الى الصيد . وكان يسير في المقدمة ، فرأى قطيعا من البافالو يعــدو بأقصى السرعة فوق مرتفع مخضوضر من مرتفعات الصحراء . فلحق بها وأطلق الرصاص على آخر ثور منها ، فدار الثور على نفسه ، وهجم عليه ، ولكن الاثنان اختفيا وسط سحابة من الغبار .

وتابعنا سيرنا حتى وصلنا الى ضفة الاركنساس ، فرأيت شو في تلك اللحظة وهو يسير ببطء بجانب تل بعيد ، وقد أنهكه التعب كما أنهك جواده . وعندما رمى السرج الى الارض ، رأيت ذيل البافالو يتدلى خلفه ولم تكد الخيول تتفرق في المرعى حتى طلب هنري من مونرو أن يرافقه ، ثم تناول بندقيته وابتعد بهدوء . وجلست مع شو والرأس الاحمر الى جانب العربة نتحدث مع ديلوريه عن طعام الغداء الموضوع أمامنا . وخلال ذلك رأينا مونرو قادما نحونا في محاذاة النهر ، حيث قال ان هنري اصطاد أربع بقرات سمان ، وقد أرسله حتى يأتي بالخيول لينقل عليها اللحوم . فأخذ شو جوادا له وآخر لهنري ، ثم غادر المخيم مع مونرو . وعاد الثلاثة بعد برهة من الزمن والخيول تحمل أجــود أجزاء لحم الطرائد . فأخذنا بقرتين ، وتركنا الباقي مع مونرو ورفيقيه . وجلس ديلوريه فوق العشب أمام أكداس اللحوم ، وأخذ يعمل بجد في تقطيعه شرائح

عريضة للقلي • وهو فن أتقنه ، مثل نساء الهنود • وامتدت قبل حلول الظلام ، حبال من الجلود الخام حول المخيم ، وعلقت عليها اللحوم كي تجف في الشمس وهواء الصحراء النقي • وكان رفاقنا الكاليفورنيون أقل براعة في القيام بمثل هذا العمل ، غير أنهم أتموه على طريقتهم الخاصة •

وأردنا تحضير مؤونة للسفر حتى الحدود • وكان ذلك يقتضي مدة شهر لبلوغ الغاية ، وكانت بندقية هنري شاتيون قادرة على تموينا باللحم الكافي خلال يومين ، حتى ولو كنا أكثر عددا مما نحن • وقد اضطررنا للبقاء حتى يجف اللحم ويصبح صالحا للنقل ، لذلك نصبنا خيمتنا وأخذنا نستعد لمخيم دائم • أما رفاقنا الذين لم تكن لديهم خيمة ، فقد اكتفوا بترتيب امتعتهم فوق العشب حول النار المتقدة • ولم يكن لدينا ما نفعله في ذلك الوقت سوى أن نتسامر ونسلي أنفسنا • وما كنا نرى من حولنا سوى مساحات شاسعة من العشب ، ليس فيها أي أثر للغابات سوى بعض الأشجار والادغال التي كانت تنمو فوق جزيرتين صغيرتين نشأتا من رمال النهر الرطبة • وكانت ثيران البافالو تأتي مرتين كل يوم ، في الصباح وعند الظهر ، لتشرب من النهر • فكنا نتسلى على حسابها ، ونتمنى أن نقتلها لولا أننا تعاهدنا أن نترك صيدها الى خبرة هنري شاتيون ، الذي برع في معرفة أنواعها الجيدة •

غير اننا كنا من حين لآخر نصطاد على أقدامنا ، بعد أن تعبت خيولنا • وكنا نستلقي على العشب بعد الغداء ، ندخن ونتجاذب أطراف الحديث أو نضحك من الرأس الاحمر ، بينما يرى أحدنا أشياء سوداء تقترب ببطء من وراء النهر • فيأخذ نفسا طويلا من غليونه ، ثم يقف بتكاسل ويتناول بندقيته المستندة الى العربة ويعلق

جرابه وقرن البارود على كتفه ، ويحمل خفيه بيده ، ويسير خلال الرمل الى الجهة المقابلة من النهر • وكان ذلك سهلا جدا ، لأن الماء قليل العمق على الرغم من أن عرض النهر يبلغ ربع ميل • وكان العشب الطويل غزيرا في تلك الضفة ، فيختفي الصياد فيه وينتظر ظهور ثيران البافالو ، وهي تنتقل الى الامام والخلف ثم تتقدم نحو الماء • وللبافالو طرق خاصة منتظمة يمر منها الى النهر• فيراقب الصياد ضحيته حتى تجتاز طريقها الى النهر ، بينما يكون جالسا بهدوء فوق الرمل تحت الضفة يصغي الى أصوات أقدام البافالو وهو يقترب ، ثم ينحدر الى النهر ليروي ظمأه ، ويعود بعدها الى الضفة رافعا رأسه فيصوب الصياد بندقيته الى الهدف ويطلق الرصاص • فتظهر بقعة حمراء في مكان الهدف ، ويهتز الثور ويدركه الموت من حيث لايدري ، فيتداعى ثم يرتمي الى الارض ، ثم يتدحرج فوق الرمال ليرقد رقدته الاخيرة •

ان ترصد ثيران البافالو بهذه الطريقة ، واقتناصها عند ورودها الماء ، هو أسهل طريقة لصيدها • وهناك طريقة أخرى هي في ترصد البافالو والزحف في الوديان ووراء التلال أو في الصحراء المكشوفة • وهي طريقة سهلة جدا ولكنها تتطلب في بعض الاحيان مهارة شديدة من صياد خبير • وكان هنري شاتيون قويا جدا وشجاعا ، ومع ذلك ، فقد رأيته يعود الى المخيم، وقد انهكه التعب، وتخدشت يداه ورجلاه • وامتلأت ثيابه الجلدية بالشوك • وكان كثيرا ما يستلقي على وجهه ، ويلاصق الارض ويزحف بهذا الوضع عشرات الياردات بين شجيرات الصبير •

وفي اليوم التالي من اقامتنا في هذا المكان ، خرج هنري الى الصيد • وبقيت مع شو في المخيم ، الى أن شاهدنا بعض الثيران

تقترب من الماء في الجانب الآخر من النهر • فاجتزناه لمهاجمتها • وكانت قريبة جدا ، فلم نصل الى الضفة حتى شعرت بوجودنا ، فأخذت تعدو سريعا في الاتجاه الموازي للنهر • فتسلقت الضفة وتبعتها • ولكنها استدارت قبل أن تصبح على مرمى البندقية • فانبطحت على وجهي قبل أن تراني • فوقفت لحظة تحملق في ذلك الشيء الغريب فوق العشب • ثم عادت الى سابق عهدها في السير • وعندما أصبحت على مسافة مائة ياردة من الحيوانات الهاربة ، رأيتها تدور ثانية • فجثوت وصوبت بندقيتي على أكبرها حجما ، وأطلقت النار فهرب رفيقاه • وحاول أن يلحق بهما ولكنه وقف سريعا ثم تمدد بهدوء • فاقتربت منه بحذر ، وعرفت من عينيه اللتين اشبهتا الهلام انه فقد الحياة • وفي أثناء ذلك كان شو وهنري شانيون يلاحقان قطيعا كبيرا من البافالو • وكنت أسمع من حين لآخر أصوات الرصاص تدوي من بندقية شو ذات الفوهتين ، ومن بندقية هنري ، التي يصح القول فيها أنها حيث توجد ، يكثر اللحم• ولما هرب الاحياء من القطيع ، بقيت عشر جثث من البافالو مبعثرة على الارض • فانحنى هنري فوق احداها وبيده سكينه يقطع أحسن الاجزاء منها وأسمنها •

كان شو قد نزل الى ضفة النهر ، بعد أن تركني أملا في العثور على ثور آخر • فرأى السهول وقد انتشرت فيها قطعان البافالو ، وسمع صوت بندقية هنري ، ودوي طلقاتها ولما صعد الضفة زحف بين العشب الغزير النامي على بعد عشرين ياردة من النهر • فلم يكد يبتعد حتى رأى بملء الدهشة ، هنري واقفا في الصحراء ، وقد أحاطت به ثيران البافالو من كل جانب • وكان هادئا غير عالم بأن بعضها ينظر اليه وهو يقف بقامته الفارعة واضعا يده الواحدة على خاصرته ، والاخرى على فوهة بندقيته ، وعينيه تراقب الجموع

المحيطة به • وكان ينتخب من حين الى آخر بقرة نعجبه ، فيرفع بندقيته ، ويطلق الرصاص عليها • ثم يحشو البندقية ثانية • ويعود الى وضعه السابق • ويبدو أن البافالو لم تعد تشعر بوجوده، الا أنه واحد منها • فكانت تخور وتتناطح وتتدحرج في الغبار • لاهية عن هذا الخطر القائم بينها • وكانت زمر البافالو تتجمع فوق جثة بقرة ميتة ، وتنفخ على جروحها • ثم تجري خلف احدى الابقار التي لم تقع بعد وتدفعها ، وأحيانا يتجه أحد الثيران نحو هنري وينظر اليه بدهشة ممزوجة بالبلاهة ، ومع ذلك فلم يفكر واحد من البافالو في الهجوم عليه أو الهرب منه • وبقي شو مستلقيا بين العشب مدة من الزمن ، ثم زحف بحذر الى الامام• وهمس بأذن هنري ، فطلب هذا منه أن يقف ويتقدم • ولم يبد من البافالو أية اشارة تدل على الخوف • وبقيت تتجمع حول جثث رفاقها • وكان هنري قد اصطاد حتى ذلك الوقت ، عددا كافيا من الابقار • وقتل شو خمسة من الثيران ، وهو جاثم وراء احدى الجثث ، قبل أن يشعر بقية أفراد القطيع أن الوقت قد حان لتتفرق وتبتعد عن هذا المكان •

وكان هنري شاتيون والرأس الاحمر متساويين في العمر ، فالاثنان في حوالي الثلاثين ، الا أن هنري كان ذا طول فاره يبلغ ضعف طول الرأس الاحمر ، أما قوته فهي ستة أضعاف قوة الآخر• وقد اكتسب وجه هنري نتيجة لتعرضه للشمس والرياح والامطار والعواصف ، خشونة وقسوة • أما وجه الرأس الاحمر ، فكان منتفخا متوردا ناعما • وكان حديث هنري يدور حول الهنود والبافالو والبطولات • أما حديث الرأس الاحمر ، فمن المسارح وبائعي المحار وغير ذلك من الاحاديث التافهة • وقد عاش هنري حياة كلها رجولة وقسوة وحرمان ، أما الرأس الاحمر ، فكان

يعيش على هواه ويتمتع بما يمر به من النزوات والشهوات العابرة • وبينما كان هنري أكثر النـاس نزاهـة كان الرأس الاحمر لا يهتم الا بنفسه رغم رقته ولطفه • ولم نرغب ، مع وجود كل هـــذه المتناقضات من الانفصال عنه مهما عز الثمن وغلا ، لأنه يقوم بدور يشبه دور المهرج في قصر من العصور القديمة • ولولاه لــكان مخيمنا كئيبا خاليا من المرح ، وباتت الحياة فيه مملة رتيبة • وقد سمن وازداد وزنه بشكل عجيب في الاسابيع الاخيرة ، ولم يكن ذلك غريبا ، فقد كانت شهيته للأكل مفرطة • وتناوله للطعـــام لا ينقطع ، فهو يأكل من الصباح حتى المساء • وكانت تهيئة وجبة طعامه تشغل نصف أوقاته ، أضف الى ذلك تحضير عشرات مــن أباريق القهوة في كل يوم • وكان يصرف نهاره كله ، وهو يغني ويصفر ويضحك ويرمي النكات ويروي القصص • ولما كان يخاف جيم جورني حتى الموت فقد كان يبتعد عنه ويلازم خيمتنا ، وكثيرا ما كان يثير المتاعب ، فمن عاداته المتأصلة في نفسه اختلاس المؤن وليت الامر يقتصر على ذلك ، فقد كان عنيدا يقاوم من يتهمه ويتمادى في تحديه حتى ولو أصبح هدفا لغضب رفاقه جميعا • وكان يظهر الندم بين حين وآخر ويعترف بخطئه ، ولكن لاتكاد تمضي ساعة ، حتى نراه يحوم ثانية حول الصندوق الكائن في مؤخرة العربة ، ثم لا يلبث أن يختفي حاملا معه الجزء الاكبر من المؤونة التي حضرها ديلوريه لطعام العشاء •

مضى علينا يومان في هذا المخيم ، جفت بعدها اللحوم ، وأصبحت صالحة للنقل • فعزمنا على الرحيل في اليوم التالي ، وفجأة هبت العاصفة ، فأضحت السماء حالكة السواد • أخذت الاعشاب الطويلة بالتمايل مع الرياح • وقد أتى مونرو ورفيقاه ببنادقهم ، ووضعوها

الى جانب خيمتنا . وبما أنه لم يكن لديهم ما يستظلون به ، فقد أشعلوا نارا هائلة ، وتلفحوا بأردية البافالو ، وجلسوا على الارض حول النار ينتظرون ثورة العاصفة . بينما اختبأ ديلوريه تحت غطاء العربة . جلست مع شو وهنري والرأس الاحمر ، في وسط الخيمة الصغيرة ،بعد أن كدسنا اللحوم المقددة داخلها وغطيناها بأثواب من جلود البافالو . وحين انفجرت العاصفة في الساعة التاسعة وسط تلك الظلمة الحالكة ، هبت رياح هوجاء ، وهطلت سيول من الامطار ، فوق المساحات الشاسعة التي لا تنتهي من الصحراء . وامتلأت الخيمة بالضباب ورذاذ المطر . وقد استطعنا أن نلمح بعضنا بين آونة وأخرى حين يومض البرق الذي ينتشر ضوؤه في كل مكان . وكنا شديدي الخوف على الخيمة ، غير انها ثبتت في الساعتين الاوليين . ولكن لم تلبث أن هوى غطاؤها أمام هبوب الرياح العاتية . فانشق العمود من الاعلى ، وأصبحنا في لحظة تحت رحمة العواصف والامطار نرتجف من البرد .فتدثرنا بالبطانيات وأثواب البافالو ، وقضينا على هذه الحالة عدة ساعات من الليل ، لم تهدأ العاصفة خلالها لحظة واحدة ، ولم يمض وقت طويل حتى تجمعت المياه على الارض ، وارتفعت الى علو ثلاثة اينشات ، فقضينا جزءا كبيرا من الليل وسط بركة من المياه ، وكأننا في حمام بارد . ومع ذلك فلم يفقد الرأس الاحمر شيئا من روحه المرحة ، بل أخذ يضحك ويصفر ويغني متحديا العاصفة . وقد دفع في تلك الليلة كل ما كان يدين لنا به . وبينما كنا قابعين في امكنتنا نستقبل المصيبة بما نستطيعه من الصبر والثبات ، كان الرأس الاحمر يسلقنا بلسانه الحاد ونكاته اللاذعة . وزحفنا في الساعة الثالثة صباحا خارج الخيمة ، مفضلين قساوة هواء الليل المكشوف على ذلك الملجأ

المتصدع • وأخيرا هدأت الرياح ، ولكن الامطـار اسـتمرت في الهطول • وكانت نار الرجال الكاليفورنيين لاتزال مشـتعلة في وسط الظلام • فانضممنا اليهم وجلسنا جميعا حولها • وهيأنا بعض القهوة الساخنة ، ولما أردنا أن نسكب لانفسنا ثانية ، كان الرأس الاحمر قد استولى على ابريق القهوة وشرب كل مافيه •

وأشرقت شمس اليوم التالي فوق الصحـراء ، وكـان منظرنا مضحكا بثيابنا الجلدية التي التصقت بأطرافنا • ثم جفت من أشعة الشمس • وتجولنا طول النهار في الصحراء ، واصطدنـا بعض الثيران ، وظللنـا في حركـة دائمـة حتى عـادت ثيـابنـا الجامـدة الى سابق عهدها من المرونة واللين •

وكان سرب من الصقور يحوم فوق بعض الاشجار القائمة في وسط الجزيرة الكائنة وراء مخيمنا • وكنا لاحظنا في اليوم السابق وجود نسر بينها • ورأيناه في اليوم التالي أيضا حيث أعلن الرأس الاحمر أنه سيقتل طير امريكا ، واستعار بندقية ديلوريبه ، وذهب في مهمته تلك • وكما توقعنا فلم يصب النسر بسوء ، بل عادالرأس الاحمر ليدعي أنه لم يعثر عليه ، ولكنه اصطاد صقرا بدلا منه • ولما كان مضطرا لأن يثبت ادعاءه بابراز الصقر ، عاد فقال انالطير لم يمت ، ولكنه من المحقق أنه مات ، وقد تبين له ذلك من السرعة التي طار فيها •

وأردف حديثه قائلا : سأذهب اذا أردتم وآتي لكم بريشة منه لأنني رأيت الكثير من ريشه يتساقط بعد اصابته ، وكانتهناك جزيرة أخرى مليئة بالادغال ، في الجهة المقابلة لمخيمنا ، ووراءها بركة عميقة ، كما كانت ثلاثة جداول تجري غير بعيد عنها •وبينما كنت أستحم في هذا المكان ، رأيت ذئبا أبيض أكبر من الـكلب

النيوفوندلاندي الكبير ، يعدو هاربا فوق الرمال ، على بعد مرمى حجر مني • وكان سمجا بشعا ذا ذيل عريض ، ورأس كبير ، ومنظر شنيع • ولما لم يكن معي بندقية اطلقها عليه أو حجر أرميه به • فقد نظرت حولي لأرى أي شيء أقذفه به ، ولكن سرعان ما سمعت صوت الرصاص منبعثا من المخيم ، ثم سقطت رصاصة خلفه في الرمل • فقفز بسرعة وفر هاربا نحو الارض البعيدة • وتجمعت الذئاب من كل جانب من الصحراء حول بقايا جثث الثيران المبعثرة في المكان الذي كان شو وهنري يصطادان فيه • وكنت أنزل الى النهر ، في أغلب الاحيان ، لاراقبها وهي تلتهمها • وكانت مؤلفة من ثلاثة انواعهي الذئابالبيض ، والذئاب الرمادية، وكلاهما كبير الحجم • ثم ذئاب الصحراء التي هي اكبر بقليل من كلاب السبانييل • وكانت تدخل في معارك ضارية وتشتبك فيها جميعا فتمتلىء الصحراء بعوائها فوق جثث البافالو ، ولكنها في نفس الوقت كانت شديدة الحذر ، تختفي بسكون خلال الاعشاب الطويلة ، قبل أن يفكر أحد في الاقتراب منها ، كما كان الجو مملوءا بالصقور والطيور الجارحة السوداء ، فلا تكاد الذئاب تنتهي من التهام حصتها من الجثث حتى تنقض الطيور بدورها لتأخذ نصيبها ، فلا يبقى من الجثث الا العظام •

وتأهبنا لمغادرة المخيم ، بعد بقائنا فيه أربعة أيام ، وكنا نحمل حصتنا البالغة خمسماية ليبرة من اللحوم المقددة ، بالاضافة الى حصة رفاقنا الكاليفورنيين التي تبلغ ثلاثماية ليبرة ، وهي من أجود أجزاء اللحوم المقطوعة من تسع بقرات من البافالو • وهي مقادير صغيرة أخذت من كل بقرة ، وترك ما تبقى منها الى الذئاب •وحمل كل ذلك على ظهور الدواب • ثم أسرجت الخيول والبغال • وتابعنا

سيرنا تاركين أرض المخيم نحو الشرق • وبعد أن ابتعدنا عن المكان مسافة ميل أو أكثر ، تفقد شو مديته المفضلة ، فلم يجدها • فعاد يفتش عنها ظنا منه أنها بقيت في المخيم • وكان ذلك اليوم مظلما • فوجد شو الدخان يتصاعد من رماد النار بالقرب من ضفة النهر • وكان رحيلنا بمثابة اعلان لتجمع الطيور والوحوش • فقد رأى عشرات الذئاب تحوم حول النار التي يتصاعد منها الدخان • بينما كانت أعداد كبيرة منها تطوف الصحراء المترامية الاطراف ،والطيور الجارحة تحوم في الفضاء ، والثيران الميتة بالقرب من المخيم قد أصبحت هياكل عظمية مفرغة • ولم يجد شو بدا من الرجوع الينا ، بعد أن فقد الامل في العثور على مديته العزيزة ، وترك الذئاب والجوارح تتلهى في وليمتها دون أن يزعجها أحد •

الفصل السادس والعشرون

على ضفاف الاركنساس

في صيف عام ١٨٤٦ ، شاهدت ضفاف الاركنساس الاعلى المنعزلة للمرة الاولى جيشا يمر في أراضيها . فقد اختار الجنرال كيرني هذه الطريق في زحفه على سانتافي ، بدلا من طريق سيمارون القديمة . وقد مرت معظم وحدات الجيش عندما كنا على ضفاف الاركنساس . الا أن فرقة ميسوري كانت لاتزال في الطريق لانها تأخرت على الحدود وغادرتها بعد غيرها من الوحدات . وكنا نلتقي حينذاك ببعض المفارز التي تمر في تلك الطريق ولم تر البعثات الحربية رجالا مجندين أكثر حباللعمل من أهالي ميسوري. ولو كان للنظام والطاعة حظ في مقياس الاستحقاق والترقية لحاز اولئك الجنود على أعلى درجات التقدير . ومع ذلك ، فمن الحماقة ان ننكر بانهم من أفضل الفرق غير النظامية ، التي شاع ذكر بطولاتها في كافة انحاء امريكا ، والتي كسب أفرادها كثيرا من الانتصارات في معارك قاسية . وتعود هذه الانتصارات الى الصفات الحربية التي كان يتحلى بها اولئك الرجال انفسهم . وقد زحفت فرقة دونيفان على نيومكسيكو بشكل فرقة من الرفاق الاحرار . وليس بشكل جنود مأجورين لحكومة حديثة . وكان جواب قائد الفرقة عندما هنأه الجنرال تيلور على نجاحه في ساكرامنتو وغيرها ، يدل على مدى الروابط المتينة بين الضباط ورجالهم اذ قال :

« انني لا أعلم شيئا عن المناورات ، لقد كان الرجال يأتون الي طالبين مني أن ادعهم يهجمون ، وعندما سنحت الفرصة ، اذنت لهم بذلك . فاندفعوا كطلقة الرصاص ، وكان ذلك كل ما أعلمه» .

وكان رجاله يحاربون في معركة ساكرامنتو ، تحت ظروف قاسية جدا . فقد اختار المكسيكيون مواقعهم باتقان ، فاجتازوا الوادي المؤدي الى مدينتهم (شيهواها) . وكانت جبهتهم مغطاة بالخنادق والاستحكامات التي تحميها بطاريات المدافع . وكانوا أكثر عددا من الغزاة بنسبة خمسة الى واحد . وحلق نسر فوق الامريكيين . فارتفع همس عميق على طول خطوطهم . وخلال ذلك فتحت بطاريات العدو النار عليهم ، فبقوا تحت رحمتها طويلا ، الا أنهم لما صدرت الاوامر اليهم ، صاحوا واندفعوا الى الامام ، ولما وصلوا الى نصف الطريق أمرهم ضابط ثمل بالوقوف ، فتردد الرجال الثائرون في اطاعة أوامره .

وصرخ أحدهم من بين الصفوف : « الى الامام أيها الرفاق . الى الامام . » فاندفع الامريكيون كالليوث على العدو ، وقتلوا أربعمائة مكسيكي في ذلك المكان ، وهرب الباقون منتشرين فوق السهل كالاغنام . فاستولى الامريكيون على الذخائر والمدافع والعتاد الذي كان من بينه عربة مملوءة بالحبال التي أعدها المكسيكيون الواثقون من الظفر ، لربط الاسرى الامريكيين .

وقد رفض متطوعو دونيفان الذين ربحوا هذا النصر ، الالتحاق بالجيش النظامي ، وكذلك فعل جنود برايس الذين التقينا بهم . فقد كانوا جميعا متشابهين في الاخلاق والعادات والمظاهر . وفي أحد الايام ، بينما كنا مخيمين في أحد المروج الواسعة ، حيث اعتزمنا ان نستريح ساعة من الزمن ، رأينا كوكبة من الخيالة تقترب

آتية من بعيد . فاضطررنا ان ننتحي جانبا الى ضفة النهر الذي يبعد نصف ميل عن طريقهم ، وأقمنا خيمتنا ، وفرشنا أثوابا من جلود البافالو على الارض ، وجلسنا بعدها ندخن .

قال شو : انظر الى هؤلاء الرجال . انني اعتقد اننا لن نكون بمأمن منهم اذا بقينا في هذا المكان .

وخرج نحو نصف المتطوعين من الصف ، وعدوا نحونا مسرعين فوق المرج .

وصرخ أحدهم : « كيف حالكم » وانحنى ثم ترجل عن جواده، ثم تبعه بعضهم ، فتجمعوا حولنا ، واستلقى نفر منهم على الارض ، وبقي نفر آخر فوق ظهور الجياد . وكان يبدو على وجوه بعضهم سيماء الوحشية والنذالة ، وعلى وجوه الاخرين الشاحبة دلائل الفسق والدعارة ، ولكنهم كانوا على وجه العموم ، وسيمي الطلعة ، وارفع من الجنود العاديين في أي جيش . وقد أخذوا يبادلوننا أطراف الحديث عن طرق صيد البافالو ، ويتساءلون عما اذا كانت خيولهم تستطيع ان تتحمل السفر الى سانتافي. ثم هبط علينا زائرون أسوأ ممن سبقهم .

قال أحدهم : كيف حالكم أيها الغرباء ، الى أين أنتم ذاهبون ؟ ومن أين أتيتم ؟ وكان يضع قبعة من القش فوق رأسه ويرتدي ثيابا خشنة رمادية اللون ، وقد شحب وجهه من آثار حمى الملاريا . وأتى رفاقه فانضموا الى زائرينا السابقين ، وأخذوا يحملقون بنا دون حياء أو خجل .

وسألني أحدهم : « هل انت الكابتن ؟ »

وسأل آخر : « ماذا تفعلون هنا ؟ »

وقال ثالث : « أين تعيشون وأين تقيمون حين تصلون الى

الوطن ؟ »
وأردف رابع : « أظن أنكم تجار ؟ »
وختم أحدهم هذه المحاورة عندما اقترب الى جانبي وسألني بصوت منخفض : « ما اسم صاحبك ؟ »

ولما كان كل قادم جديد يردد نفس الاسئلة ، فقد اصبحت مصدرا لازعاج لا يحتمل . وقد اشمأز زوارنا من اجوبتناالمقتضبة الجافة فسمعناهم يرددون بعض اللعنات ، بينما كنا جالسين ندخن . ولم يفتر لسان الرأس الاحمر عن الثرثرة ، لانه ذكر نفسه كجندي ، فأخذ يتبادل الحديث مع رفاقه الجنود . وأخيرا أمرناه بالجلوس أمامنا على الارض ، وكلفناه بان يلعب دور المتحدث .فسر سرورا عظيما . وبذلك تخلصنا من سيل الاسئلة التي كانت توجه الينا . ووصل بعد قليل مدفع كانت تجره أربعة رؤوس من الجياد . فوقف خلف الزائرين ، ورفع سائقه رأسه وصاح بنا قائلا :

« من أين انتم ، وماذا تعملون ؟ »
وكان قائد الفرقة واقفا بين الزائرين ، وقد جذبه نفس الفضول الذي جذب رجاله . والتفت اليهم وهو يقف متكاسلا وقال : هيا أيها الرّجال ، ان الوقت قد ازف للرحيل ، وأرى من المستحسن أن نتابع السير .
فقال أحدهم : لن أذهب الان على أي حال . وكان مستلقيا وقد دب النعاس في عينيه واسند رأسه فوق ذراعه .
والتفت الملازم وقال له : تريث أيها الكابتن ، ولا تكن عجولا .
فأجاب القائد المطيع : فليكن ما تريد ، سننتظر قليلا .
وغادر الزائرون المكان أخيرا . فتنفسنا الصعداء بعد أن أصبحنا

وحدنا • وكان أكثرنا سرورا هو ديلوريه الذي خشي أن يبرد الطعام • فاعلن ان وقت الغداء قد ازف ، وكان الرأس الاحمر أول الجالسين ، حيث أخذ ينادينا بلقب سيد • فكان ينادي جيم ، وهنري بالسيد هنري ، حتى ديلوريه فقد سمع لاول مرة في حياته من يناديه بلقب سيد ديلوريه • وكان مزاج ديلوريه لا يعرف الاعتدال ، بل يظل يتقلب بين الرضاء والابتسام ، وبين عاصفة الغضب • لذلك لم يجب على تحية الرأس الاحمر ، بل بقي يكتم غضبه المتأجج في صدره • وكانت تلك اللحظة من اسعد اللحظات التي مرت بالرأس الاحمر ، فقد جلس القرفصاء الى الطعام ،ملتحفا برداء من جلد البافالو الفضفاض ومشمرا عن ساعديه ، وممسكا سكينه وأمامه قدح من القهوة ، بينما جلس ديلوريه في الجهة المقابلة • وكنا جميعا قد اتخذنا اماكننا حول الطعام •

ما هذا ياديلوريه ؟ انك لم تعطنا خبزا كافيا •

تقلصت عضلات وجه ديلوريه عندئذ • وأخذ يكيل الشتائم واللعنات بلغة ركيكة وقد بدا الغضب على قسمات وجهه • وكان من الواضح انه يتهم الرأس الاحمر بسرقة أربع من الفطائر الكبيرة المعدة لطعام الغداء • فارتبك الرأس الاحمر أمام هذا الهجوم المفاجىء ، وحملق بوجه مهاجمه برهة ، وقد فتح فمه واتسعت عيناه من الدهشة ، وأخذ أخيرا يصرخ بشدة بأن التهمة باطلة ، لا أساس لها من الصحة • واستمرت معركة الكلام لدرجة لم نعد نسمع معها شيئا آخر • وكان الرأس الاحمر يتفوق على ديلوريه باللغة الانكليزية ، فرأى الاخير ان نقص كلماته لا يكفي للتعبير عن سخطه ، فقفز وهو يغمغم ، وغابت بين شفتيه شتيمة باللغة الفرنسية تستعمل في كندا عندما يجلدون الخيول والبغال بالسوط ليحثوها على السير •

وتابعنا سيرنا بعد أن اجتزنا صحراء واسعة كثرت فيها ثيران وابقار البافالو ، كما كثرت فيها مختلف انواع الذئاب . وعند المساء خيمنا بالقرب من ضفة النهر ، وبينما كنت مستغرقا في النوم حوالي منتصف الليل ، أيقظني أحد الرجال بلطف ، وحذرني في نفس الوقت بان لا اتحرك . ففتحت عيني على نور النجوم المنتشرة في السماء والتفت قليلا ، فرأيت ذئبا أبيض يحوم خلسة حول نارنا ، وانفه قريب من الارض . فأخرجت يدي من تحت البطانية، وكشفت الغطاء عن بندقيتي التي كانت بجانبي ، فنبهت حركتي الذئب ، وقفز خارج المخيم ، فاطلقت الرصاص عليه . ولكنه لم يصبه غير انه أيقظ رجال المخيم ، فنهضوا يستطلعون الخبر .

قال أحدهم : « لقد قتلته » .

فاجبته : « كلا لم اقتله ، هاهو يعدو بجانب النهر » .

« اذن هناك اثنان . ألا ترى ذلك الذئب الملقى هناك ؟ »

فاسرعنا الى المكان ، فوجدنا بدلا عن الذئب الابيض الميت ، هيكل ثور من البافالو . لقد اخطأت الهدف ، وخالفت قانون البراري الذي يحرم اطلاق الرصاص في مناطق الخطر عندما يكون المرء مخيما حتى لايصل الصوت الى اذان الهنود .

وفي الصباح اسرجنا خيولنا وتابعنا سيرنا في شمس الصباح المشرقة اللطيفة ونحن نصغي الى جيم جورني يتحدث الينا عن قصصه التي لاتنتهي ، وعن مغامراته عندما كان يعمل في جيش الولايات المتحدة ، وكنا نشاهد أثناء تقدمنا قطعانا من البافالو تمر بنا عن بعد.

وصلنا الان الى منطقة تتطلب منا يقظة وحذرا . فكنا نتناوب الحراسة في الليل ، ولا ينام أحد دون أن يضع بندقيته المحشوة الى جانبه ، تحت بطانيته . وقد ازداد حذرنا عندما شاهدنا ذات صباح

آثار مخيم للكومانش • ولكن رأينا لحسن حظنا انه هجر منذ اسبوع وفي مساء اليوم التالي ، شاهدنا رماد نار جديدة ، فزاد ذلك من اضطرابنا • ولكننا ثابرنا على السير حتى بلغنا أخيرا مكانا اشتهر بالخطر ، يدعى كاتشز • وهو يتألف من عدد من التلال ، تخترقها وديان وأخاديد عميقة • وعثرنا أثناء سيرنا على قبر (سوان) ، الذي قتله هنود البوني منذ اسبوعين ، وقد اعتدى الهنود والذئاب مرارا على جثته التي رقدت أخيرا في ذلك اللحد المنفرد •

وكنا نلتقي خلال بضعة أيام ، بمفارز متقطعة من فرق برايس• وكثيرا ما كانت الخيول تهرب من مخيماتهم • فقد قبضنا في أحد الايام على ثلاثة من تلك الجياد وهي ترعى الى جانب النهر • وحين رجعنا الى المخيم ، أنبأنا جيم جورني ، ان هناك عددا كبيرا منها موجود في الصحراء • وكان الظلام قد خيم وأخذ المطر يهطل رذاذا ، فخرجنا في طلب الجياد الضالة • وعدنا بعد ساعة من المطاردة ، وقد قبضنا على تسعة منها • وكان احدها مسرجا ، وفي عنقه العنان ، وقد علقت على جوانب السرج غدارتان ، كماوضعت على مؤخرته بطانية ملفوفة • ولكننا شاهدنا بعد الظهر اثنين من الخيالة قادمين نحونا بسرعة البرق ، وطالبانا بالخيول ، مدعين انها تخصهم ورفاقهم في الفرقة • فسلمناها لهم وقد بدت على جيم جورني وايليس علائم الغم والخيبة •

والتقينا في الرابع عشر من أيلول بقافلة كبيرة جدا ، قادمة من سانتافي ، فامتلأ السهل بعرباتها البيضاء المحملة بالبضائع والامتعة المختلفة والعربات السوداء المغلقة التي يستعملها التجار في سفرهم المنوم ، وتجرها الخيول أو البغال ، واعداد كبيرة من الرجال الذين يمتطون ظهر الخيل والمشاة • وقد وقف الجميع في السهل بالقرب

منا • وكانت عربتنا الصغيرة ، وعددنا القليل لا تعد شيئا الى جانب مخيمهم الواسع الكبير • وذهب الرأس الاحمر لزيارتهم •ومالبث ان عاد وهو يحمل دستة من البسكويت في يد ، وزجاجـــة من البراندي في اليـــد الاخرى • فسألته من أين أتى بـــكل ذلك ، فأجاب : « انني أعرف بعض التجار ، ومعهم أيضا دكتور دوبس»• فسألته : ومن هو دكتور دوبس هذا ؟ فأجاب : « انه أحد اطبائنا في سانت لويس » • وكنت في خلال اليومين المنصرمين قد قاسيت كثيرا من المرض الذي اصابني عندما كنت في الجبال • فاني لاأزال أتألم واشعر بالضعف ، لذلك ، ولدى تأكيدات الرأس الاحمر ، بان الدكتور دوبس ، طبيب من الطراز الاول ، قررت ان استشيره على الرغم من أنني لم أكن اصدق كلمة من حديثه ، سواء عنه أو عن غيره • ولما ذهبت الى المخيم ، وجدته نائما تحت احدى عربات النقل • ولم يكن يظهر عليه ما يدل على البراعة أو الخبرة، كما لم يمر بي منذ خمسة اشهر وجه شاحب كوجهه • وكانت قبعته قد سقطت الى جانبه • فظهر من تحتها شعره الاشقرالمشعث• وقد جعل من ذراعه وسادة وشمر سراويله عن ساقيه حتىالركبتين، وغطى العشب الذي يستلقي فوقه قسما من جسمه • وكان أحد المكسيكيين واقفا بجانبه ، فاشرت اليه ان ينبهه ، ففعل ، وعندهـا قفز الطبيب وجلس وهو يفرك جبينه وينظر حولـــه بحيرة • فأبديت أسفي لازعاجه ، واخبرته انني أتيت لاستشيره في مسألة طبيـــة •

وبعد فحص قصير قال : « ان جهازك مضطرب ياسيدي • »

فاستفسرت منه عن نوع الاضطراب فأجاب :

انه على مايظهر مرض في الكبد • وسأصف لك علاجا •

وصعد الى عربة مغطاة ، واخرج من داخلها علبة ، ثم أخذ منها ورقة ملفوفة وقدمها الي • فسألته : « ماهذا ؟ » قال : « كالوميل »• وكنت في ذلك الظرف مستعدا لان أخذ أي شيء تقريبا • لذلك فقد تناولت في تلك الليلة السم بدلا من الطعام •

ونصحنا أهل المخيم ان نتجنب السير في الطريق المحاذي للنهر ، الا اذا أردنا ان يقطع الهنود رقابنا • وقد ارشدونا الى طريق ضيق يمر في الصحراء على بعد ستين ميلا •

وسرنا في ذلك الطريق حتى المساء ، حيث ضربنا خيامنا على ضفة جدول صغير ، يبعد ثمانية أميال • ولم نختر مكاننا هذا عن حرص أو تفكير أو عن مهارة حربية ، ولكننا أقمناه هنا لقرب الماء فقط • وبعد ذلك ربطنا جيادنا قرب حفرة • وبعملنا هذا أعطينا فرصة ثمينة للعدو يهاجمنا فيها أو ينهب خيولنا •

سطع القمر في كبد السماء ، غير أن السحب المتحركة كانت تمر تحته ، فتحجب ضوءه فيخيم الظلام تارة ويسود النور أخرى • ولم تمض الا ساعات قلائل حتى داهمتنا العاصفة فكادت تقتلع الخيمة ، لولا أن أسندناها بالعربة • وبقيت قلقا لا أستطيع النوم طوال الليل ، أنصت الى صوت المطر المتساقط بغزارة فوق الخيمة •

وقام شو في الحراسة تحت المطر • وفي تلك الظلمة القاتمة ، كان مونرو لا يزال مستيقظا عندما عاد شو من جولته بعد ساعتين • وحين وصل لمس كتف هنري بهدوء طالبا اليه أن ينهض بدون ابطاء • فسألت : « ما الخبر ؟ » فأجاب شو « أعتقد أنهم هنود ، ولكن لا تتحرك الآن ، وسأدعوك اذا حدثت معركة •

وخرج مع هنري ، فكشفت الغطاء عن بندقيتي • وأنا في وضعي لا أزل مستلقيا • وعاد شو بعد دقائق • ثم استلقى لينام ثانية •

وكان يردد قوله : « كل شيء على ما يرام ، كل شيء على ما يرام » وتولى الحراسة هنري مكانه . وعند الصباح أخبرني شو سر ذلك الحذر والخوف ، فقد اكتشفت عين مونرو الساهرة ، أشباحا تدب في الظلام قرب مربط الجياد . فاستلقى شو عند سماعه ذلـك على وجهه ، وأخذ يزحف متجها نحو حافة النهر . وقد اعتقد أن تلك اشباح جماعة من الهنود . ثم عاد مع هنري واستلقى الاثنان يراقبان وكلهما عيون وآذان مرهفة . وكانت عين هنري من أشد العيون وأقواها في الصحراء ، فاكتشفت سريعا نوع الدخلاء الذين لم يكونوا سوى بعض الذئاب التي كانت تحوم حول الجياد .

ومن الغريب أن الجياد لا تخاف الذئاب ولا تأبه لها حينما تكون قرب المخيم .

الفصل السابع والعشرون

المستعمرات

كان اليوم التالي شديد الحرارة ، وكنا نسير من الصباح حتى تخيم الظلمة ويحل الليل دون أن نرى شجرة أو دغلا أو قطرة ماء . وكانت خيولنا وبغالنا تقاسي من القيظ أكثر مما نقاسي ، ولكن حين آذنت الشمس بالغروب ، أصلحت الدواب مشيتها ، فظهر أنها شعرت بقرب وصولنا الى حيث الماء ، كما خف ضغط الجو الخانق. ولم يكن الماء بعيدا ،اذ رأينا لما بلغنا منحدرا يؤدي الى واد عريض، مشهدا يبعث النشوة في النفس . فقد كان النهر يلمع في أسفل الوادي ، بينما أقيمت على طول ضفتي النهر مجموعات من الخيام . وانتشرت قطعان المواشي ترعى فوق المرج الخصب . وكانت فرقا من الجيش مشاة وفرسانا وصفوفا طويلة من عربات النقل مكتظة بالرجال والنساء والاطفال ، تهبط المنحدر العريض من القمة المقابلة . وكان هؤلاء هم بعض فرق المورمون الذين يعملون في خدمة الحكومة ، يصحبهم عدد كبير من متطوعي الميسوري . وقد صدرت اليهم الاوامر بالسير الى كاليفورنيا حيث تدفع لهم أجورهم كما سمح لهم أن يحملوا معهم أسرهم وكل ما يملكون . وكان الشيء الذي يلفت الانظار في هؤلاء المتعصبين المسلحين ، منظرهم الذي كان خليطا بين الحرب والدين ، وتصميمهم على تأسيس امبراطورية للمورمون في كاليفورنيا . واستولت علينا الدهشة لمنظرهم أكثر مما استولى علينا السرور . وقد اضطررنا أن نسير

نحو ربع ميل في محاذاة النهر كي نجد أرضا خالية ، نضرب فيها خيامنا • ولحقت بنا جموع المورمون والميسوريين ، وعلى رأسهم قائدهم الاعلى ، الذي جاء لزيارتنا • وبقي في مخيمنا فترة طويلة من الوقت •

ولم يمض يوم منذ ذلك الحين حتى نهاية الرحلة ، لم نلتق فيه بقوافل طويلة من عربات النقل التابعة للحكومة ، والمحملة بالذخائر الحربية ، والمتجهة ببطء نحو سانتافي •

وكان الرأس الاحمر يكره المخاطرات كرها عظيما ، ولكنه قام في احدى الليالي بمغامرة أشد خطرا بكثير من أي مغامرة حدثت لاي رجل منا • ففي اليوم التالي لمغادرتنا ممر ريدج ، خيمنا بالقرب من النهر ، وقد رأينا عند الغروب قافلة من العربات تقف في الطريق على بعد ثلاثة أميال عن مقرنا • فتجنبنا أن يرونا ، بينما كان بامكاننا رؤيتهم بوضوح • وكان الرأس الاحمر يتوق منذ عدة أيام الى الحصول على بعض الويسكي ، فقرر انتهاز الفرصة الحالية ، واعتلى ظهر جواده جيمس • (وكان قد حصل عليه من أحد المتطوعين لقاء بغله) ، وعلق مطرة الماء على كتفه وخرج في طلب مشروبه المفضل • ومرت ساعات قبل أن يعود • فظننا أنه ضل طريقه أو وقع فريسة لاعتداء أحد الهنود عليه • وبقيت ساهرا للحراسة بينما نام الجميع ، ولم يمض سوى وقت قصير حتى سمعت صوتا يحييني في الظلام ، ثم ظهر الرأس الاحمر مع « جيمس » ، وقد بدا عليه الاضطراب ، ورمى نفسه على حافة العربة وأخذ يروي لي القصة التالية :

عندما ترك المخيم ، لم تكن لديه أية فكرة عن عدم ملاءمة الزيارة في مثل تلك الساعة المتأخرة • وحين اقترب من سائقي العربات كان

الظلام قد خيم على المكان • وكانوا جالسين حول النار في وسط دائرة من العربات ، وبنادقهم بجانبهم • وقد رأى من المستحسن أن يخطرهم بقدومه حتى يتفادى الوقوع في أي خطأ غير مستحب • لهذا صرخ بأعلى صوته : « يا رجال المخيم » ، فأحدثت هذه الصيحة رد فعل لم يكن يتوقعه • فقد ظن سائقو العربات ، أن قبائل البوني قد أطبقت عليهم • فقفزوا وقد تملكهم الرعب ، وحمل كل واحد بندقيته ، بينما وقف البعض خلف العربات ، واستلقى آخرون فوق الارض ، وفي لحظة صوبت عشرون بندقية الى الرأس الاحمر الذي استولى عليه الذعر ، فخرج اليهم من الظلام •

صاح رئيس السائقين : « ها هم قادمون ، النار النار ! أطلقوا النار على هذا الرجل » •

فصرخ الرأس الاحمر بأعلى صوته وهو في أشد حالات الرعب: «كلا، كلا ، لا تطلقوا النار • انني صديق • انني مواطن أمريكي»•

« اذا كنت صديقا • فماذا تفعل هناك مثل الهنود ؟ تعال الى هنا اذا كنت رجلا » •

واقترب الرأس الاحمر ، وهو يرتجف فزعا ورعبا بين البنادق المصوبة الى رأسه • وقد بذل جهودا جبارة حتى استطاع اقناعهم بالغرض من قدومه • فأدخله الميسوريون الى المخيم • ولكنه لم ينجح في الحصول على الويسكي بل على قليل من الارز والبسكويت والسكر الذي جمعه له الميسوريون من مؤونتهم •

وبعد يومين وقعنا في مغامرة تختلف عن المغامرة الاولى مع سائقي عربات النقل • فقد تقدمت مع شو بضعة أميـال بقصد العثور على بعض الطرائد • وكان أملنا في أن نلتقي بثيران البافالو ضعيفا ، الا أننا كنا نتوق لصيد أحدها لنأخذ مؤونتنا من لحمه الطري • وظللنا

نتنقل من مكان الى آخر حتى وصلنا الى نهر كاوكريك حيث رأينا قطيعا كبيرا يرعى على ضفته • وكانت الاشجار على ضفتي نهر كاو كثيفة تحجب المنظر الخلفي حيث يجري النهر ويصب في أخدود عميق • ولما اقتربنا من قاع الوادي • أمسكت الجياد ، بينما أخذ هنري يزحف نحو البافالو ، حتى وصل الى نقطة تبعد عنها مائة باردة • وكان قد استعد لاطلاق الرصاص ، حين ارتفع دخـــان كثيف أعقبه صوت اطلاق بنادق دوى في الوادي • ثم خرج عشرون من الميسوريين طويلي القامة ، من بين الاشجار ، يطاردون قطيعا من ثيران البافالو الذي كان يسرع في الهرب والاختفاء دون أن يظهر له أثر • وما كاد الميسوريون يصلون الى المكان حتى كان آخر أثر للقطيع قد اختفى • ورغم أن الميسوريين كانوا بارعين في اصابـــة الهدف ، ولكن صيد البافالو يحتاج الى حنكة في علم التشريح ومعرفة المكان الذي يجب أن يصوب اليه الرصاص • فالبافالو حيوان عنيد متمسك بالحياة • وقد أصيب الميسوريون بالخيبة ، وخاصة عندما أكد لهم هنري أن بامكانه أن يصطاد من اللحوم ما يكفي فرقتهم كلها في عشر دقائق ، لو حافظوا على هدوئهم وسكينتهم • وكان رفاقنا القريبون من المخيم قد سمعوا اطلاق الرصاص ، فأتوا مسرعين وعلى رأسهم شو ليروا ما اذا كنا لا نزال على قيد الحياة •

ووجدنا كثيرا من أشجار العنب والإجاص على ضفة نهر كاو • فقد كانت معالم الارض والطبيعة ، تتغير يوما بعد يوم ، كلما تقدمنا في السير ، وخلفنا وراءنا الصحارى الجرداء • واستقبلنا السهول الخضراء الغنية بالعشب والحشائش والازهار والاشجار • ووجدنا بدلا من البافالو كثيرا من الدجاج البري ، فاصطدنا عددا منها دون أن نترك الطريق • ورأينا بعد أربعة أيام غابات ومروج (كانسل

جروف) • وقد غمرنا شعور جديد ونحن نمر بهـذه الغابات • ورأينا أشجار الدردار والسنديان والقيقب ، تتخللها كروم العنب ، وتدلى منها العناقيد الجميلة الحمراء • وكانت الطبيعة أمامنا سلسلة من البوادي الخضراء ، تتخللها المرتفعات وتنمو فيها الاشجار • ولقد تركنا الخطر وراءنا ، فلم يعد يخيفنا هنود هذه المنطقة • وصادفنا حظ وافر عظيم • فقد كنا نسير بقوة صغيرة لمدة خمسة أشهر ، خلال تلك البلاد ، معرضين أنفسنا للموت والهلاك في كل لحظة • فلم يسرق لنا حيوان • ولم نخسر سوى بغل مسن لدغته أفعى من ذوات الاجراس • وحين وصلنا الى الحدود ، بلغنا أن هنود البوني والكومانش بدأوا سلسلة من الاعتداءات على طريق الاركنساس ، فقتلوا كثيرا من الرجال ، وأخذوا عددا من الجياد • كما جعلوا يهاجمون جميع القوافل بدون استثناء ، كبيرة كانت أم صغيرة ، خلال نصف السنة التالي •

ومررنا على التوالي بدايامونـد سبرنج ، وروك كريك او ألدرجروف ، وغيرها من أماكن التخيم ، فوجدنا في روك كريك قافلة من عربات المؤن التابعة للحكومة ، بقيادة رجل عجوز هزيل في الحادية والسبعين من العمر ، دفعه شيطان أمريكي الى البادية في ذلك السن الذي كان يجب أن يجلس فيه بجانب النار وأحفاده فوق ركبتيه • وأعتقد أنه لم يعد من تلك الرحلة ، فقد كان يشكو في تلك الليلة مرضا شديدا •

وبعـد قليل وجدنا أمامنـا طريقـا صـغيرا ، يؤدي الى حصن ليفنوورث • فودعنا الرأس الاحمر ، الذي كان تواقا للذهاب الى الحصن ليقبض ما يستحقه من الراتب لقـاء خدمته في الجندية • وخرج وهو يمتطي ظهر جواده جيمس ، وبعد وداع حار ، سار

وهو يحمل معه ما أمكنه من المؤونة • وداومنا السير حتى وصلنا أخيرا في احدى الليالي الممطرة الى الارض التي سنقيم فيها آخر مخيم لنا •

ركبنا مرة أخرى عند الصباح • الذي لم نر أجمل منه في ذلك الخريف ، اذ عدنا فيه الى المستعمرات ، بعد أن مررنا ببلاد (الشوانوس) نصف المتمدنين • وكان تناوبا جميلا بين السهول الخصبة والبساتين المخضبة بألوان الخريف ، التي تتناثر بينها أكواخ مزارعي الهنود الخشبية • وكانت الحقول تدل على خصب التربة الشديد • وملاءمتها لكل أنواع الزراعة • وكنا نسمع خشخشة سنابل الذرة الصفراء اليابسة عندما تهب عليها الرياح • كما امتدت أمامنا حقول القرع الاصفر تحت أشعة الشمس ، والتفت بأوراقها السمراء المتجعدة • وحلقت طيور ابو الحن والشحرور فوق الجدران ، وعلى غصون الاشجار ، وكان كل شيء يشير الى اقترابنا من الوطن والمدنية ، وامتدت أمامنا الغابات التي تحاذي ضفتي الميسوري • فدخلنا البقعة الواسعة من الادغال التي تكون ضواحيها• وكنا قد مررنا في نفس الطريق في رحلة ربيعية • الا أن المناظر والأشكال تغيرت الآن تماما • فأشجار التفاح البري التي كانت مليئة بالازهار ذات الرائحة العطرية ، أصبحت مثقلة بالثمار الحمراء • والكروم أضحت تغص بعناقيدها القرمزية ، والاغصان الرفيعة لاشجار القيقب بأزهارها الحمراء • ودخلنا الغابة حيث تتخلل الارض أشعة الشمس من بين الاغصان التي تقف بينها السناجب ، وتنظر الينا ثم تعدو نحو صغارها وتقفز فوق أوراق الاشجار المتساقطة • وقد استقبلنا هذه المشاهد الجميلة بفتور ، لاننا كنا ننظر خلفنا الى الصحراء بحسرة وألم شديدين ، على الرغم من ميلنا الى

الراحة بعد أشهر من شقاء العيش والمخاطر ، وجاذبية المستعمرات التي تدفعنا للاستقرار .

ورأينا أخيرا سقف منزل أحد الرجال البيض بين الاشجار . ثم مررنا بعد برهة فوق الجسر الخشبي الذي يؤدي الى ويست بورت كما مررنا بالتافرن وبقالية بون ، وداومنا السير حتى وصلنا مرجا بعيدا حيث نصبنا خيمتنا . وجاء كثيرون ممن يبغي زيارتنا أو يقصد شراء جيادنا وأمتعتنا . وبعد أن انتهينا من كل ذلك ، استأجرنا عربة وسرنا الى مرفأ كنزاس.وهناك أيضا حللنا في ضيافة صديقنا الكولونيل تشيك .

وظهر ديلوريه في اليوم التالي ، وقد استحال الى شخص آخر ، بقبعته الجديدة ، ومعطفه الفاخر ووجهه الحليق . وكان كوخه الخشبي الصغير قريبا من الغابات . ففكر على ما يظهر باقامة حفلة راقصة على شرف عودته . وقد استشار هنري شاتيون عما اذا كان يمكنه دعوة رئيسه . فأكد له عن اعتقاده بأننا لن نستاء من تلك الدعوة . وتلقينا الدعوة ، وقد أضيفت اليها عبارة خاصة تقول بأن انطوان لاجونيس سيعزف بالكمان . ووعدناه بأننا سنجيب دعوته . ولكن وصول الباخرة من حصن ليفنوورث منعنا من الوفاء بوعدنا . وكان ديلوريه واقفا على صخرة في المرفأ ينتظر اقلاع الباخرة بنا ليعود الى حفلته .

وعندما أقلعت الباخرة أخذ يصيح : « الوداع أيها الاسياد ، سأذهب معكم في المرة التالية عندما تقررون العودة الى جبال روكي ».

وكان يضيف الى كلماته اشارات كثيرة من يديه ويلوح بقبعته . ولما ابتعدت الباخرة عن المرفأ ، كان آخر ما رأيناه ديلوريه وقد وقف فوق الصخرة ورفع قبعته . وفي ويست بورت ودعنا جيم

حوركي ومونرو . أما هنري شاتيون فقد نزل معنا الى الباخرة .
وصلنا الى سانت لويس أخيرا ، بعد ثمانية أيام ، قضينا ثلثها فابعين فوق تلال الرمل النهرية ، ثم انتقلنا الى الباخرة اميليا التي كانت تزخر بالمتطوعين المسرحين ، وقد أخذوا يشربون الخمر ويقامرون ويعربدون ثم يتقاتلون . ووصلنا أخيرا مرفأ سانت لويس . وفي صباح اليوم التالي أصلحنا هندامنا وارتدينا ملابس نظيفة ، فتغيرت الهيئات حتى أصبح كل منا لا يعرف رفيقه الا بصعوبة .

وفي المساء الذي سبق سفرنا ، أتى هنري شاتيون الى غرفنا في فندق (بلانترز) يودعنا . وكان لا يمكن لمن يلتقي به في شوارع سانت لويس أن يرى فيه ذلك الصياد القادم حديثا من جبال روكي اذ كان له ذوق سليم في الاعتناء بمظهره . لانه على الرغم من عدم اختلاطه كثيرا بالناس منذ أن كان في السادسة عشر من العمر ، كان مرتديا ثيابا نظيفة بسيطة سوداء . وكان جسمه الطويل الرياضي يتناسب مع مظهره ، كما أن وجهه الجميل يتناسق مع ثيابه وجسمه على الرغم من اكتسابه كثيرا من الخشونة تحت تأثير العواصف . ولقد أدى لنا خدمات كثيرة لا تقدر بثمن . فودعناه بكثير من الاسف . وكان شو قد أهداه جوادا في ويست بورت . وأهديته بندقيتي الممتازة التي كان مغرما باستعمالها . وغادرنا المدينة في اليوم التالي . ووصلنا الى الوطن بعد مسير خمسة عشر يوما في القطارات والعربات والبواخر .

تمت

فهرس الكتاب

ترجمة كتاب

The Oregon Trail
by
Francis Parkman

الناشرون

مكتبة اطلس بدمشق

